الأخلاق في القرآن

من مواهب آية الله العظمى الحاج العارف

السيد
عبد الأعلى السبزواري الموسوي

أدبني ربي فأحسن تأديبي

دار الكاتب العربي

شبكة الفكر
alfeker.net

الأخلاق في القرآن

من مواهب السيد عبد الأعلى السبزواري

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر والتوزيع

هاتف: ٠٣/٢٥٧٩٨٤ - فاكس: ٠١/٥٥٣٤٥٦ - ص.ب: ٢٥/٣٥٥ - غبيري - بيروت
Daralkatebalarabi@hotmail.com

الأخلاق في القرآن

من مواهب

السيد عبد الأعلى السبزواري

إعـداد

السيد إبراهيم سرور

دار الكاتب العربي

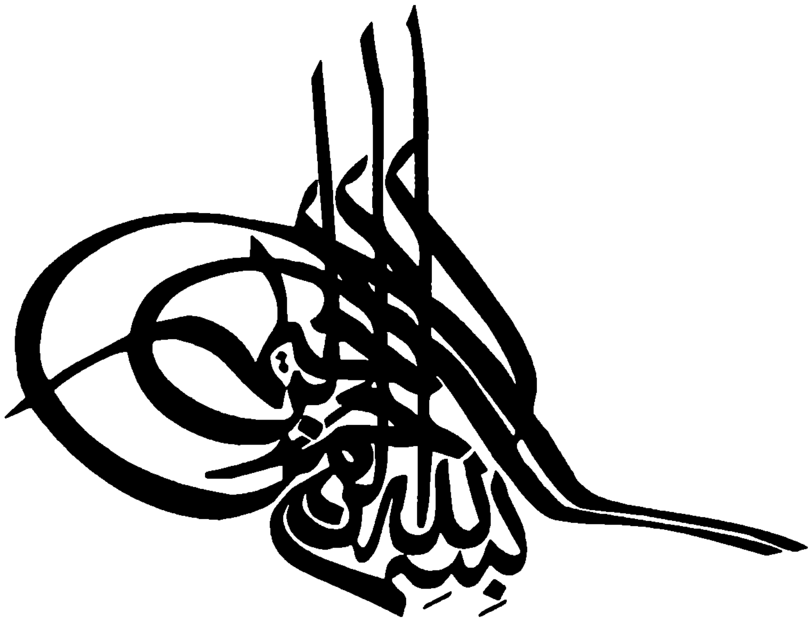
بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين.

وبعد،

كان الحاج العارف السيد عبد الأعلى السبزواري مثالاً للأخلاق وأنموذجاً يحتذى بكل سلوكياته ويقتدى به، لأنه استلهم كل تفاصيل حياته الأخلاقية من الرسول وأهل بيته عليهم السلام.

فهو بحق عالم أخلاقي جليل، كان أخلاقياً بحركاته وسكناته وتفاصيل حياته قبل أن يكتب في الأخلاق، ويتحدث في هذا المجال، فاستحق لقب العارف الأخلاقي الكبير، ولذا كانت ولا زالت كتاباته ونفحاته تعطي منهجاً سلوكياً ومربياً لكل عالم ومتعلّم.

ونحن بدورنا ولأجل تخصيص الفائدة في علم الأخلاق وإعطاء منهج متكامل في هذا العلم للسيد عبد الأعلى السبزواري اخترنا مجموعة من البحوث الأخلاقية من التفسير الذي كتبه (قدس سره) لما لها من القيمة المعنوية الكبيرة والتأثير الكبير في النفوس والأرواح فأتت على هذه

الشاكلة، نسأله تعالى أن تتغمّد الرحمة روح السيد (قدس سره) بما قدَّم وأعطى في كافة المجالات وسائر العلوم.

والحمد لله أولاً وآخراً

السيد إبراهيم سرور

٢٧ محرَّم ١٤٣١هـ

الأخلاق في القرآن

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾. [الآية ١٧٧ من سورة البقرة].

تدعو الآية الشريفة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر والملائكة، والكتب والرسل، وإتيان الأعمال الصالحة، وتهذيب النفس بالأخلاق الفاضلة، وقد وصف سبحانه العامل بما تضمنته هذه الآية الشريفة، بأنه من الصدّيقين، وأنه من المتّقين، وقد أعدّ لهم من الدرجات المعنوية والمنازل العالية كما بيّنها في آيات أُخرى، وهي تشرح حقيقة الإنسان من حيث نظر القرآن الكريم، وكلّ واحد من هذه الأمور له آثار خاصة، تؤثّر في النفس، وتظهر في العمل وحياة الفرد في الدنيا والعقبى، بما يجلب له السعادة في الدارين. ونشير هنا إلى بعض ما هو المقصود في القرآن الكريم من الاعتقاد المطلوب شرعاً.

وقد أمر سبحانه الإنسان بالإيمان بالله واليوم الآخر في مواضع كثيرة من القرآن الكريم؛ والمراد به الإيمان الذي يترتب عليه الآثار التي ذكرها

في هذه الأية، وآيات أخرى في سياقها، التي تكون كاشفة عنه في مقام الإثبات، على نحو كشف المعلول عن العلّة، وهي:

الأول: أن الإيمان المطلوب، ما كان يدعو إلى العمل الصالح، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾(٢)، إلى غير ذلك من الآيات التي يقترن الإيمان والعمل الصالح فيها، فإن ذلك من الجمع بين المتلازمين.

الثاني: أن الإيمان المطلوب، هو الذي يبعث على اتباع الرسول وما جاء به الأنبياء، قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿إن كنتم تحبون الله فاتعبوني يحببكم الله﴾(٤).

الثالث: أن الإيمان المطلوب هو الذي يبعث السكينة لصاحبه، والراحة في النفس، والإطمئنان في القلب، قال تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾(٥)، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾(٦)، وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا

---

(١) الكهف، الآية ١٠٧.
(٢) الأعراف، الآية ٤٢.
(٣) البقرة، الية ١٤٣.
(٤) آل عمران، الآية ٣١.
(٥) الفتح، الآية ٢٦.
(٦) الرعد، الآية ٢٨.

حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(١).

الرابع: أن الإيمان المطلوب هو ما كان باعثاً على حب الله ورسوله، بحيث يكونان أحبّ إليه من غيرهما، قال تعالى: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾(٢).

الخامس: أن الإيمان الصحيح يدعو صاحبه على الصبر في الحوادث والمصائب، لأن صاحبه يعلم بأن المصيبة إنّما هي في الدين، وأنّها أشدّ من المصائب في النفس والمال، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾(٣).

السادس: أن الإيمان يدعو صاحبه إلى اجتناب المحارم، وإنّه إذا عرضت له المعاصي والآثام أعرض عنها، ولو صدرت منه معصية لغفلة أو جهل أو نسيان، يبادر إلى التوبة والإنابة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾(٤).

السابع: أن الإيمان المطلوب ما كان يدعو إلى التسليم والرضا بالقضاء والقدر، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ * ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ

---

(١) الأنعام، الآية ١٢٥.
(٢) التوبة، الآية ٢٤.
(٣) البقرة، الآية ١٥٦.
(٤) آل عمران، الآية ١٣٥.

﴿قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾[٢].

الثامن: أن الإيمان الصحيح يدعو صاحبه إلى مراقبة النفس وتزكيتها بأنواع البر، والاجتهاد في طلب مرضات الله تعالى، وتهذيب النفس بالأخلاق الفاضلة.

التاسع: أن الإيمان بالله واليوم الآخر، ما كان يدعو إلى الإيمان بالغيب وجميع ما أنزل الله تعالى، قال عزّ وجلّ: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[٣].

العاشر: أن الإيمان الصحيح هو ما يجلب لصاحبه سعادة الدارين، وما أعدّه الله تعالى للمؤمنين من المنازل والدرجات، وهي مذكورة في آيات كثيرة.

وأجمع آية تشتمل على كثير مما ذكرناه في الإيمان المطلوب، هي الآية التي سبق تفسيرها، فإنها تبيّن المراد من الإيمان، وأنه الداعي لإتيان الأعمال الصالحات، والباعث لتهذيب النفس وتزيينها بالأخلاق الفاضلة، الموجب كلّ ذلك لكون المتّصف بها من الصدّيقين والمتّقين، فللإيمان كمال ونقص، والكامل منه ما ذكرناه.

---

(١) الحج، الآية ٣٤.
(٢) آل عمران، الآية ١٤٢.
(٣) البقرة، الآية ٣ ـ ٤.

بحث أخلاقي

الآية الشريفة التي تقدّم تفسيرها من أجمع الآيات القرآنية لصنوف البرّ والأخلاق الفاضلة، وهي ـ بانضمام آيات أخرى من القرآن الكريم ـ تبيّن مفهوم الأخلاق في الإسلام، فإن له نظراً خاصاً فيه، يخالف سائر المذاهب الأخلاقية، ولكنه في ذاته يعتبر امتداداً لسائر الاتجاهات الأخلاقية الصحيحة.

وبتعبير آخر: أنّه يكون تركيباً لتراكيب، فهو يشتمل على روح التوفيق لشتى النزعات في المذاهب الأخلاقية الأخرى، فهو واقعي ومثالي، ومحافظ، وتقدّمي، وتطوري، وعقلي، وصوفي، ومتحرّر ونظامي. كما أنه يلبّي جميع المطالب الفردية والاجتماعية، الشرعية والأخلاقية. ولا يمكن الإلمام بجوانب هذا المفهوم القرآني للأخلاق إلاّ بعد معرفة النظريات الأخرى ـ ولو على سبيل الإيجاز ـ ثم الحكم بأفضليّته وأكمليّته من الجميع.

المذاهب الأخلاقية

يختلف العلماء والباحثون في علم الأخلاق النظري في تقسيم المذاهب الأخلاقية المتعدّدة، بين مفصّل لها بتعداد سائر الاتجاهات، وبين مجمل لها بذكر أصولها، والسبب في ذلك أن طائفة منهم ربطت المذاهب الأخلاقية بالمذاهب الفلسفية في المعرفة الإنسانية، من الواقعية

والمثالية والعقلية، والحدسية، والتجربية، والمادية، والتشكيكة وغير ذلك.

وهذا المسلك وإن أمكن تطبيقه على بعض المذاهب الأخلاقية، فإنه يكون امتداداً لتلك المسألة إلاّ أنه لا يمكن تطبيقه على البعض الآخر مثل الأخلاق المسيحية، فإن لها خصائص ما يخاف تلك الاتجاهات.

وطائفة أخرى ارجعت الاختلاف بعينه إلى الاختلاف في الغاية، وأنها هي المنفعة ـ سواء كانت فردية أو اجتماعية ـ وابتغاء اللذة والسرور، ودفع الآلام والشرور.

وهذا المنهج كسابقه، فإن كثيراً من المذاهب يخرج عن هذا التقسيم.

وطائفة ثالثة ذهبت إلى أنّ المناط هو الوجدان والزهد والتقشّف؛ كما يراه الاتجاه الصوفي.

والحقّ أنّ شيئاً مما ذكر لا يصلح لأن يكون المناط في تقسيم المذاهب الأخلاقية، بل إنّ جميعها تتّفق على أن الكمال والسعادة هما الغاية القصوى والمقصد الأسنى للإنسان، وإنّما الاختلاف في ما يصدق عليه الكمال والسعادة، فالاختلاف في المصداق فقط، وعلى هذا الأساس يمكن تقسيم المذاهب الأخلاقية إلى ثلاثة:

الاتجاه العقلي:

الاتجاه الذي يعتبر العقل هو الذي يحدد الغاية في حياتنا، وأنه الباعث الذي يحفّزنا إلى ابتغاء الحياة السعيدة والعزوف عن الذات، وأنّه الداعي إلى الطاعة لأوامر الشرع أو العقل، وأصحاب هذا الاتجاه يعترفون بأصول مسلّمة لا يمكن العدول عنها، كحُسن العدل، وقبح الظلم وأمثال

ذلك، فلا بد للإنسان ـ الذي يتميّز عن سائر الكائنات بطبيعته العاقلة ـ أن يتصرّف وفق القوانين المجعولة من قبل العقل أو الشرع، وفي ذلك ابتغاء السعادة. ويشمل هذا الاتجاه من المذاهب الأخلاقية المذهب الحدسي، والواقعي، والمثالي، وبعض المذاهب اليونانية القديمة، أمثال الرواقيين والأفلاطونيين وغيرهم.

الاتجاه المادي:

وهذا الاتجاه يرفض كلّ القيم الإنسانية المسبّقة، التي تحدّد للإنسان سلوكه، والتي لها التأثير في تشكيل حياته، بل يعتبر عامل المادة له الأثر الكبير في سلوك الإنسان، وزاد بعضهم أن الأفكار والمشاعر والرغبات والقيم الخلقية والجمالية، هي وليدة النظام الاقتصادي وما يستلزمه من العلاقات بين الأفراد بعضهم مع بعض، وأن المنفعة سواء في شكلها الحسي أو العقلي، هي وحدها الخير الأقصى والمرغوب لذاته، وأنها السعادة، والضرر والألم وحده هو الشر الأقصى، فالأفعال الإنسانية لا تكون خيراً إلاّ إذا حقّقت النفع مطلقاً، وإذا جلبت ضرراً أو عاقت عن وصول النفع، كانت شراً.

وبالجملة: أنّ في هذا الاتجاه ـ على اختلاف مذاهبه ـ يتوجه النظر على نتائج الأفعال وآثارها، بلا فرق بين أن تكون المنفعة فردية حسية عاجلة، كما في مذهب القورنائيين، أو حسيّة وعقلية وروحية، كما في مذهب الأبيقوريين، وجميعهم أصحاب اللذة الفردية الأنانية.

نعم، تحوّل بعض المذاهب إلى منفعة المجموع والقول بالصالح العام، ولكنه لا تخرجها عن ابتغاء اللذة والمنفعة، ولذا دعوا جميعاً بـ(الأنانيين) حتى في تصورهم للصالح العام، وتشترك جميع هذه المذاهب

في تقييد حرمة الفرد، والقول بالجبر الأخلاقي والفوضى في الأخلاق. ومن ذلك يعرف أنّه لا علاقة بين الفكر الفلسفي والمذهب الخلقي في هذا الاتجاه.

الاتجاه الصوفي:

وفي هذا الاتجاه يتنكّر الإنسان للمادة في جميع مظاهرها، وأنّ العزوف عن ملاذ الدنيا هو المناط في الأخلاق الفاضلة، ويرى أصحابه أن السعادة هي الابتعاد عمّا يشغل بال الإنسان عن التفكّر، والكمال هو الوصول إلى مرحلة يصل بها إلى درك الحقائق، وفي هذا الاتجاه تعتبر المحبّة أصلاً لكلّ خير.

هذه هي الاتجاهات الأساسية للمذاهب الأخلاقية المختلفة المتعدّدة، وهي جميعها قد أخفقت في حلّ المشكلات الخلقية للإنسان، سواء الفردية أو الاجتماعية، ولم يصل الفرد بها إلى ما يصو من السعادة والكمال، بل لم تجلب للإنسان إلاّ الشقاوة، والوقوع في صراعات فكرية لا يجتنى منها فائدة تذكر.

المفهوم الأخلاقي في القرآن

إنّ الطابع العام الأخلاقي الذي يستمد من القرآن الكريم يختلف كثيراً عمّا ذكرناه في المذاهب الأخلاقية المختلفة، سواء من الناحيتين النظرية والعملية، فهو يحلّ جميع المشكلات الخلقية، ويضع كل شيء في موضعه المعيّن، ويربط بين الفضل والفضيلة، فطالما يكون المرء فاضلاً ولا يعرف الفضيلة، ولذا ترى أن المفهوم الأخلاقي في القرآن الكريم لا يقتصر على الحاجة العقلية فقط؛ بل إنّ الجانب النظري

والعملي كلّ واحد منهما مكمل للآخر، وتكون لهما وحدة خاصة تشبع الحاسة الأخلاقية، التي أودعها الله تعالى في الإنسان.

كما أنّ المفهوم الأخلاقي فيه يمتاز عن غيره في أنه يشتمل على روح التوفيق بين سائر النزعات الأخلاقية، ويلبّي جميع المطالب للإنسان، فهو ينظر إلى الفرد كما ينظر إلى المجتمع، ويعطي لكلّ واحد منهما حقه، ولهذه النزعة الأخلاقية خصائص يمكن تلخيصها في العنوان اللاحق.

خصائص الأخلاق في القرآن

الأولى: أنّ في الإنسان انبعاثاً داخلياً فطرياً إلى الأخلاق، يساير جميع مراحله يمكن التعبير عنه به (الحاسة الأخلاقية)، التي يميّز بها بين الخير والشر، كما يميّز بالحاسة الجمالية المودعة فيه بين الجميل والقبيح، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾[1].

ومن هذه الحاسة الخلقية نستطيع أن نؤسس القواعد الخُلقية والقانون الأخلاقي العام.

ولكن قد يلقى هذا النور الباطني الفطري موانع توجب طمسه، وهي كثيرة، مثل العادات، والوراثة، والبيئة، وشواغل الحياة المادية، بل إنّ نفس القواعد الخلقية الفطرية لم تكن كافية في إرضاء الجميع، بحيث تكون قاعدة عامة تجلب رضاء الكلّ، ولهذا كان لا بد من بعث الأنبياء ذوي النفوس المصطفاة، الملهمة بالوحي، ليثيروا للناس دفائن العقول، ويزيلوا الغشاوة عن النور الفطري، ويكمّلوا ما كانوا يحتاجون إليه في إكمالهم، فكان نور الوحي الإلهي مكملاً لنور الفطرة التي أودعها الله في الإنسان، فكان «نور على نور».

الثانية: أن القواعد الخلقية هي تلك القواعد التي تخاطب الضمير

(١) الشمس، الآيتان ٧ و ٨.

الإنساني، ويرغب إليها الإنسان لأجل الحقيقة ذاتها وأهميتها الخلقية، فهي لم تكن غريبة عليه، فكانت لها صفة الإلزام، قال تعالى: ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾(١)، ويظهر ذلك بوضوح في تلك الآيات القرآنية التي ترجع الإنسان إلى عواطفه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾(٣).

الثالثة: إنّ القرآن الكريم يقرّر أنّ الإنسان مسؤول عن عمله، فقد أظهر فكرة المسؤولية الأخلاقية الفردية والاجتماعية بالمعنى الكامل، قال تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ﴾(٥)، فكلّ شخص مسؤول بالشروط المقرّرة عن أفعاله الخاصة، الشعورية، والإرادية، كما أنه فرد من مجتمع يحمل جانباً من المسؤولية الاجتماعية.

الرابعة: أنّ الإنسان حرّ في اختيار أفعاله الإرادية، ولا شيء ـ سواء كان داخلياً أو خارجياً ـ يستطيع إرغامه وسلب حريّته، قال تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ﴾(٦)، وقال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾(٧)، بل يعتبر القرآن أنّ

(١) القيامة، الآيتان ١٤ ـ ١٥.
(٢) الحجرات، الآية ١٣.
(٣) الحجرات، الآية ١٢.
(٤) النجم، الآية ٣٩.
(٥) الإسراء، الآية ١٥.
(٦) البقرة، الآية ٢٨٤.
(٧) الأحزاب، الآية ٥٤.

أساس المسؤولية هي الحرية، وقد مضى في ضمن الآيات القرآنية البحث عن ذلك مفصّلاً، وقد تنبّه إلى ذلك الفيلسوف الغربي (كانت) بقوله: «يستحيل علينا أن نتصوّر عقلاً في أكمل حالات شعوره، يتلقّى بشأن أحكامه توجيهاً من الخارج.. فإرادة الكائن العاقل لا تكون إرادته التي تخصّه بالمعنى الحقيقي، إلا تحت فكرة الحرية».

الخامسة: الجزاء الأخلاقي، وفقاً لقانون أن كلّ مسؤولية لا بد لها من جزاء. وقد بيّن القرآن الكريم أنّ كلّ عمل له جزاء خاص يلائمه، وقد تقدّم في الآيات السابقة ما يرتبط بالمقام.

السادسة: النية وأنّ كلّ عمل لا بد له من نية، وإعطاء الأهمية للنية والبواعث الكامنة في النفس وراء العمل، ويعتبر أن قيمة كلّ عمل تدور مدار شدة التنزّه، وأن الهدف من كل عمل هو ابتغاء وجه الله تعالى.

السابعة: أنّ كلّ عمل لا بد أن يقرن بالاعتقاد، كما هو ظاهر الآيات الشريفة التي يقرن فيها بين الإيمان والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿ليجري الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[٢].

---

(١) سبأ، الآية ٤.
(٢) العنكبوت، الآية ٩.

الإنسان كائن أخلاقي

يتميّز الإنسان عن سائر الكائنات الحية في أنه مزيج قوىً متخالفة متصارعة، فهو مركّب من عقل، وقلب، وإرادة، أي: له حياة عقلية، وانفعالية، وفاعلة. ولكلّ واحدة من هذه الثلاث آثارها ووظائفها، التي من امتزاجها في هذا الكائن الخاص يكون إنساناً، وهذا ممّا لا ريب فيه، وقد دلّت عليه التجارب وأثبتته البراهين العلمية.

وبتعبير آخر: وهو المتبع في علم الأخلاق إنّ الإنسان مركب من قوى ثلاث هي:

القوة الشهوية، التي هي مصدر الرغائب، من محبة المال والنساء وغيرهما من الشهوات الحيوانية، والأفعال المنسوبة إلى هذه القوة هي الأفعال التي تجلب المنفعة؛ كالأكل والشرب ونحو ذلك.

والقوة الغضبية، وهي مصدر العواطف كالشجاعة، والغضب، والأفعال المنسوبة إليها هي الأفعال التي تدرأ المضار، كالدفاع عن النفس والمال والعرض وغير ذلك.

والقوة العاقلة، وهي التي تدبّر البدن وتسوّسه، والأعمال الفكرية كلها منسوبة إلى هذه القوة.

ولكل واحدة من هذه القوى الثلاث آثارها وخصائصها، وهي متباينة في صفاتها وذواتها، ولكن من اجتماعها ينشأ الإنسان المفكر الدرّاك،

وباتحادها تنشأ وحدة تركيبية تصدر منها أفعال خاصة، وبها يبلغ الإنسان إلى سعادته التي خلق لأجلها، ووظيفته هي أن يحافظ على هذه الوحدة التركيبية، وأن لا تخرج قوة من هذه القوى الثلاث عن حد الاعتدال إلى حدي الإفراط أو التفريط، وأن بذلك يصل إلى الغاية المرجوّة من خلقه، وهي السعادة الفردية والنوعية في الدنيا والآخرة، ولأجل ذلك كان الإنسان أخلاقياً دون سائر الكائنات الحية.

وعلم الأخلاق يبحث عن كيفية المحافظة على الحدّ الوسط، التي هي الفضيلة، والاجتناب عن طرفي الإفراط والتفريط اللذين هما الرذائل، لتصدر منه أفعال يصل بها إلى السعادة المرجوة.

الاعتدال في الأخلاق

ذكرنا أن وظيفة الإنسان ـ ككائن أخلاقي ـ هي المحافظ على حدّ الاعتدال لكل واحدة من القوى الثلاث المتقدّمة. والمراد بحدّ الاعتدال ـ هو الوسط الأخلاقي ـ أي استعمال كل قوة على ما ينبغي لجلب بها السعادة.

وقد جعل العلماء حدّ الاعتدال في القوة الشهوية هي العفة، والجانبين ـ الإفراط والتفريط ـ الشره، والخمول. وفي القوة الغضبية الشجاعة، والجانبين التهور، والجبن. وفي القوة الفكرية الحكمة، والجانبين الجربزة، والبلادة.

ثم قالوا: إنّ في اجتماع تلك الملكات في النفس تحصل ملكة رابعة، وهي العدالة، والمراد بها هي وضع كلّ شيء موضعه الذي ينبغي له، وبها يمكن الإنسان أن يحافظ على حدّ الاعتدال في القوى الثلاث، فيخرج عن الظلم والانظلام.

وهذه الأربعة هي أصول الأخلاق الفاضلة، تكون نسبتها إليها كنسبة الجنس إلى النوع، وهي كثيرة ـ كالجود والسخاء والقناعة والشكر والصبر ونحو ذلك ـ كما هو مفصّل في كتب الأخلاق.

وهذا هو التقسيم الشايع بين علماء الأخلاق منذ عصر أرسطو، وهو لا يخلو عن المناقشة، ولكن الأمر سهل بعد أن كان ذلك لأجل تصنيف الفضائل والرذائل، والتمييز بينها.

إلا أنّ للقرآن نظرية خاصة في الوسط، تغاير النظريات الأخرى، فقد اعتمد القرآن على التقوى التي ورد ذكرها فيه أكثر من مائتين وخمسين مرة، قال تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾(١)، واعتبرها محور الكمالات الإنسانية ومعيار الفضائل، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(٥)، وقال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ﴾(٦)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(٧)، وقال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾(٨).

والمراد من التقوى في نظر القرآن: هي الجهد المحمود ـ الحاصل

---

(١) الشمس، الآية ٨.
(٢) البقرة، الآية ١٨٩.
(٣) النمل، الآية ٥٣.
(٤) المائدة، الآية ٢٧.
(٥) آل عمران، الآية ١٠٢.
(٦) البقرة، الآية ١٩٧.
(٧) التوبة، الآية ٧.
(٨) التوبة، الآية ١٢٣.

من الفرد ـ المتواصل في خدمة التكليف، في جميع نشاطاته وعلاقاته مع نفسه، ومع ربه، والناس أجمعين، وهذا هو المراد ممّا ورد في النصوص الكثيرة بأنها «إتيان الواجبات وترك المحرمات».

وتظهر أهمية هذا الملاك عن نظرية «الوسط العادل»، أي: تجنب الإفراط والتفريط في أنّه يربط بين العمل والنية، فلا يمكن التفكيك بينهما، فيعتبر العمل بلا نية، لا قيمة له، كما أنّ النية الخالية عن أي عمل، لا ثمرة لها، كما يظهر ذلك بوضوح من الآيات التي تقارن بين التقوى والعمل الصالح، كما تقدّم. قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[(١)].

كما أنّ بالتقوى يصير الإنسان بارّاً، ويصبح من الصدّيقين، وإنّ بها يتهيّأ لقبول الملكات الفاضلة، ويحدّد سلوكه الأخلاقي، وبها يصير الإنسان عادلاً موفقاً بين رغباته وأحاسيسه وعواطفه، فهي المقياس الحسي للفضائل، يسهل معرفته لكلّ أحد، ويسلم عن الخطأ والإلتباس من دون أن يقع في متاهات لاكتساب الفضائل وإزالة الرذائل. وأخيراً هي القاعدة العامة التي يمكن التوفيق بها بين سائر التكاليف، ويجلب بها الكمال، والدين الذي أُمرنا باتّباعه. وبها صارت هذه الأُمة وسطَ في جميع الشؤون.

نعم، لها مراتب، كما تقدّم سابقاً.

---

(١) الشعراء، الآية ١١٠.

طرق اكتساب الأخلاق الفاضلة

ذكرنا أن الأساس الذي يبتني عليه الأخلاق في القرآن هو التقوى، فإنّها الطريق إلى التخلّق بالأخلاق الفاضلة، واكتساب الفضائل وإزالة الرذائل، وتقدّم أن التقوى هي الجهد المتواصل من الفرد، فلا تتحقق إلاّ بالتواصل والعمل الدؤوب، وتكرار الأعمال الصالحة، لتتمكّن الأخلاق الفاضلة في النفس ويتعذّر إزالتها. وفي التقوى يرتبط العمل بالنية، فكلّ ما كانت النية خالصة لله تعالى خالية عن الأغراض الدنيوية، ازدادت قيمة العمل، وقرب إلى القبول، وصلح للجزاء الأوفى.

بل يعتبر القرآن أن الغايات المرجوّة من الأعمال، سواء كانت لجلب النفع، أو لدفع الضرر، هي نقص في مقابل الكمال المطلق، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًاۚ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[2]، وغير ذلك من الآيات الكثيرة، التي تحصر الكمال فيه عزّ وجلّ. ولهذا الأمر أثر كبير في النفس، حيث يجعل العمل خالصاً لوجه الله منزّهاً عن كل غاية من غير الله تعالى، وأن الغاية هي الله تعالى والتخلّق بأخلاقه، وهذا مسلك جديد لم يكن معروفاً من قبل نزول القرآن، ويختلف عن سائر المسالك المتّبعة في تهذيب النفس بوجهين:

(١) النساء، الآية ١٣٩.
(٢) البقرة، الآية ١٩٧.

الأول: أن في هذا المسلك يعدّ الإنسان إعداداً علمياً وعملياً لقبول الأخلاق الفاضلة والمعارف الإلهية، بحيث لا يبقى مجال للرذائل، وفيه تختلف الفضائل عن غيره من المسالك.

الثاني: أنّ في هذا المسلك يكون الفعل صادراً عن العبودية المحضة والحبّ العبودي، فيكون الغرض هو وجه الله تعالى فقط، فهو مبنيّ على التوحيد الخالص، بخلاف غيره.

وهناك مسالك أخرى في تهذيب الأخلاق:

أحدها: هو تهذيب النفس بالآراء المحمودة والعقائد العامة الاجتماعية في الحسن والقبح والغايات الصالحة الدنيوية، وهذا هو المعروف في علم الأخلاق، فهذا المسلك يدعو إلى الخلق الاجتماعي، والغاية هي حياة سعيدة دنيوية يحمدها كلّ الناس؛ ولم يرد في القرآن الكريم ما يدلّ على حسن هذا المسلك.

نعم، في بعض الموارد إشارة إلى بعض الأمور الاجتماعية، قال تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾(١)، حيث علّل الحكم بأن لا يكون للناس عليكم حجة. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾(٢)، حيث علّل ترك الصبر أو الاتحاد، بالفشل وذهاب الريح. ولكن ذلك كله يرجع إلى الثواب والعقاب الأُخرويين.

ثانيهما: تهذيب النفس بما جاء به الأنبياء عليهم السلام والكتب السماوية من العقائد والتكاليف الدينية والآراء المحمودة بالغايات الأُخروية، وقد

---

(١) البقرة، الآية ١٥٠.
(٢) الأنفال، الآية ٤٦.

ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة تدلّ على ذلك، قال تعالى: ﴿ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿اتبعوا من أنزل الله﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٤)، وغير ذلك من الآيات الشريفة التي ذكر فيها الأجر الأُخروي بألسنة مختلفة.

ومن مبادىء هذا المسلك هو إعداد الإنسان علمياً، بأن كل ما يصدر منه من الأفعال، وما يقع من الأمور كلها، صادرة عن قانون القضاء والقدر الإلهي؛ قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(٥).

وإنّه لا بد من التخلّق بأخلاق الله تعالى، والتذكّر بأسمائه الحسنى، حتى يمكن تهذيب النفس بالغايات الأُخروية المتكفّلة لسعادة الدارين، فإنّ الكمال الحقيقي والسعادة الواقعية هي الحياة السعيدة في الآخرة، وتلازمها سعادة هذه الدنيا أيضاً.

وهذا المسلك هو الغالب في الديانات الإلهية، وقد دعا إليه الأنبياء والمرسلون، وهو متين يغاير المسلك الأول في الغاية والسبب.

(١) الأعراف، الآيتان ١٥٦ ـ ١٥٧.
(٢) لقمان، الآية ٢١.
(٣) الكهف، الآية ٣٠.
(٤) الزمر، الآية ١٠.
(٥) التغابن، الآية ١١.

ثالثهما: التغيّر في الأخلاق والتبدّل في الفضائل، والقول بالتطور والتكامل في الأخلاق، فلا يمكن أن يكون للحسن والقبح أصول مسلمة مطلقاً، والمناط كله هو ابتغاء المنفعة ودفع المضرة، سواء أكانتا فرديتين، أو اجتماعيتين، وهذا مذهب قديم في الأخلاق دعا إليه بعض الماديين ـ كما أشرنا إليه سابقاً ـ وهو مذهب فاسد، وسيأتي في الموضع المناسب ذكر حججهم ودحضها[١].

(١) م ـ ن، ج٢، ص٣٤٣ ـ ٣٥٧.

صفات المنافقين في القرآن

ذكر سبحانه جملة من صفات المنافقين في هذه الآيات الشريفة: منها قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ فنفى الإيمان عنهم. وإنما خصّ سبحانه الإيمان بالله واليوم الآخر بالذكر، ولم يحك عنهم الإيمان بالأنبياء، لاستلزام الإيمان بالمبدأ والمعاد الإيمان بالأنبياء أيضاً، كما عرفت سابقاً.

وما يقال: من أنّ للمنافقين أعمالاً حسنة في حد نفسها أيضاً، فكيف يعدون من الكفار بقول مطلق؟

مردود: بأنّ الأعمال الحسنة من المنافق إنّما صدرت لأجل أغراضهم الشريرة، فلا وجه لترتب الأثر الحسن عليها، فنفي حقيقة الإيمان عنهم يجزي عن هذه التكلفات.

ومنها قوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾. الخدع: المكر. وهو إظهار شيء وإخفاء خلافه، وهو من أقبح الرذائل وشر الصفات.

وعن بعض الأُدباء: أن المخادعة من فعل الطرفين، وجعلوا هو الأصل في صيغ المفاعلة، وتبعهم جمع من المفسرين ثم قالوا: إنّ المخادعة محالة على الله، وغير لائقة بالمؤمنين، لأنه من فعل المنافقين.

ولكن ذلك مردود: بأنّ صيغة المفاعلة إنّما تدل على إنهاء الفعل إلى الغير واقعاً أو اعتقاداً وأما أنّ الغير يفعل مثل ذلك بالنسبة إلى الفاعل

الأول فهو غير مأخوذ فيها، فقد يكون وقد لا يكون. نعم، الجزاء على المخادعة مع الله ورسوله شيء ومخادعة الله ورسوله شيء آخر، لا ربط لأحدهما بالآخر، وإنما ذكرت الخادعة لبيان أن هذا العمل يتكرر عنهم.

وأما مخادعتهم مع الله ورسوله تكون بالنسبة إلى اعتقاد المنافق لا بالنسبة إلى الواقع، إذ لا معنى لمخادعة مَن هو عالم السر والخفيات، ومع ذلك نسبها سبحانه إلى نفسه ابتداءً تسلية للمؤمنين لئلا يثقل تحملها عليهم، لشدة صفاء قلوبهم، فوحدة السياق نحو تلطف منه تعالى بالمؤمنين كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ﴾(١)، وغير ذلك من الآيات المباركة.

وأما خداعهم مع المؤمنين فبإظهار الإيمان وإخفاء الكفر والعمل رياءً وسمعة، وذلك لأجل الإطلاع على اسرار المؤمنين وإذاعتها لأعدائهم.

قال تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، أي: ضرر عملهم راجع إليهم فهم المخدوعون.

وأصل الشعور هو التوجه والإلتفات والفطنة بالشيء ولا يقال إلاّ في ما دق وخفي، ولذلك لا يوصف به سبحانه لعدم خفاء شيء عليه.

ومعنى الآية المباركة: أن المنافقين لا شعور لهم في إدراك قبح عملهم لفرض أنّ بناءهم على النفاق والفساد، وهم مسخرون تحت طبيعتهم الشريرة كما في قوله تعالى: ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾(٢).

---

(١) الفتح، الآية ١٠.
(٢) المنافقون، الآية ٣.

ثم إنّ مفاد هذه الآية المباركة يجري في جميع الرذائل النفسانية التي طبعت في قلوب أهلها، فالمورد وإن كان خاصاً ولكن الحكم (وما يشعرون) عام.

قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾. المراد بالقلب في الآيات المباركة: منشأ الفهم والإدراكات، فينطبق عليه النفس والروح والعقل أيضاً. والمرض هو الخروج عن الاعتدال، سواء كان في الجسم أو في القلب. والمراد بمرضها ضعف إدراكاتها وعدم تعقلها للدين وأسراره وأحكامه، ويجمع ذلك عدم التفقّه لها كما قال تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾[1].

قال تعالى: ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾. يمكن أن تكون هذه الجملة المباركة دعاءً عليهم كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾[2]، ويمكن أن تكون جرياً على سلسلة الأسباب المنتهية إليه تعالى، فإنه عزَّ وجلَّ بعث الرسول ﷺ وأنزل القرآن وأتمّ الحجة فكذّبوا بها وأبوا أن يتّبعوه حسداً واستكباراً فزاد ذلك مرضاً على مرضهم، فنسب المرض بالسبب القريب إلى اختيارهم، وبالسبب البعيد إلى إرسال الرسول والدعوة إلى الإسلام، والكل ينتهي إليه تعالى في سلسلة الأسباب.

وفي تنكير المرض إشارة إلى ثبوت جميع أنواعه حسب مفاسد أخلاقهم واستقرارها في قلوبهم.

قال تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾. أي: كان العذاب لأجل كذبهم، لأن المنافق كاذب، ويستلزم ذلك تكذيبهم للرسول ﷺ. فلا فرق في قراءة (يكذبون) بين المجرّد اللازم والمزيد المتعدي.

---

(١) الأعراف، الآية ١٧٩.

(٢) التوبة، الآية ١٢٧.

وإنما ذكر تعالى خصوص هذه الصفة (كذب) لكونه مصدر كل شر وأساس كل نفاق.

أليم: صفة للعذاب بمعنى المؤلم، وإطلاقه يشمل كل ألم وفي أي مرتبة كانت من مراتب العظمة، كما يدل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾[1]، فيكون عذابهم أشد من عذاب الكافرين.

الثاني: الصفات التي تضاف إلى الغير فلا تحقق لها بدونه، كالظلم وحسن الخلق والأذى ونحوها، ومنها النفاق.

الثالث: الصفات الإضافية المختلفة باختلاف الجهات، وسيأتي بيان ذلك في الآيات المناسبة لها إن شاء الله تعالى.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ * ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾.

من صفات المنافقين التي ذكرها الله تعالى في هذه الآيات الفساد في الأرض، والاستهزاء بالمؤمنين، وتوصيفهم بالسفاهة وعدم شعورهم بجهالتهم، وتلك الصفات كلها من أخس الصفات وأرذلها التي كانت فيهم.

---

(١) النساء، الآية ١٤٥.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾.

الفساد خروج الشيء عن الاعتدال، وتغيره عن سلامة الحال، وضده الصلاح. ومادة الفساد في أي هيئة استعملت تدل على المبغوضية والاشمئزاز، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[١]، ولا سيّما هيئة الإفساد ومتفرعاتها فإنّ المتلبس بها مذموم عند الجميع. ويقابل ذلك مادة الصلاح، فإنها في أي هيئة استعملت تدل على المحبوبية والرغبة وميل النفس، خصوصاً هيئة الإصلاح وما يتفرع منها، فإنّها ممدوحة عند الجميع قال تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾[٢].

وإنما ذكر تعالى القول بفلظ المجهول ليشمل كل ناه عن المنكر، رسولاً كان أو ولياً أو كان من عَرَض الناس، كما أنه سبحانه ذكر الأرض وحدها لأنها محل إفساد المفسدين قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾[٣].

ثم إنّ الخروج عن الاعتدال والاستقامة الذي هو معنى الفساد تارة: يكون بالنسبة إلى الشخص نفسه في ما بينه وبين الله تعالى، كالرياء. وأُخرى: بالنسبة إلى شخص آخر مثله، كالغش مثلاً. وثالثة: بالنسبة إلى المجتمع، كالخيانة بالنسبة إليهم. ولهذه الحالات مراتب متفاوتة، وفي الجميع إما أن يكون الشخص متوجهاً إلى ما يفعل، أو لا يكون كذلك بل يرى فساده صلاحاً وإصلاحاً، والآية المباركة تبين هذا القسم.

ومعنى الفساد في الآية الشريفة ارتكاب المعاصي سواء كانت صغيرة

---

(١) البقرة، الآية ٢٠٥.
(٢) النساء، الآية ١٢٨.
(٣) الروم، الآية ٤١.

أو كبيرة، ويدخل فيها مذام الأخلاق، وذلك لأنّ أفعال الإنسان إما أن تكون موافقة للشرع، أو تكون موافقة لموازين الاجتماع، وإن كانت مخالفة للشرع. وثالثة: أن تكون موافقة لمعتقدات الشخص، وإن كانت مخالفة للأولين. والنفاق أو الفساد في الآية المباركة من أحد الأخيرين، وقد أكدّ تعالى بطلان معتقداتهم في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ بأن لا صلاح في معتقداتهم إذ ليس كل صلاح اعتقادي صلاحاً واقعياً.

قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾.

لظهور آثار الفساد في أفعالهم كتفريق المسلمين وإلقاء النفاق بينهم وإفشاء أسرارهم.

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾.

لأن كثرة انهماكهم في الغيّ والضلالة أوجبت أنهم يرون باطلهم حقاً، فنفى الله تبارك وتعالى نسبة الشعور عنهم بكلمة (لا) الظاهرة في نفي نسبة المدخول في مثل المقام والدال على الاستمرار فالآية الشريفة في مقام توبيخ المنافقين والتشنيع عليهم، حيث وصفهم بعدم الشعور والإدراك.

ولعلّ نفي الشعور عنهم مرتين تارة: بقوله تعالى ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ وأُخرى: بقوله تعالى: ﴿لَّا يَشْعُرُونَ﴾ للإشارة إلى نفي أصل الشعور عنهم أولاً، ونفي أنهم لا يشعرون بذلك فيكون من إثبات الجهل لعدم الشعور لهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾.

ذكر تعالى صفة أخرى من صفات المنافقين وه يالسفاهة، وهذه

الصفة تلازمهم، ولا بد وأن يكونوا كذلك لأن مَن ليس أهلاً للحق ولا يقبله من أهله كان ذلك من الجهل المركب عنده، ويرى سوء عمله حسناً كما يرى مَن سواه فاسداً هالكاً. وقد أعيت هذه الفرقة جميع أنبياء الله عزّ وجلّ وأولياء في كل عصر، لولا أن تداركهم العنايات الخاصة الإلهية جلّ شأنه، ويشهد لما ذكرناه قوله تعالى: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ﴾[2].

وإنما أتى سبحانه وتعالى القول بصيغة المجهول تنبيهاً إلى عدم اختصاص القائل بشخص مخصوص، بل يشمل كل مَن أظهر الحق كما تقدم في الآية السابقة.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ﴾.

الناس والإنسان والبشر ألفاظ مترادفة معنىً لهذا الحيوان الناطق المستوي القامة، الذي يتفاوت أفراده بين أوج الكمال وأدنى مرتبة الحضيض، فالمراد بهم في المقام مَن دخل في الإسلام، وتقدم معنى الإيمان.

قال تعالى: ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾.

السفه: هو الخفة وقلّة التمييز بين الخير والشر والنفع والضرر، سواء كان في الأمور الدنيوية أو الأُخروية فمن لا يعرف نفعه من ضرّه وخيره من شره بالنسبة إلى الجهات الأُخروية يعدُّ سفيهاً بالنسبة إليها، ولو كان رشيداً وملتفتاً إلى الأمور الدنيوية التفاتاً دقيقاً كان أن كلّ مَن كان

---

(١) الشعراء، الآية ١١١.

(٢) هود، الآية ٢٧.

متوجهاً وملتفتاً إلى أموره الأُخروية وغير دقيق في أموره الدنيوية يعد عند الناس سفيهاً. وهذا نزاع قديم بين الفريقين، فأهل الدنيا يعدُّون أهل الآخرة سفهاء، وأهل الآخرة يعدّون أهل الدنيا من السفهاء.

ولا نزاع في الحقيقة، لأن المراد من السفيه السفه من جهة لا من كل جهة، فمن أراد الآخرة وسعى لها سعيها لا يعد سفيهاً بالنسبة إلى الآخرة، وإن عدَّه بعض أهل الدنيا سفيهاً بالنسبة إلى بعض جهات الدنيا، ومن أراد الدنيا وسعى لها سعيها معرضاً عن الآخرة يعد سفيهاً بالنسبة لى الآخرة ـ كما في المقام ـ لأنه ترك الحياة الدائمة الباقية لأجل الحياة الزائلة، ويأتي التفصيل في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالى.

قال تعالى: ﴿ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعملون﴾.

ولا ريب في مطابقة ذلك للواقع، لأن كل مَن ترك الحياة الدائمة وأخذ بغيرها سفيه بلا شك. وإنما عبّر بقوله تعالى هنا ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ وفي الآيات السابقة عبّر تعالى بـ﴿لَّا يَشْعُرُونَ﴾ تنبيهاً على أنهم متوغلون في الجهالة وأنها من سنخ الجهل المركب، وتأكيداً لنفي الإدارك عنهم بجميع أنحائه من نفي الشعور، ونفي العلم، ونفي الفقه والعقل كما في قوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾[2].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ﴾.

هذه الآية المباركة تبين صفة أخرى للمنافقين وهي المداهنة بإظهار

(١) الحشر، الآية ١٤.
(٢) المنافقون، الآية ٣.

شيء وإضمار خلافه، ولا تكون هذه إلاّ فيمن بلغ في فساد الأخلاق حداً بعيداً، فيظهر بوجهين، ويتكلم بلسانين، يلقى كلاً بحسب ما تقتضيه المصلحة، وهم يرون ذلك من مصالحهم الفردية والاجتماعية، وهذه الفئة من المنافقين لم تكن تختص بعصر التنزيل بل توجد في كل عصر وزمان، ولا ينافي ذلك الحكاية عنها بصيغة الماضي، وتقدم الكلام في ذلك.

وقد بيَّن تعالى أن المنافقين يداهنون في دينهم، فإذا رأوا المؤمنين قالوا: آمنا بما أنتم به مؤمنون، كذباً وزوراً. وإذا اجتمعوا بشياطينهم قالوا: إنا معكم في العقيدة والعمل، وإنما نحن نستهزىء بالمسلمين ودينهم. وقد فضحهم الله تعالى وأعدّ لهم شديد العقاب.

والمراد بالشياطين هم المتمرِّدون، من الشطن وهو البعد والتمرُّد، فكلما بَعُد الإنسان عن الخير والصَّلاح وقَرُب الباطل والفساد يقرب من الشيطان. والمقصود بهم رؤوسهم، ومَن يدبرهم في مذام الأخلاق وشعب النفاق سواء أكانوا من الإنس أم الجن، كما في قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾(١).

ويستفاد من الآية الشريفة أنّ كونهم مع أهل الإيمان إنما هو بمجرد المرور والملاقاة فقط، وأما معيَّتهم مع الشياطين فكانت بعنوان التفهيم والاستفادة من نواياهم الفاسدة.

ثم إن الخلوة مع الشياطين تارة: تكون على نحو الاستفادة وأخذ الآراء الفاسدة والعقائد السيئة. وأخرى: تكون لارتكاب الفحشاء والمنكرات. وثالثة: تكون على نحو التفكر في ما لا ينفع للدين والدنيا،

---

(١) الأنعام، الآية ١١٢.

فإنَّ الأوهام والخيالات الفاسدة والأماني الباطلة من أقوى سبل الشيطاين المستولية على الإنسان، الموجبة لحرمان عقله عن قرب الرحمن. وعن علي عليه السلام: «الأماني بضائع النُوكى» أي: الحمقى. وأما الخلوة معهم لأجل هدايتهم إلى الحق فهي ممدوحة بل قد تجب.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾.

الاستهزاء هو الاستخفاف والسخرية. والمد: هو الزيادة. والطغيان: التجاوز عن الحد. والعمة: التحيُّر.

والمعنى: إن الله سبحانه وتعالى يجازيهم بالعقاب، ويعاملهم معاملة المستهزىء بهم، ويدعهم ويمهلهم في فعلهم، وتسمية ذلك بالاستهزاء من باب التجانس اللفظي فقط، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾(١)، قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾(٢)، فإن جزاء الظلم ليس بظلم.

واستهزاء الله تعالى بهم لا يختص بعالم دون عالم ولا بأمر دون آخر فمن ذلك سلب توفيقاته وتأييداته، أو إجراؤه تعالى أحكام الإسلام عليهم في الدنيا وليس لهم حظ منها في الآخرة، وكونهم في الدرك الأسفل من النار. وهذا من أشد أنحاء الاستهزاء بهم، ويزيدهم في تحيُّرهم وعدم اهتدائهم للصواب والحق جزاءً بما كانوا يعملون، وعقوبة لهم على استهزائهم.

وهذه الآية مثل سائر الآيات المباركة التي سيقت مساقها كقوله تعالى: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾(٣)، وقوله

(١) الشورى، الآية ٤٠.
(٢) البقرة، الآية ١٩٤.
(٣) يونس، الآية ١١.

تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾[١]، وغيرها من الآيات الشريفة الموافقة لقانون الطبيعة بالنسبة إلى النفوس الشريرة. وتقدّم في خداعة الله تعالى لهم بعض الكلام فراجع.

وهذه الآية في مقام التسلية للنبي ﷺ وسائر أنبيائه قال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[٢] والمؤمنين أيضاً، وحيث أن الاستهزاء بأنبياء الله يرجع إلى الاستهزاء بالله تعالى فنسب جزاء المستهزئين بهم إلى نفسه فقال تعالى: ﴿الله يستهزىء بهم﴾، وقال تعالى: ﴿فسيأتيهم أبناء ما كانوا به يستهزئون﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[٤]، فإن إحاطة نفاقهم بهم من لوازم فعلهم. والكل يرجع إليه سبحانه وتعالى بنحو الاقتضاء ـ كما مرَّ ـ فيصح أن يقال: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ جزاء لأعمالهم أو ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾.

يطلق الاشتراء على الاستبدال مع رجاء النفع، أي: أنّ المنافقين استبدلوا الهداية بالضلالة والعمى لغرض من الأغراض الفاسدة الدنيوية، فتركوا استعداد فطرتهم، فلم تربح تجارتهم وكانوا من الخاسرين.

والخسران في هذه المعاملة من الواضحات لكل عاقل بعد التأمل ولو قليلاً وقد بيّن تعالى ذلك في آية أخرى بما هو أظهر فقال سبحانه:

---

(١) المائدة، الآية ٦٤.
(٢) يس، الآية ٣٠.
(٣) الشعراء، الآية ٦.
(٤) الزمر، الآية ٤٨.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗا وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾[(٢)].

وفي جملة من الآيات المباركة التعبير بالثمن القليل قال تعالى: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ﴾[(٤)].

ويمكن أن يفرق بين التعبيرين بأنّ استبدال الهداية والإيمان بالضلال والكفر تارة: يكون لأجل الكفر والجحود، والشقاوة المنبعثة عن اقتضاء الذات بمجرد الاقتضاء لا العلية، وهذا هو استبدال الهداية بالضلالة والإيمان بالكفر، وقد أشار إلى ذلك سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾[(٥)].

وأخرى: يكون الاستبدال لأجل الأغراض الفاسدة الخيالية الدنيوية وهذا هو الاشتراء بالثمن القليل، فإن كل غرض إذا صدر من الإنسان مع قطع النظر عن إضافته إليه عزّ وجلّ فهو من المعاملة الخاسرة، وإذا صدر منه من جهة إضافته إليه تعالى مع تأييد ذلك بالشرع فهو من المعاملة الرابحة. والمائز بين الغرضين هو الشرع، أو العقل المقرّر بالشرع، لما سيأتي في محله من أن نسبة الشرع إلى العقل نسبة الصورة إلى المادة، فكما لا أثر للمادة بدون الصورة فكذا لا أثر للعقل بدون الشرع، فالعامل

(١) البقرة، الآية ١٧٥.
(٢) آل عمران، الآية ١٧٧.
(٣) النحل، الآية ٩٥.
(٤) آل عمران، الآية ١٨٧.
(٥) فصلت، الآية ١٧.

بالعقل التارك للشرع يضل في هديه والعامل بالشرع التارك للعقل يبطل سعيه ومسعاه، ويأتي تفصيل هذا الإجمال إن شاء الله تعالى.

ثم إنه يصح أن يكون قوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ﴾ من باب ذكر اللازم وإرادة نفي أصل الملزوم، فيكون المعنى أنه لا تجارة لهم أصلاً في الواقع وإن كانت بحسب الظاهر، لأن التجارة ما كان فيها اقتضاء الاسترباح في الجملة لا ما بنيت على الخسران والضلالة.

وفي الآية المباركة نحو استعارة ومجاز لإسناد الربح إلى التجارة، ومنه يعلم وجه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ﴾ فتصح نسبته إلى تجارتهم الخاسرة، أو إلى جميع شؤونهم التي منها تجارتهم.

بحث روائي

عن الصادق عليه السلام سئل فيما النجاة غداً؟ فقال: «إنما النجاة في أن لا تخادعوا الله فيخدعكم، فإنه من يخادع الله يخدعه ويخلع منه الإيمان ونفسه يخدع لو يشعر»، فقيل له: كيف يخادع الله؟ فقال عليه السلام: «يعمل بما أمر الله عزَّ وجلَّ به ثم يريد به غيره، فاتقوا الله واجتنبوا الرياء فإنه شرك بالله عزَّ وجلَّ إن المرائي يدعى يوم القيامة بأربعة أسماء: يا كافر، يا فاجر، يا غادر، يا خاسر، حبط عملك، وبطل أجرك، ولا خلاق لك اليوم، فالتمس أجرك ممن كنت تعمل له».

أقول: وقريب من هذه الرواية روايات أخرى كثيرة، الظاهرة في حصر النجاة في يوم القيامة في الخلوص والإخلاص، وترك المخادعة، وهو كذلك لأن المخادعة توجب سلب الأجرة على العمل لفرض أن المخادع يأتي بعمله لغيرة تبارك وتعالى فلا أجر له منه.

وعن الرضا عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ فقال عليه السلام: «إن الله لا يستهزىء، ولكن يجازيهم جزاء الاستهزاء».

أسباب النفاق

للنفاق سببان، الأول: السبب الفاعلي، الثاني: السبب الغائي. أما سببه الفاعلي فالعمدة فيه ترجع على عدم العقيدة بالمبدأ والمعاد أصلاً، أو قلّتها وضعفها، فلو اعتقد الإنسان بمبدأ قيوم مراقب له في جميع جهاته وأفعاله لا يحصل منه النفاق الذي هو أُم مساوىء الأخلاق وكلما اشتد الاعتقاد بالمبدأ وإحاطته تعالى يضعف النفاق. والسبب القريب فيه يرجع إلى حب النفس والجاه، وقد بيّنهما النبي ﷺ: «حبُّ الدنيا رأس كل خطيئة».

وأما سبب الغائي فلا ريب في أنه ليس له غاية عقلية، وإنما تكون له غايات جزئية وهمية خيالية، ربما يستنكر نفس المنافق تلك الغاية لو فرض كمال عقله وإيمانه.

وأما شُعَبُه ومراتبه فهي كثيرة منبثة على الجوانح والجوارح، فالمنافق يمكن أن ينافق بقلبه كالرياء - كما تقدم في البحث الروائي - أو بكل واحدة من جوارحه أو بجميعها، والوجوه المتصوّرة في هذه الصفة الشريرة على أقسام:

الأول: كونها من سنخ الطبائع غير القابلة للتغير والتبدل كسائر الطبائع المودعة في الأشياء كلها من جواهرها وأعراضها التي يصح أن يعبّر عنها بالصفة غير القابلة للتخلّف والتغيير.

الثاني: كونها من مجرد الاقتضاء الذاتي القابلة للتغير والتبدّل والاشتداد والتضعيف.

الثالث: كونها من مجرد الاكتسابيات المحضة بلا علية ولا اقتضاء أبداً.

الرابع: كونها في مبدأ الأمر من مجرد الاقتضاء المحض وصيرورتها بالممارسة من سنخ الطبيعة واللوازم غير المنفكة.

وقال بكل من ذلك قائل من الفلاسفة والمتكلمين، ويمكن أن يكون جميع ذلك صحيحاً إن أراد القائل بالأول مرتبة خاصة من الاقتضاء لا العلية التامة المنحصرة كسائر الطبايع غير الإرادية الاختيارية فإنه لو قيل بها لزم محاذير كثيرة يشكل الجواب[١].

(١) مواهب الرحمن، ج١، ص١٠٠ ـ ١١٣.

الهداية في القرآن

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾.

الضمير في قالوا يرجع إلى أهل الكتاب، و(أو) للتنويع، والجملة لبيان عقيدتهم.

أي: قالت اليهود إنّ دينهم على الحق، وأن الهداية محصورة في اليهودية، وكذلك ادّعت النصارى، بل إنّ ذلك معتقد كلّ ذي دين أنّ دينهم خير الأديان، وأنّ كتابهم أبدي لا يقبل التغيير والتبديل، وطرق الهدايا منحصرة في دينه، ومقتضى ذلك أن يدعو كلّ واحد من الفريقين الناس إلى دينه.

وهذا النوع من المنهج من الفطريات لكلّ مَن يعتقد بشيء ويرى صحته، وهو من الجهل المركب، وداء ابتلي به جميع الأمم حتى بعض فرق المسلمين، الذي يعتقد صحة مذهبه أو عقيدته وبطلان غيرهما، وقد أبطل سبحانه مدّعاهم بدليل إلزامي لهم، فقال مخاطباً لنبيه ﷺ إتماماً للحجة والبيان، وتلقيناً للبرهان، وتثبيتاً لشريعته ونبوّته، بل إظهاراً للوحدة بين أصل الوحي وقول الموحى إليه في الحجية، وتوطئة لأمر المسلمين بهذا المقال.

قال تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾.

مادة (حنف) تأتي بمعنى الميل، أي: الميل من الضلالة إلى

الهداية، ومن الباطل إلى الحق، فصارت تطلق على الموحّد التابع لدين الحق، وهي بخلاف (جنف) فإنه الميل من الحقّ إلى الباطل.

وقد استعملت هذه المادة بالنسبة إلى ملّة إبراهيم في القرآن الكريم كثيراً، قال تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾(٣).

وتطلق على أصل الملّة والدين أيضاً، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ﴾(٤)، وفي الحديث: «أحبّ الأديان إلى الله تعالى، الحنيفية السمحة».

والوجه في إطلاق الحنيفية على إبراهيم وملّته دون غيره من الأنبياء السابقين، أنّ إبراهيم كان في قوم مشركين، عبدة الأوثان، وقد جاهد عليه السلام في دعوتهم إلى التوحيد ونبذ الأوثان وعبادتها، وابتلى من قومه بما ابتلى حتى اختاره الله تعالى لأقصى درجات الخلّة والإمامة، ومنحه الملّة التي كانت بمنزلة المادة لجميع الأديان الإلهية الكبرى ـ اليهودية والنصرانية والإسلام ـ مع أنه عليه السلام يعتبر مؤسسة حركة التوحيد في العالم، وبه ابتدأت الشرائع الإلهية.

وأما شرائع مَن قبله من الأنبياء، فلم تكن لها تلك الأهمية التي جعلها الله ملّة إبراهيم، ولذلك كانت ملّته الملّة الحنيفية الجامعة للمعارف الإلهية، والكاملة في التوحيد ونفي الشرك، والارتقاء في معارج الكمال،

---

(١) آل عمران، الآية ٩٥.
(٢) الأنعام، الآية ١٦١.
(٣) النحل، الآية ١٢٠.
(٤) الروم، الآية ٣٠.

وقد أنزلها تبارك وتعالى حسب المصالح ومقتضيات الظروف حتى انتهى الأمر إلى الإسلام، الدين الجامع لجميع الكمالات والمشتمل على أقصى المعارف الإلهية.

ومن ذلك يعرف أن اختلاف المفسّرين في معنى الحنيف وبيان الأخذ لا وجه له، بل هو اختلاف مصداقي. والجامع هو الصحة والتمامية والسهولة وعدم الضيق والحرج.

وإنما ذكر سبحانه إبراهيم عليه السلام، وأمرهم باتباع ملّته، لأنه لا ينازع أحد من أهل الكتاب في أنه كان مهتدياً، بل يعتبر إمام المهتدين، فإذا كان ادّعاء كلّ واحد منهم صحيحاً، لكان إبراهيم عليه السلام غير مهتد، وهم لا يقبلونه.

ومن ذلك يستفاد أن الهداية منحصرة في اتباع ملّة إبراهيم عليه السلام، وأن موسى وعيسى عليهما السلام أيضاً كانا متّبعين لملّته، لأنها الدين الحنيف القائم على الصراط المستقيم، والمبني على التوحيد والإخلاص ونفي الشرك، والحقّ أحقّ أن يتبع.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

أي: لم يكن إبراهيم من المشركين بالله تعالى، وفيه إشارة إلى اختلاط اليهودية والنصرانية المخترعتين لنوع من الشرك والتناقض، على ما يأتي تفصيله.

قال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ﴾.

الأسباط: جمع سبط، وهو بمعنى الانبساط في سهولة، وسمّي ولد الولد سبطاً لانبساطه وتفرّعه من الجد، ومنه سمّي الحسن والحسين عليهما السلام سبطي الرسول صلى الله عليه وآله.

والأسباط في بني يعقوب كالقبائل في بني إسماعيل، وكانوا اثني عشر سبطاً، كلّ سبط ينتهي إلى ولد من ولد يعقوب، كّل واحد منهم أمة وجماعة من الناس، قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾(١)، ولذلك لم يستعمل في القرآن إلاّ جمعاً. وسمّوا بذلك أيضاً في التوراة وغيرها.

والنزول مساوق للإيتاء في الجملة، لأنه يشمل الجواهر والأعراض والتشريعات، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾(٥)، إلى غير ذلك من موارد استعمالات هذه المادة في القرآن الكريم، التي هي كثيرة جداً بهيئات مختلفة.

فأصل المادتين ـ الإيتاء والإنزال ـ متّحدتان في جامع قريب هو الإيصال والوصول، إلاّ أنه لوحظ في النزول الانحطاط من العلو في الجملة، بخلاف الإيتاء، لكنه إذا أُضيف الممكن إلى الواجب بالذات، والمخلوق إلى الخالق الغني بالذات، ينطبق عليه الانحطاط من العلو ـ لوحظ ذلك أو لم يلحظ ـ فكل إيتاء منه عزّ وجلّ إنزال دون العكس.

ولعلّ الوجه في التعبير بالنسبة إلى إبراهيم عليه السلام ومَن تبعه بالإنزال

(١) الأعراف، الآية ١٦٠.
(٢) الحديد، الآية ٢٥.
(٣) الأعراف، الآية ٢٦.
(٤) الحجر، الآية ٢١.
(٥) المائدة، الآية ٤٤.

والإعلان بأنه مؤسس الحركة الدينية والملّة الحنفية، فلا بد من إفاضة ذلك من عالم الغيب.

ثم إنه قد يستدلّ على أن الأسباط كانوا أنبياء بالآية المباركة، وبقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ﴾[١].

وفيه: أن الآية المباركة أعمّ من حدوث الوحي وإبقائه، ومناط النبوّة هو الأول دون الثاني، فيكون مَن حفظ الوحي غير مَن أنزل الوحي عليه ابتداءً، كما ستعرف قريباً.

وفي بعض الأحاديث: «إن الله تعالى جعل النبوّة في ولد بنيامين ونزعها من ولد يوسف».

وعن أبي جعفر عليه السلام نفي كون الأسباط أنبياء، ولكنهم كانوا أسباطاً أولاد الأنبياء، ولم يكونوا فارقوا الدنيا إلاّ سعداء.

ومن ذلك يظهر الوجه في قول نبينا الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم: «علماء أُمتي كأنبياء بني إسرائيل»، أي في جهة حفظ الدين والوحي المبين، فإن العلماء أمناء الله تعالى في أرضه ما لم يميلوا إلى الدنيا.

وهذه الآية المباركة دعوة عقلية إلى نبذ الاختلاف والعصبية والأهواء، وهي تدعو الناس إلى الوحدة والاتحاد بين جميع أفراد البشر في المبدأ والتشريع والمعاد، والترغيب إلى الإيمان بأصل الدين، الذي لا خلاف فيه بين جميع أنبياء الله تعالى، فكما أن البشر متّحدون في أصل التكوين الإلهي، كذلك لا بد وأن يكون بينهم اتحاد في نظام التشريع الربوبي. والاختلاف إنما

---

(١) النساء، الآية ١٦٣.

ينشأ من المصالح الزمنية، وما يقتضيه السير التكاملي في الإنسان، كما أنه يختلف حفّاظ الوحي باختلاف العصور والقرون.

والمراد بقوله تعالى: وما أنزل إلينا القرآن وجميع المعارف والتشريعات الإلهية التي أتى بها نبينا الأعظم ﷺ، وباعتبار النزول عليه وعلى سائر الأنبياء صدق النزول علينا أيضاً.

كما أن المراد بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الصحف التي أُنزلت عليه وملّته الحنفية المقدّسة التي أمر النبي ﷺ باتباعها.

وإنّ المراد بما أُنزل على إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ذلك أيضاً، لأنهم الحفظة للملّة الحنيفية علماً وعملاً وبياناً، وإلاّ لم يعهد نزول كتاب عليهم، كما أن علماء أُمة محمد ﷺ كذلك، كما عرفت.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾.

مادة (ا ت ي) تأتي بمعنى المجيء بسهولة، وتستعمل في الأعيان والأعراض، والخير والشر.

والكلّ مذكور في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾[1]، وقال تعالى: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾[3]، إلى غير ذلك من الآيات المباركة.

وما أُوتي موسى وعيسى عبارة عن التوراة والإنجيل، وما حباهما الله تعالى من كرامة الوحي وسائر المعجزات الباهرات.

---

(١) الشعراء، الآية ٨٩.

(٢) التوبة، الآية ٧٠.

(٣) الأنبياء، الآية ٤٧.

وإنما خصّهما بالذكر لكثرة الاهتمام بهما، ولأن المقام مقام المحاجة مع اليهود والنصارى والاحتجاج عليهما، وإلاّ فهما كسائر أنبياء الله تعالى يدعوان إلى التوحيد والإسلام، ولذا أكّد سبحانه وتعالى بعد ذلك بـ:

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾.

فلم يكن لك خاصاً بموسى وعيسى، فيكون تعميماً بعد التخصيص، وإيضاحاً للسبيل، وإتماماً للحجة، والإشارة إلى أن أنبياء الله تعالى متّحدون في الدعوة إلى الحق، وهو أيضاً أعمّ من المعارف التشريعية والمعجزات التي خصّ الله تعالى بها كل نبي.

قال تعالى: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾.

أي: قولوا لا نفرق بين أحد من الرسل والأنبياء، ونحن لله تعالى مسلمون.

قال تعالى: ﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟﴾.

(الباء) في (بمثل) بمعنى التشبيه فقط، ولفظة «مثل» تفيد معنى الآلية التي ينظر بها، جيء به إتماماً للحجّة، وقطعاً للخصومة، وهذا شايع ومتعارف عند الناس، فليست الكلمة زائدة، بل بمعنى التوسعة في المثلية في جميع القرون اللاحقة.

قال تعالى: ﴿وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ﴾.

التولي: هو الإعراض، ومادة (ش ق ق) تأتي بمعنى الشقب والخرم، ويلزمهما الفصل والتجزئة، وهي تستعمل في القرآن كثيراً، قال تعالى: ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾[3].

---

(١) عبس، الآية ٢٦. (٢) الحج، الآية ٥٣. (٣) ص، الآية ٢.

وللشقاق مراتب كثيرة بالنسبة إلى الأصول والفروع والأخلاق، والشقاق بالنسبة إلى الله ورسله بمعنى الكفر والضلال؛ فالكافر في شق والمؤمن في شق، والمصلّي في شق وتارك الصلاة في شق آخر، والعادل في شق والفاسق في شق آخر، وهكذا.

فكل شيء وغيره يمكن أن يكونا من شقين ولو كانا من صنف واحد في الجملة، وفي أحاديث آخر الزمان: «لا بد من فتنة يسقط فيها الحاذق الذي يشق الشعرة شعرتين» أي بحذاقته وفكره.

قال تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

كفى: يأتي بمعنى سدّ الخلّة وبلوغ المراد في الأمر، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ فَإِنَّمَا﴾[2]، وغير ذلك من الاستعمالات القرآنية التي يأتي التعرّض لها.

فهو السميع لأقوالهم، العليم بأعمالهم وما في ضمائرهم وما يقدّره على عباده وما ينفذه فيهم، فهو الكافي من كل شيء ولا يكفي منه شيء.

والآية الشريفة من البرهان العقلي الذي قرّره القرآن الكريم، بأن يقال: الإيمان بالأنبياء والرسل سبب للهداية، فكلّ من كان على إيمانهم فهو مهتد، فاليهود والنصارى إن كانوا على إيمانهم فهم مهتدون، ثم نقول إنهم ليسوا على إيمان الأنبياء والرسل، وكل من كان كذلك فهو في شقاق مع الله ورسله، فاليهود والنصارى في شقاق مع الله ورسله، وكذا كلّ من يكون مثلهما في المخالفة الاعتقادية أو العملية مع الله ورسله، هذا بالنسبة إلى أصل ثبوت الموضوع.

---

(١) الأحزاب، الآية ٢٥. (٢) الحجر، الآية ٩٥.

وأما الأثر المترتب عليه، فهو أن الله تعالى يكفي أنبياءه ورسله والمؤمنين بهم من كيد أهل الشقاق ونفاقهم، كما يتقضيه نظام التكوين والتشريع.

وفي الآية المباركة تسلية للمؤمنين بالنصر، ووعد لهم بالكفاية، ولن يخلف الله وعده، وقد ظهر صدقه مراراً، وسيظل كذلك في ما بعد إلى آخر الزمان.

كما أن هذه الآية المباركة من أدلّة نبوّة نبينا الأعظم ﷺ ورسالته.

قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ﴾.

الصبغة: اسم لليكفية الحاصلة من صبغ الشيء، فكما أن للأجسام ألواناً تظهر للبصر، كذلك للنفوس والأرواح ما هو بمنزلة اللون، يظهر لأهل البصائر والبصيرة من بياض وسواد، وصفاء وكدر، ونور وظلمة، وطهارة وخباثة.

وأخرى: تضاف إلى غيره تعالى، وهي الظلمة والكدورة التي تحجب عن مبدأ النور.

فيكون المراد بالصبغة هو العقل الذي يُعبد به الرحمن ويكتسب به الجنان، الذي تجتمع فهي الشرايع الإلهية ـ على ما يأتي من التفصيل ـ المعبّر عنها بالفطرة السليمة، وما سوى ذلك من صبغة الله تعالى.

فصبغة الله تعالى هي الطهارة عن كلّ دنس روحي ومعنوي، ولا يمكن أن تجتمع مع الشرك والكفر والنفاق والرذائل النفسانية، فلا تتأثر بالتقاليد والأهواء والعصبية، وإنما هي من صنع الله تعالى التي تبقى وتدوم، وهي المؤثرة في الإنسان في جميع العوالم التي ترد عليه.

وهي التي تميّز من كان على الصبغة الإلهية ـ التي يظهر أثرها

الكريم من التوحيد والأخلاق الفاضلة والأعمال الشريفة ـ من غيرها الذي يكون على الصبغة البشرية، التي هي في اضطراب وتعدّد وتفرّق.

فما يفعله النصارى من تعميد أولادهم لا ينفع لدنياهم ـ مع ما هم عليه من الكفر ـ إلاّ إذا كان ما قرّره الإنجيل مصدّقاً بالقرآن، فحينئذٍ ينفعهم التعميد، لأنه من دين الله تعالى.

وبالجملة: صبغة الله ترجع إلى ارتباط العبد مع الله تعالى بنحو ما يشاء الله تعالى ويريده، لا بما يشاؤه العبد ويريده، كما يدلّ عليه صدر الآية المباركة وذيلها، فإن قوله تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾، بيان للصبغة والعلّة لتحقّقها، والإيمان والعبودية إنما يتحققان بما يشاء الله المعبود بالحق، لا بما يشاؤه العابد.

ومن ذلك يظهر أن تفسير الصبغة بالإسلام، أو ملّة إبراهيم، أو دين الله تعالى، كل ذلك صحيح وينبىء عن شيء واحد، وهو التوجّه إلى الله تعالى والانقطاع عن غيره؛ كما سيأتي في البحث الروائي.

ثم إن هذه الصبغة تنسب إلى الله تعالى نسبة الفعل إلى الفاعل، كما تنسب إلى العبد نسبة الشيء إلى قابله، وكلّ منهما على نحو الاقتضاء، لا العلّية التامة.

ومن ذلك يظهر أحسنية هذه الصبغة من حيث الذات والمورد والفاعل، فأصل اللون هو التوحيد والإيمان ومكارم الأخلاق، ومورده المؤمن، وفاعله هو الله عزّ وجلّ، وغايته السعادة والخلود في الجنان.

ومن آثارها العبودية التي كنهها الربوبية، فلا يتصوّر في العالم شيء أفضل وأحسن من هذه الصبغة، وفيها قال تعالى: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ

ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١).

قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ﴾.

أي: لا نشرك في العبادة والألوهية غيره تعالى، وهو في موضع الحال، وبيان العلّة لأحسنية الصبغة.

كما أن نصب «صبغة الله» بالفعل المقدّر، أي: اتبعوا، أو بدل من ملّة إبراهيم، وإن كان الأخير هو الأوفق، كما عرفت.

ثم إن كمالات النفس الإنسانية على أقسام ثلاثة:

الأول: ما تكون للدنيا ومن الدنيا وفيها أيضاً ولا تتجاوز عنها، وهذا هو الكثير الذي ابتلي عامة الناس به، ولا ربط له بصبغة الله تعالى أبداً.

نعم، هو مورد قضاء الله وقدره.

الثاني: ما تكون للدنيا والآخرة معاً، بحيث يجعل الدنيا وسيلةً وذريعةً للوصول إلى الكمال الأُخروي.

الثالث: ما تكون للآخرة فقط، بحيث لا نظر إلى الدنيا إلاّ على نحو الآلية والمرآتية، كما قال علي عليه السلام: «صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلّقة بالمحل الأعلى».

والقسمان الأخيران من صبغة الله تعالى؛ ولكل منهما درجات متفاوتة ومراتب كثيرة.

(١) الروم، الآية ٣٠.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾.

المحاجة: المجادلة، ومادة (ح ج ج): تأتي بمعنى القصد والطلب، ومنه: «حج البيت»، وحيث إن كل واحد من المتخاصمين والمتنازعين يطلب الغلبة على الآخر ويقصد جذبه، أُطلقت عليه المحاجة.

وتستعمل في كل من الحق والباطل؛ قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ﴾(٢). والعلوم الاستدلالية مشحونة من الاحتجاجات المتضادة المتناقضة مع العلم بكذب أحد الطرفين، والعلماء وضعوا علماً مستقلاً مفصّلاً لبيان الحجة الصحيحة مادة وصورة، والتمييز بينها وبين أنحاء المغالطة.

والمعنى: أتجادلوننا في الله وتدعون أنكم أحباء الله وأبناؤه والموحدون له، وأن دينكم الحق، وأن النبوة فيكم، مع أنّ رحمته وسعت كل شيء وكل عبيده، ولا تختصُّ رحمته بقوم دون آخرين، وجميع تلك المقترحات باطلة، وأن الله يختار ما يشاء، و﴿ما كان لهم الخيرة سبحانه الله وتعالى عما يشركون﴾(٣)، وكيف يخصّكم برحمته دون غيركم؟ ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾، والجميع عباده، ورحمته واسعة؛ وهو الرب والكلّ مربوبون له.

قال تعالى: ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾.

---

(١) الأنعام، الآية ٨٣.
(٢) الأنعام، الآية ٨٠.
(٣) القصص، الآية ٦٨.

مادة خلص؛ تأتي بمعنى ذات الشيء وخاصته وزوال كل ما يشوبه وينافيه، وقد استعملت في القرآن الكريم بهيئات مختلفة، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[(٣)]، وقال جلّ شأنه: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾[(٤)]، إلى غير ذلك من الآيات المباركة.

وكلّ ما قيل في حقيقة الإخلاص يكون دون حدّه ورتبته، وقد قال علي عليه السلام: «بالإخلاص يكون الخلاص، وطوبى لمن أخلص لله العبادة والدعاء».

وهو من الأمور الإضافية، فيضاف إلى أصل التوحيد تارة بدرجاته، وفي مقابله الشرك بمراتبه.

وإلى العبادة أخرى، وفي مقابلها الرياء بمراتبه.

وإلى سائر الأعمال ثالثة، وفي مقابلها كثير من مفاسد الأخلاق.

والجامع بين الجميع الإخلاص في الدين.

والعلماء والعرفاء ذكروا للخلوص والإخلاص معانٍ متعددة، فعن الفقهاء: أن معناه إتيان العمل لله تعالى، بأن يكون الداعي على إتيانه هو الله تعالى؛ وقد فصّلنا القول فيه في الفقه.

وعن بعض العرفاء: أن الإخلاص؛ سرّ من أسرار الله تعالى، يستودعه قلب مَن يحب من عباده.

---

(١) ص، الآية ٤٦.
(٢) الزمر، الآية ٢.
(٣) الحجر، الآية ٤٠.
(٤) الزمر، الآية ٣.

وعن آخر: أنه لا يحب أن يحمد على شيء من عمله.

وقد ينسب هذان القولان إلى الحديث أيضاً.

والحق: أنه من الحقائق التي لها مراتب كثيرة جداً، فأولى مرتبته أن يكون الداعي على إتيان العمل هو الله تعالى، وأقصى مراتبه ما تنتهي إلى حبّه تعالى، وفي هذه المرتبة أيضاً درجات غير محدودة حتى ينتهي إلى ما أثبتوه من الفناء في الله، الذي هو عين البقاء بالله تعالى.

وبالجملة: أصل الحقيقة وجدانية عملية، لا أن تكون قولية بيانية؛ فكم من حقائق تقصر الألفاظ عن بيانها ـ وإن كثرت ـ والعبارات عن شرحها ـ وإن تعدّدت ـ.

والمعنى: أنّ التفاضل يأتي من ناحية الأعمال، فكل امرىء رهين عمله، إن خيراً فخير وإن شراً فشرّ، والدار على الإخلاص، وفيها تعريض لهم بعدم الإخلاص لهم.

والآية من الآيات التي تبيّن كيفية ردّ مَن يخاصم الإسلام، سواء أكان من أهل الكتاب أم من غيرهم.

ونظير الآية المباركة بوجه أبسط من المقام قوله تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾(١)، وهذه الآية شارحة لجميع الآيات الواردة في هذا السياق.

والمستفاد منها أن منشأ النزاع والتخاصم مع دين الإسلام إما أن

(١) الشورى، الآية ١٥.

يرجع إلى المبدأ، أو إلى المعاد، أو إلى أحقيّة دين الإسلام، أو إلى جهات أخرى دنيوية.

وجميع ذلك غير مقبول بالنسبة إلى الإسلام.

أما الأول: فإذا كان المعادي مَن لا يعترف بالمبدأ، فلا بد له من الرجوع إلى الأدلّة العقلية والبراهين الساطعة التي يثبت بها المبدأ؛ وقد أشار إليه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾.

وأما الثاني: فلأنَّ إثبات الجزاء للأعمال يستلزم الاعتراف بالمعاد، لأن العمل لا يعقل بدونه بعد الاعتقاد بالمبدأ، فهما متلازمان ثبوتاً وإثباتاً، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾، وهو من قبيل ذكر اللازم وإرادة الملزوم.

وأما الثالث: وهو أحقّية الإسلام ـ ويندفع بالآيات البينات والمعجزات الباهرات ـ وإليه يشير قوله تعالى: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾.

وأما الرابع: وهو الأغراض الدنيوية كالتي يدّعيها اليهود والنصارى، فإخلاص دين الإسلام لله عزّ وجلّ ينفي ذلك كله، إذ لا معنى للدين الخالص إلا ما كان له تعالى، فكل ما سواه باطل، خصوصاً ما يتعلّق بمعبوديته وعبادته.

قال تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾.

بيّن تعالى حجّة أخرى لإبطال دعواهم بأحسن بيان وأتم حجة، أي: أتقولون إن إبراهيم عليه السلام وأولاده وأحفاده كانوا هوداً أو نصارى، وإن اليهودية أو النصرانية هما المرضيتان عند الله، ولا ينجو إحد إلاّ بهما، وإن ما عداهما كفر وضلال؟!

كيف، وقد كان إبراهيم عليه السلام وأبناءه وأحفاده على الملّة الحنفية المرضية ـ التي بدأت بخليل الرحمن وختمت بسيد المرسلين ـ الداعية إلى أصول المعارف الإلهية في المبدأ والمعاد.

والأحكام الشرعية، والبداهة والبرهان تدلاّن على كذبهم، وأن اليهودية والنصرانية إنما حدثتا بعد إبراهيم عليه السلام وأولاده وأحفاده بقرون، وهذا ادعاء باطل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾[1].

إلاّ إذا ادّعوا أنهم كانوا شهداء حين حضر هؤلاء الأنبياء الموت، فأوصوا لأعقابهم بالتهوّد والتنصّر، وهذا كسابقه باطل، ولذا ردّ عليهم سبحانه.

وفي قوله تعالى: ﴿أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ﴾ توبيخ وتعيير لهم بإبطال جميع محتملات كلامهم، ثم إظهار ما هو الحقّ.

و«أم» متصلة ومعادلة لما قبلها، أي: إن كانت المحاجّة في الله تبارك وتعالى فأنتم والمسلمون تعترفون بأنه تعالى ربّ الكلّ، وإن كانت في أن إبراهيم عليه السلام وأولاده وأحفاده كانوا هوداً أو نصارى، فهو خلاف الوجدان والبرهان، لأن التوراة والإنجيل نزلا بعد إبراهيم بقرون، وأن الله هو الجاعل النبوّة لإبراهيم وأولاده، وأنه أنزل الكتب السماوية على رسله، فهو أعلم بذلك منكم.

قال تعالى: ﴿قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ﴾.

أي: أنتم أعلم بالواقع ـ مع ادّعائكم الباطل ـ أم الله الذي أخبر بأن

(١) آل عمران، الآية ٦٥.

إبراهيم كان حنيفاً، وأنه ارتضى لكم ملّته؟! أو أن أولاده رضوا بعبادة الله إلهاً واحداً ـ كما عرفت ـ وأنه أنزل الكتب السماوية على رسله، فهو أعلم بذلك منكم. ولا ريب في أنهم يعترفون بالثاني، فيكون ادّعاؤهم باطلاً.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾.

كتم: بمعنى ستر، وكتم الشهادة أي سترها، وهو وشهادة الزور من المعاصي الكبيرة.

والمراد من الشهادة في المقام شهادة التحمّل ـ كما هو الظاهر ـ فيكون التوبيخ والتعيير حقيقياً، لأجل كتمان الواقع وإيقاع النفس في الكبيرة الموبقة والهلاك الأبدي.

ومثل هذا كثير في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾[٢]، إلى غير ذلك من الآيات المباركة.

والمراد بالمشهود عليه: إما رسالة رسول الله ﷺ، وقد أخبر الله تعالى اليهود بأنه يقيم لهم نبياً من إخوتهم ويجعل كلامه في فيه، كما أخبر المسيح برسول يأتي من بعده اسمه أحمد، وقد كتموا هذه الشهادة تعصباً وإنكاراً للحق.

أو الشهادة بأن إبراهيم عليه السلام كان على دين الحقّ والإسلام والملّة الحنفية، ولم يكن يهودياً ولا نصرانياً.

وقد كتموا الشهادتين ظلماً.

---

(١) الأنعام، الآية ٢١.
(٢) الزمر، الآية ٣٢.

ومن المحتمل أن يكون المراد شهادة الأداء، أي مَن أظلم من الله لو كان قد كتم الشهادة على أن إبراهيم عليه السلام كان يهودياً أو نصرانياً، وقد بيّن خلافها، فيكون الشرط تقديرياً، ويصحّ مثل هذا التعبير في المحاورات حتّى مع امتناع المتعلّق، كما في جملة كثيرة من القضايا الشرطية وما في سياقها.

ويكون المراد من مثل هذا التعبير هو إيهام الطرف بأن كتمان الشهادة من الظلم القبيح، وفيه من المفسدة العظيمة ولا سيما إذا كانت الشهادة في المعارف الإلهية والأمور الدينية، فيكون أظلم، ولذا أوعد عليه تبارك وتعالى بـ:

قال تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾.

تقدم معنى الغفلة في آية (٧٥) من هذه السورة، وقد ذكرت هذه الكلمة في القرآن العظيم كثيراً، قال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ تَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَأَنتُمۡ شُهَدَآءُۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ﴾[٢]، إلى غير ذلك من الآيات الشريفة. وبعد فرض إحاطته تعالى بما سواه إحاطة ربوبية قيومية تستحيل الغفلة بالنسبة إليه جلّ شأنه، لأنه من الجمع بين النقيضين، فالغفلة منه ممتنعة وتقع من عباده بالنسبة إليه تعالى، ولها مراتب كثيرة جداً.

هذا، ولكن ليس من القبيح عقلاً ولا شرعاً غفلته تعالى عن سيئات عباده، وهي في الحقيقة ترجع إلى تغافله تبارك وتعالى عنها.

---

(١) النمل، الآية ٩٣.
(٢) آل عمران، الآية ٩٩.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

تقدّم معناها، وإنما كرّرت تأكيداً لسوء أخلاقهم، وبياناً لعدم اقتداء الخلف بالسلف الصالح، فكانت إحدى الآيتين بالنسبة إلى أصل الحدوث لطائفة، وهم الأنبياء والرسل، والأخرى كانت ناظرة إلى البقاء بالنسبة إلى طائفة أخرى، أي: أنهم يسألون عن أعمالهم مع هذا الدين الجديد ومعاملتهم مع رسول الله ﷺ.

والآية المباركة تشير الى إنكار رذيلة الاستكبار عن قبول الحق والإصرار على الباطل، والافتخار بالدعاوى التي لا واقع لها، والتعلّل زوراً بمن مضى.

وفي تكرارها تأكيد أيضاً إلى ارتباط السعادة بالعمل الصالح، الذي أكّد القرآن الكريم عليه، فكلّ يجزى بعمله، ولكن ذلك لا ينافي ثبوت أصل الشفاعة. كما لا تدلّ عليها، فإن انتفاع الناس بعضهم ببعض في الدنيا والآخرة مما لا ريب فيه عقلاً وشرعاً، فالمقام كالآيات الشريفة الدالّة على عدم تملك نفس عن نفس شيئاً؛ قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾[١]، التي لا تنفي الشفاعة[٢].

---

(١) الانفطار، الآية ١٩.
(٢) ٧٦ ـ ٩١ (ج٢).

التزكية

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٥٠ ـ ١٥١].

أصل الزكاة: هو النمو الحاصل من بركة الله تعالى، سواء أكان في الأمور الدنيوية، أم الأُخروية، أم هما معاً.

وقد استعملت في القرآن الكريم بأنحاء شتى..

فتارة: تضاف إلى الله عزّ وجلّ، قال تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾[١].

وأخرى: إلى نبيّنا الأعظم ﷺ، كما في المقام.

وثالثة: إلى ذات الفاعل، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[٢]. وهذا هو شأن جميع الصفات ذات الإضافة.

والتزكية: هي الطهارة والتقديس عن الأدناس والأرجاس الظاهرية،

(١) النساء، الآية ٤٩.

(٢) الشمس، الآيتان ٩ و١٠.

أو الرذائل المعنوية، سواء كانتا بالنسبة إلى النفس، كما في بعض النفوس السعيدة مما يفيض عليها الله تعالى على نحو الاقتضاء، كما قال تعالى: ﴿غلاما زكيا﴾[١]، أو بالنسبة إلى الأعمال والأفعال.

والرسول الأعظم ﷺ هو المثل الأعلى في التزكية بجميع مراتبها، والقدوة الحسنة في الأخلاق الفاضلة والسجايا الكريمة، لا يدانيه أحد ولا يجاريه فرد، ولقد جاهد في تزكية أُمته بدينه وتعاليمه وتشريعاته، وبنفسه الشريفة، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[٢]. وتطهيرهم من رذائل الأخلاق وسوء الاعتقاد، فإن بالتزكية يتخلّى الإنسان عن الرذائل والخبائث، ويتحلّى بالفضائل، فهي التربية العملية التي لها الأثر العظيم في مطلق التربية والتعليم.

وترتب التزكية على التلاوة من قبيل ترتب المقتضى (بالفتح) على المقتضي (بالكسر)، وقد يكون من قبيل ترتب المعلول على العلّة التامة، كما في بعض النفوس المستعدة.

ثم إنه تعالى قدّم التزكية على التعليم في هذه الآية الشريفة، وأخّرها عنه في دعاء إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾[٣].

ولعلّ الوجه في ذلك أن للتزكية مراتب كثيرة، منها الإرشاد المحض وإتمام الحجّة، ومنها التخلّي عن الرذائل، ومنها التحلّي بالفضائل، ومنها

---

(١) مريم، الآية ١٩.
(٢) الأحزاب، الآية ٢١.
(٣) البقرة، الآية ١٢٩.

التجلّي بمظاهر الأسماء والصفات الربوبية، ولكل واحدة منها درجات، فيحمل ما قدّمت فيها التزكية على بعض المراتب؛ وما أخّرت فيها على البعض الآخر.

قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

لأن بالتعليم يرتقي الإنسان من أدنى درجات البهيمية إلى أقصى درجات الإنسانية، فقد كان الرسول ﷺ المعلّم الهادي لأُمته، يبيّن لهم ما انطوت عليه شريعته، وما اشتمل عليه كتابه الكريم من الأسرار والمعارف الربوبية.

قال تعالى: ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

تقدَّم معنى الحكمة في الآية ٣٢ من هذه السورة.

فإن قلنا بمقالة الفلاسفة من أنّ الحكمة. .

تارة: علمية، وهي: العلم بحقائق الموجودات بقدر الطاقة البشرية.

وأخرى: عملية وهي صيرورة الإنسان أكبر حجّة لله تعالى في خلقه، فإن عظمة مقامها معلومة لكلّ أحد.

وإن قلنا بما يستفاد من الكتاب والسنّة المقدّسة ـ وهي متابعة الشريعة أصولاً وفروعاً، ومعرفة حجّة الله على الخلق ـ فالامر أظهر وأبين، وسيأتي شرح الحكمة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾(١).

قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾.

---

(١) البقرة، الآية ٢٦٩.

بفهم أسرار الكتاب العظيم، وأخبار الأمم الماضين، والعلوم التي تهمّكم وتزيد في علومكم، وتكون سبباً في تهذيب نفوسكم، ممّا لم تكونوا تعلمونه سابقاً.

وهذه الآية على اختصارها تحتوي على أصول التربية والتعليم بالترتيب الذي أراده القرآن العظيم، ابتداءً بالتلاوة والتذكّر بآيات الله تعالى، ثم تزكية النفس من الرذائل وتحليتها بالفضائل، لتستعد لإفاضة العلوم عليها، ثم التعليم، ثم معرفة الأشياء بحقائقها، والعمل بما عرفه، كل ذلك من طريق الشرع المبين.

وعليه ترجع التلاوة والحكمة إلى الكتاب الذي هو القرآن العظيم، فإنهما وإن اختلفتا في المؤدى، ولكنهما متّحدتان مصداقاً، لكن الكتاب يظهر بأطوار مختلفة.

قال تعالى: ﴿واذكروني﴾.

الذكر.. تارة: يطلق ويراد به التوجه والالتفات الفعلي، وهو عبارة أخرى عن الحفظ، والفرق بينهما بالاعتبار، فإن الثاني يقال له باعتبار ذاته، والأول يقال له باعتبار التوجّه الفعلي إلى الشيء، ولو لوحظ ذات الحضور من حيث هو فهما سواء من هذه الناحية.

وقد يطلق أخرى: ويراد به إظهار الشيء باللسان، أو القلب أو الجوارح، فمن الأوّل آيات كثيرة منها **قال تعالى**: ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾[1].

ومن الثاني قوله تعالى: ﴿فاذكروا الله كذكركم آبائكم أو أشد ذكرا﴾[2]، فإنه عام لذكر القلب واللسان.

---

(١) الأنبياء، الآية ٢٤.
(٢) البقرة، الآية ٢٠٠.

ومن الأخير قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾[١]، حيث إنّ الصلاة ذكر الله تعالى بالجوارح أيضاً.

بل يطلق الذكر على نبيّنا الأعظم ﷺ الذي هو الفرد الأكمل والمرآة الأتم لصفات الجلال والجمال، قال تعالى: ﴿قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا * رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾[٢]، بناءً على لفظ «رسولاً» من لفظ «ذكراً»، كما أُطلقت «الكلمة» على عيسى بن مريم عليه السلام، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾[٣].

وقد يكون بمعنى الشرف وعلو المنزلة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾[٥].

والذكرى كثرة الذكر وأبلغ منه، قال تعالى: ﴿رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[٦]، وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[٧].

والمراد به في المقام هو الالتفات الفعلي إليه تعالى، قلباً وقولاً وعملاً، عكس قوله تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾[٨].

والالتفات إليه تعالى يتحقّق بتذكّر نعمه تعالى، وإدمان الشكر عليها، والطاعة والعبادة له، وإتيان ما اختاره الله تعالى، مما فيه السعادة في الدارين، فإن الالتفات إليه عزّ وجلّ كذلك مبدأ العبودية المحضة

(١) طه، الآية ١٤.
(٢) الطلاق، الآيتان ١٠ ـ ١١.
(٣) النساء، الآية ١٧١.
(٤) الزخرف، الآية ٤٤.
(٥) الشرح، الآية ٤.
(٦) ص، الآية ٤٣.
(٧) الذاريات، الآية ٥٥.
(٨) الحشر، الآية ١٩.

المنتهية إلى الكمال المطلق، لما ثبت في الفلسفة العملية من: أن آخر مقام الفناء في مرضاته تعالى، أوّل مقام البقاء به عزّ وجلّ، وأن أُخريات درجات التحلّي، مبشّرات لأوّليات مقامات التجلّي.

وذلك لأن أُنس النفس بالكامل بالذات والكمال المطلق، والخير المحض العام، والفيض الأقدس التام، يوجب ترقي النفس وتعاليها عن حضيض البهيمية حينئذٍ إلى أوجِ الكمالات الحقيقية، وكلما ازداد الأُنس ازداد الارتقاء، وأساس هذا الأُنس يدور مدار الالتفات الفعلي إليه عزّ وجلّ، كما يريده تعالى، وهو المعبّر عنه بـ(الذكر) في الكتاب والسُنّة الشريفة، وبعبارات مختلفة أخرى، كالتوجّه، والتقرّب، والتولية وغيرها.

والمناط كله أمران:

الأول: الالتفات الفعلي إلى الله تبارك وتعالى، المعبَّر عنه في الفقه بـ(القربة)، كما يعبّر عنه علماء الأخلاق بـ(الحضور، والتوجّه)، ونحو ذلك.

الثاني: كون ما يذكر به الله عزّ وجلّ مأذوناً فيه من قبله تعالى، فقد ورد الإذن فيه في الشريعة المقدّسة بشرائطه المعينة، التي لا بد من مراعاتها، كما فصّلها الفقهاء، فكلّ ما يكون مرضياً لله تعالى، ويؤتى به لوجهه عزّ وجلّ، فهو ذكر الله تعالى، سواء أكان من العقائد أم الأخلاق الحسنة، أم العبادات والمعاملات أم غير ذلك، فإن ذكره تعالى - كرحمته - وسع كلّ شيء إذا لوحظ فيه التوجّه إليه، وقد جعله تعالى بهذه التوسعة تسهيلاً لوصول عباده إليه عزّ وجلّ، وما ورد في الفلسفة العملية من: «أنّ الطرق إلى الله تعالى بعدد أنفاس الخلائق»، فيه إشارة إلى ما ذكرناه، فكما لا حدّ للمذكور، كذلك لا حدّ لمراتب الذكر:

فإن الذكر اللفظي، كالتسبيح، والتحميد، والتهليل، والشكر لنعمائه. والذكر العملي هو العبادة، والطاعة، والأفعال المرضية له تعالى، كعيادة المرضى، وتشييع الموتى، والسعي في قضاء حوائج الإخوان.

والذكر القلبي هو التوجّه والخلوص والتقرّب إليه تعالى.

وكلما ازدادت عبودية العبد لربه ازداد مقام توجّهه إليه؛ ولذا ورد عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «لي مع الله حالات لا يسعني فيها ملك مقرّب ولا نبي مرسل». وفيه إشارة إلى بعض توجهاته الخاصة إلى مقامات ربه، أو قوله ﷺ: «إنّي أبِيتُ عند ربي، فيطعمني ويسقيني ربي».

ثم إنّ ترتيب قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي﴾ على الآيات السابقة، ترتيب عقلي واجب من باب وجوب شكر المنعم، الذي يحكم به العقل المستقل.

والمتحصّل من جميع ما ذكرناه أمور:

الأول: أنّ الذكر منبّث على القلب واللسان والجوارح، ولا يختصُّ بخصوص الذكر اللفظي، بل كلّ ما كان مضافاً إليه عزّ وجلّ، وكان مأذوناً فيه من قبله تعالى، وتقابله المعصية فإنها لا تصدر إلاّ مع الغفلة عنه عزّ وجلّ.

الثاني: أنّ حقيقته هو التوجّه الفعلي إليه عزّ وجلّ، أي العلم الفعلي بأصل العلم، لا مجرد العلم فقط، ولذلك مراتب كثيرة، منها ما ذكره بعضهم: «أن ينسى العبد ما سوى الله تعالى، ويكون مقصوده من جميع حركاته وسكناته وأفعاله وأقواله ـ بل وخطرات قلبه ـ هو الله تعالى».

الثالث: أنّ أمره بالذكر شامل لجميع المراتب، ولا يختصُّ بخصوص بعضها.

الرابع: أنّ ما يقترفه الناس في كيفية ذكره تعالى لا أصل له إلاّ إذا ورد من الشرع المقدّس الإذن فيه، وقد ورد في الأحاديث في ما يتعلّق بالذكر ـ كمية وكيفية، زماناً ومكاناً ـ ما يشفي العليل ويروي الغليل، وقد وضع الأعلام فيه كتباً ورسائل.

الخامس: أقسام الذكر ستة..

فتارة: يتعلّق بالنعم الطبيعية، قال تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾[1].

وأخرى: يتعلّق بالنعم العارضة التي أفاضها الله سبحانه على الإنسان، قال تعالى: ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾[2].

وثالثة: يكون محبوباً بذاته على كلّ حال، ومجرداً عن الإضافة، قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾[3].

ورابعة: يكون عند اهتمام النفس بشيء غير مرضي له تعالى، فيذكر الله ويرتدع عنه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[5].

وخامسة: يكون بعد الارتكاب، فيذكر طلباً لرضائه، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾[6].

---

(١) مريم، الآية ٦٧.
(٢) الحج، الآية ٣٤.
(٣) الشعراء، الآية ٢٢٧.
(٤) الأعراف، الآية ٢٠١.
(٥) العنكبوت، الآية ٤٥.
(٦) آل عمران، الآية ١٣٥.

وسادسة: حين ارتكاب ما لا يرتضيه الله تعالى، وقد ورد في الدعاء: «وعزتك وجلالك ما أردت بمعصيتي مخالفتك، وما عصيتك إذ عصيتك وأنا بك جاهل، ولا لعقوبتك متعرّض، ولا لنظرك مستخف، ولكن سوّلت لي نفسي».

إن قيل: ذكره تعالى حين ارتكاب ما لا يرتضيه الله عزّ وجلّ، كيف يكون محبوباً له تعالى؟

يقال: إنّ الذكر إذا كان على نحو الاستخفاف والاستهانة ـ نعوذ بالله ـ فلا ريب في أنه ليس من الذكر، بل يوجب الكفر والبُعد عن ساحة الرحمن.

وأما إذا كان من باب أنه تعالى ستّار العيوب، وغفّار الذنوب، فهذا يوجب الحياء منه تعالى ولو في ما بعد، فينتهي إلى التوبة والاستغفار، فيكون محبوباً له.

قال تعالى: ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾.

للمفسّرين في بيان متعلّق الذكر أقوال:

منها: اذكروني بطاعتي، أذكركم برحمتي، أو أذكركم بمعونتي.

ومنها: اذكروني بالشكر على نعمائي، أذكركم بالزيادة، إلى غير ذلك ممّا قالوه.

والحق هو الحمل على العموم، وهو ذكر الله تعالى في كلّ مظهر من مظاهر العبودية حتى يدرك ذكر الله تعالى في كلّ مظهر من مظاهر رحمته وجوده، ومنه ما ورد في الحديث: «أنا عند ظن عبدي المؤمن إذا ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني في ملأٍ ذكرته في ملأٍ خير منه ـ الحديث ـ» وهو يجازي عبده بالجزاء الأوفى، ويَعِدُ له باللطف

والكرامة والإحسان ومزيد من النعم، ويضاعف لمن يشاء إنه ذو فضل عظيم.

فلا يختصُّ ذكره تعالى لذاكريه بعالم دون آخر، ولا بحالة دون أخرى.

ثم إن ترتّب قوله تعالى: ﴿أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ على «اذكروني» من باب ترتب المعلول على العلّة التامة، لأن التوجه الفعلي من العبد إلى الله عزّ وجلّ، ذكر منه تعالى للعبد بعناياته الخاصة، فيكون هذا المعنى من الذكر من الصفات ذات الإضافة، فإن أُضيف إلى العبد، يكون ذكراً منه، وإن أُضيف إليه عزّ وجلّ، يكون من ذكر الله تعالى له.

وقد يكون من باب ترتّب المقتضى ﴿بِٱلۡفَتۡحِ﴾ على المقتضي (بالكسر)، لاختلاف مراتب الذكر والذاكر كما هو معلوم، والظاهر أن ملازمة الذكر للذكر، من الملازمات المتعارفة بين العقلاء، فهو حسن لديهم، يكون من الله تعالى أحسن.

قال تعالى: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾.

مادة: (ش ك ر) كمادتي (ك ش ر)، و(ك ش ف) تأتي بمعنى الإظهار، ويقابلها مادة: (ك ف ر) التي تأتي بمعنى الستر، ويختلف ذلك باختلاف المتعلّق اختلافاً كثيراً. والجامع القريب في الأُولى الإظهار، وفي الثانية الستر.

فإظهار وحدانية الله تعالى، وصفاته الحسنى، وأفعاله العليا، إيمان، وستر ذلك كفر، ولهما مراتب.

كما أن إظهار نعمه شكر وسترها كفر، ويطلق عليه الكفران أيضاً.

والإظهار **تارة**: يكون الاعتقاد.

وأخرى: بالقول.

وثالثة: بالعمل، إما بفعل ما أوجبه الله تعالى، أو ترك ما نهاه عنه تعالى، وقد قال علي عليه السلام: «شكر كلّ نعمة، الورع عن محارم الله تعالى».

والمعنى: أظهروا نعمائي، ولا تكفروا بسترها.

وإنما قال تعالى: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾، ولم يقل: واشكروا لي أشكركم، لأمور:

أحدها: الإعلان بقبح الكفر والكفران استقلالاً.

ثانيها: التنبيه على عظم النعمة، وأنه بمنزلة كفر الذات.

ثالثها: أنه استفيد من مقابلة الذكر بالذكر ـ في قوله تعالى: ﴿اذكروني أذكركم﴾ ـ بالملازمة، فلا وجه للتكرار بعد ذلك.

أقسام الشكر

ثم إنّ الشكر من أجلّ الصفات الحسنة، ومن أرفع مقامات العبودية، وهو على أقسام:

الأول: أن يكون من المخلوق للخالق، وقد رغّب إليه الكتاب والسنّة المقدّسة، ترغيباً بليغاً بأنحاء مختلفة، بأن أضاف الشكر. .

تارة: إلى نفسه، قال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا لِلَّهِ﴾(٢)، إلى غير ذلك من الآيات المباركة.

وأخرى: إلى نعمه، قال تعالى: ﴿وَٱشْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾(٣). وهو يرجع إلى الأول، لأن كل ما بالعرض لا بد أن ينتهي إلى ما بالذات.

وثالثة: إلى نفس الشاكر، قال تعالى ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾(٤)، فإن غاية الشكر إنما يرجع إلى نفس الشاكر، كقوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾(٥)، ولا فرق في هذا القسم بين أن يكون

(١) لقمان، الآية ١٤.
(٢) البقرة، الآية ١٧٢.
(٣) النحل، الآية ١١٤.
(٤) لقمان، الآية ١٢.
(٥) الإسراء، الآية ٧.

الشكر على الآراء والمعتقدات الحسنة والمعارف الحقّة، أو على النعم الخارجية، وجميع ذلك مذكور في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٣]، وهو مطابق للقواعد العقلية، لأن أساس معرفة الله تعالى مبنيّ على وجوب شكر المنعم عقلاً ـ وهذا الوجوب عقلي، لا أن يكون شرعياً ـ ومعرفة الله تعالى من أرفع المقامات والكمالات الإنسانية التي وصل الإنسان إليها بحكم عقله.

الثاني: أن يكون من الخالق للمخلوق، قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾[٥]، بل الشكور من أسمائه الحسنى، فإن من عادة العظماء التشكّر مما يستحسنونه من أعمال الرعايا، وله دخل كبير في سوق العباد إلى العمل، وجلب قلوبهم.

الثالث: أن يكون من الخلق لآخر مثله، وهو من مكارم الأخلاق، وقد ورد في الحديث: «مَن لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق»، لانتهاء المخلوق ونعمه إلى الخالق، فالشكر له ينتهي بالآخرة إلى شكر نعمائه، وترك شكر المخلوق ينتهي إلى ترك شكر الخالق في سلسلة الأسباب.

ثم إنّ الشكر.. **تارة**: يكون لله تعالى، لذاته بذاته، بلا لحاظ عناية أخرى، لأنه مبدأ الكلّ ومنتهاه، فيستحقّ الشكر، وهو شكر أخصّ الخواص، وأخلص أنواع الشكر وأعظمها.

---

(١) المائدة، الآية ٨٩.
(٢) النحل، الآية ٧٨.
(٣) الأنفال، الآية ٢٦.
(٤) النساء، الآية ١٤٧.
(٥) الإنسان، الآية ٢٢.

وأخرى: يكون على ما يرد منه تعالى على عبده من البلايا والمحن، فيشكر عليها كشكره على النِعَم، وهو شكر الخواص، وهو كالأول من أجلّ مقامات العارفين بالله تعالى.

وثالثة: يكون بإزاء النعمة، وهو شكر العامّة من الأنام، وسيأتي في قوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1] ما يناسب المقام إن شاء الله تعالى.

---

(١) إبراهيم، الآية ٧.

بحوث المقام

بحث دلالي:

تتضمن الآيات الشريفة أموراً:

الأول: أنّ في اختيار صيغة التكلّم في قوله تعالى: ﴿أَرْسَلْنَا﴾، أو قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتِنَا﴾، ثم توجيه الكلام إلى النبي ﷺ إشارة إلى أنّ الاستكمال في المعارف الإلهية لا بد وأن ينتهي إليه عزّ وجلّ، وأنّ النبي ﷺ في ذلك واسطة محضة.

وفيه: إشارة إلى الاتحاد في هذه الجهة بينه تعالى وبين نبيّه ﷺ، حيث شبك الكلام بالضمير الراجع إلى ذاته الأقدس، والضمير الراجع إلى نبيّه المقدّس.

الثاني: أنّ الآيات المباركة تدلُّ على نبوّة نبيّنا الأعظم ﷺ، الذي لم يكن من ذاته شيء وله من ربه كلّ شيء، فجعله منشأ الفيوضات التامة في عالم الغيب والشهادة، فإنه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾[1].

الثالث: أنها تدعو الناس إلى جميع أنحاء الكمالات الظاهرية والمعنوية بالتعليم.

---

(١) النجم، الآية ٤.

الرابع: أنّ مقتضى المطابقة والمجازاة بين ذكر العبد وذكره تعالى، أنه بكلّ وجه تحقّق ذكر العبد، يتحقّق ذكره تعالى له، بمثله ونظيره مع الزيادة، لفرض سعة رحمته وفضله، فإن ذكره العبد في نفسه، يذكره الله عزّ وجلّ كذلك، وإن ذكره في ملأٍ من الناس، يذكره الله تعالى في ملأٍ من الملائكة، وإن ذكره الدنيا أو الآخرة، يكون ذكره تعالى لعبده كذلك، ويمكن أن يكون صرف وجود ذكره تعالى لعبده منشأ لسعادته الأبدية التي لا حدّ لها ولا حصر، وذلك يختلف باختلاف الاستعدادات والنفوس. هذا بناء على ما هو ظاهر الآية الشريفة من سياق الشرط والجزاء الظاهري.

وأما بناءً على ما أشرنا إليه من رجوع المعنى: إن أذكركم فلا تغفلوا عني. فللمقام لطائف أخرى نشير إليها في الآيات الأخرى.

الخامس: أنّ في قوله تعالى: ﴿اذكروني أذكركم﴾ لطف وعناية، وتعليم للغير بمجازاة الخير بالخير.

السادس: أنّ في قوله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ تحذيراً لأمة محمد ﷺ، أن لا يتركوا ما أمرهم الله تعالى، ولا يكفروا بما أنعم الله عليهم، لئلا يقعوا في ما وقعت فيه الأمم السابقة، بعدما كفرت بأنعم الله تعالى.

السابع: أنّ في ذكر العنوان الإثباتي بقوله تعالى: ﴿وَٱشْكُرُواْ﴾، والعنوان السلبي بقوله عزّ وجلّ: ﴿ولا تكفرون﴾، إشارة إلى الاهتمام بالموضوع أولاً؛ ونفي أنحاء الكفر حتى كفران النعمة ثانياً، وإلاّ فيصح الاكتفاء بأحد العنوانين.

بحث روائي:

في الكافي عن أبي حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «مكتوب في التوراة التي لم تغيّر، أنّ موسى سأل ربّه فقال عليه السلام: يا رب أقريب أنت مني فأناجيك أم بعيد فأناديك فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: يا موسى أنا جليس من ذكرني. فقال موسى عليه السلام: فمن في سترك يوم لا ستر إلاّ سترك؟ قال: الذين يذكرونني فأذكرهم ويتحابون فيّ فأحبّهم فأولئك الذين إن أردت أن أصيب أهل الأرض بسوء ذكرتهم، فدفعت عنهم بهم».

أقول: الروايات المتواترة بين الفريقين في فضل الذكر والتحابب في الله والتباغض فيه، بل في بعضها: «ليس الإيمان إلاّ الحب في الله والبغض في الله».

والمراد من قوله تعالى: ﴿ذكرتهم فدفعت عنهم﴾ التوجّه الخاص الذي يكون بالنسبة إلى الأولياء، ولأجلهم. خلق هذا العالم ويدار هذا النظام، أي: «العلّة الغائية»، كما عبّروا عنها في الفلسفة الإلهية.

وفي عدّة الداعي قال: روي: «أن رسول الله صلى الله عليه وآله خرج على أصحابه، فقال: ارتعوا في رياض الجنّة، فقالوا: يا رسول الله، وما رياض الجنّة؟ قال: مجالس الذكر، اغدوا وروحوا واذكروا، ومَن كان يحبّ أن يعلم منزلته عند الله، فلينظر كيف منزلة الله عنده، فإن الله تعالى ينزّل العبد حيث أنزل العبد الله تعالى من نفسه، واعلموا: أن خير أعمالكم عند مليككم وأزكاها وأرفعها في درجاتكم، وخير ما طلعت عليه الشمس، ذكر الله تعالى، فإنه تعالى أخبر عن نفسه، فقال: أنا جليس مَن ذكرني، وقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ بنعمتي، أذكروني بالطاعة والعبادة، أذكركم بالنعم والإحسان والراحة والرضوان».

أقول: المراد من قوله ﷺ: «ارتعوا في رياض الجنّة»، الترغيب في المسارعة إلى مجالس ذكر الله تعالى، إن كانت المجالس وكان الذكر مستجمعاً لجميع الشرائط التي ذكرها الفقهاء.

والمراد من المنزلة توجّه قلب المؤمن وإخلاصه من كلّ جهة إلى الله تعالى، ولازم ذلك ارتفاع منزلته عند الله تعالى، فتكون القضية حينئذٍ من الملازمات العقلية، لأن الانقطاع من جميع الجهات إليك تبارك وتعالى، بحيث لا يشوبه شيء آخر يوجب أن تكون عناياته متوجّهة إليه، بل نفس هذا الانقطاع إليه هكذا، عناية خاصة منه تبارك وتعالى.

والمراد من قوله: ﴿أنا جليس من ذكرني﴾ نهاية القرب إليه جلّ عظمته، والدّنو المعنوي منه، كما يقرب إلينا جليسنا ويدنو منا، لا أن يكون المراد منه القرب المكاني.

وفي الكافي عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّ الله عزّ وجلّ يقول: مَن شغل بذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي مَن سألني».

أقول: إن شغل النفس بذكره تعالى عن بيان الحاجة، يكون على قسمين:

الأول: ما إذا كان لسان حاله، أنّ علمك بحالي يغني عن مقالي.

الثاني: ما إذا نسي ذلك كله وتوجّه إليه تعالى من كلّ جهة، وفي القسمين يحصل التوجّه التام بالنسبة إليه، فيغفل عن شؤونه.

وفي المعاني عن الحسين البزاز قال: «قال لي أبو عبد الله عليه السلام: ألا أحدّثك بأشدّ ما فرض الله على خلقه؟ قلت: بلى، قال: إنصاف الناس من نفسك؛ ومواساتك لأخيك، وذكر الله في كلّ موطن، أما أني

لا أقول سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، وإن كان هذا من ذاك، ولكن ذكر الله في كلّ موطن إذا هجمت على طاعة أو معصية».

أقول: المراد بهذا الذكر ـ ما تقدّم في أقسام الذكر ـ هو الذكر العملي الخارجي عن إرادة الطاعة، أو إرادة المعصية، بحيث يكون الذكر اللفظي كاشفاً عنه.

في الكافي: عن بشير الدهان، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال الله عزّ وجلّ: يا ابن آدم اذكرني في ملإٍ أذكرك في ملإٍ خير من مَلَئِك».

أقول: تقدّم في ضمن الآية المباركة ما يرتبط بهذا الحديث.

وفي المحاسن: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال الله عزّ وجلّ: ابن آدم، اذكرني في نفسك أذكرك في نفسي، ابن آدم اذكرني في خلاٍ أذكرك في خلاٍ، ابن آدم اذكرني في ملإٍ أذكرك في ملإٍ خير من ملئك. وقال: ما من عبد ذكر الله في ملإٍ من الناس، إلاّ ذكره الله في ملإٍ من الملائكة».

أقول: الروايات في ذلك مستفيضة بل متواترة بين الفريقين، وهذا الحديث مبيّن لبعض أقسام الذكر، فإنها إما نفسي قلبي، أو باللسان في مكان خلوة، أو باللسان في الملإ، والذكر في الملإ إن أوجب ذكر الملإ لله تعالى، فلا ريب في أن ذلك يوجب تشعّب أذكار كثيرة، كلها من ناحية الذاكر، فيترتب عليه الثواب مضاعفاً، وإن لم يوجب ذكر غيره، يكون من إتمام الحجّة على الغير، فيكون كسابقه.

في الكافي: عن السكوني، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «أوحى الله إلى موسى: يا موسى، لا تفرح بكثرة المال، ولا تدع ذكري على كل حال، فإن كثرة المال تنسي الذنوب، وإن ترك ذكري يقسي القلوب».

وفي الدر المنثور: أخرج الطبراني وابن مردويه، والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود، قال: «قال رسول الله ﷺ: مَن أُعطي أربعاً، وتفسير ذلك في كتاب الله: مَن أُعطي الذكر ذكره الله، لأن الله يقول: اذكروني أذكركم، ومن أُعطي السؤال أعطي الإجابة. لأن الله يقوله: أدعوني أستجب لكم. ومَن أُعطي الشكر أُعطي الزيادة: لأن الله يقول: لئن شكرتم لأزيدنكم. ومَن أُعطي الاستغفار أُعطي المغفرة، لأن الله تعالى يقول: استغفروا ربكم إنه كان غفّاراً».

أقول: وروي قريب منه عن علي عليه السلام، ولا بد من تقييد ذلك بما إذا وقع من العبد بشرائطه.

وفي الدر المنثور، قال: «رسول الله ﷺ: من أطاع الله فقد ذكر الله، وإن قلّت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن. ومَن عصى الله فقد نسي الله، وإن كثرت صلاته وصيامه وتلاوته للقرآن».

أقول: يستفاد من أمثال هذه الروايات، أن منشأ كلّ معصية هي الغفلة عن الله تعالى، وتدلّ على ذلك آيات كثيرة نتعرّض للتفصيل فيها إن شاء الله تعالى.

في الكافي: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ: ما من قوم اجتمعوا في مجلس فلم يذكروا اسم الله عزّ وجلّ، ولم يصلّوا على نبيهم، إلاّ كان ذلك المجلس حسرة ووبالاً عليهم».

أقول: الوبال هو سوء العاقبة والعذاب، وكون المجالس وبالاً لتحقّق الغفلة عن الله تعالى، لأنها منشأ كلّ معصية ولا وبال أشد منها.

والوجه في كون ذكره ﷺ من ذكر الله تعالى، لفرض أنه رسوله وينبىء عنه، وكذا جميع أولياء الله تعالى، الذين يدعون إليه تعالى.

وفي تفسير العياشي: عن سماعة بن مهران، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قلت له: للشكر حدّ، إذا فعله الرجل كان شاكراً؟ قال عليه السلام: نعم. قلت: وما هو؟ قال؟: الحمد لله على كلّ نعمة أنعمتها عليّ، وإن كان لكم في ما أنعم عليه حق أداء منه، ومنه قول الله: الحمد الله الذي سخّر لنا هذا».

أقول: هذا بيان لأدنى مرتبة حد الشكر، لإتمام مراتب الشكر.

عن العياشي - أيضاً -: عن أبي عمرو الزبيري، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «الكفر في كتاب الله على خمسة أوجه: فمنها كفر النعم، وذلك قول الله يحكي قول سليمان: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾، وقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، وقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾.

أقول: تقدّم ما يتعلق بأقسام الكفر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1]، وفي البحث الروائي منه.

(١) البقرة، الآية ٦.

مراتب الذكر

من أجلّ مقامات العارفين مقام الذكر، بل هو من أعظم مظاهر حبّ الحبيب لمحبوبه، فإن «مَن أحب شيئاً، أكثر من ذكره»، ومن علامات الحبيب الاستهتار بذكر حبيبه، وقد قالوا: إنّ المحب إذا صمت هلك، والعارف إذا نطق هلك، لأن الأول مجبول على ذكر الحبيب، والثاني مأمور بستر الأسرار، ونسب إلى سيد الساجدين عليه السلام.

يا ربّ جوهر علمٍ لو أبوحُ بهِ   لَقيلَ لي أنتَ ممّن تَعبد الوَثنا

والذكر ـ عندهم ـ على أقسام ثلاثة:

الأول: ذكر اللسان المستمد من القلب.

الثاني: ذكر القلب مع عدم حركة اللسان، ويسمى مناجاة الروح والاستجماع للمذكور بالكلية، وهذا ذكر الخواص.

الثالث: ذكر السر، ومعناه غيبة الذاكر في المذكور ـ في الجملة ـ فكأن المذكور يكون هو الذاكر، وهذا ذكر أخصّ الخواص. ومثّلوا لكلّ ذلك بأمثلة مذكورة في محالها، كما بيّنوا لكلّ واحد منها ثمرات ونتائج.

ولو أضفنا إلى ما ذكروه من الأقسام، ذكر عامة الناس الذي يقوم بالجارحة اللسانية فقط من دون استمداد من القلب، تصير الأقسام أربعة، ولعلّهم لم يذكروا هذا القسم لتنزّههم عن مثل هذا الذكر.

ثم إنّ ذكر الذاكر إنما يتقوّم بحبّه للمذكور، ولولاه لم يذكره، والمذكور قد يحبّ الذاكر، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، بل حبّه لجميع خلقه مما أثبتته الأدلة العقلية ـ كما برهن في الفلسفة الإلهية ـ والنقلية، فيقع التجاذب في البين لكلّ من الحبيبين، وبعد تحقّق مراتب الحضور بينهما كيف يتحقق التخالف؟! لأن ذكر الحاضر من تمام الجهات قبيح، قال الشاعر:

أما ترى الحق قد لاحت شواهده وواصل الكلّ من معناه معناكا

والبحث نفسي جداً، لو وجدت لهذا العلم الشريف حملةً.

(١) آل عمران، الآية ٣١.

أهمية التربية

يتضمن قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ أهم المناهج في تربية الإنسان في استكماله، ومثله في القرآن الكريم كثير.

وقد أشار سبحانه وتعالى إلى بعض الأصول المهمّة في هذا المنهج ـ كما هو دأبه عزّ وجلّ في القرآن الكريم ـ فعلى الإنسان الجد والاجتهاد في التفريع عليها، وتطبيقها على مجالات الحياة.

ولا ريب في أهمية التربية والتعليم وارتباطهما الوثيق بالإنسان، ودخلهما في جميع جوانب حياته، وبهما يستكمل الفرد وينال السعادة في الدارين. ولا يمكن لأي فرد من أفراد الإنسان الاستغناء عنهما في أي دور من أدوار حياته، وبهما يقوم النظام الاجتماعي، ولا يوجد أمر آخر يكون له هذا الاتّصال بالواقع الإنساني وتكون له هذه الشمولية، وهما قرين الإنسان منذ أول الخليقة في جميع أدواره، ولا يعقل بالنسبة إليه تعالى إهمال هذا الجانب المهمّ في الإنسان، مع علمه عزّ وجلّ بما يترتب على إهماله من الآثار، ولم يشرّع شريعة إلاّ لتهذيب الناس وتكميلهم وإيصال الفرد إلى السعادة.

ومنهج التربية والتعليم ـ كسائر المناهج والعلوم ـ قد طرأ عليه تغييرات ولم يصل إلى حدّه الفعلي إلاّ بفضل جهود العلماء والمربّين، ووضع النظريات العلمية، مما أوجب التغلّب على كثير من الصعاب.

وللتربية والتعليم مناهج متعدّدة، وقد وضعوا في كلّ واحد منها كتباً ورسائل كثيرة جداً.

وأهم تلك المناهج هو: المنهج العقلي، والمنهج المادي، والمنهج التجريبي، وجميع هذه المناهج قاصرة عن الإيصال إلى المطلوب، إلاّ المنهج الإسلامي المبيّن في القرآن الكريم والسنّة الشريفة، والسبب في قصورها عدم كفاءتها في رفع المشكلات الإنسانية إلاّ في حدود معيّنة وصلت إليها أفكارهم القاصرة، ولذا نرى الاختلاف والتناقض فيها بخلاف المنهج الإسلامي، الذي يصدر عن منبع محيط بكلّ الجهات وفي كلّ زمان.

ويمتاز هذا المنهج القرآني عن غيره بوجوه عديدة أهمها:

الأول: أن المنهج التربوي والتعليمي في الإسلام ليس مادياً صرفاً، ولا عقلياً بحتاً، بل هو يشمل الجانبين، ويعطي لكلّ جانب حقه.

الثاني: أنّه يراعي الجانب التطبيقي، ويعطي للعمل أهميته ويهتم بالمربّين والمعلّمين قبل كل شيء، فهو يأمر بالتزكية وإتيان العمل الصالح، ولا يكتفي بالجانب النظري فقط.

الثالث: أنّه يهدف الكمال الإنساني، ويبغي سعادة الفرد والمجتمع، ووضع لكلّ ذلك أسساً وقواعد لا يمكن التخلّي عنها.

الرابع: أنه عامّ يشمل جميع مراحل الإنسان، وجميع جوانب حياته، بل يشمل مرحلة ما بعد الموت أيضاً بحسب الآثار.

الخامس: أنه مرتب ترتيباً دقيقاً، يبتدىء بالتلاوة ثم التزكية، فالتعليم وطلب الحكمة، والتجاوز عن هذا الترتيب لا يوصل إلى ما يريده الإسلام.

وفي القرآن الكريم إشارات إلى كلّ واحد من الأمور المتقدّمة، وفي السنّة الشريفة شرح ذلك، ويأتي في الآيات المناسبة التعرّض لها إن شاء الله تعالى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ * وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ * ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع والنقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إن لله وإنا إليه راجعون * أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ﴾.

الآيات متّسقة منتظمة، كلها وردت في سبيل استكمال الإنسان، ولذّة النداء والخطاب في أوّلها ترفع عن العبد ثقل التكليف.

وقد بيّن سبحانه وتعالى فيها أن الإنسان في طريق استكماله وإشاعة الحقّ ومقارعة الباطل، يقترن أنحاء من البلاء والمحن في الأنفس والأموال، ولا يمكن التغلب عليها إلاّ بالصبر والتوجّه إليه تعالى في كلّ أمر. وقد لطف سبحانه وتعالى على عبيده بما يهوّن عليهم احتمال المكاره، ويخفّف عنهم عظم المصاب، بما أعدّه سبحانه للصابرين من البشارة العظمى، ولمَن قتل في سبيله الأجر الجزيل.

ولا يسعنا في ذلك إلاّ أن نقول بما قاله الإمام زين العابدين عليه السلام في صحيفته: «ولو دلّ مخلوق من نفسه على مثل الذي دللت عليه عبادك منك، كان موصوفاً بالإحسان ومنعوتاً بالامتنان ومحموداً بكلّ لسان».

فهذه الآيات المباركة تكفي في عظمة الموحي والموحى إليه والوحي، لكلّ مَن كان له سمع أو ألقى السمع وهو شهيد.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

قد ورد هذا الخطاب في القرآن الكريم في ما يقرب من تسعين مورداً، وفيه من التحبّب والملاطفة مع عبيده ما لا يخفى، والمنساق من سياقه تلبّس المخاطب بالإيمان في الجملة، وهو يقتضي أن يكون الخطاب مَدَنياً لا مكّياً. وتقدّم ما يتعلّق به في الآية ١٠٤ من هذه السورة، فراجع.

قال تعالى: ﴿ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾.

الصبر هنا مقاومة النفس مع ما يرد عليها من المكاره والأذى، وحذف متعلّقه يفيد العموم ـ كما هو المعروف في العلوم الأدبية ـ أي استعينوا بالصبر في جميع أموركم فإنه مفتاح النجاح، وهو في كلّ شيء حسن، ولا يتعلّق بشيء إلاّ وصار محبوباً، فهو أُمّ الفضائل والجامع لجميع جهات استكمال الإنسان، إذا كان الصابر مراعياً لتكاليف المولى.

والاستعانة بالصبر استعانة بأهم الأسباب المؤدية إلى المطلوب، وأعظم السبل في نيل المقصود، والحاجة إليه في تأييد الحقّ ومقارعة الباطل واحتمال المصائب، معلوم لكلّ أحد، وآثاره ظاهرة لكلّ فرد، وتقدّم ما يتعلّق به في الآية ٤٥ من هذه السورة.

وأما الاستعانة بالصلاة، فإنها استعانة بأبرز مظاهر العبودية لرب العالمين، وأهم أبواب مناجاته تعالى، والاستغاثة به عزّ وجلّ، لما تشتمل على عظيم الآثار، فإنها معراج المؤمن، وإنّها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وبها يحصل للنفس سكونها واطمئنانها عن الحوادث الواردة عليها، لأن فيها ارتباط بعالم الغيب المحيط بهذا العالم ـ والإنسان خلق من ذلك العالم، وفإذا طابقت سنخية الذات مع العمل يحصل الانقطاع عن العلائق، ويشتد الارتباط مع ربّ الخلائق، فينتظم النظام على الوجه الأصلح.

وفي الحديث: «كان رسول الله ﷺ: إذا حزّ به أمر - أي اشتد عليه - فزع إلى الصلاة»، وتقدّم نظير هذه الآية في هذه السورة آية ٤٥، إلاّ أن في الأولى مدح سبحانه الصلاة، وفي هذه مدح الصبر وبشّر الصابرين.

والوجه في التكرار، التأكيد على أهمية الصبر والصلاة في تنفيذ الأمور وتكميل النفوس، وتوطينها لاحتمال المكاره وتحصيل السعادة في الدارين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

لفظ «مع» يأتي بمعنى الجمع والمصاحبة في الجملة، ويختلف اختلافاً كبيراً بحسب الموارد والخصوصيات، ويستعمل في الخالق والمخلوق، قال تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[1]، وقال تعالى حكاية عن نوح: ﴿وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[2].

والمعيّة نحو ارتباط حاصل..

تارة: بين الخالق والمخلوق حدوثاً وبقاءً، قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ﴾[3]، ويعبّر عنها بالمعيّة القيّوميّة، وتلازمها المعيّة الزمانية والمكانية، والجامع ما ذكره علي عليه السلام: «مع كلّ شيء لا بالمجانسة، وغير كلّ شيء لا بالمباينة».

وأما معيّة المخلوق مع خالقه فيعبّر عنها بعبارات مختلفة، أولها العبودية وآخرها الفناء في الله تعالى، ونتيجة الجميع البقاء بالله تعالى.

---

(١) التوبة، الآية ١٢٣.
(٢) الشعراء، الآية ١١٨.
(٣) الحديد، الآية ٤.

وأخرى: تحصل من عونه ونصرته وتوفيقه، وتسبيب أسباب الخير، ومنها معيّته تعالى مع الصابرين والمُتّقين والأنبياء والصالحين، فتكون معيّته تعالى لهم من جهتين جهة قيّوميّته تعالى، وجهة فعله وعنايته ونصرته لهم. وهناك معان أخرى للمعيّة تأتي في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

المراد من القول هو الأعم من الاعتقاد والتعبير بالألفاظ، فاستعمل في الجامع.

والقتل إزهاق الروح عن الجسد إذا لوحظ فيه الإضافة إلى الفاعل. وأما إذا لوحظ فيه الإضافة إلى المقتول فيصح التعبير عنه بالموت أيضاً. هذا بحسب الشايع المتعارف وإلاّ فيصح إطلاق القتل بالنسبة إلى الجنين الذي لم تتعلق به الروح بعد كما ورد في بعض أحاديث دية الجنين.

كما لا يختص بإزهاق روح الإنسان بل يشمل الحيوان أيضاً قال تعالى: ﴿لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾[1] والنصوص في هذا الإطلاق مستفيضة من الفريقين.

بل يطلق القتل على إزالة المعارف الحقّة عن النفوس المستعدة أو دفعها عنها. فإنَّ مَن تسبب في جهل الناس بالمعارف الإلهية فقد قتلهم شر قتلة لأنه أزال حياتهم الأبدية السرمدية كما يأتي التفصيل.

وقد ذكر القتل ههنا بهيئة المضارع، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ﴾[2] بهيئة الماضي، ولا فرق بينهما من هذه الجهة، لما ذكرناه

---

(١) المائدة، الآية ٢.
(٢) آل عمران، الآية ١٦٩.

من القاعدة الكلية المؤيدة بالدليل العقلي بانسلاخ الأفعال عن الزمان بحسب ذاتها والخصوصيات الزمانية تستفاد من القرائن الخارجية.

والسبيل هو الطريق الذي فيه السهولة، ويستعمل في كلّ ما يتسبب به إلى المطلوب ـ خيراً كان أو شراً ـ قال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ﴾(١).

وقد ذكرت جملة «سبيل الله» في القرآن الكريم ما يزيد على ستين مورداً وهو يدل على سعته وشموله وعظمته وأهميته، وتقدم الفرق بينه وبين الصراط في سورة الحمد عند قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ وقد ذكر في القرآن الكريم والسنّة المقدّسة بعض المصاديق: مثل بذل النفس في إحياء كلمة التوحيد وتأييد الحق وقمع الباطل، وبذل المال للضعفاء، وإفشاء الأخلاق الحسنة بين الناس، وخدمة الوالد، وصلة الأرحام، وإغاثة اللهفان، وعون الضعيف وغير ذلك مما لا حد له ولا حصر، وتقدّم قول: «إن الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق».

والمراد به في المقام الجهاد لإعلاء التوحيد ونصرة الحق ومقارعة الباطل وقمعه.

وذكر القتل في سبيل الله بعد قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ من باب ذكر أهم الأفراد وأعظم الأمور التي لا بد من الاستعانة بالصبر فيها، يعني إن الله تعالى مع كل صابر خصوصاً هذا القسم من الصابرين فإنه آخر درجة التصبر والاصطبار، فيمنحهم الله تعالى المعونة والأجر الجزيل.

قال تعالى: ﴿أَمۡوَٰتُۢۚ بَلۡ أَحۡيَآءٞ وَلَٰكِن لَّا تَشۡعُرُونَ﴾.

---

(١) الأعراف، الآية ١٤٦.

أي: لا تقولوا: في شأن مَن قتل في سبيل الله أنهم أموات مفقودون عن الحسن ذهبوا إلى دار الفناء بل هم أحياء حياة أبدية ولكن لا تشعرون بها، لأن حياتهم في غير هذا العالم المحسوس المدرك بالمشاعر.

والمراد بالحياة هنا الأعم من الحياة في عالم البرزخ والحياة الحقيقية لأجل إحياء الدين، والحياة في الذكر واللسان، نظير ما ورد عن علي عليه السلام: «هلك خزان المال وهم أحياء والعلماء باقون ما بقي الدهر أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلبو موجودة» وهو من باب ذكر بعض الأفراد الذي لا يبقى لا من باب الحصر.

وقد ذكر المفسرون في معنى الحياة هنا ما لا يرجع إلى محصّل كما يأتي تفصيل الكلام فيها.

أقسام الحياة

الأول: الحياة الدنيوية الظاهرية المتقومة بتدبير النفس في البدن وإعمالها للقوى الظاهرية والباطنية في الجسم الدنيوي فقط.

الثاني: الحياة الذكرى عند الناس بعد ارتحال النفس عن البدن كما في العظماء والأكابر الذين خلدت أسماؤهم في التاريخ تعظيماً لجهودهم في العلم والأعمال الخيرية الصادرة منهم في حياتهم.

الثالث: الحياة الأبدية الخالدة التي لا يعلمها إلاّ الله تعالى.

وظاهر الآية المباركة والنصوص الواردة في حياة المقتول في سبيل الله، هو القسم الأخير، لفرض أنه بذل نفسه ونفيسه في سبيل الحي القيوم الأزلي الأبدي، طلباً لرضائه وامتثال أمره، ولا تحديد في هذه الحياة، كما بالنسبة إلى القسمين المتقدّمين. وتتبع هذه الحياة، الحياة بالمعنى الثاني، فما عن بعض المفسّرين من أنّ المراد خصوص القسم الثاني فقط، تخصيص للعموم بدون وجه.

إن قيل: مثل هذه الحياة ثابتة لكلّ فرد من أفراد المؤمنين ومعلومة لهم، فلا وجه لتخصيصها بالشهيد.

يقال: إنّ أصل الحياة بعد الموت وإن كانت ثابتة للمؤمنين ومعلومة

لهم، لكن المستفاد من مجموع الآيات الشريفة والنصوص الواردة في حياة الشهيد، أن فيها مزايا خاصة فوق أصل الحياة بمراتب كثيرة، كما يدلّ عليها قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾(١).

والخطاب في الآية عام، لا يختصّ بطائفة خاصة، لا المشافهين ولا غيرهم، لما ثبت في علم الأصول من أن الخطابات الواردة في الشريعة المقدسة ـ خصوصاً ما ورد منها في القرآن الكريم ـ من قبيل القضايا الطبيعية الشاملة لجميع الأفراد.

فَمَن قال باختصاص الخطاب في المقام وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾(٢) بطائفة خاصة.

لا وجه له، إذ لا دليل عليه، بل هو مخالف لطريقة العرف والعقلاء في محاوراتهم، ولا سيما هذا الخطاب الوارد في مقام الترحّم على العباد، والترؤف بهم.

والقتل في سبيل الله تعالى هو الشهادة في سبيله تعالى، والشهيد مشتقّ منها، إلاّ أنّ الأول باعتبار أصل الحدوث، والثاني باعتبار الثبوت، والشهيد من أسماء الله تعالى، وهو بمعنى الحضور الفعلي بالنسبة إلى جميع ما سواه، ولعلّ إطلاق الشهيد على مَن قتل في سبيل الله تعالى، إنما هو لأجل حضوره لديه عزّ وجلّ متلبّساً بما عاناه من الصعاب والاضطهاد، أو حضور الملائكة لديه مبشّرين له بأعلى المقامات وأرفع الدرجات التي أُعدت له، ويصحّ الحمل على المعنى العام أي حضوره

---

(١) آل عمران، الآية ١٦٩.
(٢) آل عمران، الآية ١٦٩.

لديه للانتصار، وحضور الملائكة لديه لبشارته بالجزاء، والمراد من حضوره تعالى هو توجّهه الخاص به.

فالشهادة هي السفر من الخلق إلى الحقّ، ولا تختصّ بخصوص مَن بذل دمه في سبيل الله، بل تشمل كلّ مَن تحمّل الأذية مطلقاً في سبيله عزّ وجلّ، وفي جملة من الأحاديث: «المؤمن شهيد ولو مات في فراشه»، إلاّ أن للشهيد الذي بذل دمه أحكاماً خاصة، ويأتي تتمة الكلام في الآيات المناسبة.

والآية تدلُّ على تجرّد النفس، وهو حقّ لا ريب فيه، كما ثبت بالأدلة الكثيرة، وهو المستفاد من الكتب السماوية والقرآن المبين والنصوص المتواترة من السُنّة الشريفة، ويأتي في البحث الفلسفي تفصيل الكلام فيه.

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾.

مادة: (بَلا) تأتي بمعنى الامتحان والاختبار، وتقدّم ما يتعلّق بها في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾[1].

والشيء من الألفاظ العامّة الشاملة للقليل والكثير، والجواهر والأعراض.

والخوف توقّع المكروه ـ مظنوناً كان أو معلوماً ـ بعكس الرجاء، فإنه توقّع المحبوب كذلك.

والمعنى: لنمتحنكم بشيء من الخوف من العدو، أو بشيء من الجوع.

(١) البقرة، الآية ١٢٤.

ولم يذكر سبحانه وتعالى متعلّق الامتحان ولا مورد الخوف والجوع، تعميماً للاختبار والامتحان في كلّ زمان ومكان، وبالنسبة إلى كلّ شخص.

ولهما مراتب كثيرة يحتمل أن يكون الامتحان بالنسبة إلى كلّ مرتبة بما تقتضيه المصلحة الإلهية.

قال تعالى: ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾.

النقص يأتي بمعنى الخسران، وهو في مقابل التمام.

والمراد من الأموال الأعمّ من الأعيان والمنافع، وما يهتم الإنسان بحفظه، فيشمل الحيوان والعبيد وكلّ ما يبذل بإزائه المال.

كما أنّ المراد بالأنفس كلّ ما يتأثر الإنسان بفقده وورد النقص عليه ـ سواء كان من النقص في قوى النفس أو عروض الموت عليها ـ فيشمل النفس والأقارب والأصدقاء.

والثمرات جمع ثمرة، وهي وإن كانت داخلة في الأموال غالباً، لكن أفردها سبحانه وتعالى لتشمل ما ينبت في الأرض بالطبيعة، مما لا يملك لها فعلاً وينتفع بها الإنسان، كالمرعى، وجملة كثيرة من النباتات التي لها منافع هامة للإنسان وتكون غذاءً للحيوان.

ويصحّ أن يراد بالثمرات ـ مضافاً إلى ما ذكرناه ـ ثمرات القلوب أيضاً، وهي الأولاد، كما يعبّر عنهم بها كثيراً، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «إذا مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكة: أقبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم. فيقول: أقبضتم ثمرة قلبه؟ فيقولون: نعم. فيقول الله تعالى: ماذا قال عبدي؟ فيقولون: حمدك واسترجع، فيقول الله تعالى: ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة، وسموه بيت الحمد».

والآية تشير إلى ملازمة ما تقدم من الأمور لدار الدنيا، المعبّر عنها في الفلسفة بـ(دار الكون والفساد)، كما أنها تفيد بأن الإيمان بالله تعالى لا يتقضي سعة الرزق ودفع الآلام ورفع المخاوف، بل إن ذلك يجري حسب قانون السببيّة، وما سنّه الله تعالى في عباده، وإنما يجريها حسب المصالح والحِكَم، ولذا نرى أن المؤمن يرى من البلاء ما لا يراه غيره، ليعلم مقدار صبره، أو يكمل إيمانه بها، ويتهذّب بالأخلاق الفاضلة.

ثم إنّ اختبار الناس من قبله تبارك وتعالى إنما يكون لأجل حكم ومصالح متعددة منها: توطني النفس على المصائب، وتهذيب النفس وتكميلها، والتأدب بمقاومة الحالات، وإتمام الحجّة، والتميز بين الصابر وغيره، وقوة البصيرة، وصفاء السريرة، وتعلّم اللاحقين من السابقين كيفية مجاهداتهم واستقامتهم في الدين، وما يترتب على ذلك من البشارة العظمى والأجر الجزيل كما في ذيل الآية الشريفة.

ولا أثر لهذا الامتحان بالنسبة إلى علمه عزّ وجلّ، فإن الناس قبل الامتحان وبعده في علمه التام الأزلي على حدّ سواء.

ولأجل ذلك لا يختص الاختبار ببعض الأفراد دون بعض، بل يشمل جميع أفراد الإنسان، حتى الأنبياء والأولياء، بل نقول إن ذلك من سنن الحياة الإنسانية.

نعم، تارة: يكون الامتحان لإتمام الحجّة على نفس الممتحن (بالفتح)، كما مرّ وهذا هو القسم الشايع.

وأخرى: يكون لأجل إتمام الحجّة على الناس بأن هذا الشخص خرج عن الامتحان وقابل للنبوّة والإمامة، كما بالنسبة إلى إبراهيم عليه السلام.

وأما بالنسبة إلى سيد الأنبياء، فإنه حاز مرتبة الجمع، ويجلّ عن

ذلك، فإنه ﷺ أول الخلق كان كاملاً ومكمّلاً، وأن «آدم ومن دونه تحت لوائه يوم القيامة»، ولو كان عيسى وموسى ﵉ حيّين لم يسعهما إلاّ اتباعه كما ورد في الحديث، وروى الفريقان أنه قال: «لي مع الله حالات لا يسعني فيها ملك مقرّب، ولا نبي مرسل»، وعلى فرض وقوع الامتحان فإنما يكون لتثبيت علوّ مقامه عند الناس، كما عرفت آنفاً.

قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

أي: وبشر الصابرين على تلك المصائب الذين رضوا بقضاء الله تعالى وقدره، وسلموا أمورهم إليه، ولم تصدّهم المحن والمصائب عن شكر الله تعالى ولا عن عبادته وطاعته.

وإنما أطلق سبحانه وتعالى البشارة، لعدم إمكان تحديد المبشّر به بحدّ معين، فإنه يختلف باختلاف مراتب الصبر والرضا، والمناط هو أهلية الصابر لتحمّل البلاء والمحن، خصوصاً إذا اقترن مع الرضا والتسليم، فإنه يكون حينئذٍ من أعلى الفضائل وأسناها، كما قال عزّ وجلّ.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾.

مادة (ص و ب) تستعمل في كل ما يصيب الإنسان من الخير والشر قال تعالى: ﴿إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾[2].

واستعملت المصيبة في كل ما يؤذي الإنسان في نفس، أو مال أو أهل. ولكن اختصت عند العرف بالنائبة فقط، وفي نصوص كثيرة أن كل

---

(١) التوبة، الآية ٥٠.
(٢) النساء، الآية ٧٩.

ما يؤذي المؤمن فهو مصيبة حتّى انقطاع شسع نعله، والشوكة تدخل في بدنه، فتكون المصيبة في الشريعة بمعناها في اللغة من مطلق الإصابة.

والرجع والعودة بمعنى مصير الشيء إلى ما كان عليه أولاً نظير قوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾[1].

أي: إنّ كل ما لنا من الحياة والنِّعَم هو من عند الله تعالى وملك له، فهو اعتراف بالملكية له تعالى ذاتاً وتدبيراً وتسليماً ورضاءً بقضائه وحكمته.

وقول ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ إقرار بالرجوع إليه تعالى والجزاء على الأعمال. وفيه تسلية لكل مصاب ومظلوم وتوعيد لكل جائر وظالم.

والمعنى: وبشر الصابرين الذين يقولون: إنّا لله وإنّا إليه راجعون المعبرين بلسان مقالهم عن الإيمان بالقضاء والقدر والتسليم لأمره.

وقوله ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ إقرار بالمبدأ والمعاد لله تعالى بالمطابقة، وحيث إنّ مبدأ الكل ومرجعهم يستلزم وحدة الذات والفعل وإلا لزم الخلف، فهذه الآية تدل على توحيد الذات وتوحيد الفعل بالملازمة، ولعظمة هذه الجملة قال نبيّنا الأعظم ﷺ: «أعطيت هذه الأمة شيئاً لم يعطه الأنبياء قبلهم وهو إنّا لله وإنّا إليه راجعون».

والرجوع إلى الله تعالى إما غير اختياري أو اختياري، والأول هو المعاد الذي دلّت عليه جميع الكتب السماوية خصوصاً القرآن الكريم الذي أكد في هذا الموضوع تأكيداً بليغاً. وهو من الموضوعات التي ينبغي التأكيد عليها لأن به يثبت المبدأ ووحدانيته وإذا ثبت المبدأ ثبت المعاد لا محالة.

---

(١) الأعراف، الآية ٢٩.

وأما الثاني أي الرجوع الاختياري إليه عزَّ وجلَّ فهو أن يهيىء الإنسان نفسه للحضور لدى الحي القيوم العالم بالسرائر والضمائر حضور مجازاة لما فعل وعمل لا مطلق الحضور إذ الجميع حاضر لديه تعالى بهاذ النحو من الحضور.

وبعبارة أخرى: إن هبوط الإنسان من الحل الأرفع الأعلى إلى الحضيض الأسفل لا يوجب أن ينسى الإنسان ما نزل منه وأن يتدنّس بما وقع فيه، ولا بد له من التفكّر بالعروج والصعود وهذا هو الاسترجاع العملي ولا ينفع مجرد الاسترجاع القولي. وللاسترجاع العملي مراتب كثيرة ومقامات شريفة فصّلها العرفاء في كتبهم العرفانية.

قال تعالى: ﴿أولئك علهيم صلوات من ربهم ورحمة﴾.

بيان لبعض مراتب البشارة بعد ذكر الوصف الذي يستحقون به البشارة.

والصلاة هي التحية، والتزكية، والبركة والثناء الجميل، والجمع باعتبار الكثرة والتعدّد من نوع واحد أو أنواع متعددة حسب مراتب المصيبة وشدّتها.

وأما الرحمة فهي مطلق النعمة عاجلها أو آجلها. وإنما أتى بالجنس تعميماً لكل رحمة يكون المورد قابلاً لها في العاجل وهي حسن العزاء والتوفيق للرضا والتسليم بالقضاء، وفي الآجل من المغفرة والأجر الجزيل، فهو تعالى رحيم بهم أي رحمة مما يجدون أثرها في هذه الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾.

الإهتداء إصابة طريق الحق في الدنيا، والجنّة في العقبى فهم

المستعدون لنيل سعادة الدارين. ولا ريب في تحقق الاهتداء في الإسترجاع القلبي العملي.

وإتيان الجملة الإسمية المعرّفة الطرفين، والتأكيد بضمير المنفصل يؤكّد أن هذه الأوصاف لا تكون إلاّ في مَن صبر وسلّم الأمر إلى الله تعالى واعترفوا بأنهم لله وأنهم إليه راجعون[١].

---

(١) م ـ ن، ١٦٤ ـ ١٩٥، ج (٢).

مفهوم القصاص في الإسلام

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ٱلۡحُرُّ بِٱلۡحُرِّ وَٱلۡعَبۡدُ بِٱلۡعَبۡدِ وَٱلۡأُنثَىٰ بِٱلۡأُنثَىٰۚ فَمَنۡ عُفِيَ لَهُۥ مِنۡ أَخِيهِ شَيۡءٞ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيۡهِ بِإِحۡسَٰنٖۗ ذَٰلِكَ تَخۡفِيفٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَرَحۡمَةٞۗ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٨ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾.

ما ورد في الآيتين من التشريعات الكلّية النافعة في النظام الفردي والاجتماعي للإنسان، وقد لوحظ فيهما بقاء النوع وتهذيبهم بالأخلاق الفاضلة، ونبذ الانتقام والعدوان، وقد اعتبر في القصاص المساواة بين القاتل ومن يراد الاقتصاص له. وفيهما إشارة إلى بعض العادات السيئة التي كانت متّبعة قبل هذا التشريع، ولذلك كلّه لا تخلو من الارتباط بالآيات السابقة.

التفسير

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.

تقدّم الكلام في مثل هذا الخطاب في آيتي ١٠٤ و١٥٣. وكتابة هذا التشريع على المؤمنين لأجل الشرف، لا يدلّ على نفيه عن غيرهم.

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ﴾.

الأصل في مادة (كتب) هو الجمع والتثبت في جميع موارد

استعمالاتها، سواء لوحظ ذلك بالنسبة إلى علم الله تعالى، أو اللوح المحفوظ، أو الكتب النازلة من السماء، أو الإيجاب على العباد ـ تكليفاً أو وضعاً ـ أو التحقّق العيني الخارجي، فالكلّ كتاب، والجميع يدلّ على الثبوت والدوام، والتحفظ.

والمارد به في المقام هو الفرض والإيجاب.

ومادة (قَ صَ صَ) تأتي بمعنى تتبع الأثر، وحيث إنّ وليّ المقتول، يتّبع أثر القاتل ليأخذ منه جريمة ما فعله، وكذا المجروح يتّبع أثر الجارح كذلك، يقال له القصاص.

ومنه القصة والقصّاص، لأنها فيها تتّبع أثر ما وقع في الخارج، كما أن منه القاص، لأنه يتّبع الآثار والأخبار.

والمراد بالقصاص شرعاً، هو أخذ الجاني بمثل جنايته إن أراد وَليّ المقتول ذلك، وهو مطلق لا بد من تقييده بما إذا كانت الجناية عمدية، لخروج الجناية الخطاية عن تحت هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾[1].

والآية تبيّن أصل تشريع القصاص؛ وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾، يبيّن حكمة هذا التشريع.

وفي الآية إشعار بأنّه لا بد من التساوي بين المقتول ومَن يراد القصاص منه، وأنه لا بد من العدل في القصاص وملاحظة المثلية. وفي ذلك ردّ على ما كان يفعل في الجاهلية من المغالاة في سفك الدماء وقتل الأبرياء، كالاقتصاص من رئيس القبيلة والسيد في قتل العبد ظلماً وعدواناً.

---

(١) النساء، الآية ٩٢.

والقتلى: جميع القتيل بمعنى المقتول، والقتل زوال الروح إذا أُضيف إلى المتعدي إليه (أي مَن وقع عليه القتل)، وإذا أُضيف إلى ذات الشخص، فهو موت، فلا فرق بينهما إلاّ بالإضافة والاعتبار، كما يقال: مات بالشهادة، أو مات بالقتل، ومات بالمرض.

نعم، يصح اعتبار التغائر بينهما بلحاظ السبب، كما قال تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾[1]، والجامع هو زوال الروح.

وعموم الخطاب يشمل الوضعي والتكليفي، كما في جملة من الخطابات المتعلقّة بإتلاف الأموال، ففي المقام بالأولى، والأحكام التكليفية هي الأحكام الخمسة المعروفة.

وأما الأحكام الوضعية، فهي ما تعلّق بها غرض الشارع المقدّس، ولم تكن من الخمسة التكليفية، وهي كثيرة كالضمان، والولاية، والطهارة، والنجاسة، وقد يجتمع الحكمان في شيء واحد، كاشتغال الذمة بعوض، فهو وضعي، ووجوب تفريغها تكليفي، وقد ذكر التفصيل في محله فراجع كتابنا «تهذيب الأصول».

ثم إنه ذكر سبحانه وتعالى بعض موارد المساواة والتكافؤ بين المقتول، ومَن يراد الاقتصاص منه.

قال تعالى: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ﴾.

الحر: خلاف العبد لخلوصه عن الرقيّة، والحر من كلّ شيء خالصه، وأحرار البقول ما يؤكل غير مطبوخ.

والعبد مَن فيه الرقّية، وفي اصطلاح الكتاب والسنّة هي المملوكية للغير بالملكية الظاهرية.

---

(١) آل عمران، الآية ١٤٤.

وعند جمع من أهل العرفان: كلّ مَن كان له علاقة بغير الله تعالى فهو عبد له، وقالوا: إنّ عبد الشهوة والهوى أشدّ رقّية من العبد المملوك للغير، واستشهدوا لذلك بأدلة عقلية ونقلية، لعلّنا نتعرّض لذلك في محله.

وكيف كان، والمراد منه هنا المعنى الأول.

وفي الأية من البلاغة ما لا يخفى، وفيها إشارة إلى بيان ذكر المثلية إجمالاً.

قال تعالى: ﴿وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾.

كان في أهل الجاهلية بغي وحميّة، وكانت القبائل تتحكّم بحسب القوة والمنعة، فإن قتل من حي أهل منعة وعز أحد، لا بد لهم من الاقتصاص، وكانوا لا يكتفون من القاتل فقط، وإذا قتل منهم أُنثى، لا يقتصون من أُنثى مثلها، بل يقتصون من الذكر. وقد أنكر الشارع هذه العادة، وحكم بالمساواة بين القاتل والمقتول، فإذا كان القاتل أُنثى، فلا بد وأن يقتص منها لا من غيرها، وفيها بيان للمثلية أيضاً، أي الحرّة بالحرة، والأمة بالأمة.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾.

بعد أن ذكر وجوب القصاص، وأنه أساس العدل في الجنايات، وأنه الأصل في ردع الجاني من الاستمرار في الجناية، بيّن هنا جواز العفو، بل رجحانه، وهو تعالى ينظر إلى الجانب الأخلاقي في هذا التشريع، ويعطي أهمية خاصة إلى التراحم والتعاطف بين أفراد البشر، في ظرف تسيطر على النفس الغرائز الدفينة والعادات السيئة الموروثة من الجاهلية، فكان هذا التشريع موفّقاً في الجمع بين الجانب العاطفي في الإنسان، والجانب الغريزي والشهوي فيه.

ومادة عفو: تأتي بمعنى المحو والزوال ونفي الأثر، والتجافي عن الذنب، ولها استعمالات كثيرة في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[٣].

والعفوّ ـ بالتشديد ـ من أسماء الله الحسنى، وفي بعض الدعوات: «اللهم إنّي أسألك العفو، والعافية، والمعافاة». والأوّل محو الذنب، والثاني الصحة من الأسقام والأمراض، والأخير الحفظ عن أن يظلم أحداً، أو أن يظلمه أحد.

والفرق بين العفو والغفران، أنّ الثاني يختصّ استعماله بالله تعالى غالباً، وإن استعمل في غيره تعالى أحياناً؛ قال سبحانه: ﴿وإن تعفو أو تصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم﴾[٤]؛ بخلاف الأول فإنه يستعمل في غيره عزّ وجلّ كثيراً، قال تعالى: ﴿وإن تعفوا أقرب للتقوى﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾[٦]. ويقال: عَفَتِ الدار إذا انمحت آثارها.

ويمكن الفرق بينهما باعتبار المورد أيضاً، فإن العفو يصحّ استعماله بالنسبة إلى مطلق سوء الأخلاق، وإن لم يكن من الذنب الشرعي، كما يصحّ استعماله بالنسبة إليه أيضاً، بخلاف الغفران.

(١) الأعراف، الآية ١٩٩.
(٢) المائدة، الآية ٩٥.
(٣) الشورى، الآية ٢٥.
(٤) التغابن، الآية ١٤.
(٥) البقرة، الآية ٢٣٧.
(٦) البقرة، الآية ٢٣٧.

والتعبير بالأخ، ترغيب إلى العفو، والمراد به ولي الدم.

و«شيء» صفة للمفعول المطلق النائب عن الفاعل، أي بعض العفو وشيء منه، وهو حقّ الاقتصاص أولاً، ويشمل البدل والمبدل أيضاً.

والمعنى: ومَن عفا لأخيه عن جنايته، ولم يرد القصاص، ورضي بالدية، فهو خير له.

قال تعالى: ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

المعروف: ضد المنكر، ومعناه كلفظه؛ والمراد به كلّ ما حسن عند العقلاء ولم ينه عنه الشرع، سواء كان واجباً، أو مندوباً، أو مباحاً. وهو يختلف باختلاف الأعصار والأمصار. وقد وقع هذا اللفظ في القرآن الكريم والسنّة الشريفة كثيراً، قال تعالى: ﴿الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾[٣]، إلى غير ذلك ممّا يقرب من أربعين مورداً. وعن نبيّنا الأعظم ﷺ: «كلّ معروف صدقة».

والمعنى: إن رغب في العفو عن القصاص، لا بد له من اتباعه بالمعروف على الجاني، بأن لا يرهقه في الدية، أو ينظره إلى الميسرة إن كان ذا عسرة، أو الطلب منه بالرفق، أو يعفو عن بعض، ونحو ذلك ممّا لا يستنكره العرف، وذلك مرغوب فيه، لا سيما في هذه الحال التي يكون الإنسان فيها أقرب إلى قوى البطش والانتقام منها إلى العقل.

---

(١) البقرة، الآية ١٨٠.
(٢) البقرة، الآية ٢٢٨.
(٣) البقرة، الآية ٢٦٣.

قال تعالى: ﴿وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍۗ﴾.

أي أداء من الجاني إلى الولي بالإحسان، كما أحسن إليه بالعفو وإتباعه بالمعروف.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌۗ﴾.

أي: أن تشريع القصاص والعفو عنه، والانتقال إلى الدية والاتباع بالمعروف والأداء بالإحسان، كلّها تخفيف على الأولياء والجانين ورحمة لهم، لأنه جلّ شأنه قادر أن يشرّع عليكم بما يكون أشدّ من ذلك، فقد راعى عزّ وجلّ الوسط بين الإفراط والتفريط. مع أن في هذا التشريع الجديد تخفيفاً بالنسبة إلى ما كانوا قد اعتادوا عليه في الجاهلية، فقد كان ذلك ثقلاً كبيراً عليهم، ورحمة عليكم في الامتناع عن إراقة الدماء ظلماً وعدواناً، فلا يبقى بعد ذلك مجال للظلم والاعتداء.

قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

أي: فمَن اعتدى وانتقم من الجاني بعد العفو، أو تعدّى عن الحدّ الذي قرّره الله تعالى، له عذاب أليم، لأنه متعدّ عن القانون الإلهي، وكل متعد كذلك لا بد وأن يعاقب عقلاً وشرعاً، فيكون مصيره إلى النار.

قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾.

بعد أن شرّع تعالى القصاص، وحكم بأنّه لا بد من التساوي والتكافؤ بين الدماء، ذكر هنا حكمة هذا التشريع الجديد وعلّته بأفصح بيان وأبلغه، وأوجز عبارة تفي بالمطلوب. فكان أحسن كلام يقرع الأسماع، وأبلغ نظم يؤديه البيان، قرن فيه بين التلطّف والعتاب، فما أجمل هذا الخطاب، فاح نسيم الوحي من السماء فانفتح الكمام وتواضع كلّ مَن يدّعي الفصاحة أمام حسنه، واعيى كلّ مَن جهد نفسه في البلاغة،

ولو قورنت هذه العبارة مع ما قيل في مثل المقام، كقولهم: (القتل أنفى للقتل)، وقولهم: (قتل البعض إحياء للجميع)، وقولهم (أكثروا القتل ليقل القتل)، لكان ما ورد في القرآن كالنور في الظلماء، والنار على المنار من حيث البلاغة والفصاحة، وسيأتي في البحث الأدبي ما يتعلّق بذلك.

والمعنى: أنّ في القصاص المذكور الحياة للفرد والمجتمع، أما بالنسبة إلى المجتمع، فإنّه أحسن رادع عن الإقدام على قتل النفوس، وإنّ فيه حفظ الناس عن اعتداء بعضهم على بعض، وأما بالنسبة إلى الفرد فإنّ فيه حفظ نفسه ومَن أراد قتله، ولو فعله كان ذلك عبرة لغيره ممّن يرد الإقدام على ذلك، ففي القصاص حياة الناس والأفراد، بل فيه تسلية لولي المقتول، حيث يخفّف عنه لوعة المصاب، فكانت الغاية من القصاص وما يجتنى من عواقبه حميدة، يعرفها كلّ مَن أعطي حقّ التأمّل في هذا الحكم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾.

الألباب جمع اللب، وهو العقل الخالص عن الشوائب، لأنّ لب الشيء خالصه وصفوته، ولذا جعل الله تعالى أُولي الألباب مورد خطابه وعنايته في جملة كثيرة من الآيات القرآنية، لأنّ ذا اللب هو الذي يعرف حقائق الأشياء وموازينها، وآثارها وما يترتب عليها. قال تعالى: ﴿فاتقون يا أولي الألباب﴾[١]، وقال تعالى: ﴿إنما يتذكر أولوا الألباب﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[٣]، إلى غير ذلك من الآيات المباركة.

---

(١) البقرة، الآية ١٩٧.
(٢) الزمر، الآية ٩.
(٣) الزمر، الآية ٢١.

وقد فسّر سبحانه اللب في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(١).

ولم يرد لفظ اللب مفرداً في القرآن الكريم، كما لم يرد لفظ العقل كذلك. والمتأمّل في الآيات المتضمنّة لذكر أُولي الألباب، يعلم أنها وردت في مدحهم، بخلاف العقل، فإنّه ليس كذلك، قال تعالى: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٣).

ولعلّ السرّ في عدم ورود المفرد لهذين اللفظين، الإشارة إلى أنّهما من الحقائق التي لا تحصل إلاّ من الاجتماع، إما بعضهم مع بعض، أو مع الأنبياء والإيمان بهم والعمل بما جاؤوا به، مع أن مثل هذه الخطابات نوعية اجتماعية ملقاة إلى المجتمع، لا إلى الفرد المعين.

واللب والعقل هما من أسرار الله تعالى التي أودعها في الإنسان، وقد قال عزّ وجلّ حين خلقه ـ كما في الحديث ـ: «وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحب إليّ منك، إياك آمر، وإياك أنهى، وبك أُثيب وأعاقب»، وهو أصل الإنسان وما سواه من القشر، وهو مبدأ الاستكمالات وإليه المنتهى، وبالعمل والتقوى والصلاح، يرتقي العقل واللب، ومنهما ينشأ الخير، فيصحّ أن يقال: قد اجتمعت العلّة الفاعلية والغائية فيهما.

والحاصل: أنّ اللب والعقل والفلاح والصلاح والتقوى، كلها مفاهيم مختلفة لمعنى واحد، إذا لوحظت المنشآت فإنها مرتبطة بعضها مع

(١) الزمر، الآية ١٨.
(٢) الأنبياء، الآية ٦٧.
(٣) النور، الآية ٦١.

بعض؛ فإن «الدنيا مزرعة الآخرة» كما قال نبيّنا ﷺ خصوصاً بناء على الحركة الجوهرية التي أثبتها بعض أعاظم الفلاسفة.

نعم، أصل هذه المزرعة وأساس العمل، وبه يرتقي العقل، ثم منه ينشأ الخير الذي يرجع بالآخرة إلى العقل أيضاً.

وإنّما ذكرهم في المقام للتنبيه على أنّ هذا الحكم بما فيه من المصالح والآثار لا يعلمها إلاّ أُولوا الألباب، الذين يفقهون سرّ هذا الحكم باستعمال عقولهم.

ولذلك فمَن ينكر هذا الحكم، فهو ممّن ليس له لب وعقل، فكان هذا كالدليل لما تقدّم.

قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

أي لعلّكم تتّقون الله في كل أموركم حيث شرع لكم هذا التشريع العظيم، الذي ينبّىء عن الحكمة والعلم، أو تتّقون الظلم خوفاً عن القصاص، فتكفّون عن سفك الدماء، أو يتقي بعضكم بعضاً حرصاً على الحياة.

ومنه يستفاد أن اللب السليم يرشد إلى التقوى، وسبب استكمال ذوي الألباب[١].

(١) م ـ ن، ص٣٥٨ ـ ٣٦٥، ج (٢).

بحوث المقام

بحث أدبي:

إنّ قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أبلغ آية في القرآن الكريم وأفصحها، وهي في إيجازها قد ارتقت سماء الإعجاز، لما اشتملت على فنون البلاغة والإيجاز، وجمعت بين قوة الاستدلال وبراعة اللفظ؛ فتحدّت فرسان الفصاحة والبيان، وقد أفادت حكماً لم يكن من قبل معروفاً في أسلوب رصين وعذوبة في الألفاظ، وتضمّنت من الفوائد والحكم في تنظيم النظام ما لا يبلغ به عقول الأنام، واشتملت على أنحاء من البلاغة ما لا يوجد في أي أثر منقول عن العرب، ونحن نذكر بعضاً منها:

الأول: الطباق بين القصاص والحياة، فإنّ الأوّل يفوّت الثاني، فهو في مقابلها.

الثاني: فصاحتها في تلائم الألفاظ وعذوبتها وسلامتها، ورصانتها في الأسلوب، والإيجاز في العبارة، فقد جمعت بين جمال اللفظ وسموّ المعنى.

الثالث: اشتمالها على جعل الضد متضمّناً لضده، أي الحياة في الإماتة.

الرابع: تعريف القصاص بلام الجنس، ليشمل كلّ أنواع القصاص، من القتل والجرح والضرب.

الخامس: تنكير الحياة للإشعار بأنّ في الحكم حياة عظيمة لا يمكن الاستهانة بها، أو لأجل أنّ القصاص لم يكن سبباً لمطلق الحياة، بل لنوع من أنواعها، فيكون التنوين فيها إما لأجل التعظيم، أو لأجل التنويع.

السادس: جعل القصاص ظرفاً للحياة، لبيان أنّ القصاص يحمي الحياة من الآفات، وهذا من غرائب الحكم.

السابع: تقرير أنّ الحياة هي المطلوبة، وأنّ القصاص وسيلة إليها، وهذا من أسمى الحكم في جعل هذا التشريع.

الثامن: الإطراد في أنّ كلّ قصاص حياة.

التاسع: اشتمالها على التسلية لأولياء المقتول.

العاشر: اشتمالها على التخويف والارتداع، لمَن تسوّل له نفسه الجريمة.

الحادي عشر: تحريض المجتمع ـ الذي تقوم به الحياة النوعية ـ على حفظ الأفراد.

الثاني عشر: خلوّ الآية المباركة من التعقيد والتكرار والإبهام، وغير ذلك مما ذكروه في المأثور عن العرب في المقام.

وهذا نزر يسير ممّا يمكن ذكره في هذه الآية الشريفة، وقد صنّف بعض العلماء كتاباً في الأنحاء الأدبية لهذه الآية الكريمة، وهو لم يصل إلى الغاية، كيف وقد صدرت ممّن لا نهاية لكماله، ولهذه الآية وقع في النفوس في مثل المقام، فإنّ فيه توطيناً على تقبّل هذا التشريع الجديد،

وإنّ براعتها وعذوبتها لتخفف ما يترتّب على هذا الحكم من إزهاق النفوس، فسبحان من جلّت آلاؤه وبهرت آياته وتمّت حكمته.

بحث فقهي:

هذه الآية الشريفة تتضمن من الأحكام ما يلي:

الأول: يستفاد من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أنّ الحكم الأوّلي في الجنايات مطلقاً هو القصاص، والتبديل إلى الدية إنما يكون لجهات أخرى، ولفظ «كتب» يشمل الحكم الأوّلي والثانوي.

الثاني: أنّها مسوقة لبيان التساوي والتكافؤ بين الدماء، خلاف ما كانت عليه العادة في الجاهلية، كما تقدّم. وقد ذكر فيها بعض الأفراد إلاّ أنّها لا تدلّ على الحصر فيهم، وقد وردت في السنّة الشريفة ما يبيّن حصول التكافؤ والتساوي في القصاص، ومن ذلك التفرقة بين ديّء الرجل والمرأة، وقتل واحد لجماعة، أو بالعكس، وقتل العبد للحر، فإنّ لكلّ واحد من هذه أحكاماً خاصة مذكورة في الفقه مفصّلاً.

الثالث: أنّ إطلاق قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾، يدلّ على القصاص في الجناية، سواء كانت في القتل أو القطع أو الجرح، كما هو مفصّل في قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾[1].

(١) المائدة، الآية ٤٥.

الرابع: أنّ إطلاقها يشمل ما إذا كانت الجناية عمدية أو خطأية، ولكنها خصّصت بالأولى، لقوله تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾[١].

كما أنّها خصّصت بموارد:

منها: قتل الأب لابنه وإن كان عمدياً، للإجماع والنصوص.

ومنها: قتل الحرّ للعبد، إجماعاً ونصوصاً.

ومنها: قتل المسلم للكافر، على ما هو المفصّل في الفقه، ومن شاء فليراجع كتابنا «مهذب الأحكام».

بحث روائي:

في الكافي: عن الصادق عليه السلام في رواية الحلبي في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ﴾، قال عليه السلام: «ينبغي للذي له الحقّ أن لا يعسر أخاه إذا كان قد صالحه على دية، وينبغي للذي عليه الحقّ أن لا يمطل أخاه إذا قدر على ما يعطيه، ويؤدّي إليه بإحسان».

وعنه عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. قال عليه السلام: «هو الرجل يقبل الدية أو يعفو أو يصالح، ثم يعتدي فيقتل، فله عذاب أليم، كما قال الله عزّ وجلّ».

أقول: روي مثله في عدّة روايات.

في تفسير العياشي: عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ قال عليه السلام: «لا يقتل الحرّ بعبد، ولكن يضرب

---

(١) النساء، الآية ٩٢.

ضرباً شديداً، ويغرّم دية العبد، وإن قتل رجل امرأة فأراد أولياء المقتول أن يقتلوا، أدّوا نصف ديّته إلى أهل الرجل».

أقول: الحديث يفسّر التكافؤ في الدماء والجراحات، كما هو مفصل في الفقه.

في الاحتجاج: عن علي بن الحسين عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: «لكم يا أُمة محمد في القصاص حياة، لأن مَن هَمَّ بالقتل فعرف أنه يقتص منه فكفّ لذلك عن القتل، كان حياة للذي همّ بقتله، وحياة للجاني الذي أراد أن يقتل، وحياة لغيرهما من الناس إذا علموا أن القصاص واجب، لا يجترءون على القتل مخافة القصاص ـ الحديث ـ».

أقول: ذكر أُمة محمد من باب ذكر أفضل الأفراد لا التخصيص، لأن الحكم عام للجميع.

وفي تفسير القمي، قال: «لولا القصاص لقتل بعضكم بعضاً».

وفي الدرّ المنثور، في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى﴾: «كان بين حيّين من أحياء العرب قتال، وكان لأحد الحيّين طَول على الآخر، فقالوا: نقتل العبد منا الحر منكم، وبالمرأة الرجل، فنزلت هذه الآية».

أقول: تقدّم وجه ذلك.

بحث علمي:

ذكرنا آن آية القصاص نزلت في قوم كان الانتقام متبعاً بينهم بأقبح الصور، فقد كانوا يقتلون لواحد جماعة، وربما قتل الحرّ بالعبد، أو الرجل بالمرأة، والرئيس بالمرؤوس، بل ربما وقعت حروب وغارات

بسبب قتل حيوان من قوم ذوي منعة وشرف، وكان المناط كلّه على قوة القبائل وضعفها، والمتّبع هو القتل والانتقام، والاقتصاص من دون أن يكون في البين قانون يحدّده، أو قواعد تهذّب تلك العادات، كما هي عادة الأقوام البدائية والشعوب الهمجية.

نزلة آية القصاص ولم يكن أحد يعرف الصلح والوائم بدل القتل والانتقام، وكان ذلك تشديداً منهم على أنفسهم؛ كما يستفاد من ذيل الآية الشريفة، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾.

ومن المعلوم أنه لا ينكر أحد أنّ حب الانتقام طبيعة من طبائع الحيوان فضلاً عن الإنسان، وأن دفع التعدّي غريزة من غرائزه، وأنّه على ذلك مجبول ومفطور.

كما أنه ليس ثمة مَن ينكر أن العفو والرحمة غريزة أخرى من غرائز الإنسان، بها يحنو على بني نوعه، ويدفع عن أهله البلاء، ويكافح في سبيلهم للعيش والرفاه.

وبحسب تلك الأسس والغرائز نزلة آية القصاص؛ وقررت تشريع حقّ الاقتصاص لولي الدم، وأهدرت دم الجاني لولي المجني عليه فقط، ومهّدت له السبيل وأمكنته كلّ التمكين من القصاص بشروط خاصة، لإشباع غريزة الانتقام في الإنسان، فكان ذلك أوّل خطوة في تهذيب هذه الغريزة.

لكنه تعالى لم يغفل عن الغريزة الأخرى الكامنة فيه، فحبّب إليه العفو بمختلف الأساليب..

فتارة: رغّب إليه العفو بأخذ الديّة، وأداء إليه بإحسان.

وأخرى: بالثواب في الآخرة، ورضاء الله تعالى، والعفو والمحبّة

للمحسنين، قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى ٱللَّهِ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٢].

ولقد راعى الإسلام في هذا التشريع جميع مَن يهمه هذا التكليف، القاتل، والمقتول، ووليه، والمجتمع، والصالح العام، فحكم بالمعادلة بين القاتل والمقتول، فقال عزّ وجلّ: ﴿ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾، فحفظ بذلك التهجّم على الدماء، ووقّف الإسراف في القتل.

واهتم عزّ وجلّ بالجانب التربوي، فحبّب إلى الإنسان الرحمة والعطف، ورغّب الناس على نبذ مسلك الانتقام والوعد لمَن راعى هذا الجانب بعظيم الأجر والإحسان.

ولذلك كان هذا التشريع موفّقاً كل التوفيق في رفع الخصام، وحلول الصلح والوئام، الذي هو السبب في حفظ الأمن والنظام، هذا بالنسبة إلى الإسلام.

أما بالنسبة إلى سائر التشريعات الإلهية، فإنّها تختلف بين إثبات تشريع القصاص والإلغاء؛ ففي التشريع اليهودي اعتبر الحكم في الجنايات هو القصاص، ولم يسنّ للعفو والديّة أحكاماً إلاّ في حالات معينة، راجع ما ورد في التوراة في الفصل الحادي والعشرين، والثاني والعشرين من سِفر الخروج، والخامس والثلاثين من سِفر العدد، كما حكى عنها القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾[٣].

---

(١) الشورى، الآية ٤٠.
(٢) آل عمران، الآية ١٣٤.
(٣) المائدة، الآية ٤٥.

وأما التشريع في الدين المسيحي، فلا يرى في مورد الجنايات إلاّ العفو والديّة، وليس للقتل والقصاص فيه سبيل إلاّ في موارد خاصة.

وأما سائر التشريعات ـ سواء كانت وضعية أو غيرها ـ فهي تختلف في هذا الحكم، ولا يمكن جعلها تحت ضابطة كليّة، وإن كانت لا تخلو عن القصاص في الجملة.

وممّا ذكرنا يعرف أن الإسلام اختار الطريق الامثل، وسلك مسلكاً وسطاً بين الإلغاء والإثبات، فحكم بالقصاص ولكن ألغى تعيينه، فأجاز العفو والديّة، ولاحظ جميع جوانب هذا الحكم وأحكمه أشد الإحكام، وسدّ باب الجدال والخصام، وأبطل شبهات المعترضين.

ومع ذلك، فقد اعترض على تشريع القصاص في الإسلام خصومه، فادّعوا أنه خلاف إنسانية الإنسان، وأنت بعد الإحاطة بما ذكرناه تعلم أن ما ذكروه في المقام واضح الفساد.

وقد استدلّ على إلغاء هذا الحكم بأمور هي:

الأول: أن تقرير حق الاقتصاص إقرار للعادات السيئة التي كانت سائدة في الشعوب الجاهلية، والأقوام البدائية.

وهذا باطل.. أما أولاً: فلأنّ نظر الإسلام في هذا الحكم هو تربية الإنسان تربية صالحة، يرفض معها كلّ ظلم وانتقام، ولم يكن ينظر إلى تقرير عادة، أو إبطالها.

وثانياً: ذكرنا أنّ حب الانتقام غريزة من غرائز الإنسان، والإسلام إنّما أراد تهذيبها وكبح جماحها، خلاف ما كانت بين الأقوام وقت نزول القرآن.

وثالثاً: فائدة تشريع القصاص إنّما ترجع إلى الجماعة والصالح العام، شأنه شأن غالب التكاليف الإلهية.

الثاني: أنّ القوانين الوضعية التي وضعتها الملل الراقية لا ترى جواز عقوبة الإعدام مطلقاً، وترفض إجراءها بين البشر، معتمدين في ذلك على أنّ القتل ممّا ينفر عنه الطبع، ويستهجنه وجدان كلّ إنسان.

وأنّ القتل على القتل يكون فقداً على فقد.

وأنّ القتل بالقصاص فيه من القسوة والانتقام زيادة على نفس القتل الواقع من الجاني، ولا بد من إزالة هذه الصفة من بين الناس بالتربية العامة، وعقاب القاتل بما هو أدون، كالسجن والأعمال الشاقة.

الثالث: أنّ المجرم إنّما يكون مجرماً وأقدم على الجريمة لأجل عذر له، إما للجهل، أو عدم التربية الصالحة، أو لمرض عقلي، فيجب في هذه الحالة علاجه إما بالتربية الصالحة، أو معالجة مرضه.

وأنّ إبقاء الفرد الجاني أولى من إفنائه، لأنّ في إبقائه منفعة للمجتمع، ولا ملزم لأن نقبل عقوبة القصاص إلى الأبد، فيعاقب الجاني بما يعادل القتل، وفي نفس الوقت نستفيد منه، فيكون توفيقاً بين حقّ المجتمع وحقّ أولياء الدم، وغير ذلك من الوجوه.

ولأجل ذلك عدلت القوانين الوضعية عن القصاص والقتل إلى عقوبات أخرى لردع الجناة، أشدّها عقوبة الحبس؛ سواء كان محدوداً بوقت أو غير محدود به، مع الأشغال الشاقة مثلاً.

ولكن كل ذلك باطل..

أما أولاً: فلأنّ في تشريع القصاص تهذيباً للطبيعة الإنسانية في حبّ الوجود وملاحظة الجانب التربوي في هذا التكليف، بل جميع تكاليف

الإسلام وقوانينه إنما وضعت لأجل ذلك، ولذلك حثّ على العفو، ولم يكن الإسلام ليمنع من فرع هذه العقوبة بعد التربية الصالحة، وإعداد الأفراد في صالح المجتمع، ونبذ التخاصم والانتقام، والأُمم الراقية إنما ذهبت إلى ذلك بعد جهد جهيد في تربية الأفراد وتنفير القتل بينهم، وهذا شيء حسن لم ينكره أحد، وهو ممّا يريده الإسلام، كما تشير إليه نفس الآية الشريفة.

وثانياً: فلأنّ الإسلام إنّما لاحظ في هذا التشريع الصالح العام ومصالح النوع، كما هو شأن كلّ قانون، سواء كان إلهياً أو وضعياً، ويعتبر أن الاعتداء على فرد كالاعتداء على الأُمة[١].

(١) م ـ ن، ص٣٦٦ ـ ٣٧٣.

الإيمان والكمال الإنساني

﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى بعض الأحكام الشرعية التي تهدي الإنسان إلى الكمال وتوجب له الطهارة، وحذّره جلّ شأنه عن المخالفة والمعصية. وأمره بالتقى، ذكر هنا بعض الأحكام العامة في الإيمان، وبيّن أنّ من التقوى الاجتناب عن الحلف باسم الله تعالى في كلّ شيء، فإنه ماع عن البر والتّقوى والإصلاح، التي لا بد أن يبتغيها المؤمن في كلّ أعماله، ثم بيّن سبحانه أنّه لا يؤاخذكم بالأيمان اللاغية، التي لا يعقد العزم عليها، فإنّه لا كفّارة فيها ولا عقاب، وإنّما يؤاخذ الله تعالى الإنسان بالنيات التي يعقد عليها ثم بشّره بالغفران.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾.

مادة (عرض) تأتي بمعنى الإظهار للغير لمصلحة فيه، ولهذه المادة استعمالات كثيرة في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى

(١) الأحزاب، الآية ٧٢.

﴿ٱلنَّارِ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا﴾[٢]، ولم تستعمل هيئة ﴿عُرْضَةً﴾ إلا في المقام فقط.

والأيمان: جمع يمين، وهي بمعنى الحلف والقسم، تذكّر وتؤنّث، وهي فعيل من اليُمن بمعنى البركة، لأنها تحفظ الحقوق، أو لأجل أنّ العرب كانت تضرب اليمين على اليمين عند الحلف فسمّي الحلف يميناً. وقد وردت جميع مشتقات اليمين والحلف في القرآن الكريم.

ومن عادة الناس الحلف بالعظماء والأكابر، وما هو محترم لديهم على اختلاف مذاهبهم ومللهم.

وفي القرآن الكريم حلف الخالق بالمخلوق، والمخلوق بالخالق، ولعلّ أحلى قَسَمه تعالى قوله عزّ وجلّ: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[٣]، ومن أشدّه وأعظمه قوله جلّ جلاله: «وعزّتي وجلالي وعلوّ قدري وارتفاع مقامي، لأقطعنّ أمل كلّ مؤمّل أمل غيري».

والمعنى: لا تجعلوا الله تعالى في معرض حلفكم إذا أردتم أن تحلفوا، وهذا يشمل المرة الواحدة فضلاً عن الزائد، لأنّ عظمته تعالى غير متناهية ولا يمكن دركها بالعقول مطلقاً فكيف يحلف بما لا يدرك إلا مفهوم لفظه.

قال تعالى: ﴿أَن تَبَرُّوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَتُصْلِحُوا۟ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾.

بيان لأيمانكم، أي: لا تجعلوا الله في معرض الحلف به في هذه الأمور الثلاثة هي التي مرضية له تعالى، فضلاً عمّا لا يكون مرضياً له، أو

(١) الأحقاف، الآية ٣٤.
(٢) الكهف، الآية ١٠٠.
(٣) الحجر، الآية ٧٢.

شككتم في أنّه مرضيّ له تعالى، فتشمل الآية الحلف على ترك البرّ والتّقوى والإصلاح بين الناس بالأولى.

وإنّما ذكر سبحانه هذه الأمور لأنّ سائرها يرجع إليها، أو لأنّها أهم الأمور النظامية الاجتماعية، أو لأنها مورد النذور والأيمان بين الناس غالباً، فتشمل الآية غيرها بالأولى، ويؤيّد هذا المعنى بعض الروايات كما يأتي.

وللمفسّرين في تفسير هذه الآية الشريفة أقوال:

منها: أنّ هذه الآية غاية الحكم، أي النّهي في ﴿لَا تَجْعَلُوا﴾، أي: لا تحلفوا بالله لأن تبرّوا وتتّقوا وتصلحوا، فتكون تعليلاً لما تقدّم.

ومنها: أنّ قوله تعالى: ﴿أَن تَبَرُّوا﴾ تقدير (أن لا تبروا)، أي: لا تكثروا الحلف بالله فإنّه يؤدي إلى أن لا تبرّوا ولا تتّقوا ولا تصلحوا بين الناس، فإنّ مَن أكثر الحلف بشيءٍ أدّى إلى استصغار ما أقسم به، فلا يبالي الكذب ولا الحنث.

ومنها: لا تجعلوا الله بواسطة الحلف به مانعاً وحاجزاً عمّا حلفتم على تركه، فإنّه لا يرضى أن يكون اسمه حاجباً عن الخير. وغير ذلك من الوجوه، ولكنّ الوجه الذي ذكرنا أنسب وأشمل، وإن أمكن إرجاع بعض الوجوه المتقدّمة إلى ما قلناه.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: أنّ الله سميع لأيمانكم وجميع أقوالكم، عليم بنياتكم وأحوالكم، ولا يخفى عليه شيء في السموات والأرض، وفي الآية نوع من التهديد، وفيها إرشاد إلى مراقبة الإنسان لأقواله ونياته.

قال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ﴾.

مادة (لغو) تأتي بمعنى ما لا فائدة فيه ولا نفع، ويطلق اللفظ على صوت الطير والعصافير من هذه الجهة.

والمراد به في المقام: الحلف الخالي عن القصد الاستعمالي الجدي، الذي تدور عليه المحاورات المتعارفة بين الناس، فإنّه إذا لم يحرز ذلك لا يترتب الأثر على الكلام، بلا فرق بين الإخباريات والإنشائيات والوضعيات والأحكام مطلقاً.

فيكون الأصل في بيان المراد والظهور هو القصد الاستعمالي الجدي، وعليه يبتني التفهيم والتفهّم والمؤاخذات، والكلام بدونه تكون لغواً بالنسبة إلى المعنى المطلوب لا فائدة فيه، ولا يترتب عليه الأثر المقصود.

والآية المباركة تبيّن أن الأيمان الخالية عن القصد الاستعمالي الجدي تكون لغواً لا يترتب عليها الأثر، فلا يؤاخذ الله تعالى الناس عليها.

وتقع مثل هذه الأيمان في حشو الكلام وتجري على اللسان كثيراً من دون أن يعقد صاحبها على أنها يمين، ويدلّ على ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ﴾[1].

والمراد بعدم المؤاخذة، عدم الكفارة وعدم العقاب.

قال تعالى: ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾.

المراد من كسب القلب في المقام: القصد الجدّي والنية والعزم، أي: ولكن يؤاخذكم بما نوت قلوبكم في الأيمان من المخالفة العمدية

(١) المائدة، الآية ٨٩.

والكذب والحنث، وما يكسبه الإنسان من الإثم فيما عقد قلبه بالأيمان.

والآية تدلّ على أنّ قسماً خاصاً من اليمين يكون مورد المؤاخذة، وهو ما تصلح النية فيه، وفي غيره لا مؤاخذة فيه، للقاعدة العقلية من انتفاء الحكم بانتفاء الموضوع.

ويستفاد من الآية الكريمة كمال الأهمية للنيات، فإنّ علهيا يدور صلاح الأعمال وفساها والثواب والعقاب، وظاهر اللفظ إنّما يكون معتبراً لأجل كونه كاشفاً عن النيات.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

الغفور والحليم من أسماء الله تعالى الحسنى، والأول مبالغة في التجاوز والغفران عن الذنب بالشرائط المقرَّرة في الشريعة، والثاني عبارة عن الإمهال وترك التعجيل في العقوبة.

وتعقيب هذه الآيات المباركة بهذين الاسمين الشريفين للإشارة والترغيب إلى عدم اليأس من رحمة الله تعالى، لو تحقّقت المخالفة لبعض تلك الأحكام أحياناً لإغواء الشيطان، فيتوب إليه تعالى ويرغم أنف الشيطان، فذكر جلّ شأنه هذين الاسمين للإعلام بزيادة التوجّه والتنبيه، والمبالغة في عدم حصول اليأس عند صدور المعصية.

بحوث المقام

بحث أدبي

قال تعالى: ﴿أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ فيه وجوه من الإعراب:

الرفع: على أنه مبتدأ والخبر محذوف، أي البر والتقوى والإصلاح، أولى من اليمين بالله تعالى.

والنصب: إما على تأويل لا تمنعكم اليمين بالله تعالى البر والتقوى والإصلاح.

أو على أنه مفعول لأجله، أي: لأجل أن تبرّوا وتتّقوا وتصلحوا.

أو على أنّه منصوب بنزع الخافض.

وقيل: إنّ التقدير: أن لا تبرّوا ولا تتّقوا ولا تصلحوا. وحذف كلمة «لا» كثير، مثل قوله تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْۗ﴾[1]، أي: أن لا تضلّوا.

وقال الخليل والكسائي: إنّه في موضع خفض، والتقدير: في أن تبرّوا، فأضمرت وخفضت بها.

---

(١) النساء، الآية ١٧٦.

بحث فلسفي

من الألفاظ الشائعة في القرآن الكريم والسنّة المقدّسة: القلب، وهو من التقلّب، والصرف والتصرّف، وله إطلاقان:

الأول: العضو المعروف في جسم الحيوان، أي: اللحم الصنوبري النابت في الطرف الأيسر من الحيوان، وهو كمضخة للدم السائل في العروق.

الثاني: اللطيفة الربانية أو العقل العملي أو النفس الناطقة الإلهية في مقام فعليتها، أو النفس اللوّامة الفعلية، أو الجميع بحسب مراتبها المختلفة شدّة وضعفاً، لأنّه على أيّ تقدير من الحقائق التشكيكية، وإن كان الحقّ هو الأخير، كما هو المستفاد من الأخبار الشريفة وكلمات العلماء.

ومن هذا الإطلاق قوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾[(١)]، ومفهوم قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾[(٢)]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[(٣)]، وما ورد في الحديث: «قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن»، وفي القدسيات: «لا يسعني أرضي ولا سمائي، وإنّما يسعني قلب عبدي المؤمن»، وما ورد في الحديث: «سأل موسى ربّه أين أجدك يا ربّ؟ قال عزّ وجلّ: أنا عند المنكسرة قلوبهم».

ومن أسمائه الحسنى المباركة: «يا مقلّب القلوب»، إلى غير ذلك ممّا هو كثير.

---

(١) الشعراء، الآيتان: ١٩٣ و١٩٤.
(٢) الأعراف، الآية ١٧٩.
(٣) ق، الآية ٣٧.

وعن بعض أكابر الفلاسفة أنّ القلب بهذا المعنى من أبواب الجنّة، وبه تصير ثمانية، بخلاف النار، فإنّ أبوابها سبعة، وليس لها باب القلب، واستظهر ذلك من الآيات المباركة، منها قوله تعالى: ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾[١]، وقد تحيّر العلماء في ذلك.

ولعلّ إطلاق القلب وإرادة الروح أو النفس، أو الإنسان نفسه في بعض الآيات، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[٤]، لأجل أنّه مبدأ الروح، وبتلفه يتلف الحيوان، ولذا ينسب إليه عند العرف كلّ ما فيه شوب درك، مثل الحب والبغض ونحوهما.

كما يطلق عندهم الصدر ويراد به القلب، باعتبار الحال والمحل، كقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾[٥]، وقال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾[٦]، وغير ذلك من الآيات الشريفة.

بحث روائي

في تفسير القمي: عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَٰنِكُمْ﴾، قال: «هو قول الرّجل في كلّ حاله: لا والله، وبلى والله».

(١) الهمزة، الآيات ٦، ٧، ٨ و٩.
(٢) البقرة، الآية ٢٨٣.
(٣) ق، الآية ٣٣.
(٤) البقرة، الآية ٢٢٥.
(٥) الأنعام، الآية ١٢٥.
(٦) طه، الآية ٢٥.

وفي تفسير العياشي: عنه عليه السلام أيضاً في الآية المباركة، قال عليه السلام: «هو قل الرّجل: لا والله، وبلى والله».

أقول: إنّ إطلاق الرواية يشمل جميع ما ذكر في تفسير الآية الشريفة، ولفظ الجلالة من باب المثال لكلّ اسم مختصّ به عزّ وجلّ.

وفي الكافي: عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾، قال: «إذا دعيت لتصلح بين اثنين فلا تقل عليّ يمين أن لا أفعل».

وفي تفسير العياشي: عن الباقر والصادق عليهما السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾، يعني: «الرجل يحلف أن لا يكلّم أخاه وما أشبه ذلك، أو لا يكلّم أمه».

أقول: إن الرواية تدلّ على أنّ المعتبر في الحلف الرجحان أو التساوي، فلا ينعقد في المرجوح، فتكون بياناً لبعض معاني قوله تعالى: ﴿أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا﴾.

وفيه ـ أيضاً ـ قال عليه السلام: «يا سدير، مَن حلف بالله كاذباً كفر، ومَن حلف بالله صادقاً أثم إنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾، قال عليه السلام: «اللغو قول الرجل: لا والله، وبلى والله، ولا يعقد على شيء».

أقول: روى مثله العياشي عن أبي الصباح، والمراد بذلك أن لا يكون له قصد استعمالي جدّي.

روى الواحدي في أسباب النزول في قوله جلّ شأنه: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾، قال الكلبي: «نزلت في عبد الله بن رواحة ينهاه عن قطيعة ختنه بشير بن النعمان، وذلك أنّ ابن رواحة حلف أن لا يدخل

عليه أبداً ولا يكلّمه ولا يصلح بينه وبين امرأته، ويقول: قد حلفت بالله أن لا أفعل ولا يحل (لي) إلا أن أبرّ في يميني، فأنزل الله تعالى هذه الآية».

أقول: تقدّم ما يدلّ على ذلك أيضاً.

بحث فقهي

يستفاد من الآية الشريفة أحكام:

الأول: أنّ الأيمان على ما يستفاد من الآية الشريفة، بضميمة ما ورد في شرحها من السنّة المقدّسة على أقسام ثلاثة:

١ ـ يمين التأكيد والتثبيت، كما إذا قال: والله إنّ هذا اليوم يوم الجمعة، وهو كذلك.

٢ ـ ما تقرن بالطلب والسؤال، وحث المسؤول على إنجاح المقصود، كقول الحالف: «أسألك بالله أن تقضي لي حاجتي»، والدعوات المأثورة مشحونة بذلك.

٣ ـ ما تقع تأكيداً لما التزم به، كقول القائل: «والله لا أرضى» مثلاً.

ولا يترتّب شيء على القسم الأول سوى الإثم لو كان كاذباً في حلفه، وهي من المعاصي الكبيرة، وتسمّى باليمين الغموس، لأنّها تغمس صاحبها في النار، وفي بعض الأخبار: «إنّها تذر الدّيار بلاقع من أهلها».

وكذا لا أثر بالنسبة إلى القسم الثاني ولا كفارة أيضاً على الحالف، ولا على المحلوف عليه لو لم ينجح المقصود.

وأما القسم الأخير ففيه شرائط مذكورة في الفقه، ويترتب على حنثه الإثم والكفارة.

الثاني: لا أثر لليمين إلا إذا كانت بالله عزّ وجلّ أو بأسمائه المقدّسة المختصّة به لفظاً أو بالقرينة الظاهرية، فاليمين بغير ذلك لا أثر لها ولو كان عظيماً.

الثالث: الأيمان الصادقة كلّها مكروهة، سواء كانت على الماضي أو المستقبل، وتتأكد الكراهة في الأول، فعن أبي عبد الله عليه السلام في الموثق: «لا تحلفوا بالله صادقين ولا كاذبين، فإنّه عزّ وجلّ قال: ﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ﴾.

وعن أبي عبد الله عليه السلام في موثق ابن سنان قال: «اجتمع الحواريون إلى عيسى عليه السلام فقالوا: يا معلّم الخير أرشدنا، فقال: إنّ موسى نبيّ الله عليه السلام أمركم أن لا تحلفوا بالله كاذبين، وأنا آمركم أن لا تحلفوا بالله كاذبين ولا صادقين».

نعم، لو أراد بها دفع مظلمة عن نفسه أو عرضه أو غيرهما، جاز بلا كراهة، والتفصيل يطلب من الفقه.

الرابع: يتعلّق اليمين بكلّ مباح فيه غرض صحيح غير منهي عنه شرعاً، كما يتعلّق بترك كلّ حرام أو مكروه، وبفعل كلّ واجب أو مندوب، ولا يتعلّق بغير ذلك، بل يكون لغواً وباطلاً.

بحث عرفاني

كلّ مَن أحب شيئاً وعشقه لا يحلف بمحبوبه ومعشوقه إلا نادراً، بل لا يحلف به في الأمور المهملة، وإذا حلف يبرّ بحلفه ولا يحنث ولو أدى إلى بذل النفس والنفيس، والله تعالى أحب الموجودات إلى خلقه، وهو تعالى يطلب من خلقه أن يكونوا عباداً له عزّ وجلّ، يأتمرون بأوامره

وينتهون عن نواهيه، مطيعين له يراقبونه في جميع أمورهم، وتنظيم نظام العبودية يقتضي أن لا يبادروا إلى الحلف به.

كما لا يحلف أحد بمحبوبه فإنّه تعالى المحبوب الحقيقي لكلّ موجود، ولو حلفوا به فإنّ عبوديتهم له عزّ وجلّ تقتضي الوفاء به بكلّ ما أمكنهم[١].

(١) م ـ ن، ص٣٤٢ ـ ٣٥١، ج (٣).

الخمر والميسر من الآفات الأخلاقية

من الأمور التي اهتمّ الإسلام بها واعتنى بها اعتناءً بليغاً وشدّد النكير على ارتكابها، ونهى عنها بأساليب مختلفة، ووصفها بأوصاف متعدّدة تنبىء عن أنها من شرّ الرذائل وأخبث الأمور، **الخمر والميسر**، فقد ذكرهما في مواضع متعدّدة من القرآن الكريم ووصفهما بأنّهما من خطوات الشيطان الذي يريد أن يوقع بهما بين أفراد الإنسان والعداوة والبغضاء، وأثبت فيهم الإثم الكبير، كما اعتبرهما من الرّجس الذي يجب الاجتناب عنه، وأصرّ الإسلام على ذمهما والاستهانة بهما، ففي السنّة الشريفة من ذلك الشيء الكثير، ويكفي في خسّتهما أنّهما من أفعال أهل الجاهلية، فقد كانا منتشرين قبل الإسلام، ونزل القرآن ينهى عنهما على سبيل التدرّج، فنزل قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾، فذكر فيه الإثم والمنفعة، ورجّح الإثم عليها، وكان ذلك كافياً في الرّدع، ثم نزل قوله تعالى في الخمر: ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾[١]، وأخيراً ورد الأمر بتركهما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾[٢].

وقد ذكر سبحانه كلمة جامعة تكشف عن جميع ما يتعلّق بهما وما

---

(١) النساء، الآية ٤٣.

(٢) المائدة، الآية ٩٠.

ينطوي فيهما من الأضرار والمخاطر، فقال عزّ وجلّ: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾، وإذا أُلقي هذا الخطاب الكريم إلى العاقل يستفيد أنّه تعالى نفى عنهما جميع المنافع، لما أثبت الإثم الكبير فيهما، فإنّ المنافع إما دنيوية أو أُخروية، ولا وجه لثبوت الأخيرة مع وجود الإثم الكبير، بل لا يمكن اجتماعهما في مورد.

وأما المنافع الدنيوية، فهي إنّما يرغب إليها الإنسان إذا جلبت له الخير أو دفعت عنه الضرّر، وهما منفيان في الخمر والميسر، سوى ما يتخيل من المنفعة اليسيرة الوهمية، ولا يقدم عليها عاقل.

ومن ذلك يستفاد أنّ الخمر والميسر يخلوان من الخير مطلقاً.

وقد تصدّى العلماء في مختلف العلوم لذكر أضرارهما ومفاسدهما الفردية والاجتماعية، فذكر الأطباء تأثير الخمر على صحة الإنسان وما تجلبه من الأسقام والآلام، واعتبر علماء النفس الخمر من أشدّ الأشياء تأثيراً على النفس، لأنّها تسبّب الأمراض النفسية التي تعاود صاحبها حتّى الممات، وقد بحث عنها علماء الدِّين من حيث تأثيرهما في سعادة الإنسان وشقاوته في الدنيا والآخرة.

وأما أضرارهما الاقتصادية، فهي غير خفية على أحد حتّى اعتبرهما علماء الاقتصاد من الأسباب التي تعيق الكمال الاقتصادي في المجتمعات، ولا أظنّ أنّ موضوعاً كان له هذه الأهمية والتأثير من جوانب متعدّدة من حياة الإنسان المادية والمعنوية والصحية والنفسية والعقلية، الفردية والاجتماعية، ولأجل ذلك ورد عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «أنّ الخمر رأس كلّ إثم».

وعن الباقر والصادق عليهما السلام: «إنّ الله جعل المعصية بيتاً، ثم جعل

للبيت باباً، وجعل للباب غلقاً، ثم جعل للغلق مفتاحاً، فمفتاح المعصية الخمر»، وعن الصادق عليه السلام: «إنّ الخمر أُم الخبائث ورأس كلّ شر».

وعن الباقر عليه السلام: «أفاعيل الخمر تعلو على كلّ ذنب، كما تعلو شجرتها على كلّ شجرة».

وعن الأئمة الهداة عليهم السلام: «إنّ الله جعل للشر أقفالاً، وجعل مفاتيح تلك الأقفال الشراب».

وقد ألّف العلماء في كلّ واحد من الخمر والميسر كتباً مستقلّة تشتمل على فوائد جليلة، مَن شاء فليرجع إليها.

وتحريمهما لا يختصّ بهذه الشريعة، بل حرّمتهما جميع الأديان الإلهية، ففي الحديث عن الصادق عليه السلام: «ما بعث الله نبياً قط إلا وفي علم الله أنّه إذا أكمل له دينه كان فيه تحريم الخمر، ولم تزل الخمر حراماً، إنَّ الديْن إنّما يحوّل من خصلة إلى أخرى، فلو كان ذلك جملة قطع بهم (بالناس) دون الدّين».

ونحن نتكلّم في هذا البحث عن الجانب الخلقي للخمر وتأثيرها في الصفات الخلقية للإنسان إجمالاً.

من المعلوم أنّه لم يخلق الله جلّ جلاله خلقاً أعزّ وأشرف لديه من العقل، الذي جعله مدار إنسانية الإنسان، وبه امتاز عن سائر المخلوقات وفاق به عليها، وهو مناط التكليف، وعليه يدور الثواب والعقاب، كما أنّ به يقوم الجزاء في يوم الحساب. وتدلّ على ذلك الأدلّة الكثيرة العقلية والنقلية، فكلّ ما يضاد العقل وينافيه، أو يسلبه ويعاديه، يكون من أبغض الأشياء لدى الله وجميع الأنبياء والمرسلين والملائكة أجمعين، والخمر لا أثر لها إلا ذلك، فهي أُم الخبائث كما كنّاها به نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله وقد لعن شاربها.

فعن الصادق عليه السلام: «مَن شرب جرعةً من خمرٍ لعنه الله وملائكتُه ورسلُه والمؤمنون».

ومن غير المعقول أن يرتكب عاقل ملتفت أُم الخبائث، وما يزيل النظم والانتظام عمّا يصدر منه من أعمال جوارحيّة وأفكار جوانحيّة، فعدُّ شرب الخمر من المقبّحات العقلية أولى من عدّه من المحرّمات الشرعية، مع أنّهما متلازمان كما ثبت في محلّه، ويدلّ على ذلك قول الأئمة الهداة: «إنّ الله حرّم الخمر لفعلها وفسادها».

فمن الآثار الخُلُقية المترتبة على شرب الخمر: أنّها تسلب لبَّ شاربها، وتجعل زمام عقله بيد الأهواء والنفس الأمّارة، فعن الصادق عليه السلام: «السَّكران زمامه بيد الشيطان، إن أمره أن يسجد للأوثان سجد، وينقاد حيثما قاده».

ومن الآثار أنها تذهب الإيمان، ففي الحديث عن يونس بن ظبيان عن أبي عبد الله عليه السلام: «يا يونس، أبلغ عَطيّة عنّي أنّه مَن شرب الخمر حتى يسكر منها نزع روح الإيمان من جسده، وركِّبت فيه روح سخيفة خبيثة ملعونة».

وفي حديث آخر عن الصادق عليه السلام أيضاً قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: مدمن الخمر يلقى الله يوم يلقاه كافراً»، وفي كثير من الروايات: «أنّ مدمن الخمر يلقى الله كعابد وثن».

ومن الآثار: أنّ الخمر تذهب بنور شاربها، فتستولي على قلبه الحجب الظلمانية، فلا يعرف ربّه فيكون في حيرة وضلالة، فيجسر على ارتكاب المحرّمات وتهون عليه المعاصي والآثام، فعن ابن يسار عن الصادق عليه السلام: «إنّ شارب الخمر يصير في حالٍ لا يعرف معها ربّه».

وعن الصادقين عليهم السلام: «ما عصي الله بشيء أشدّ من شرب المسكر، إنّ أحدهم يدع الصلاة الفريضة ويثب على أمه وبنته وأُخته وهو لا يعقل».

وفي حديث آخر عن أمير المؤمنين عليه السلام: «قيل له: إنّك تزعم أنّ شرب الخمر أشدّ من الزنا والسرقة؟ قال عليه السلام: نعم، إنّ صاحب الزنا لعلّه لا يعدو إلى غيره، وإنّ شارب الخمر إذا شرب الخمر زنا، وسرق، وقتل النفس التي حرّم الله، وترك الصلاة»، إلى غير ذلك من الأخبار الكثيرة.

ومن الآثار: أنّها تورث الندامة وتأنيب الضمير، ففي الحديث عن أبي بصير عن الصادق عليه السلام: «أنّه قال لأم خالد العبدية، لا تذوقي منه ـ النبيذ ـ قطرة، لا والله لا آذن لك في قطرة منه، فإنّما تندمين إذا بلغت نفسك هاهنا ـ وأومى بيده إلى منحره ـ يقولها ثلاثاً».

ومن الآثار: أنّها تجعل الإنسان مضطرب البال غير مستقرّ النفس، تحدّثه نفسه بارتكاب الجناية، لم يكن للآخرين عنده منزلة وكرامة، فهو في عداوة دائمة مع غيره، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾(١).

ومن الآثار: أنّها توجب الصّد عن ذكر الله تعالى، الذي هو أقوى رادع عن ارتكاب المعاصي، فلا يراقب الله في أقواله وأفعاله، قال تعالى: ﴿وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾(٢).

ومن الآثار: أنّها تورث سوء العاقبة، فعن مسعدة بن زياد، عن أبي عبد الله، عن آبائه عليهم السلام، عن النبي صلى الله عليه وآله: «يجيء مدمن الخمر المسكر

---

(١) المائدة، الآية ٩١.
(٢) المائدة، الآية ٩١.

يوم القيامة مرزقّةً عيناه، مسودّاً وجهه، مائلاً شدقه، يسيل لعابه، مشدوداً نصايته إلى إبهام قدميه، خارجاً يده من صلبه، فيفزع منه أهل الجمع إذا رأوه مقبلاً إلى الحساب».

وعن الباقر عليه السلام: «مَن شرب المسكر ومات وفي جوفه منه شيء لم يتب منه، بُعث من قبره مخبّلاً مائلاً شدقه، سائلاً لعابه، يدعو بالويل والثبور»، إلى غير ذلك من الأخبار التي تدلّ على سنخية العقاب مع المعصية، وتناسب الجزاء مع العمل كما هو واضح.

إلى غير ذلك من الآثار التي تترتب على شرب الخمر، ويشترك الميسر في كثير من تلك الآثار وهي وجدانية يعرفها كلّ مرتكب لهذه المعصية، فجدير بالإنسان أن يترك هذا الإثم الكبير كما وصفه الجليل في كتابه الكريم.

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى أنّ حب الإنسان لشيءٍ أو كرهه له لا يغيّر الواقع، بل هو محفوظ في حدّ نفسه ولا يعلمه إلا الله تعالى، وأنّ شأن الإنسان أن يبغي الصّلاح في أفعاله، ذكر تعالى في هذه الآية المباركة من مصاديق ذلك القاعدة نكاح المشركات والمشركين، وحكم بأنّه ليس من صلاح المؤمن نكاح المشركة وإن أعجبه هذا النكاح، بل لا بد للناس أن يذكروا الله تعالى ويختاروا ما يدعو إليه في الدنيا والآخرة[١].

---

(١) ص٣٠٥ ـ ٣١٠، ج(٣).

في الرجاء

الرجاء: فضيلة عالية، وله منزلة كريمة سامية، ومن الأخلاق الفاضلة أمُرنا بالتخلّق بها، وهو يورث المجاهدة بالأعمال والمواظبة على الطاعات، وهو من دعائم الإيمان وركائز الأعمال، لا يليق إلا بمّن كان مؤمناً مجاهداً، وقد اعتبره علماء الأخلاق والسلوك من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين.

بل هو من ملازمات الحياة التي لا ينفك عنها الإنسان، وبدونه لا يمكن الفوز بنِعَم الحياة، ولا الظفر بالعيش الهنيء. فهو والرّغبة والأمل من الأمور الدخيلة في نظام هذا العالَم، فإنّ بالآمال يتقبّل الإنسان المشكلات ويقتحم الصِّعاب. وبالرغبات تقوم الأسواق وتتحقق أنواع التجارات، وبالأماني تُقضى الحاجات وتقبل الطلبات، وبالرجاء يعمل الإنسان ويكافح في سبيل العيش والبقاء. ولنعم ما قيل:

أعلّل النّفس بالآمال أرقبها ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

وبالجملة: أنّ للرجاء أثراً كبيراً في حياة الإنسان الفردية والاجتماعية، وله الأهمية الكبرى في الجانب التربوي والدِّيني له، مضافاً إلى كونه من أركان الإيمان إذا كان متعلّقاً بالله تعالى، فإنّه يكشف عن عبودية صاحبه له عزّ وجلّ، وقوة معرفته به وخوفه منه، لأنّه يرجع إلى حسن الظن بالله تعالى الذي هو مجمع جملة من الأخلاق الفاضلة، ولذا ورد الأمر به في كثير من الروايات.

فالرجاء يضاعف العزيمة، ويجعل صاحبه مثابراً على العمل بالصبر والثبات، وهو عامل من عوامل النصر والغلبة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[1].

ولقد ورد ذكر الرّجاء في مواضع متعدّدة من القرآن الكريم، واعتبره من الأخلاق الفاضلة التي ينبغي للمؤمن أن يتحلّى بها، بل اعتبره من أجزاء الإيمان، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[2]، وقد أدرجه الأنبياء والمرسلون عليهم السلام في جملة ما يدعون إليه، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[3]، وقد نوّه الجليل عزّ وجلّ بعظيم فضله، حيث وعد المؤمنين الصالحين تحقيق رجائهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾[4]، ويعرف كمال أهميته أنّ الحرمان منه يعدّ عند الله تعالى استكباراً، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾[5]، وقد أوعد مَن لا يرجو لقاء الله بعظيم العذاب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[6]، كما

---

(١) النساء، الآية ١٠٤.
(٢) الكهف، الآية ١١٠.
(٣) العنكبوت، الآية ٣٦.
(٤) فاطر، الآية ٢٩.
(٥) الفرقان، الآية ٢١.
(٦) يونس، الآيتان ٧ و٨.

أهمله عزّ وجلّ، قال تعالى: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ﴾[١]، ولذلك كان اليأس ـ الذي هو ضد الرجاء ـ من المعاصي الكبيرة التي توجب البعد عن الله سبحانه، والانحراف عن الصراط، قال تعالى: ﴿قَالُواْ بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ ۝٥٥ قَالَ وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾[٢]، وقد ورد في السنّة الشريفة أخبار كثيرة تبيّن فضله، يأتي ذكر بعضها في ضمن هذا البحث.

ولا تختصّ هذه الفضيلة بالإسلام، بل يعتبر الرجاء ثانية الفضائل الثلاث عند المسيحيين، وهي الأمانة، والرجاء، والمحبّة، وهو عندهم فضيلة عظمى ينتظر بها أنواع النِّعم في الدنيا، والسعادة في الآخرة.

ثم إنّ الرّجاء، والتمنّي، والأمل وإن كانت مفاهيم مختلفة إلا أنّها في أصل الحقيقة واحدة، والفرق بينها اعتباري فقط، فإنّ الأمل يطلق على رغبة ما هو مرضيّ ومحمود، والتمنّي يطلق في المجهول المطلق وما لم يعلم بحصول المتوقَّع، بل حتى مع استحالته أيضاً، بخلاف الرَّجاء فإنّه يطلق في الأعمّ ممّا هو مرضيّ ومحمود، كما أنّه لا يطلق إلا على انتظار المتوقع إذا حصل أكثر أسبابه، ولأجل ذلك كان الرّجاء ممدوحاً والتمنّي مكروهاً، ففي الحديث: «الأماني بضائع النّوكى» أي الحمقى.

فالرّجاء: هو تعلّق النفس بما هو المحبوب عند تحقّق أكثر أسبابه، ولذا يرتاح القلب من انتظاره، لأنّ الإنسان يشتاق إلى حصول نتيجة عمله وثمرة جهده.

قال الشاعر:

أمانيّ إن تحصل تكن غاية المنى ... وإلا فقد عشنا بها زمناً رغدا

---

(١) يونس، الآية ١١.

(٢) الحِجر، الآيتان ٥٥ ـ ٥٦.

وقد اعتبر علماء الأخلاق الرجاء من العوامل الدّاعية إلى العمل، ويجعل صاحبه صبوراً يتحمّل في سبيل تحقيق غرضه أنواع المشاق، ذا عزيمة قوية، والوجه في ذلك معلوم، لأنّ العلم بالمراد تصوّراً وتصديقاً من مقدّمات الإرادة، وبدونه لا يتحقّق لها موضوع، كما ثبت في علم النفس، ولذا كان طلب المجهول المطلق محالاً، وإذا حلّلنا ذلك بالدقة العقلية، نرى أنّه ينحل إلى العلم بالمراد إجمالاً، والتصديق بفائدته كذلك، والرجاء بترتبها عليه والخوف عمّا يوجب البعد عنه، فيرغب إلى ارتفاعه ويرجو زواله، فيكون الرجاء والخوف مأخوذين إجمالاً في تحقيق الإرادة، بلا فرق في ذلك بين الأمور التشريعية وغيرها.

فيكون للرجاء والخوف دخل في أصل الأعمال، وهما متلازمتان ويتقابلان في الوجود والعدم، فإنّ الخوف عن عدمه يلزمه الرجاء وجوداً، واعتبرهما علماء الأخلاق جناحين يطير بهما المؤمنون إلى كلّ مقام محمود، ومطيتين يقطع بهما العامل كلّ طريق مخوف حتى يصل إلى المطلوب. فهما جزءا إرادته، يكشفان عن شدّة تعلّق صاحبهما بمتعلّقهما ومحبّته لهما، فكلّ حبٍّ مصحوب بالخوف والرجاء، وعلى قدر تمكّنه من قلب المحبّ يشتدّ خوفه ورجاؤه، فإنّ التطلع إلى رؤية المحبوب ورجاء ملاقاته يصحبهما توقع حدوث المكروه، ولا أقلّ من احتمال صرفه عن رؤية المحبوب، فيظلّ الإنسان دائماً بين الخوف والرّجاء، وهو يعيش بينهما آمناً مطمئنّ النّفس إذا كانا متعلّقين بالله تعالى، قال عزّ وجلّ: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾(١)، وفي الحديث: «ما اجتمعا في قلب عبد في هذا الموطن - أي عند النزع - إلا أعطاه الله ما رجا، وآمنه ممّا يخاف».

(١) الإسراء، الآية ٥٧.

وممّا ذكرنا يظهر أنّ حقيقة الرّجاء تتقوّم بأمور:

الأول: أنّه جزء من الإرادة في الإنسان، التي بموجبها صارت أفعاله ذات قيمة أخلاقية.

الثاني: أنّه يتعلّق بما هو متوقع الحصول بعدما مهّد جميع أسبابه الاختيارية، ولم يبق إلا الأسباب الخارجة عن الاختيار، فيرجو تمهيدها ورفع الموانع عن تحقيق المرجو، ولأجل ذلك لا ينفكّ الرجاء عن العمل، وهذا ممّا أكد عليه القرآن الكريم في مواضع متعدّدة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾[(١)]، أي إنّ الرجاء لا يليق إلا بهؤلاء فلا يستحقّه غيرهم. وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[(٢)]، ولقد ذمّ الإسلام مَن يرجو الغفران بدون العمل والإيمان، قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾[(٣)]، وقال نبيّنا الأعظم ﷺ: «الأحمق مَن أتبع نفسه هواها، وتمنّى على الله الجنّة».

وفي الكافي: عن الصادق عليه السلام قيل له: إنّ قوماً من مواليك يلمّون بالمعاصي، ويقولون: نرجوا، فقال عليه السلام: «كذبوا ليس لنا بموالٍ أولئك قوم ترجّحت بهم الأماني، مَن رجا شيئاً عمل له، ومَن خاف شيئاً هرب منه»، وعنه عليه السلام أيضاً: «لا يكون مؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً، ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو».

---

(١) البقرة، الآية ٢١٨.
(٢) الكهف، الآية ١١٠.
(٣) الأعراف، الآية ١٦٩.

فالرجاء لا بد وأن يكون مقروناً بالعمل ومع فقده يكون غروراً، مثل مَن يلقي البذر في الأرض السبخة، وقد عزم على عدم تعهد الزرع بالسقي، وتنقية الأرض، وهو يرجو جني الثمار من بذره، وهذا لا يكون إلا غروراً. بخلاف مَن ألقى البذر في أرض طيبة، وقد بنى على التعهّد والتنقية وسوق الماء، وتحقيق كلّ ما هو داخل تحت اختياره في سبيل الحصول على الثمار من زرعه، ثم يرجو الله تعالى أن يدفع عن زرعه الحوادث والصوارف، فيكون رجاؤه محموداً، وكذا مَن يرجو الله تعالى والدخول في رضوانه ورحمته، لا بد له من الإيمان به، ومتابعة أنبيائه، وتطهير القلب من الأخلاق الرذيلة والتحلّي بالأخلاق الفاضلة، ثم التعهّد بإتيان الطاعات وترك المعاصي والسيئات، فيرجو حسن الخاتمة والثبات على الإيمان والمغفرة، ومثل هذا الرجاء يكون محموداً في نفسه، وباعثاً على القيام بما يقتضيه الإيمان، ويوجب العزيمة في المؤمن ويجعله مثابراً على العمل.

الثالث: أنّ المرجو منه لا بد أن يكون أهلاً لما يرجى منه وقادراً على الإجابة، وهو منحصر به عزّ وجلّ، لأنّ غيره في معرض الزوال، ولأنّ عروض الحوادث وأسبابها الخفية غير معلومة لأحد إلا الله تعالى.

نعم، حيث إنّ الدنيا دار الأسباب، ولا تجري الأمور فيها إلا بأسبابها، لا بد من تهيئة الأسباب الظاهرية والجدّ والاجتهاد فيها، ويرجى من الله رفع الموانع التي هي غير معلومة لنا، فانحصر الرجاء المطلق بالحيّ القيوم، لأنّ غيره يفنى ولا يدوم.

ثم إنّ للرجاء مراتباً ودرجات، أعلاها ما إذا كان متعلّقاً بالله تعالى وبأسمائه الحسنى وصفاته العليا، وهذا هو الرجاء المحمود الذي مدحه القرآن الكريم، واعتبره أساس العمل الصالح والإيمان الصحيح، وموجباً

للغفران والارتقاء إلى الدرجات العليا، بل ذكرنا أن الرجاء الحقيقي لا يكون إلا هذا، ويكون العمل مع هذا الرجاء أعلى من العمل مع الخوف، فإنّ مثل هذا الرجاء ينبىء عن عبودية صاحبه له عزّ وجلّ، وقوة معرفته به، وخوفه منه، ويكشف عن محبة صاحبه لله تعالى، وعلى قدر قوّة المعرفة وشدّة الحب والإخلاص تكون درجات الرّجاء، وعلى ذلك يحمل ما ورد في القرآن الكريم من الاختلاف في ذكر المرجو، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرْجُواْ ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾(٥).

ثم إنّ الرجاء ـ كسائر الفضائل ـ لا بد أن يخرج عمّا هو المطلوب وإلا كان مذموماً، وهو الحد الوسط بين اليأس والقنوط وبين الرجاء بلا عمل.

وللرجاء فوائد وحِكَم ظاهرة في الدنيا والآخرة، نذكر المهم منها:

منها: تمامية الإيمان والخلوص والإخلاص فيه، والحبّ لله تعالى.

ومنها: ظهور العبودية المحضّة لله تعالى على القلب والجوارح، وإحساس الافتقار إليه عزّ وجلّ.

---

(١) الأحزاب، الآية ٢١.
(٢) الكهف، الآية ١١٠.
(٣) البقرة، الآية ٢١٨.
(٤) العنكبوت، الآية ٣٦.
(٥) فاطر، الآية ٢٩.

ومنها: جعل صاحبه مثابراً على الجد والاجتهاد.

ومنها: حصول الاطمئنان والسعادة، فإنّ الرجاء بالمبدىء القيوم الحيّ، يؤثّر في النفس ويبعد عنها القلق والاضطراب، لأنه يرى نفسه متعلّقة بالمبدىء القيوم الذي لا حدّ لقدرته وفضله، ولذا نرى أن المؤمنين الراجين أسعد الناس بالاً، وأبعدهم عن القلق والاضطراب.

ومنها: حصول المراقبة التي هي أفضل مقامات الأولياء.

ومنها: أنه ارتباط معنوي وذكر حالي لله جلّت عظمته، في جميع الأحوال.

ومنها: أنّه يرغّب صاحبه على العمل، ويحرّضه على الجهد والاجتهاد، ويبعده عن التكاسل والتهاون.

ومنها: أنّ العمل معه أقرب إلى القبول، لأنّ الله يحبّ من عباده أن يرجوه ويسألوه من فضله، كما في الحديث.

ومنها: محبوبية الرّاجين لله تعالى عند الناس، وتوجّه القلوب إليهم، كما كان كذلك سيرة الأنبياء والأولياء، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾[١] ـ [٢].

(١) الأحزاب، الآية ٢١.
(٢) م ـ ن، ٢٨٣ ـ ٢٩٠، ج (٣).

الإسلام ـ السلم ـ السلامة

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾.

الخطاب مدني ـ كما مرّ ـ والإضافة تشريفية لا اختصاصيّة، والتعبير ـ بـ﴿ٱدۡخُلُواْ﴾ لكمال الأهمية كما يأتي.

ومادة (سلم) تأتي بمعنى التعرّي عن العيوب والآفات، سواء كانت ظاهرية أم باطنية، في الدنيا أو الآخرة.

وهي من المواد الكثيرة الاستعمال في القرآن الكريم بهيئات مختلفة ومنها الإسلام، والسلام، والسلامة. ولعلّ أعذب استعمالاتها قوله تعالى في وصف المتقين: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾[٢].

وهذه المادة في جميع هيئاتها محبوبة عند الناس، قد أطلقها الله تعالى على ذاته الأقدس في جملة من أسمائه الحسنى، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ﴾[٣]، فهو تعالى سلام فوق ما نتعقّله من معنى السلام، وسبيله تعالى سبيل السلام، وعباده

(١) الفرقان، الآية ٦٣.
(٢) الأنفال، الآية ٦١.
(٣) الحشر، الآية ٢٣.

الصالحين سلام من سلام، وداره دار السلام، الذي هو مظهر غيبي وصورة حقيقية لهذه الآية، فهما متّحدتان في الذات ومختلفتان بالاعتبار، إحداهما جوهر قائم بالذات وهو عالم الآخرة، والأخرى عرض قائم بالغير.

تكوّن وتبدّل العرض بالجوهر وبالعكس سهل في نظام التكوين، فضلاً عن قدرة العزيز الحكيم، والجميع عبارة عن الصراط المستقيم الذي له أطوار من الظهور في عالم البقاء ودار الغرور، ولكنّ الحقيقة واحدة التي هي عبارة عن العبودية الواقعية، فهو من أعظم تجليّات الله تعالى لبني آدم وأعظم عناياته على خلقه، لأن يخرجه من الظلمات إلى النور.

و﴿كَآفَّةً﴾ هنا بمعنى الجمع، والجميع حال من ضمير الجمع في قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟﴾، جيء به ليشمل جميع الأفراد، للإعلام بأنّ الأمر متعلّق بالأُمّة بقدر ما هو متعلّق بالأفراد، فإنّ الجهات الاجتماعية الإسلامية يتقوّم المجتمع بها كما ينتفع الفرد منها لا محالة، بقرينة ذكر فرق الناس قبل ذلك.

ويحتمل أن تكون ﴿كَآفَّةً﴾ تأكيداً للسّلم، فتشمل جميع التكاليف الفردية والاجتماعية، والكمال الفردي والنوعي.

والأولى أن يكون قوله تعالى: ﴿كَآفَّةً﴾ تأكيداً لجميع ما سبق، ليشمل جميع ما ذكرناه، بل بينهما ملازمة في الجملة.

والخطاب للمؤمنين ـ كما ذكرنا ـ لكونهم أفضل الأفراد، وأقرب إلى الرشاد، ولتكميل الإيمان بالله تعالى بالتسليم له سبحانه والإخلاص له عزّ وجلّ، والبقاء عليه، فيكون أمراً بالثبات والدّوام، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ

وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾[١]، فعبّر بالدخول للإشارة إلى أنّ المطلوب في الكمالات المعنوية والمعارف الإلهية إنّما هو الإدامة والبقاء، لا مجرّد الحدوث فقط، بل كلّ فضل وكمال شأنه كذلك، فإنّ المطلوب فيه هو الاستقامة والدّوام، لأنّ المعارف الإلهية الحاصلة للنفس بالاختيار، إنّما تؤثّر في ذات الإنسان بواسطة الملكات الحاصلة منها، حتّى تصير النفس بالمواظبة عليها وممارستها شعاعاً من أشعة عالَم الغيب على النفس، فتنبعث عن الذات الأفعال الخيرية، فتصبح الذات من الذوات المقدّسة.

فيكون المعنى: يا أيّها الذين آمنوا اثبتوا على الطاعة والتسليم لأمر الله تعالى، ولا تختلقوا وتتفرّقوا، ولا تتبعوا الهوى، فإنّ في ذلك هلاككم وذهاب سعادتكم.

ومقتضى إطلاق الآية الشريفة خصوصاً بعد التأكيد بقوله تعالى: ﴿كَآفَّةً﴾ بناءً على كونه تأكيداً للسلم، شمولها لجميع ما يتعلّق بالشريعة المقدّسة الإسلامية بأصولها وفروعها، فإنّ جميع ذلك سلم حقيقي للإنسان، صدر عن سلام مهيمن على الكّل.

وإرشاد إلى الدعوة إلى العقل المقرّر بالشريعة والشريعة المتممة للعقل، إذ لا فرق بينهما في الواقع.

وعلى هذا يشمل جميع ما ذكر في معنى الآية، فإن عنوان السّلم للحقّ الواقعي ينطبق على ذلك كله، كما ينطبق على الإنسانية الكاملة والقرآن، الخلافة الإلهية لتلازمها مع السّلم للحقّ الواقعي.

والمراد بالسّلم: السّلم الواقعي لا الادّعائي، وهو يتحقّق بعد الإيمان بالله تعالى، والاعتقاد بأصول الشريعة اعتقاداً تاماً، والعمل بما

(١) النساء، الآية ١٣٦.

اعتقده، وجميع ما ورد في الروايات في تفسير هذه الآية الكريمة، وما ذكره المفسّرون ليس إلا من بيان التطبيق والمصداق، وعمومها يشمل السّلم الشخصي والنوعي، والدّنيوي والأُخروي، لانطواء الكلّ في السّلم الذي يدعو إليه عزّ وجلّ.

وتشمل الآية الحدوث والبقاء، والثاني أشدّ من الأول بمراتب، ويُعلم من ذلك كلّه كثرة ما عليه الناس من المخالفة لمثل هذه الآية.

ومفهومها الالتزامي يدلّ على أنّ مخالفة السّلم للحقّ المطلق لا يكون إلا باطلاً، فيكون ذيل الآية بياناً للمفهوم الالتزامي المستفاد من صدر الآية المباركة.

وإنّما عبَّر سبحانه وتعالى بـ«السلم» دون الإسلام، لمحبوبية السّلم حتى عند المنافقين أيضاً، فيكون مفاد الآية نظير قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾(١).

وهذه الآية من الآيات التي تدلّ على ثبوت مراتب للإيمان، لأنّه عزّ وجلّ جعل موضوع الحكم ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وأمرهم بالدّخول في السّلم.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾.

الخطوات: جمع خطوة، وهي تتبع الأثر، وخطوات الشيطان عبارة عن جميع ما يدعو إلى الباطل والضلال، وجميع مصائده ومكائده في سبيل الانحراف عن الصراط المستقيم، وما يدعو إليه الرّب الرّحيم.

وذكره في المقام بيان للمفهوم الالتزامي لصدر الآية الشريفة، وقد تقدّم ما يتعلّق بهذه الآية في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾(٢).

(١) النساء، الآية ١٣٦.
(٢) البقرة، الآية ١٦٨.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

بيان للسبب في النّهي عن اتباع خطوات الشيطان، وهذا التعليل علّة عقليّة له، فإنّ العاقل، بل كلّ ذي شعور لا يتبع عدوّه المبين في العداوة، وقد ذكرت عداوة الشيطان للإنسان في آيات كثيرة من القرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[١]، وفي بعض الآيات المباركة عدوّ مضلّ مبين، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾[٢]، وفي بعضها: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾[٣]، وقد اهتم القرآن ـ بل جميع الكتاب السماوية ـ ببيان عدواته بطرق مختلفة، لأنّه أساس أنحاء الكفر والنفاق، والفساد، وسلب السعادة عن الإنسان، وقد أقسم بعزّة الله تعالى لإغواء العباد، فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾[٤].

وتنشأ هذه العداوة من أسباب عديدة:

أولاً: إنّها ذاتية، حيث قال: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾[٥]، ولا أثر للنار إلا إزالة الطّين وتفريقه.

وثانياً: إنّها إرادية، إذ لا إرادة له إلا الفساد والضّلال بخلاف المؤمنين فإنّهم لا يريدون إلا ما أراده الحقّ تعالى.

وثالثاً: دركه لكرامة الإنسان وفضيلته عليه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾[٦]، وقال تعالى حكاية عن الشيطان: ﴿أَرَءَيۡتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِي كَرَّمۡتَ عَلَيَّ لَئِنۡ أَخَّرۡتَنِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَأَحۡتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[٧].

---

(١) يوسف، الآية ٥.
(٢) القصص، الآية ١٥.
(٣) فاطر، الآية ٦.
(٤) ص، الآية ٨٢.
(٥) الأعراف، الآية ١٢.
(٦) الإسراء، الآية ٧٠.
(٧) الإسراء، الآية ٦٢.

ورابعاً: طرده ـ لخبث ذاته ـ عن عالم النور إلى مهوى الغرور، قال تعالى: ﴿فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[(١)].

وخامساً: شعوره بأنّه لا حظّ له في دار النعيم، بل انحطاطه إلى أسفل درك من الجحيم، بخلاف الإنسان، فإنّه يدرك في الجملة أنّ له مقامات عالية إن أطاع ربّه الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾[(٢)].

وسادساً: اللعن والطّرد والرجم من الله تعالى والإنسان، في كلّ حين وآن، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾[(٤)].

والعجب من الإنسان مع أنّه يلعن الشيطان، لا ينفك عن اقتفاء أثره وتتبّع خطواته، فالآية الكريمة ـ بصدرها وذيلها ـ أجلّ دعوة بأعذب لفظ وأحسن أسلوب للإنسانية الكاملة، والتحذير عن المخالفة، مع التضمّن للدّليل والبرهان، خصوصاً بعد ملاحظة الآيات اللاحقة.

قال تعالى: ﴿فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾.

الزلّة: هي العثرة والاسترسال من غير تعمّد وقصد. أي: فإن أعرضتم عن الدخول في السّلم، واتبعتم خطوات الشيطان بعدما جاءتكم الحجج الواضحات من تشريعاته المباركة وأحكامه المقدّسة، وبعدما تبيّن لكم عداوة الشيطان وشقاوته وضلاله وإفساده، فلا عذر لكم في الميل عن الحق والإعراض عن الصراط المستقيم.

---

(١) الأعراف، الآية ١٣.
(٢) الدخان، الآية ٥١.
(٣) ص، الآية ٧٨.
(٤) الحِجر، الآية ٣٥.

والتعبير بالزلّة ـ وهي ما يصدر من غير عمد والتفات ـ للإعلام بأنّ التعمد في التقصير بعد تمامية الحجّة مفروض العدم. وفيها كناية عن أنه لا ينبغي أن يصدر من العاقل ذلك، والكناية أبلغ من التصريح في المحاورات.

ولم يذكر عزّ وجلّ العقاب مع الزلّة، لأنها كالعثرة تكون بلا قصد، فلا وجه لثبوت العقاب في ما لا قصد فيه ولا اختيار، نعم توعّدهم على ذلك.

قال تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

العزيز: القدير الذي لا يُغلَب، وهو من أسمائه الحسنى، وقد أُطلق عليه تعالى في القرآن الكريم فيما يقرب من ثمانين مورداً، مع تعقّبه غالباً بالحكيم أو الرحيم أو العليم أو الحميد أو الكريم وغيرها.

ولعلّ وجه اتباعه لهذه الأسماء الحسنى المقدّسة، أنّه يطلق مجرّداً على غيره تعالى، كقوله سبحانه حكاية عن بني يعقوب: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ﴾(١)، وقال تعالى حكاية عن إخوة يوسف: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٢)، وقد استعمل في غيره تعالى موصوفاً أيضاً، كقوله عزّ وجلّ: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾(٣)، لكنّه التهكم.

والحكيم هو الذي يفعل بمقتضى الحكمة.

والمعنى: فإن زللتم عن السّلم واتبعتم خطوات الشيطان، فاعلموا

(١) يوسف، الآية ٨٨.
(٢) يوسف، الآية ٧٨.
(٣) الدخان، الآية ٤٩.

أنّ الله تعالى مقتدر غير مغلوب في إنفاذ أمره، يفعل فيكم بمقتضى حكمته المتعالية بلا إلجاء.

وفي إتيان حكمته المطلقة المتعالية مع قدرته وعزّته، للإعلام بأنّ قدرته وعزّته مقهورتان تحت حكمته التامة، التي هي تنظيم الأشياء على وفق النظام الأحسن الربّاني، وليست هي مرسلة من كلّ جهة حتى ولو حصل محذور في البين.

وفيه إرشاد للناس بأن لا يعملوا عزّتهم وقدرتهم كيف ما شاؤوا وأرادوا من دون فكر وروية، بل لا بد من تطبيقها على النظام العقلي والشرعي، وإلا فقد يكون وبالاً على العزيز القادر، وقد وردت في السنّة الشريفة، أحاديث كثيرة في ذلك.

وقد ذكر تبارك وتعالى العزة والحكمة في المقام للإشارة إلى مكان العفو والغفران، إذ القدرة على الانتقام شيء، والانتقام الفعلي المنجز شيء آخر، كما هو معلوم لكلّ مَن تدبّر.

ومن ذلك يُعلم أنّ في الآية روعة الأسلوب في بيان المعنى المقصود، وتقدّم الوجه في أمثال قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا﴾، وذكرنا أن هذا التعبير أشدّ في التذكير والعتاب.

قال تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾.

بيان لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، المتضمّن للتوعيد، فيكون احتجاجاً آخر لعلّ الناس يرتدعون به عن العناد واللجاج، ويتركون متابعة الشيطان، ويدخلون في الصراط المستقيم بأحسن أسلوب في بيان الحجّة.

وقد تغيّر فيه الخطاب من الناس إلى خطاب الرسول ﷺ، كما أنّه

اختلف فيه الأسلوب، ففيه الالتفات من الخطاب إلى الغيبة للإيهام بأنّ من يزِلّ عن الصراط المستقيم غير لائق بالخطاب، وللإعلام بأنّ الأمّة قد يتغيّر حالهم ويزلّون عن الطريق المستقيم ويقع فيهم الاختلاف والتفرّق، فيشملهم ما أوعده الله تعالى في هذه الآية المباركة.

والاستفهام إنكاري بمعنى النفي.

ومادة (نظر) تدلّ على الطلب لإدراك الشيء، وهو الجامع القريب بين جميع استعمالاتها الكثيرة، سواء كان بالبصر أم البصيرة، أم كان بمعنى الانتظار والإمهال، لأنّ فيهما يطلب وقوع الشيء بعد ذلك.

نعم، إذا استعملت بالنسبة إلى الله عزّ وجلّ، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[1]، فإنّه يكون بمعنى إنزال الرحمة ورفع العذاب، لأنّه من صفات فعله المقدّس.

وفي المقام يكون بمعنى الانتظار، أي ينتظرون هذا الأمر وقضاءه فيهم.

والظّلل: جمع ظلّة، وهي ما يتستّر به، وسمّي السحاب والغمام بذلك. ولم يرد لفظ «ظلل» في القرآن الكريم إلا في أربعة مواضع، وجميعها كناية عن التهويل والعظمة، كما هو المستفاد في استعمال هذا اللفظ في المحاورات.

والغمام: السحاب الأبيض الرقيق، سمّي به لأنّه يغمّ، أي يستر، والمشهور بين المفسّرين القول بالمجاز والحذف في مثل الآية، فإما أن يكون المحذوف (العذاب)، بقرينة قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ

(١) آل عمران، الآية ٧٧.

بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[١]، وحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه كثير في المحاورات الفصيحة.

أو يكون أمره تعالى بقرينة قوله جلّ شأنه: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾[٣]، وغير ذلك ممّا يصحّ إضماره، ولا بد من المصير إلى ذلك ـ كما هو كثير في القرآن الكريم ـ فيما لا تلائم نسبته إلى ذاته الأقدس. والكلّ يرجع إلى إرادته المقدّسة.

والملائكة عطف على اسم الجلالة، أي: تأتي الملائكة الموكّلة بقضائه.

ولعلّ الحذف وإسناد الفعل إلى الذات إنّما هو لأجل أن يعمّ الجميع، وليذهب المخاطب إلى أيّ مذهب ممكن، ولزيادة التوعيد والتخويف.

ويمكن أن تكون الآية المباركة على المعنى الحقيقي من دون إضمار شيء في الموردين، أي يأتي الله تعالى وتأتي الملائكة، ويكون المراد من الظّلل من الغمام الحجب، كما ورد في الحديث: «إنّ الله تعالى سبعين ألف حجاب من نور، وسبعين ألف حجاب من ظلمة، لو كشفت لأحرقت سبحات وجهه كلّ ما انتهى إليه بصره»، فيكون مفاد مثل هذه الآية المباركة عبارة عن بعض أفراد التجلّي له جلّت عظمته. ولعلّ الله تعالى يوفقنا لبيان معنى الحجب وكشف بعض أسرارها في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالى.

---

(١) يونس، الآية ٥٠.
(٢) النحل، الآية ١.
(٣) النحل، الآية ٣٣.

ولا يستفاد من قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَهُمُ﴾ في المقام وغيره أنّه قد نسب إليه صفة من صفات الأجسام، فإنّه تعالى منزّه عنها بالأدلة القطعية الضرورية، بل المراد به بعض مراتب التجلّي، أو الإحاطة أو غيرهما ممّا يليق بالذات الربوبي، لا الإتيان الظاهري، وسيأتي في البحث الفلسفي ما يرتبط بالمقام.

ويمكن أن يكون المراد من قوله تعالى: ﴿فِي ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾، ما يكون بمنزلة الجنود لبيان الأهمية، وإلا فإنّ جنود ربّك كثيرة، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ﴾[(٢)].

ولعلّ إنزال القهر والعذاب في الغمام عند إرادة التعذيب والانتقام يكون أشدّ، والقهّارية أظهر، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[(٣)]، وهذه سنّته تعالى في عباده، فيبلي العصاة والظالمين بما يراد فيه النفعن وينتفع أولياؤه بما يئسوا من نفعه، وتنحصر هممهم في الانتفاع من النافع العظيم والملك البار القديم.

وكيف كان، فالآية الشريفة متضمّنة لتوعيد آخر، وفيها بيان لبعض آثار متابعة خطوات الشيطان.

يعني: ما ينتظر مَن يتبع خطوات الشيطان إلا نزول عذاب الله تعالى، الذي له طرق كثيرة تختلف حسب اختلاف الجهات

---

(١) الفتح، الآية ٧.
(٢) الأحزاب، الآية ٩.
(٣) الأحقاف، الآية ٢٤.

والخصوصيات، فقد ينزل العذاب على الإنسان وتحيط به النقمة، كإحاطة الغمام بالأرض فيسترها عن الشمس، كذلك يستره عن رحمة الله تعالى.

وهذه الجملة المباركة تشير إلى أمرين:

أحدهما: السّتر عن الحقائق الواقعية، وعدم الوصول إليها، وأنّ متابعة خطوات الشيطان تستر شمس الحقيقة عن البصائر، كما تُستر الشمس عن الأبصار بالغمام.

الثاني: أنّه تحيط به المكاره والمتاعب كإحاطة ظلل الغمام بما أظلّت عليه، وإن كان الإنسان لا يدرك ذلك ما دام متابعاً لخطوات الشيطان، والوجه في ذلك معلوم، فإنّ التابع إنّما يتبع المتبوع في ما يدعو إليه حتّى يصير مثله، وتسري فيه غريزته وطبيعته، فإذا كان المتبوع من أهل الضّلال والفساد، تسري في التابع هذه الغرائز، فيصير نسخة أخرى من المتبوع، فإذا اشتدّت وقويت هذه الغرائز في الناس واستفحل الأمر ولم تنفعه النصائح والنذر، لا بد من نزول العذاب في ظلل كالغمام، لتحسم به مادة الفساد وتنقلع أسباب الضلال.

والحاصل: أنّ ما ورد في الآية الشريفة يبيّن الحكم الوضعي لمتابعة الشيطان والزلل عن الدخول في السّلم، ويستفاد منها سنخيّة العذاب مع المعصية، وملائمته مع الإثم.

وفيها إشارة إلى بعض كيفيات عذاب الاستقبال وعذاب الآخرة، فيرجع محصّل معنى الآية الشريفة: هل ينتظر هؤلاء علامات قيام الساعة، وانقضاء الأمر بالنسبة إلى أهل الجنّة وأهل النار، وحينئذٍ فلا تنتفع كلّ نفس بإيمان لم تكن آمنت به من قبل.

ففي الآية تهويل عظيم وتوعيد شديد لأمر متوقع الحصول في هذه الدنيا، فتكون مرآة لما يقع في الآخرة.

ومن ذلك يعلم أنّ العذاب لا يختصّ بالدنيا فقط أو الآخرة كذلك، بل تكون وعيداً لما سيقع في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿وَقُضِيَ ٱلْأَمْرُۚ﴾.

جملة حالية، أي: حضر زمان القضاء وفصل الأمر فيقضي بالحق ولا رادّ لقضائه، وحذف الفاعل المعلوم في المقام للتهويل وإظهار الكبرياء، كما هو كثير في المحاورات الفصيحة.

قال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

بيان لصدر الآية المباركة، فإنّ مَن ترجع إليه الأمور بجميع جزئياتها وكليّاتها، لا بد وأن يكون مبدأ لجميع تلك الأمور، لما أثبتناه سابقاً من تلازم المبدأ والمرجع.

وفي الآية الشريفة من التهديد وتهويل الأمر ما لا يخفى، وإعلام بأنّ مَن كان يتوجّه إليه في الجملة لا بد وأن يعدّ نفسه للرجوع إليه تعالى.

قال تعالى: ﴿سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ﴾.

تثبيت وتأكيد لما ذكر في الآيات السابقة، وقد أورد عزّ وجلّ من أحوال بني إسرائيل بعدما ذكر من الوعيد للاعتبار من أحوال الماضين، وللإعلام بأنّه يجري في المخاطبين ما جرى في الأمم السابقة وما جرى عليهم، وفيه من الفوائد الكثيرة، بل هو أمر فطري في الجملة، حتى لقد ارتكز في النفوس: «أنّ التأريخ يعيد نفسه»، ولعلّنا نتعرّض للبحث عنه في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالى.

وكيف كان، ففي الآية المباركة تسلية لنبيّنا الأعظم ﷺ، وأنّها تشير إلى أنّ الجحود واللجاج طبيعة واحدة وإن تعدّدت مظاهرهما في الأُمم المختلفة، كقوم إبراهيم، وقوم لوط، وقوم موسى، ومشركي

العرب، وكلّ ذلك ينشأ من الصّراع بين الحقّ والباطل الذي هو قديم، هو الصّراع بين العقل والجهل.

وقد ذكر سبحانه بني إسرائيل لأنهم كانوا وثيقي الصلة بالعرب، وكانوا مجاورين لهم، يعرفون من أخبارهم ويتتبعون آثارهم فهم بمرأى منهم ومنظر.

والمعنى: أنّ هؤلاء - بني إسرائيل - قد آتاهم الله الآيات البيّنات التي تهديهم إلى الحق، وتوضّح لهم طريق السعادة، وترشدهم إلى سبيل الرشاد فاسألهم أيها الرسول الكريم كم آتيناهم من آية بيّنة فأنكروها وكذّبوها، فعاقبهم الله تعالى أشدّ العقاب وعذّبهم بسوء العذاب، فاعتبروا بحالهم وما آل إليه أمرهم من سوء العاقبة وذهاب الملك والنبوّة عنهم.

وفي السؤال تقريع وتوبيخ لهم بما صدر عنهم من الطغيان والكفران، بعدما أنعم الله عليهم بأنواع النِّعَم والإحسان.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

بيان لسنّة الله تعالى في خلقه، وتطبيق للكلّي، أي ومَن يغيّر نعمة الله تعالى بالكفران والجحود ويضعها غير موضعها، بعدما جاءته من الآيات البيّنات التي أرسلها الله لتكون سبباً في سعادته، فإنّ الله تعالى يعاقبه أشدّ العذاب، والله شديد العقاب، لأنّه يرجع إلى وجوب شكر المنعم الذي هو أصل جميع الكمالات الإنسانية ودرك المعارف الربوبية، فشدّة العقاب إنّما هي أمر وضعي يترتّب على مَن رضي بالذّل والهوان، والهمّ والخسران، وقد عاقب نفسه بنفسه فحصلت له الندامة العظمى، قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1].

(١) النحل، الآية ١١٨.

وفي الآية الشريفة تهديد وتوعيد لمَن يتعدّى حدود ما أنزله الله تعالى، وبيان لسنّته الجارية في خلقه، وتقدّم في الآيات السابقة نظير هذه الآية.

وقد نسب سبحانه العقاب إلى نفسه في المقام وغيره، مع أنّ الفعل منسوب إلى العبد بسبب سوء أعماله، ولكن نسبته إلى العبد بنسبة العلّة الفاعلية، وأما جزاء الفعل فإنّه منسوب إليه بنسبة العلّة الغائية، وليس من الله تعالى إلا جعل القانون وبيان الجزاء على الموافقة والمخالفة، وهو داخل في باب الإرشاد، وقد رجحنا في أصول الفقه ـ تبعاً للمحققين ـ أنّ الأوامر والنّواهي في التشريعيات إنّما هي إرشاد إلى المصالح اللازمة الدرك، أو المفاسد اللازمة الدفع، وبعد ذلك يحكم العقل باللزوم.

فالآية المباركة تبيّن حكماً من الأحكام المستقلّة العقلية، وهو وجوب شكر المنعم، وقد ابتنى الفلاسفة جملة من المسائل العلمية عليه.

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾.

الزينة معروفة، وهي إما نفسانية كالعلوم والمعارف الحقّة، أو بدنية كالجمال ونحوه، أو خارجية كالمال والجاه ونحوهما.

والقسم الأول: إمّا دنيوية، أو دنيوية وأُخروية معاً، كالمعارف الحقّة والاعتقادات الحسنة والأخلاق الفاضلة.

وبالجملة الزينة إما واقعية حقيقية، أو وهمية خيالية، التي هي ما سوى ما ينفع في الآخرة.

ثم إنّ الزينة المستعملة في القرآن الكريم..

تارة: تنسب إلى الله تعالى، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾[1].

---

(١) الحجرات، الآية ٧.

وأخرى: إلى الشيطان، قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(١).

وثالثة: تستعمل من دون أن تنسب إلى أحد، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ﴾(٢).

والآية في موضع التعليل لما تقدّم في الآيات، وذلك أنّ السبب في الزّلل، وعدم الدخول في السّلم، وتغيير نِعَم الله تعالى، والجحود بآياته عزّ وجلّ، إنّما هو تزيين الحياة الدنّيا، وحبّها، هو الذي رأس كلّ خطيئة كما في الحديث، وهذه قضية وجدانية، وذلك لأن كلّ إنسان محفوف بالشهوات الكامنة فيه، التي خلقها الله تعالى لحفظ النظام الأحسن، فإذا كان معتقداً بالمبدأ والمعاد يكون مانعاً من أن يتابع شهوات النفس ويعمل بها، وكلّ ما قوي هذا الاعتقاد يضعف المقتضي عن الفعلية، حتى يصل إلى مرتبة ينعدم الرادع والمانع، فيصير المقتضي علّة تامة للغواية، وكذا بالعكس، وحينئذٍ يكون حبّ الدنيا وزينتها سبباً في صرف النفس عمّا يوجب كمالها، والإعراض عمّا يؤثّر في إصلاحها وتهذيبها، فلا يعمل إلا ما ترتضيه نفسه وهواه، ولا يكون همّه إلا إعمال شهواته، وتكون الدنيا أكبر همّه فلا تنفع فيه النذر والزواجر، ولا يؤثّر فيه ما أنزل الله من الآيات البيّنات.

ومن ذلك يعلم أنّ الأمر لا يختصّ بالكافرين، بل يشمل كل مَن جرى فيه ما ذكرناه، فتشمل الآية الشريفة كلّ مَن بدّل النعيم الأبدي والسعادة الدائمة بالزخرف العاجل الفاني من المسلمين وغيرهم، الذين

---

(١) الأنعام، الآية ٤٣.
(٢) الرعد، الآية ٣٣.

نسوا الله فأنساهم أنفسهم، بل ربما كان العقاب فيهم أشدّ لتمامية الحجّة عليهم بعد الاعتقاد بالإسلام ومعارفه.

وتزيين الدنيا إمّا أن يكون من الشيطان وميل النفس الأمّارة إليها، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[١]، وقوله جلّ شأنه: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾[٣]، أو يكون قد زيّنها الله تعالى للناس لأجل الامتحان وابتلائهم، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[٤]، وفي هذه الصورة إن وقعت الدنيا وزينتها في طريق اكتساب المعارف الإلهية والكمالات الإنسانية وتهذيب النفس وإصلاحها، فهي ممدوحة من كلّ جهة، بل هي الآخرة بنفسها. وأما إذا لم تكن كذلك، بل كانت صارفة عنها ومضيّعة لها، فهي الدنيا المذمومة، وبذلك يجمع ما ورد في السنّة المقدّسة من ذم الدنيا، وما ورد في مدحها، فتحمل الذامة على الثانية والمادحة على الأولى[٥].

(١) الأنفال، الآية ٤٨.
(٢) النحل، الآية ٦٣.
(٣) النمل، الآية ٢٤.
(٤) الكهف، الآية ٧.
(٥) م ـ ن، ص٢١٣ ـ ٢٢٦، ج (٣).

الدعاء في القرآن

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

تحريض للدعاء بأسلوب بليغ، يشعر بالعطف والحنان والمحبّة، وترغيب الإنسان بالوصول إلى الفيض المطلق وغاية الكمال، وهي الرشاد، وفي الآية الشريفة تلميح لبعض شروط الدعاء، التي إذا توفرت تجعل الدعاء مستجاباً، وفي تعقيب شهر رمضان بهذا الخطاب فيه من الحثّ على الدعاء في هذا الشهر، وأنّ له اختصاصاً به والقبول فيه، ممّا يخفّف ثقل التكليف بالصوم فيه، وهذا ممّا دلّت عليه السنّة المقدّسة، ففي بعض الأخبار: «مَن فاته الدعاء في شهر رمضان، فلنتظر يوم عرفة، ومَن فاته الدعاء فيه، فلينتظر شهر رمضان المقبل».

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾.

السؤال: طلب معرفة شيءٍ واستدعاؤها، أو طلب مال.

وفي الأوّل يتعدّى إلى المفعول الثاني بنفسه تارة، وبحرف الجرّ أخرى، تقول: سألته كذا، وسألته عن كذا، قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾(٣).

---

(١) الأنفال، الآية ١. (٢) البقرة، الآية ١٨٩. (٣) المعارج، الآية ١.

وإذا كان لطلب المال يتعدّى إليه بنفسه أيضاً، وبـ(من) أخرى، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾[١].

والمعروف أنّ الطلب إذا كان من العالي إلى السافل، فهو أمر، وإذا كان بالعكس فهو سؤال، وإذا كان من المساوي فهو استفهام، وقد ذكرنا في الأصول أنه لا كلية في ذلك.

ويختلف الدعاء عن السؤال في أنّ الأخير بمنزلة الغاية للأوّل.

والعبد، والعبودية، والعبادة: بمعنى التذلّل والخضوع، وتقدّم في سورة الحمد ما يتعلّق به.

وللعبد في القرآن دلالات:

الأولى: في مقابل الحرّ، وهو الذي يباع ويشتري كسائر الأمتعة، وله أحكام خاصة في الإسلام، مذكورة في الكتب الفقهية، قال تعالى: ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنثَىٰ بِالْأُنثَىٰ﴾[٢].

الثانية: المخلصون من عباده تعالى، الذين لهم مع الله جلّ جلاله حالات، وله عزّ وجلّ معهم عنايات، ولهم في القرآن قصص وحكايات، وهم الذين استثناهم الشيطان عن غوايته، فقال تعالى حكاية عنه: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[٣]، لأنهم اتّخذوا الله تعالى بذاته الأقدس معبوداً لأنفسهم، بتمام عنى العبودية الحقيقية، فاتّخذهم الله تعالى عباداً لنفسه، ومدحهم بأبلغ المدائح، ولعلّ أرقّها قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَـٰهِلُونَ قَالُوا سَلَـٰمًا﴾[٤].

---

(١) الأحزاب، الآية ٥٣.
(٢) البقرة، الآية ١٧٨.
(٣) ص، الآية ٨٢ ـ ٨٣.
(٤) الفرقان، الآية ٦٣.

الرابعة: عبدٌ لله تعالى، ولكنه يطيع الشيطان ويتّبعه، قال تعالى حكاية عنه: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا﴾[١]، سواء كان مسبوقاً بالكفر ثم آمن كذلك، أم لم يكن، والجميع عبيده عزّ وجلّ، لكثرة رأفته وعنايته بخلقه، ويدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾[٣]، مع أنهم كانوا من سحرة فرعون، فإنّ المنساق من هذه الآيات أن مجرد الإيمان بالله جلّت عظمته في مقابل الكفر به، يكفي في شمولها له، وهو مقتضى الرحمانية والرحيمية المطلقة له عزّ وجلّ.

وفي الكلام من العناية واللطف ما لا يخفى.

قال تعالى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾.

القرب معلوم.

والقريب من أسماء الله الحسنى ـ وجميع أسمائه المقدّسة حسنى، وإنّما الوصيف إضافي، لا أن يكون حقيقياً ـ وهو إما أن يلحظ بالنسبة إلى الذات المقدّسة، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾[٥]، ويبيّن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[٦]، وقد فصّل ذلك في الفلسفة تفصيلاً دقيقاً، لعلّنا نشير إليه في ضمن المباحث الآتية.

---

(١) النساء، الآية ١١٨.
(٢) الحجر، الآية ٤٩.
(٣) الشعراء، الآية ٥٢.
(٤) هود، الآية ٦١.
(٥) سبأ، الآية ٥٠.
(٦) الحديد، الآية ٤.

أو يلحظ بالنسبة إلى رحمته الواسعة، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[١].

ويطلق القرب بالنسبة إلى المكان، كقوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾[٢]، وهو كثير في القرآن.

وأخرى: بالنسبة إلى الزمان، قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾[٣].

وثالثة: بالنسبة إلى الفعل، كالتصرّف وغيره، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾[٤]، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾[٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾[٦].

ورابعة: بالنسبة إلى النسب، كقوله تعالى: ﴿أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[٨].

كما يطلق ويراد به القرب المعنوي من طرف الخلق، قال تعالى: ﴿وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[٩]، وقال تعالى: ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾[١٠]، وقال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[١١].

---

(١) الأعراف، الآية ٥٦.
(٢) التوبة، الآية ٢٨.
(٣) الأنبياء، الآية ١.
(٤) الإسراء، الآية ٣٤.
(٥) الإسراء، الآية ٣٢.
(٦) الأنعام، الآية ١٥١.
(٧) النور، الآية ٢٢.
(٨) النساء، الآية ٣٦.
(٩) النساء، الآية ١٧٢.
(١٠) آل عمران، الآية ٤٥.
(١١) المطففين، الآية ٢٨.

والقرب المعنوي: إما من الله تعالى بالنسبة إلى خلقه، ويصحّ أن يعبّر عنه باللطف، والعناية، والرعاية، والقدرة، ونحو ذلك.

وإما من المخلوق بالنسبة إليه عزّ وجلّ، وهو حالة انقطاع إلى الله تبارك وتعالى، بحيث لا يعلم حقيقتها إلا المتقرّب إليه جلّت عظمته والعبد المتقرّب منه، ولا يحيط بها إلاّ الله عزّ وجلّ، ولكلّ ما ذكرناه مراتب كثيرة.

والمراد بقربه تعالى ـ في المقام ـ: القرب باللطف والرحمة والإجابة، الذي لا حدّ له ولا نهاية، لا أن يكون قرباً زمانياً أو مكانياً، فإنّه تعالى يجلّ عنهما، وهو محيط بهما بالإحاطة القيّومية الحقيقية.

وربما يكون القرب فيه من قبيل قرب العلّة الحقيقية من المعلول المحتاج إليها، حدوثاً وبقاءً، وقد ورد في بعض الدعوات المأثورة عن الأئمّة الطاهرين عليهم السلام: «يا جاري اللصيق، يا ركني الوثيق»، كما ورد في بعض مخاطبات الله تعالى مع موسى بن عمران: «يا موسى أنا بدّك اللازم».

وكيف كان، وفيه الكناية اللطيفة، فإنّ فيه تمثيلاً لحاله في سهولة إجابة دعائه، وسرعة إنجاح حاجة مَن سأله، بحال مَن قرب مكانه.

قال تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾.

مادة (ج و ب) تأتي بمعنى القطع، ولها استعمالات كثيرة في القرآن بهيئات مختلفة، والجواب يطلق غالباً في مقابل السؤال.

والسؤال إن كان لطلب المقال، فجوابه المقال، وإن كان لطلب المنال، فيكون جوابه المنال.

ومن الأول قوله تعالى: ﴿أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾[١].

ومن الثاني قوله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾[٢]، أي أعطيتُ سؤلَكما.

والاستجابة: التحرّي والتهيؤ للجواب، يعبَّر بهما عن الإجابة، لعدم الانفكاك بينهما غالباً، لا سيما بالنسبة إلى الغنيّ المطلق والرحيم بعباده في جميع العوالم.

فهذه المفاهيم الثلاثة: أي: الدعاء، والإجابة، والاستجابة، من المفاهيم الإضافية بالنسبة إليه عزّ وجلّ، قال تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ﴾[٤]، وقال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[٥].

فالآية الشريفة في المقام تشتمل على علل الحكم، أي: أنّ الدّاعين لكونهم عباد الله، فإنّ الله قريب منهم، وقربه إليهم موجب لإجابة دعواتهم، وذلك أنّ عباده ملك له بالملكية الحقيقية، وهذه هي المقتضية لكونه قريباً منهم على الإطلاق، وإلا فإنّ ما سواه تعالى فقير بحدّ ذاته، وإنّما يملك بالملكية الاعتبارية بتمليك الملك الحقيقي للأشياء له، وهو الله سبحانه وتعالى، فلو لم يشأ الملكية لم يملك أحد، كما يظهر من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[٦].

ثم ذكر سبحانه أنّ استجابة الدعاء منوطة بأمرين:

---

(١) الأحقاف، الآية ٣١.
(٢) يونس، الآية ٨٩.
(٣) غافر، الآية ٦٠.
(٤) آل عمران، الآية ١٧٢.
(٥) الرعد، الآية ١٨.
(٦) فاطر، الآية ١٥.

أحدهما: أن يكون الداعي داعياً بحسب الحقيقة، كما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَانِۖ﴾، فلا بد للداعي الذي يدعو لحاجته أن يكون عالماً بحقيقة الدعاء، صادقاً عليه التوجّه إلى الله جلّ شأنه، ومتوجّهاً إليه صادراً عن معرفة بحكمته وسعة رحمته، دون ما يدور في اللسان مع الغفلة عنه تعالى، وترشد إلى ذلك الآيات التي تدلّ على استجابة السؤال إذا كان عن فطرة، مثل قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾[1]، وذلك لأنّ الاستحقاق كان بحسب الذات، فالسؤال كان عن الفطرة، ومن ذلك يظهر السرّ في إطلاق السؤال دون الدعاء على السؤال الصادر عن الفطرة، وإن لم يكن للسان فيه عمل، وهذا بخلاف الدعاء.

والأمر الثاني ما ذكره تعالى بعد ذلك:

قال تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى﴾.

أي أنّهم إذا أرادوا الإجابة والاستجابة، وإذا كان الله تعالى قريباً منهم، لا يحول بينه وبين دعائهم شيء، فلا بد لهم من الاستجابة فيما دعاهم إليه، والعمل بما أمرهم من الإيمان والعبادات، التي فيها صلاحهم وسعادتهم ورشدهم، ولا بد لهم من الإيمان بما يتّصف به من الصفات الحسنى، ولا بد لهم من المعرفة بأنه قريب يجيب دعوة الداع.

قال تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

الرشاد: ضد الغي. أي أنّ الأعمال والدعاء إذا صدرت عن روح الإيمان، يكون صاحبها راشداً مهتدياً، وقد تقدّم الوجه في إتيان كلمة (لعلّ) في أمثال المقام.

(١) الرحمن، الآية ٢٩.

بحوث المقام

بحث أدبي

الآية الشريفة تشتمل على مضمون رفيع، بأحسن بيان، وأرق أسلوب، وأبلغ خطاب يلقى إلى السامع، وهو يُشعر بالعطف والحنان، واستقرار النفس بأنّ خالقها قريب منها، يسمع دعاءَ مَن يدعوه بكلّ ما يدعوه، وهي تتضمّن من الأنحاء الأدبية ما يلي:

الالتفات عن خطاب المؤمنين بأحكام الصيام إلى خطاب الرسول ﷺ، وفيه من التذكير لهم بالدعاء والطاعة، والتنويه بشرف الرسول ﷺ وعظمته.

إلقاء صيغة التكلّم للدلالة على كمال العناية بالدعاء والمدعوّين.

دلالة قوله تعالى: ﴿عِبَادِى﴾ على كمال الرأفة والاعتناء بالخلق، والاهتمام بالأمر، ولو قال: (خلقي أو الإنسان) وما أشبههما، لما أفاد ذلك.

إتيان الصيغة المؤكّدة في قوله تعالى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ دون الفعل، للدلالة على ثبوتها ودوامها، كما أنّه حذف الواسطة ولم يقل «فقل إني قريب»، ليدلّ على أنّ الإجابة منحصرة فيه تعالى.

إتيان الفعل في قوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾، للدلالة على استمرار الإجابة وتجدّدها.

ويأتي في البحث الدلالي وجه إتيان ضمير المتكلّم مفرداً.

بحث دلالي

يستفاد من الآية الشريفة أمور:

الأوّل: إتيان ضمير المتكلّم المفرد في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾، للدلالة على مزيد العطف والعناية، ومن سنّته جلّ شأنه في القرآن الكريم أنّه إذا كان في مقام إظهار الاقتدار والكبرياء والهيمنة، يأتي بضمير الجمع غالباً، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾[1]، وقوله جلّ شأنه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ﴾[2]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿إنا أنزلنا في ليلة القدر﴾[5]، وغير ذلك ممّا هو كثير.

وإذا كان في مقام الامتنان والرأفة والتحنّن وإظهار المعيّة، يأتي بضمير المفرد، قال تعالى: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[6]، وقال تعالى: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾[7]، وفي المقام قال تعالى: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾، فهو مشعر بالتوجّه والأُلفة، وتهييج الشوق - كأنّه ممّا يشبه اختلاط المتكلّم مع المخاطبين - ما لا يدركه الإعلام، ويقصر دون بيانه الأعلام.

---

(١) ق، الآية ٤٣.
(٢) يس، الآية ١٢.
(٣) الأحزاب، الآية ٧٢.
(٤) الدخان، الآية ٣.
(٥) القدر، الآية ١.
(٦) طه، الآية ٤٦.
(٧) طه، الآية ١٤.

الثاني: الوجه في إلقاء الخطاب إلى الرسول ﷺ بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ﴾، لأنه ﷺ قائد الأمة ورأسها ورئيسها، بل إنّ ذلك ثبات له بالنسبة إلى جميع الخليقة، للإشارة إلى أنّ الدعاء لا بد من وروده من بابه، وهو خاتم الأنبياء، فإنّه الواسطة في الفيوضات الإلهية، وخاتمة جميع المعارف الربوبية، فهو الخاتم لما سبق، والفاتح لما استقبل.

وفيه نحو تعليم للناس في أن يسألوا أمهات الأُمور الدينية من النبي ﷺ، أو مَن يتبع طريقه علماً وعملاً، مع أنّ أسرار الحبيب لا يعرفها إلا الحبيب.

الثالث: أنّ شأن العبد بالنسبة إليه عزّ وجلّ هو الدعاء، وقد وعد تعالى الإجابة إن كان الدعاء جامعاً للشرائط، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾(١).

وأما السؤال عن كنهه وذاته سبحانه وتعالى، فهو مرغوب عنه، إذ لا يدرك الممكن كثيره، ولا ينفع قليله، بل ربما يضر، ولذا ورد النهي في السنّة عن التعمّق في ذاته تعالى، ويستفاد ذلك من قوله تعالى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾، ولا معنى للسؤال عمّا هو قريب حاضر.

ومن العجائب أن أكون مسائلاً عن حاضرٍ لا زلت أصحبه معي

الرابع: تكريم الداعي السائل بالإضافة التشريفية المعبودية في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾، وفيه من الأدب ما لا يخفى، وتعليم للعلماء باحترام السائل عن الحق.

الخامس: تضمين الأمر بالدعاء معنى الإجابة في قوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى﴾، فإنّه بشارة باستجابة الدعاء، ثم التأكيد بقوله تعالى:

---

(١) آل عمران، الآية ٩.

﴿وَلْيُؤْمِنُواْ بِى﴾، فإنّه سواء كان خاصاً بخصوص هذه الآية، أم عاماً لجميع التشريعات، فإنّه يدل على تحقّق مفاد الآية، واتباع ذلك بقوله تعالى: ﴿لعلهم يرشدون)، وهو تأكيد آخر، ولبيان أن الدعاء سبب الرشد، الذي هو إصابة الحق والخير، وإليه يشير قول نبينا الأعظم ﷺ: «إنّ أعجز الناس مَن عجز عن الدعاء، وأبخل الناس مَن بخل عن السلام».

السادس: أنّ قوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَانِّ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى﴾، يدلّ على شروط استجابة الدعاء، أحدها سيق لبيان الموضوع، وهو قوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَانِّ﴾، فإنّه معلوم ممّا قبله، ولكنّه ذكر لأجل التنبيه على أنّه ليس كلّ مَن يدعو الله لحاجة هو داعياً لله بحقيقة الدعاء، لفقد الانقطاع وعدم التوجّه إليه تعالى، فلا يكون هناك مواطاة بين القلب واللسان، ولا يكون دعاء، بل التبس الأمر على الداعي، فيسأل ما يجهله، أو ما لا يريده لو انكشف الأمر له، أو يكون سؤال لكن لا من الله تعالى وحده، ولذا ورد أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب لاه، متعلّق بالأسباب المادية، أو الأمور الوهمية، فلم يكن دعاؤه خالصاً لوجه الله تعالى، فلم يسأله بالحقيقة.

وهذا هو المستفاد من مجموع الآيات الواردة في الدعاء والأحاديث الشارحة لها.

السابع: أنّ إفراد الضمير في (عنّي) و(إنّي)، و(أُجِيبُ)، فيه إشارة إلى أنّ إجابة الدعاء منحصرة به تعالى، ولا دخل لغيره فيها، لأنّه تصرّف من عالَم الملكوت الأعلى في عالَم الملك الأسفل، ولا يليق بذلك غيره عزّ وجلّ.

نعم، الاستشفاع والتوسل بعباد الله الصالحين، الذين جعلهم الله تعالى واسطة الفيض لديه شيء آخر، لا ربط له بإجابة الدعاء، كما لا يخفى.

مع أنّ الحنان والرأفة وجذب الداعي إلى مقام القرب يقتضي توحيد الضمير، لئلا يعرض على قلب الداعي هيبة العظمة، فتشغله عمّا يحتاجه من قليل أو كثير.

كما أنّ في تكرار ضمير الإفراد في (عنّ)، و(إنّي)، إشارة إلى أنّ المسؤول عنه نفس القريب المجيب وعينه، ولا فرق إلا بالإضافة الاعتبارية. فإنّه إذا أضيف إلى السائل يكون مسؤولاً عنه، وإذا أُضيف إلى نفسه الأقدس يكون قريباً مجيباً، وإن كانت إضافته من صفات فعله لا من صفات ذاته، وفي المقام سرّ آخر، لعلّه يظهر في الآيات المناسبة.

بحث روائي

في الكافي: عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: «أفضل العبادة الدعاء».

وفي عدّة الداعي: عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «أفضل العبادة الدعاء، وإذا أذن الله لعبد في الدعاء فتح له أبواب الرحمة، إنّه لن يهلك مع الدعاء أحد».

أقول: الروايات في فضل الدعاء وآدابه وكيفيته كثيرة متواترة بين المسلمين، يأتي التعرّض لبعضها في البحوث الآتية.

في تفسير العياشي: عن ابن أبي يعفور، عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي﴾، قال عليه السلام: «يعلمون أنّي أقدر على أن أعطيهم ما يسألون».

أقول: يريد عليه السلام أنه ليس المراد بهذا الإيمان الإيمان بأصل التوحيد في مقابل الشرك، بل الإيمان باستجابة الدعاء.

وفي المجمع: عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلْيُؤْمِنُواْ

بِي﴾، أي: «وليتحققوا أني قادر على إعطائهم ما سألوه»، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾، أي: «لعلهم يصيبون الحق، أي يهتدون إليه».

أقول: يظهر وجهه ممّا سبق.

وعن ابن عباس: «قالت اليهود: كيف يسمع ربّنا دعاءنا، وأنت تزعم أنّ بيننا وبين السماء خمسمائة عام، وغلظ كلّ سماء ذلك؟ فنزلت الآية: ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلم يرشدون﴾».

وروي أنّ قوماً قالوا للنبي ﷺ: «أقريب ربنا فنناجيه، أم بعيد ربنا فنناديه؟ فنزلة الآية المباركة».

وروي أنّ سبب نزولها: «أنّ النبي ﷺ سمع المسلمين يدعون الله بصوت رفيع في غزوة خيبر، فقال لهم النبي ﷺ، أيّها الناس أربعوا على أنفسكم، فإنّكم لا تدعون أصمّاً ولا غائباً، إنّكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم».

أقول: يمكن أن تكون جميع هذه الأخبار معتبرة كلّ بحسب طائفة وقوم، فتختلف باختلاف الجهات.

أما الأوّل: فبحسب مزاعم اليهود، حيث زعموا أنّ سمعَ الله يكون كسمعنا، يحجب بالحجاب، ولكنّه باطل، لأنّ المراد بسمعه تبارك وتعالى: العلم بالمسموعات، والإحاطة بها، كما في جملة من الروايات، ولذا لا يشغله سمع عن سمع، لأنّ علمه الإحاطي يشتمل على جميع ما سواه.

أما الثاني: فيكشف عن جهلهم بالحقائق.

وأما الأخير: فهو ناشٍ عن سوء أدبهم، فإنّ الآية المباركة ترشد إلى

نبذ بعض العادات السيئة التي كانت سائدة عندهم، فيكون مثل قوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[2].

بحث علمي

الدعاء من أقوى الأسباب في نجح المطلوب، وأعظمها في نيل المقصود، ومن أشدّ روابط القرب إلى المعبود، ولا ينفكّ عنه الإنسان في جميع مراحله وأطواره، وجميع نشآته، سواء بلسان الاستعداد والفطرة، أم بلسان المقال، ولا يخلو كتاب إلهيّ من الحثّ عليه، وهو العبادة التي أُمرنا بإتيانها، والراغب عنه عدّ من المستكبرين عن رحمة الرحمن، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[3]، وعن السجّاد عليّ بن الحسين عليه السلام في صحيفته الملكوتية، بعد ذكر الآية المباركة: «فسمّيتَ دعاءَك عبادةً، وتركه استكباراً، وتوعّدت على تركه دخول جهنم داخرين، فذكروك بمنّك وشكروك بفضلك، ودعوك بأمرك، وتصدّقوا لك طلباً لمزيدك، وفيها كانت نجاتهم من غضبك وفوزهم برضاك»، والبحث في الدعاء من جهات كثيرة، نذكر في المقام الأهم منها، ويأتي المهم في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالى.

---

(١) النور، الآية ٦٣.
(٢) الحجرات، الآية ٤.
(٣) غافر، الآية ٦٠.

فضل الدعاء

للدعاء فضل كبير، وقد أُمرنا به في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، وقد عبّر عنه بالعبادة في الآية الشريفة المتقدّمة، ويكفي في فضلها قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾(١)، فهو سبب اعتناء الله تعالى بخلقه، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾(٢)، فإنّه كفى فضلاً في أنه تعالى بنفسه الأقدس، يجيب دعوة الداع من دون واسطة في البين، وقوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾(٣)، حيث رتّب الاستجابة على الدعاء، وهذا من عظيم الفضل.

وأما السنّة: فقد وردت روايات كثيرة متواترة من الفريقين في فضل الدعاء، واستحبابه مطلقاً:

فعن النبي ﷺ فيما رواه الفريقان: «الدعاء سلاح المؤمن، وعمود الدّين، ونور السماوات والأرض».

وعن الصادق عليه السلام: «الدعاء يردّ القضاء، بعد ما أُبرم إبراماً».

وعن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام: «عليكم بالدعاء، فإنّ

(١) الفرقان، الآية ٧٧.
(٢) البقرة، الآية ١٨٦.
(٣) غافر، الآية ٦٠.

الدعاء والطلب إلى الله عزّ وجلّ يرد البلاء وقد قدّر وقضي، فلم يبق إلا إمضاؤه، فإذا دعي الله وسئل صَرْفَ البلاء، صَرَفه».

وعن الصادق عليه السلام: «إنّ الدعاء يردّ القضاء المبرم وقد أُبرم إبراماً، فأكثر من الدعاء، فإنه مفتاح كلّ رحمة، ونجاح كلّ حاجة، ولا ينال ما عند الله إلا بالدعاء، فإنّه ليس من باب يكثر قرعه إلا أوشك أن يفتح لصاحبه».

وفي الكافي، عن أبي عبد الله عليه السلام: «عليكم بالدعاء، فإنّكم لا تتقرّبون بمثله، ولا تتركوا صغيرة لصغرها أن تدعوا بها، إنّ صاحب الصغار هو صاحب الكبار».

وعن الصادق عليه السلام: «إنّ الله تبارك وتعالى يعلم ما يريد العبد إذا دعاه، ولكنه يحبّ أن تبث إليه الحوائج، فإذا دعوت فسمّ حاجتك».

وفي الكافي: عن ميسر عن الصادق عليه السلام: «يا ميسر، ادع ولا تقل: إنّ الأمر قد فرغ منه، إنّ عند الله عزّ وجلّ منزلة لا تنال إلا بمسألة».

وعن الصادق عليه السلام أيضاً في رواية ابن القداح: «الدعاء كهف الإجابة، كما أنّ السحاب كهف المطر».

وعن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام: «الدعاء هو العبادة، التي قال الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ ادع الله عزّ وجلّ، ولا تقل إنّ الأمر قد فُرغ منه».

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «الدعاء تِرس المؤمن، ومتى تكثر قَرع الباب يفتح لك».

وعن أبي عبد الله عليه السلام في رسالة طويلة إلى أصحابه: «أكثروا من

أن تدعوا الله، فإنّ الله يحبّ من عباده المؤمنين أن يدعوه، وقد وعد عباده المؤمنين الاستجابة، وإليه مصير دعاء المؤمنين يوم القيامة، لهم عملاً يزيدهم في الجنّة».

وعن الباقر عليه السلام: «ولا تمل من الدعاء، فإنّه عند الله بمكان».

وعن علي عليه السلام: «الدعاء مخ العبادة».

وعن النبي صلى الله عليه وآله: «أفضل العبادة الدعاء، وإذا أذن الله لعبد في الدعاء، فتح له أبواب الرحمة، إنّه لن يهلك مع الدعاء أحد».

وعن الرضا عليه السلام: «عليكم بسلاح الأنبياء، فقيل: ما سلاح الأنبياء؟ قال عليه السلام: الدعاء».

وعن الصادق عليه السلام: «الدعاء أنفذ من السنان».

وعن العبد الصالح عليه السلام: «الدعاء جُنّة منجية، تردّ البلاء وقد أُبرم إبراماً».

وعن علي عليه السلام: «الدعاء مفاتيح النجاح ومقاليد الفلاح، وخير الدعاء ما صدر عن صدر نقي وقلب تقي، وفي المناجاة سبب النجاة، وبالإخلاص يكون الخلاص، فإذا اشتدّ الفزع فإلى الله المفزع».

وقال نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «ألا أدلُكم على سلاح ينجيكم من أعدائكم، ويدرّ أرزاقكم؟ قالوا: بلى. قال: تدعون ربكم بالليل والنهار، فإنّ سلاح المؤمن الدعاء».

وعنه صلى الله عليه وآله: «ادفعوا أبواب البلاء بالدعاء»، إلى غير ذلك من الأخبار المذكورة في كتب الفريقين.

حقيقة الدعاء

الدعاء: هو الوسيلة بين العبد وخالقه، واتّصال من عالَم المُلْك بعالَم المَلكوت، الذي هو من أهم الأسباب الطبيعية الاختيارية الواقعية، لنجح المطلوب والنيل إلى المقصود، فإنّه كما تترتّب المسبّبات على الأسباب المقتضية لها، فإنّ قانون السببيّة الذي جعله الله تعالى وسيلة لتحقّق المسبّبات الوجودية من دون أن يكون في البين فيض من الأسباب مستقلّة من دون الله تعالى، كذلك فإنّ للإنسان شعوراً باطنياً وحسّاً وجدانياً، أنّ له ملجأ يأوي إليه في حوائجه ليقضيها، وأنّ له سبباً معطياً، لا ينضب معينه، وهو مسبِّب الأسباب، وهو ليس كالأسباب الظاهرية التي يمكن أن يتخلّف عنها أثرها. وهذا الشعور الباطني يكن أن يشتدّ عند فرد، بحيث لا يرى للمسبّبات إلا سبباً واحداً، وينقطع عن أي سبب دونه، فيعتصم به، ولا يتخلّى عنه، ويتوكّل عليه في كلّ حوائجه، فتنكشف لديه الأشياء على حقائقها، ويرى زيف الأسباب.

نعم، قد يعرض على هذا الشعور الباطني والحسّي الوجداني بعض الظلمات والأوهام، فيوجب طمس هذا النور الفطري أو خفائه، تبعاً لشدّة ما يتخيّله وضعفه، فيتخيّل خلاف ما هو المركوز في فطرته، وهذا لا يختصّ بهذا النور الفطري، بل يشمل جميع ما يتعلّق بالفطرة والشعور الباطني، ولذا قد يرجع ويفيء إلى فطرته عند تزاحم المشاكل وعدم نفع أي سبب في رفعها، كما ورد في قضية مَن ركب البحر، فانكسرت به

السفينة وأيقن بالهلاك، فعند ذلك يدعو مَن ينجيه، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[١].

ولا يُستفاد من ذلك أنه حينئذٍ لا يمكن تخلّف المدعو عن الدعاء، إذا كان الأمر كذلك، فإنّ أمر الدعاء والمسبّبات الظاهرية في ذلك سواء، فإنّه كثيراً ما كانت هناك عوامل تثبّط الأسباب وتمنعها عن الأثر، فكذلك في الدعاء، فإنّ هناك موانع كثيرة عن تحقّق المدعو به، قد ندركها، وقد لا ندركها، بل الأمر في الدعاء أشدّ، لفرض أنه ارتباط مع عالم الغيب غير المتناهي الخارج عن الحس، فلا بد أن تكون الأسباب الموصلة إليه أدقّ وأرقّ، وهذا محسوس في عالَم الماديات أيضاً، فإنّ كلّما كان الشيء ألطف وأدقّ، كان السبب الموصل إليه كذلك.

فحقيقة الدعاء هي الشعور الباطني في الإنسان بالصلة والارتباط بعالَم لا مبدأ له ولا نهاية، ولا حدّ ولا غاية لسعة رحمته وقدرته وإحاطته بجميع ما سواه، فوق ما نتعقّل من معنى السعة والإحاطة والقدرة، يقضي له حوائجه، بحيث يجعل المدعو تحت قدرة الدّاعي جميع وسائل نجح طلباته، فيقع التجاذب بين الموجودات الخارجية وبين قلب هذا الداعي، فيصير موجداً وفاعلاً لما يدعو به، فيتّحد الداعي والدعوة والمدعو به في بعض المراتب، ولا تحصل هذه المرتبة إلا لمَن انسلخ عن ذاته بالكلية، وفنى في مرضاة الواحدية الأحدية، فلا يرى في الوجود سوى المدعو، سواء كان ذلك ملكة أم حالاً، فيتّحد العاقل والمعقول، كما أثبته بعض

(١) يونس، الآية ٢٢.

أكابر الفلاسفة، ولعلّه المراد من الاسم الذي هو غيب الغيوب والسرّ المحجوب، فروح الدعاء هي ارتباط الداعي مع الله عزّ وجلّ بالشرائط المقرّرة المذكورة في محالها.

ما أُورد على الدعاء:

بيّنا أنّ حقيقة الدعاء هي ارتباط خاص بين الإنسان وعالَم لا مبدأ له ولا حدّ، ولكن أُورد على الدعاء إيرادات كثيرة، أهمّها هي:

الأوّل: ما عن الماديين الذين ينكرون الغيب، أي: ما وراء المادة من المبدىء الحي الأزلي، وإنكار ربط الحوادث به، وارتباط العالَم بالمادة فقد على نحو العلّية التامة، ولذلك أنكروا الدعاء والتوسّل إليه في نيل المطلوب ونجحه.

ويردّه: ما أثبته جميع الفلاسفة من وجود مبدىء غيبي، وأنّ الحوادث جميعها مستندة إليه، وأنّ الشرائع الإلهية قد أثبتت ذلك بألسنة مختلفة، وتفصيل البحث موكول إلى الفلسفة الإلهية وعلم الكلام. وأنّ المادة والجهد من قبيل المقتضيات، لا العلل التامة، ولذلك لا بد من التوسّل إليه، والإفاضة منه بعد السّعي والجد، لتمهيد السبيل للنيل إلى المطلوب.

الثاني: أنّ المبدىء موجود، وأنّه حيّ أزليّ، ولكنّ الحوادث الجزئية الخاصة غير مستندة إليه، بل أصل حدوث العالَم وخلقه في الجملة ينتهي إليه بخلافها، وقد تشعّب عن هذا الرأي مذاهب:

منها: ما عن اليهود كما حكاه الله تعالى عنها: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾(١).

---

(١) المائدة، الآية ٦٤.

ومنها: ما نسب إلى بعض، من أنّ مناط الحاجة الحدوث في الجملة فقط دون البقاء، حتّى قال: «لو جاز على الواجب العدم، لما ضرّ عدمه وجود العالَم».

وهناك مذاهب أخرى قد تعرّضوا لها كلّ في محله، ولذلك أنكروا الدعاء، وقالوا إنّه لا يسمن ولا يغني من جوع.

ويردّه: ما أثبتوه بالأدلة العقلية من أنّ مناط الحاجة الإمكان، وهو حليف ما سوى الله تعالى، حدوثاً وبقاءً، في جميع الأزمنة والأمكنة، وإذا كان كذلك، فلا بد من التوسّل إليه، والإفاضة منه، لفرض الافتقار إليه في ما سواه تعالى، بلا فرق في تلك المذاهب.

الثالث: أنّ الحوادث معلومة عنده جلّت عظمته، ولا تغيّر في العلم، فلا تغيّر في الحوادث أيضاً، فلا مجال للدعاء حينئذٍ في الحوادث بعد فرضَ تعلّق علمه تعالى بها.

ويردّ.. **أولاً**: أنّ هذا مبنيّ على كون علمه تعالى علّة تامّة منحصرة لمعلوماته عزّ وجلّ، وهو باطل عقلاً ونقلاً، كما ثبت في الفلسفة الإلهية، وسنتعرّض في الآية المناسبة له إن شاء الله تعالى.

وثانياً: العلم تعلّق بها متغيّراً، فالتغيّر في المعلوم بالعرض، لا في العلم والمعلوم بالذات، إذن لا إشكال في صحة التوسّل إليه تعالى، والدعاء للنيل إلى ما هو الصالح.

الرابع: أنّ الحوادث التي ترد على عالمنا مقدّرة ومقضية أزلاً، ولا تغيّر ولا تبدّل في القضاء والقدر، فلا معنى للدعاء والتوسّل بعد نزول الحادثة، وقد عبّر عن هذا الإيراد بتعابير مختلفة أخرى.

ويردّه: أنّ القضاء والقدر من مراتب فعله جلّ شأنه، وليسا في مرتبة

الذات، وفعله تعالى قابل للتغيّر مطلقاً، وقد ورد في بعض الروايات أنّ الدعاء يردّ القضاء وقد أُبرم إبراماً، فيصحّ التوسّل إليه لأجل زوال الحادثة، أو تغيير الحال.

الخامس: أنّ الدعاء من قبيل تحقّق المعلول بلا علّة، وهو محال كما ثبت في محله.

ويرده: أنّ الدعاء لا ينافي قانون العلّية والمعلوليّة، أو سائر نواميس الطبيعة، بل إنّه يكون سبباً لتحقق المسبب المستند إلى سببه الخاص.

السادس: أن الآيات الشريفة الدالّة على الحثّ على العمل، ونيل الأجر به، تنافي سبل الدعاء، مثل قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ سَوۡفَ يُرَىٰ﴾[٣]، وغيرها من الآيات المباركة، فإنّ ظاهرها حصر التأثير في العمل، وأنّ الأجر منحصر فيه.

ويردّه.. أولاً: أنه لا تنافي بين تلك الآيات المباركة وبين ما أمر بالدعاء، مثل قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾[٥]، لأنّ الدعاء بلا عمل لا أثر له، وإنّه ممّا لا يستجاب، كما يأتي في الروايات.

(١) التوبة، الآية ١٠٥.
(٢) الكهف، الآية ٣٠.
(٣) النجم، الآيتان ٣٩ ـ ٤٠.
(٤) الأعراف، الآية ٥٥.
(٥) غافر، الآية ٦٠.

وثانياً: أنّ الدعاء بنفسه عمل خاص وتوجّه إليه تعالى، فلا تنافي بين ما دلّ على الترغيب بالعمل، وبين أن يأمر بالدعاء.

وهناك دعاوى أُخرى نسبت إلى مَن لم يعتقد بالدعاء، أدلّتها موهونة جداً، أعرضنا عن ذكرها.

الدعاء ارتباط روحي

ذكرنا أنّ حقيقة الدعاء هي الاتصال بمبدىء لا نهاية لعظمته وقدرته ومالكيته وقهّاريته، والتوسّل إليه بالترابط الروحي بين الداعي والمدعو، يلتمس منه الداعي نجح مطلوبه، وقضاء حاجته، فيلهم الله تعالى الداعي ما يرشده إلى مطلوبه، فيكون الدعاء ضرباً من التأثير الروحي، وذلك يتوقّف على معرفة الله جلّ شأنه رب الأرباب وله السلطان التام، وأنّ جميع الأسباب راجعة إليه عزّ وجلّ، والإذعان بأنّها الواسطة في التأثير فقط، وأنّ المؤثّر هو الله وحده، وإلى ذلك يشير ما ورد عن رسول الله ﷺ: «لو عرفتم الله حقّ معرفته، لزالت لدعائكم الجبال».

والوجه في ذلك واضح، فإنّ الجهل بمقام الربوبية العظمى، والاعتقاد بقانون السببيّة التامة في الأسباب والمسبّبات الخارجية، يوجب البعد عن ساحة الرحمن، والإذعان بحقيقة التأثير للأسباب العادية، وينتهي إلى الغفلة عنه، ويقابل ذلك التوجّه إليه ومعرفته تبارك وتعالى، فإنّ مقتضى مالكيته جلّت عظمته لجميع ما سواه، وربوبيته العظمى لها، واستغناؤه عزّ وجلّ عن الكلّ، واحتياج الكلّ إليه، هو سؤال الكلّ منه عزّ وجلّ، ودعاؤه له بلسان الحال والاستعداد، لأنّ مناط السؤال والدعاء إنّما هو الحاجة، وهي من لوازم الإمكان. وكلّ ممكن، سواء كان من المجردات، أم الماديات بجواهرها وأعراضها، جميعاً داع له، وسائل منه

بلسان الافتقار إليه، والانقهار لديه، وإن لم نفقه سؤال كثير من الممكنات.

نعم، السؤال، والدعاء القصدي الاختياري، والتوجّه الفعلي من شؤون الإنسان، فإنّ له شأناً ومنزلة عنده تعالى، يحبّ السماع إليه، فيلتذ أولياء الله تعالى بالدعاء والمناجاة، ويبتهج الله جلّت عظمته بذلك ابتهاجاً، لا يحيط به غيره، ففي الحديث: «إنّ الله يعلم حاجتك، وما تريد، ولكن يحبّ أن تبثّ إليه الحوائج، فإذا دعوت فسمّ حاجتك»، وفي أخبار كثيرة أنّ الله تعالى قد يؤخّر إجابة دعاء عبد، لأن يسمع صوته وتضرّعه، ويعجّل إجابة بعض الدعوات، لأنّه تعالى لا يحبّ سماع صوت داعيه وتضرّعه.

ولكن ذلك لا يوجب إلغاء ناموس العلّية والمعلولية بين الأشياء، بل قد أثبتنا في المباحث السابقة أن هذا القانون حقّ لا ريب فيه، وأنّه «أبى الله أن يجري الأمور إلا بأسبابها»، إلا أنّ الدليل العقلي أثبت الواسطة لها دون الانحصار، والدعاء داخل تحت هذا القانون، وأنّه من طرق العلّية للأشياء، والتقريب بين الأسباب والمسبّبات، واقعاً وإن لم ندركه ظاهراً، وإليه يشير ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لابنه الحسن عليه السلام: «ثم جعل في يديك مفاتيح حزائنه، بما أذن لك فيه من مسألته، فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب نعمته، واستمطرت شآبيب رحمته، فلا يقنطنك إبطاء إجابته».

شروط الدعاء

للدعاء شروط كثيرة جداً، مذكورة في القرآن الكريم والسنّة المقدّسة، وهي تنقسم إلى شروط الصحّة، فلا يصحّ الدعاء بدونها، وشروط كمال له.

أما شروط الصحة فهي:

الأول: الإيمان بالله تعالى، قال عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾(١).

الثاني: الإخلاص في الدعاء وعقد القلب عليه، وحسن الظن بالإجابة، قال تعالى: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾(٢).

وفي الكافي: عن الصادق عليه السلام: «إذا أراد أحدكم أن لا يسأل ربه شيئاً إلا أعطاه، فلييأس من الناس كلّهم، ولا يكون له رجاء إلا عند الله، فإذا علم الله ذلك من قلبه لم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه»، وعن

---

(١) البقرة، الآية ١٨٦.
(٢) يونس، الآية ١٠٦.

الصادق عليه السلام: «إذا دعوت فأقبل بقلبك، وظنّ حاجتك بالباب»، وفي وصية النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: «لا يقبل الله دعاء قلب ساه».

وفي الكافي: عن سليمان بن عمرو، قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إنّ الله عزّ وجلّ لا يستجيب دعاءً بظهر قلب ساه، فإذا دعوتَ فأقبل بقلبك، ثم استيقن بالإجابة».

وفي نهج البلاغة عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ العطيّة على قدر النية».

وفي عدّة الدّاعي: عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله قال الله: «ما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني إلا قطعت أسباب السموات وأسباب الأرض من دونه، فإن سألني لم أعطه، وإن دعاني لم أجبه. وما من مخلوق يعتصم بي دون خلقي إلا ضمّنت السموات والأرض رزقه، فإن دعاني أجبته، وإن سألني أعطيته، وإن استغفرني غفرت له»، والحديث ظاهر في أنّ إجابة الدعاء منوطة بالإخلاص.

وفي الحديث القدسي: «أنا عند ظنّ عبدي بي، فلا يظن بي إلا خيراً»، وهو ظاهر في أنّ في التردد واليأس لا تكون إجابة، فلا بد من العزم على السؤال.

وفي الحديث عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة»، إلى غير ذلك من الأخبار، وقد تقدّم الوجه في ذلك أيضاً، بأنّ في الإعراض والسهو والغفلة لا تتحقّق حقيقة الدعاء.

الثالث: اليأس من غير الله تعالى، لأنّه ربّ السموات والأرض، عنده مفاتيح الغيب، يعطي لمَن يريد، ويمنع عمّن يريد، والعلم بأنّه تعالى إنّما يقضي الحوائج حسب المصلحة، فإنّ الإنسان لا يعرف

الحقائق ويجهلها، وربما يسأل ما هو شرّ وأنّ الله تعالى يبدّله إلى الخير، وربما يسأل الخير فيؤخّره، إذ المصلحة في التأخير، ففي نهج البلاغة عن عليّ عليه السلام: «وربما أُخّرت عنك الإجابة ليكون ذلك أعظم لأجر السائل، وأجزل لعطاء الآمل، وربما سألت الشيء فلا تؤتاه وأُوتيت خيراً منه، عاجلاً أو آجلاً، أو صرف عنك لما هو خير لك، فلربّ أمر قد طلبته فيه هلاك دينك أو أُوتيته، فلتكن مسألتك فيما يبقى لك جماله، وينفى عنك وباله، والمال لا يبقى لك ولا تبقى له».

وعن أبي عبد الله عليه السلام: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله عزّ وجلّ: مَن سألني وهو يعلم أنّي أضرّ وأنفع، استجبت له»، وذلك لأنّ إجابة دعاء الداعين لا بد أن تكون على طبق الحكمة البالغة والعناية التامة، المحيطة بالحقائق، كلياتها وجزئياتها، لا على طبق مشتهيات الداعين والسائلين، قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(١). فإنّ الإنسان كثيراً ما يهتم بشيءٍ حتى إذا ما تحقّق وجده ضاراً، أو يكره شيئاً حتّى ما إذا تحقّق وجده نافعاً، وهذا وجداني محسوس لدى كلّ فرد، فالدعاء بما يتخيّله الإنسان أنّه نافع شيء، وما هو الواقع الذي في علمه تعالى شيء آخر. فإنّ التسرّع في إجابة الدعاء وقضاء الحوائج بلا تأمل في اللوازم والملزومات والآثار، نقض في الحكمة، وهو محال بالنسبة إليه تعالى.

نعم، نفس الدعاء والمسألة من سنّن العبودية، ولا بد من تحقّقها من العبد، وأما الاستجابة فهي منوطة بالحكمة البالغة والعلم الأزلي.

---

(١) البقرة، الآية ٢١٦.

الرابع: أن يكون المراد خيراً ممكناً، بأن لا يكون من المحالات الذاتية أو العادية، وممّا لا نفع له؛ أو ممّا يضرّ بحال الآخرين، أو نهى عنه الشارع ونحو ذلك، فإنّ مثل هذا الدعاء ممّا لا يستجاب، وذكل لأن الله تعالى: «أبى أن يجري الأمور إلا بأسبابها»، وقد تقدّم في أحد المباحث السابقة أنَّ المستحيلات وإن كانت تحت قدرته تعالى، ولكنّه عزّ وجلّ لم يفعلها، لاستلزامه نقض الحكمة، ففي الحديث عن علي عليه السلام: «اثنوا على الله عزّ وجلّ وامدحوه قبل طلب الحوائج، يا صاحب الدعاء لا تسأل ما لا يحل ولا يكون».

وفي الكافي: عن أبي الحسن الرضا عليه السلام: «لا تمل من الدعاء، فإنّه من الله بمكان، وعليك بالصبر وطلب الحلال، وصلة الرحم»، إلى غير ذلك من الروايات.

الخامس: طيب المكسب والعمل الصالح، ففي الحديث عن الصادق عليه السلام: «مَن سرّه أن تستجاب دعوته، فليطب مكسبه»، وفي وصية النبي صلى الله عليه وآله لأبي ذر: «يا أبا ذر، يكفي من الدعاء مع البر ما يكفي الطعام من الملح، يا أبا ذر، مثل الذي يدعوه بغير عمل، كمثل الذي يرمي بغير وتر، يا أبا ذر، إنّ الله يصلح بصلاح العبد ولده وولد ولده، ويحفظه في دويرته، والدور حوله ما دام فيهم».

وعن زرارة عن الصادق عليه السلام: «الداعي بلا عمل، كالرامي بلا وتر».

وفي عدّة الداعي: «إنّ الله أوحى إلى عيسى: قل لظلمة بني إسرائيل: لا تدعوني والسحت تحت أقدامكم، والأصنام في بيوتكم، فإنّي آليت أن أُجيب مَن دعاني، وإنّ إجابتين إياهم لعناً عليهم حتى يتفرّقوا».

وفي الحديث القدسي: «لا تحجب عنّي دعوة، إلا دعوة آكل الحرام».

وقال رسول الله ﷺ لرجل حين ما قال له: أحبّ أن يستجاب دعائي، فقال ﷺ: «طهّر مأكلك، ولا تدخل بطنك الحرام».

السادس: أداء مظالم الناس وحقوقهم، فقد ورد عن الصادق عليه السلام: قال الله عزّ وجلّ: «وعزّتي وجلالي، لا أُجيب دعوة مظلوم دعاني في ظلمة، أو لأحد عنده مثل تلك المظلمة».

وفي عدّة الداعي: «أوحى الله إلى عيسى: قل لظلمة بني إسرائيل: إنّي لا أستجيب لأحد منهم دعوة، ولأحد من خلقي عندهم مظلمة»، وتقدّم في بحث التوبة ما يتعلّق بالمقام.

شروط الكمال للدعاء

تقدّم أنّ من الشروط في الدعاء هي شروط الكمال له، ولا ريب في حسن مراعاتها في هذه الحالة، التي يرغب الداعي استجابة دعواته، وهي كثيرة.

الأول: الطهارة من الحدث والخبث، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[١].

الثاني: الدعاء بالمأثور عن المعصومين، لأنّه تكلّم مع الله عزّ وجلّ، كما أنّ القرآن تكلّم الله مع العبد، فينبغي في الدعاء أن يكون مأثوراً، ومستنداً إلى الشرع، قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾[٢]، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾[٣].

وعن صدر المتألّهين(قدس الله نفسه الشريفة): «فكما أنّ أجساد البشر تكرّم بكرامة الروح، فكذلك أصوات الكلام، تكرّم وتشرّف بشرافة الحكمة التي فيها»، فلا بد للدعاء من نزوله من محل أمين، ومهبط شريف، وإرساله من نفوس زكيّة ذكية، حتّى يناسب الخطاب مع العظيم، كما تدلّ عليه روايات كثيرة.

---

(١) البقرة، الآية ٢٢٢.
(٢) فاطر، الآية ١٠.
(٣) الحج، الآية ٢٤.

نعم، فرق بين الدعاء والمسألة، فإنّ الأخيرة لا يشترط فيها ذلك، بل يكفي بكلّ ما جرى على اللسان، حتّى يوجّهه تعالى إلى الطريق الصحيح، أو يقضي حوائجه ويحلّ مشاكله، قال زرارى للصادق عليه السلام: «علّمني دعاء، فقال عليه السلام: إنّ أفضل الدعاء ما جرى على لسانك»، والمراد به المسألة وطلب الحاجة.

الثالث: أن يكون الدعاء بالأسماء الحسنى وغيرها من أسماء الله تعالى، فعن الرضا عليه السلام، عن آبائه عن عليّ عليهم السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: لله عزّ وجلّ تسعة وتسعون اسماً، مَن دعا الله بها استجيب له، ومَن أحصاها دخل الجنّة»، وقال الله عزّ وجلّ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾، وعن الصادق عليه السلام: «وأكثر من أسماء الله عزّ وجلّ، فإن أسماء الله كثيرة».

الرابع: تقديم تمجيد الله والثناء عليه، والإقرار بالذنب والاستغفار منه، ففي الكافي: عن الحارث بن المغيرة قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إياكم إذا أراد أحدكم أن يسأل من ربّه شيئاً من حوائج الدنيا والآخرة، حتّى يبدأ بالثناء على الله عزّ وجلّ، والمدح له، والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله، ثم يسأل الله حوائجه».

وعن معاوية بن عمار، عن أبي عبد الله عليه السلام أيضاً: «إنّما هي المدحة، ثم الثناء، ثم اللإقرار بالذنب، ثم المسألة، إنّه والله ما خرج عبد من ذنب إلا بالإقرار».

وعن علي عليه السلام: «السؤال بعد المدح، فامدحوا الله عزّ وجلّ، ثم اسألوا الحوائج، أثنوا على الله عزّ وجلّ وامدحوه قبل طلب الحوائج»، والمراد بالثناء والتمجيد، مطلق ما يكون ثناءً وتمجيداً.

الخامس: أن يشتمل على ذكر محمد وآل محمد، لأنّهم وسائط الفيض ووجهاء الخلق، ففي الكافي: عن أبي عبد الله عليه السلام: «كل دعاء يدعى الله عزّ وجلّ به، محجوب عن السماء حتى يصلّي على محمد وآل محمد»، وعن هشام بن سالم، عن الصادق عليه السلام: «لا يزال الدعاء محجوباً حتى يصلّي على محمد وآل محمد».

وعن صفوان الجمال، عن أبي عبد الله عليه السلام أيضاً: «كلّ دعاء يدعى الله عزّ وجلّ به، محجوب عن السماء حتّى يصلّي على محمد وآل محمد».

وعن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: صلاتكم عليّ إجابة لدعائكم، وزكاة لأعمالكم».

السادس: أن يكون الدعاء بعد الانقطاع إليه عزّ وجلّ، ورقة القلب والبكاء، ففي الكافي: عن أبي بصير، عن الصادق عليه السلام: «إذا رقّ أحدكم فليدعُ، فإنّ القلب لا يرقّ حتّى يخلص».

وعن الصادق عليه السلام: «إذا اقشعر جلدك ودمعت عيناك، فدونك دونك فقد قصد قصدك».

وعن سعد بن يسار: «قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إنّي أتباكى في الدعاء وليس لي بكاء، قال عليه السلام: نعم، ولو مثل رأس الذباب».

وعن عنبسة العابد عن الصادق عليه السلام: «إن لم تكن بكّاءً فتباك».

وقد اعتبر بعض العلماء (رحمهم الله تعالى) أنّ بعض مراتب الانقطاع التام إليه عزّ وجلّ إذا كانت الحالة جامعة للشرائط من الاسم الأعظم، وقد جربت ذلك في بعض أسفاري إلى بيت الله الحرام بعد انقطاع الرجاء إلا منه.

فكان ما كان ممّا لست أذكره   فظنّ خيراً ولا تسأل عن الخبر

السابع: الدعاء في الأوقات المعيّنة، وهي كثيرة، منها السَحَر وآخر الليل، فعن رسول الله ﷺ: «خير وقت دعوتم الله الأسحار».

وعن الصادق عليه السلام: «مَن قام من آخر الليل فذكر الله تناثرت عنه خطاياه، فإن قام من آخر الليل فتطهّر وصلّى ركعتين وحمد الله وأثنى عليه وصلّى على النبي ﷺ، لم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه، إما أن يعطيه الذي يسأله بعينه، وإما أن يدخر له ما هو خير له منه».

ومنها: الصباح والمساء، فعن الصادق عليه السلام: «إنّ الدعاء قبل طلوع الشمس وقبل غروبها، سنّة واجبة مع طلوع الشمس والمغرب».

ومنها: عند نزول المطر، وزوال الشمس، وهبوب الرياح، وقتل الشهيد، وقراءة القرآن، والآذان، وظهور الآيات. ففي الكافي: عن زيد الشحام، قال أبو عبد الله عليه السلام: «اطلبوا الدعاء في أربع ساعات: عند هبوب الرياح، وزوال الأفياء، ونزول المطر، وأول قطرة من دم القتيل المؤمن، فإنّ أبواب السماء تفتح عند هذه الأشياء».

وعن الصادق عليه السلام، عن أمير المؤمنين عليه السلام، قال: «اغتنموا الدعاء عند أربع، عند قراءة القرآن، وعند الآذان، وعند نزول الغيث، وعند القتاء الصفين للشهادة».

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «كان أبي إذا كانت له إلى الله حاجة، طلبها في هذه الساعة، يعني زوال الشمس».

وعن رسول الله ﷺ: «مَن أدّى لله مكتوبة، فله في إثرها دعوة مستجابة».

ومنها: الأزمنة المتبرّكة، مثل ليلة الجمعة، وليالي القدر، وشهر

رمضان، وشهر رجب، وليلة النصف من شعبان، وليلة عرفة ويومها، والعيدين، وغيرها ممّا هو كثير كما في كتب الأدعية.

الثامن: الدعاء في الأمكنة المتبرّكة، مثل الحرم الإلهي المقدّس، والمسجد الحرام، ومسجد النبيّ ﷺ، وعند الأئمة الكرام، أو المساجد الأربعة وغيرها من المساجد.

التاسع: الدعاء بعد تقديم الصدقة وشمّ الطيب، فعن الصادق عليه السلام: «كان أبي إذا طلب الحاجة طلبها عند الزوال، فإذا أراد ذلك قدّم شيئاً فتصدّق به، وشمّ من طيب، وراح إلى المسجد ودعا في حاجته بما شاء الله».

العاشر: مراعاة الأدب، وتجنّب اللحن في الدعاء، ففي عدّة الداعي عن أبي جعفر الجواد عليه السلام قال: «ما استوى رجلان في حسب ودين قط، إلا كان أفضلهما عند الله عزّ وجلّ أأدبهما، قال: قلت: جعلت فداك، قد علمت فضله عند الناس في النادي والمجالس، فما فضله عند الله عزّ وجلّ؟ قال: بقراءة القرآن كما أُنزل، ودعائه الله عزّ وجلّ من حيث لا يلحن، وذلك أن الدعاء الملحون لا يصعد إلى الله عزّ وجلّ».

ويمكن أن يستفاد ذلك من كراهة اختراع الدعاء من نفس الداعي، فإنّ في الدعوات المأثورة عن نبيّنا الأعظم والأئمّة الهداة غنىً وكفاية، فهم أعرف بالأدب مع الله تعالى، وكيفية التكلّم معه من سائر الرعية، لأنّهم سدنة الملك وعيبة علم الله وخزّان وحيه.

الحادي عشر: رفع اليدين حال الدعاء، ففي عدّة الداعي: «إنّ رسول الله ﷺ كان يرفع يديه إذا ابتهل ودعا، كما يستطعم المسكين».

وعن محمد بن مسلم قال: «سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عزّ

وجلّ: ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾. قال عليه السلام: الاستكانة هي الخضوع والتضرّع رفع اليدين والتضرّع بهما».

وعن الباقر عليه السلام: «ما بسط عبد يده إلى الله عزّ وجلّ، إلا استحيى الله أن يردّها صفراً، حتّى يجعل فيها من فضله ورحمته ما يشاء، فإذا دعا أحدكم فلا يرد يده حتى يمسح بها على رأسه ووجهه»، والروايات في رفع اليدين والتبصبص بالأصابع كثيرة، مروية عن الفريقين. وكلّ ذلك من جهة حصول الخضوع والخشوع للدّاعي، وتقرّبه إلى المدعوّ، لا لأجل أنّه تعالى يختصّ بمكان دون مكان وزمان دون آخر.

الثاني عشر: الدعاء سرّاً، ففي الكافي: عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: «دعوة العبد سراً، دعوة واحدة تعدل سبعين دعوة علانية»، والوجه في ذلك لأنّه أحفظ في الإخلاص، وأبعد عن شوائب الرياء.

الثالث عشر: العموم في الدعاء، فإنّه آكد في الاستجابة، ففي الكافي: عن ابن القداح، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إذا دعا أحدكم، فليعُمَّ، فإنّه أوجب للدعاء».

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَن صلّى بقوم فاختصّ نفسه بالدعاء دونهم، فقد خانهم»، وقد وردت روايات كثيرة على أنّ دعاء المؤمن لأخيه المؤمن مستجاب، وأنّ للداعي مثل ما يدعو لأخيه وأكثره.

الرابع عشر: لبس الداعي خاتم عقيق أو فيروزج، فقد روى ابن بابويه عن الصادق عليه السلام: «ما رفعت كفّ إلى الله أحبّ من كفّ فيها عقيق».

وفي عدّة الداعي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قال

رسول الله ﷺ: قال الله عزّ وجلّ: إنّي لأستحيي من عبدي، يرفع يده وفيها خاتم فيروزج فأردّها خائبة».

الخامس عشر: أن يكون الدعاء لتكميل النفس، والحوائج الشرعية وسؤال المغفرة ورضوان الله ونِعَم الجنة، أي يكون جامعاً للدنيا والآخرة، بحيث يكون نفعه غير منقطع، وأثره لا يضمحل، وفي الدعوات المقدّسة المأثورة من ذلك شيء كثير، منها: ما يسمّى بدعاء الفرج، وهو مذكور في كتب الأدعية.

ثم إنّ الدعاء مطلوب لنفسه، ومحبوب لذاته، ولا تختصّ محبوبيته بوقت دون وقت، ولا مكان دون آخر، ولا بلغة دون أخرى، بل هو محبوب في جميع الأحوال والأوقات والأمكنة.

نعم، لبعض الأيام والليالي والأمكنة المقدّسة، دخل في مراتب فضله، لا في أصل صحته ومحبوبيته، وإذا توفرت شروط صحة الدعاء، وشروط كماله، ووقع الدعاء مورد الاستجابة، فإنّه قد يوجب التغيير في العالَم، ممّا يوجب تحيّر ذوي الألباب، ولا ريب في ذلك كما مرّ، فإنّ الدعاء عظيم أثره، لأنه حضور العبد الذليل لدى المولى الجليل، وتوجّه نحو التوحيد الفطري، فلا تغفل عنه، ولا تعرض بوجهك عنه، فإنّ المحروم مَن حرم من الدعاء، ولا تجعل للشيطان على عقلك سبيلاً بشبهاته، فإنّه عدو للإنسان، يحاول أن يجنّب العبد عن الدعاء، لأنّه من أعظم السبل في ردّه، والله الهادي وهو المولى ونعم النصير.

مراتب السلوك

لا ريب في أنّ أقوى مراتب سلوك السالكين إلى الله جلّت عظمته، وأهم مقامات سيرهم وسفرهم، إنّما هو السفر من الخلق إلى الحقّ، أي: التوجّه التام، بحيث ينقطع عمّا سواه تعالى، وهو السير في الحقّ بالحقّ.

وهذا السفر الروحاين يصحّ أن يعبَّر عنه: بأنّه سفر من المحدود من كلّ جهة إلى غير المحدود من جميع الجهات، وعطف وحنان ممّن لا حدّ لرحمته وحنانه وعنايته، إلى ما هو المحتاج على الإطلاق، وهذا السفر، وهذه الرحمة والعطف، يتحقّقان في حقيقة الدعاء مع الإيمان بالله جلّت عظمته، وبما جاء به نبيّنا الأعظم ﷺ، لأنّ هذه الحقيقة مع ذلك عبارة عن تخلّي النفس عن جميع الرذائل، وطهارة روحية عن جميع الصفات الذميمة والأهواء الشريرة، وارتباط روحي مع عالم الغيب.

وإن قلت: إنّها تجلّي الرحمة الرحيمية والرحمانية بالنسبة إلى الداعين.

أو قلت: إنّها عروج النفوس المستعدّة عند الانقطاع عمّا سوى رب العالمين إلى أعلى الدرجات التي أُعدت لها، ولذا قال تعالى: ﴿مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾[1]، وقال الصادق عليه السلام كما تقدّم: «الدعاء مخ

(١) الفرقان، الآية ٧٧.

العبادة»، ولذا كان الأنبياء والأوصياء والعلماء العارفون بالله تعالى، يواظبون عليه أشدّ المواظبة في جميع أحوالهم، حالاً ومقالاً.

وهناك أمور أخرى مهمة مرتبطة بالدعاء، نتعرّض لها في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالى.

بقي هنا أمران:

الأول: الفرق بين الدعاء وغيره من الأسباب المؤثّرة، مثل السحر والعين مثلاً، فإنّ الأول ـ أي الدعاء ـ تأثير غيبي في عالم الشهادة، كما مرّ، ولما سواه تأثيرات من هذا العالم وفيه، وهي غير مرتبطة بعالم الغيب والملَكوت أصلاً، بل بعضها منهي عنه شرعاً.

الثاني: أنّ الدعاء إنّما يؤثر بحسب معتقدات الداعي، فربما يكون الدعاء الصادر من الذي لا يعتقد بالمبدأ يؤثر بحسب معتقده، وهو خلاف الواقع، قال تعالى: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾[١]، وتدلّ عليه السنّة المقدّسة، بل التجربة، ويأتي التعرّض لها في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالى[٢].

---

(١) الرعد، الآية ١٤.
(٢) م ـ ن، ٤٧ ـ ٧٦، ج (٣).

العفو والمغفرة

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ * وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ * أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ * قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ * هَٰذَا بَيَانٞ لِّلنَّاسِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾.

الآيات الشريفة من جلائل الآيات التي يذكر فيها أهم الخصال الحميدة الفردية والاجتماعية، وه يتهدي الإنسان إلى استكمال نفسه ومجتمعه، وتعلّمه كيفية علاج الذائل النفسانية، فهي تدعوه إلى الخير والإحسان، والتحلي بمكارم الأخلاق والانزجار عن الشرّ والسوء ومساوىء الأخلاق.

وقد عدّد سبحانه وتعالى جملة من الأخلاق الكريمة والخصال الحميدة وهي المسارعة إلى الخير، والإنفاق في سبيل الله في السرّاء والضرّاء، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس، والتوبة عن المعاصي والذنوب التي تبعد الإنسان عن خالقه وتوقعه في الورطات والمشاكل.

وقد أمر عزّ وجلّ بنيل الإحسان وكلّ خير فردي واجتماعي، وبيّن سبحانه وتعالى أن في التخلقّ بها وفي إفشائها يحقّق للإنسان الحياة السعيدة وتأمنه من الوقوع في المهالك وتوجب له النجاة من الشدائد، وبها تثبت الوحدة بين أفراد المجتمع ويشدّ بعضهم بعضاً.

فهذه الآيات الشريفة تبيّن الصراط المستقيم الذي مَن سلكه لا يضلّ ولا يشقى، وقد ذكر سبحانه في الآيات السابقة أهم ما يمنع الإنسان من السير على ذلك الصراط المستقيم، وما يعيقه من تكميل نفسه ومجتمعه، وهو الربا الذي يعدّ في نظر الإسلام من أهم الموانع المادية والمعنوية التي تحرم الإنسان عن الحياة السعيدة، وتمنع من الإنفاق الذي يعدّ من أهم الأسس في نيل السعادة.

وقد عدّ عزّ وجلّ أن التعدّي عمّا ذكره والإعراض عمّا بيّنه يؤدّي إلى الشقاء والحرمان، وأمر عزّ وجلّ بالاعتبار عمّا جرى في الأمم السابقة التي أعرضت عمّا ارتضاه الله تعالى لهم.

التفسير

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾.

دعوة عامة إلى الغفران، وبشارة عظيمة لجميع أهل الذنوب والعصيان، واستضافة من الجواد الغني لجميع الواردين عليه، وترغيب إلى العباد في إزاحة جميع الأغشية والظلمات، ودفع أنواع الجهالات، ووعد منه عزّ وجلّ لمَن أطاع الله وأطاع الرسول، وقد ذكر جزاء المتقين المطيعين اتباعاً للوعيد بالوعد الجميل، واقتراناً للترهيب بالترغيب، كما هو سنّته عزّ وجلّ.

والمسارعة المبادرة والاشتداد في السرعة، وهي في الخير ممدوحة

وفي الشرّ مذمومة، والمسارعة إلى الخيرات هي المبادرة إليها. وإنما أمر سبحانه وتعالى بالمسارعة إليها بإطاعة الله تعالى والرسول، للتنبيه على ترك التسويف الذي يفوت به الأجر والحظ، وكثرة المثبطات ووسوسة الشيطان التي توهن العزائم.

ويمكن أن يكون قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾، مبيّناً للمغفرة في هذه الآية الشريفة، كما أن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ مبيّناً للمسارعة إلى الجنة.

وكيف كان، فإن أسباب المغفرة والدخول في الجنة معروفة مذكورة في القرآن الكريم والسنّة الشريفة، كما أن أسباب الدخول في النار كذلك.

قال تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾.

العرض خلاف الطول، وهو أقصر الامتدادين عادة، ويكنّى به عن السعة، واستعماله في ذلك شائع، يقال: بلاد عريضة، أي واسعة، ومنه قولهم: أعرض في المكارم إذا توسع فيها، وفي الحديث عنه ﷺ: «لقد ذهبتم فيها عريضة»، أي الأرض الواسعة، وقد قال ﷺ ذلك عندما هرب جماعة يوم أُحد فراراً من الزحف.

ومن ذلك يظهر أنه لا وجه لما ذكره بعض من أنه إذا كان العرض كذلك فأين الطول وما مقداره، مع أنه لا يجري ذلك إذا فرضنا كروية الجنّة.

ويمكن أن لا يكون التعبير كنائياً، بل كان على الحقيقة، إما بناءً على عدم تناهي الأبعاد، كما عن جمع من الفلاسفة، فالأمر واضح. وإما بناءً على التناهي كما عن بعض، فلا ريب في أنه على فرض صحته إنما هو في الدنيا، وأما في الآخرة فهي غير متناهية من جميع الجهات، زماناً ومكاناً، وسعة ونعمة، وغير ذلك.

وقد ذكر المفسّرون في معنى العرض في المقام بما لا يرجع إلى محصل.

ونقل عن أبي مسلم بن بحر: أن المراد من العرض في الآية الشريفة هو من عرضك الشيء على البيع، والمقايضة، أي لو عرضت الجنة بالسماوات والأرض لكانتا ثمناً.

وهذا تأويل باطل.

وكيف كان، فالآية الشريفة ترمز إلى معنى جميل، ترغّب المخاطبين إلى المراد بأسلوب لطيف وجار على ما يتصوّره الناس من التمثيل بالموجود في الخارج، وتبيّن بلوغ الجنّة في السعة بحيث لا يمكن أن يحدّها حدّ وهمي، وهذا ممّا يوجب اطمئنان الإنسان بأن له ما تشتهيه النفس من جميع الجهات، ففي بعض الأحاديث القدسية: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»، وهذا هو شأن النعمة التي أُعدت من غير المتناهي من كلّ جهة إلى المنعم عليه المتناهي من كلّ جهة، وهذه هي الحياة الكاملة الأبدية التي لا ينبغي للإنسان إلا السعي في دركها.

قال تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

الإعداد: التهيئة، وهو إما علمي أو خارجي، في هذه النشأة أو في نشأة أخرى أو في عالم الملكوت الذي يكون كالصورة والمرآة لهذا العالم بجميع جزئياته وكلياته، ويمكن أن يعبّر عنه بعالم المثال الخارجي، وهو موجود بوجود روحاني معنوي، ودخله سيد الأنبياء ﷺ في معراجه واطلع على خصوصياته، فيكون الإعداد مطابقاً للوجود العلمي الأزلي، والوجود الخارجي في الدنيا والوجود الأُخروي في ما لا يزال.

والتقوى هي سبب معدّ للجنة، فتكون حقيقة التقوى منزلة من العلم الأزلي مثّل بالوجود المثالي، ثم نزلت إلى هذا العالم وستعود إلى المحل الذي أعدته لنفسها، كما أنها حقيقة العصيان والطغيان والكفر كذلك، ولكلّ منها مظاهر خاصة تناسب عالم ظهورها، ويمكن التمثيل له في هذا العالم أيضاً، فإن بعض الأراضي لا قابلية لها إلا لزراعة مثل الزعفران، وقطعة أخرى لا تصلح إلا أن تكون سبخة يعلوها الملح. وذلك كله بنحو الاقتضاء لا العلّية التامة، ومن ذلك يعلم المراد من قولهم عليهم السلام: «كلّ ما هناك لا يعلم إلا بما هنا»، أو: «إن الدنيا مزرعة الآخرة».

وإنما أتى عزّ وجلّ الفعل مجهولاً، للإشارة إلى أن لفعل الفاعل دخلاً في الإعداد، وأُضيفت الجنّة إلى المتقين، لبيان أن الوصف ـ وهو التقوى ـ علّة هذا الإعداد.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾[(١)]، ولعلّ الاختلاف في التعبير بالمسارعة والمسابقة، لأجل أن المسارعة تكليف للجميع من غير اختصاص بفرد، والمسابقة تكليف فردي بأن يتسابق كلّ فرد فرداً آخر حين المسارعة، فتكون المسابقة أخصّ من المسارعة، ويكون المراد بالجنّة في آية المسابقة جنّة خاصة، عرضها كعرض السماء والأرض، فإن لله تعالى جنّات كثيرة، بل غير متناهية.

كما أن المراد بالجنّة في آية المسارعة الجنس التي يكون عرضها السماوات والأرض، ويصحّ أن يراد بالسماء في آية المسابقة الجنس، فيتحدّ مفاد الآيتين حينئذٍ.

---

(١) الحديد، الآية ٢١.

ثم إنه تعالى ذكر المتّقين في المقام لغرض الأوصاف التي وصفهم بها، وهي أوصاف جامعة لمكارم الأخلاق وهي تفيد المجتمع كما تفيد الأفراد، أُمروا بالتحلّي بها لغاية تهذيبهم وتكميلهم، وقد نزلت هذه الآيات بعد غزوة أُحد، وقد جرى على المسلمين ما جرى، كما صدر منهم ما صدر، فاستلزم ذلك تنبيه المؤمنين وتهذيبهم وإعدادهم لما ستجري عليهم من الحوادث.

وقد وصف عزّ وجلّ المتّقين بأوصاف خمسة، وهي:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾.

السراء: من السرور، وهو الرخاء والفضل، والضرّاء من الضرر، وهو الشدّة والعسر والضيق. أي: الذين ينفقون لوجه الله تعالى في حالة الرخاء والسرور، وحالة الشدّة والضيق والعسر.

وظاهر الآية الشريفة أن السرّاء والضرّاء حالتان للمنفق، ويحتمل أن تكونا حالتين للإنفاق في حالة الرخاء والسرور، وحالتي الضيق والشدّة، فمن الأول الإنفاق في التوسعة على العيال، ومن الثاني الإنفاق لرفع ما يضطرون إليه.

وإنما حذف عزّ وجلّ متعلّق الإنفاق ليشمل القليل والكثير، وكلّ ما يصلح للإنفاق، سواء كان مالاً أم غيره.

وقد بدأ سبحانه وتعالى من بين الأوصاف بالإنفاق مقابلة للربا الذي نهى عنه عزّ وجلّ في الآية السابقة، الماحق لكلّ فضل وفضيلة، ولأن الإنفاق في الحالتين يكشف عن محبة المنفق لله تعالى وتقواه، لأن أنفق أحبّ الأشياء لنفسه. ولأن الإنفاق أنفع للناس من سائر الصفات، فإن فيه يظهر التعاون بين أفراد المجتمع، وبه ترتفع المشكلات وتنحل

المعضلات، ويخفف من هموم الفقراء ويبعث في نفوسهم الأمل ويشدّهم مع سائر أفراد المجتمع.

قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾.

وصف ثان، ومادة (كظم) تدلّ على الحبس والإمساك، ومنه الحديث: «إذا تثاءب أحدكم فليكظم ما استطاع»، أي يحبسه مهما أمكن، ويقال: كظم البعير، أي أمسك عن الجرة، وكظم القربة شدّ رأسها عند الامتلاء، والغيظ شدّة الغضب وفوران الدم للانتقام.

قال تعالى: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾.

وصف ثالث، وهو من أجلّ مكارم أخلاق الله تعالى، فإن بعفوه يتم تدبير نظام العالم. ومن أسمائه تعالى العفوّ، وهو المبالغة في العفو الذي هو التجاوز عن الذنب وترك العقاب عليه، وأصله المحو والطمس، والعفو عن الناس هو ترك مؤاخذتهم مع القدرة عليها والتجاوز عن عقوبة مَن استحقها، وهو أقرب للتقوى، وفي الحديث: «سلوا الله العفو والعافية والمعافاة»، أما العفو فمحو الذنوب، والعافية أن تسلم من الأسقام والبلايا وهي الصحة، والمعافاة هي صرف أذى الناس عنك وأذاك عنهم، ويغنيك عنهم ويغنيهم عنك.

وإنما حذف المتعلّق ليشمل كلّ ما يدخل تحت حقّه.

وهذا الوصف يكشف عن كرم المتصف به وحسن سريرته وضبط نفس الأمارة تحت إرادته وحكمته، فتكون مرتبة هذا الوصف أعلى من مرتبة كظم الغيظ، فإن الشخص قد يكظم غيظه ولكن على عقد وضغينة، والعفو دليل على انتفائهما.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

وصف رابع، وهو الإحسان الذي له المرتبة الأعلى من بين جميع ما سبق، بل هو أكرم المكارم، ولعلّه لأجل ذلك لم يعطفه على ما سبق.

والإحسان: صفة كريمة تتصف بها النفس يكشف بها كظم الغيظ والعفو عن الناس، فإن هذه نعوت معدّة لكسب الإحسان والتحلّي به، والإحسان: هو جعل الأشياء في موضعها وإتيان الأعمال على الوجه اللائق بها، وبالإحسان يتمّ الإنفاق الذي لا بد أن يعرى عن جميع ما يشينه ويكمل كظم الغيظ والعفو عن الناس، ولذلك كان للمحسنين أجر عظيم ومنزلة كبيرة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1]، ويكفي في منزلة هذا الوصف أن الله يحب المحسنين ويثيبهم على إحسانهم، وكفى بذلك فخراً وفوزاً.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾.

وصف خامس، وهو أعظم آية في القرآن الكريم في تهييج رجاء العبد، وفيها التنويه بمقام العفو والإحسان، وتذكّر المتّقين بعدم اليأس لو صدر منهم ذنب، فإنه بعد أن ذكر أوصاف المتّقين ـ من كظم الغيظ والعفو والإحسان ـ عقبه سبحانه بأعظم ما منَّ به على العباد، وهو العفو عن المذنبين والإحسان بهم، تعليماً لهم وتنويهاً لمقامهما وإعلاماً بأن الإنسان لا يخلو عن الذنب إلا أن يكون معصوماً بعصمة الله تعالى، فهو محتاج إلى العفو والإحسان، فتكون الجملة معطوفة على المتّقين، (وأُولئك) في الآية التالية إشارة إلى الجميع.

والفاحشة من الفحش، وهو مجاوزة الحدّ في السوء، فتكون الفاحشة كلّ اشتدّ قبحه من الذنوب والمعاصي، وشاع استعماله في الزنا

(١) العنكبوت، الآية ٦٩.

باعتبار أنه أظهر أفراد الفحشاء؛ وكلّ خصلة قبيحة فهي فاحشة من الأقوال والأفعال، وفي الحديث: «إن الله لا يحبّ الفحش والتفاحش».

والمراد بها في الآية الشريفة ـ بقرينة المقابلة للظلم ـ المعصية الفاحشة في قبحها، سواء كانت مقتصرة على النفس، كترك الصلاة ونحوه، أم متعدّية إلى الغير، كالقتل والغيبة ونحوهما. والظلم ما دون ذلك، كما يصحّ أن يكون الفرق بينهما كالفرق بين الكبيرة والصغيرة.

قال تعالى: ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾.

أي: تذكّروا عظمة الله تعالى وآياته الموجبتين للخشية منه، وأنه مرجعهم في كلّ خوف ورجاء، بعد أن أغفلهم الشيطان وأنساهم ذكر ربّهم حين الذنب، فيسرعون إلى الاستغفار وطلب المغفرة.

والمراد بذكر الله هو الذكر الحقيقي الذي يكون داعياً إلى ترك الذنب واستشعار الخوف والرجوع إليه تعالى، لا مجرّد الذكر اللفظي مع البقاء على الذنب، فإنه حينئذٍ يكون كالمستهزىء به تعالى.

قال تعالى: ﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾.

أي: حين ما ذكروا الله وتذكّروا جلاله وكبرياءه أحبّوا التقرّب إليه بعد أن انصرف عنهم طائف الشيطان، فتابوا إليه طالبين المغفرة منه عزّ وجلّ لجميع ذنوبهم.

والآية الشريفة في مقام التمييز بين مَن يفعل المعاصي محادة وعناداً ولجاجاً، فإنه بعيد عن الاستغفار ولا يوفق إليه أبداً. وبين مَن تذكّر الله تعالى حين المعصية وارتدع عنها خوفاً، فتاب إليه تعالى وطلب المغفرة منه، فإن لهم مقاماً معلوماً.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾.

بشارة عظيمة، وتطييب للنفوس، وتشويق إلى التوبة والاستغفار، وتنبيه للمذنبين بالالتجاء إلى الله تعالى وعدم اليأس منه عزّ وجلّ، فإنه لا منجى من الذنوب ولا ملجأ في الغفران إلا إلى الله تعالى، وهذا ممّا يؤكد الفزع والرجوع إليه عزّ وجلّ.

والآية المباركة ـ بأسلوبها البديع وخطابها البليغ ـ تؤثّر في المخاطبين أبلغ التأثير، وينبّه الضمير الإنساني الذي تأثّر بارتكاب الذنوب والمعاصي بالرجوع إلى الله والإنابة إليه، لإزالة ما يوجب ضلاله وإغوائه.

وفي هذا الخطاب وجوه من الدلالة على المعنى المراد، كإظهار اسم الجلالة، وإسناد المغفرة إلى ذاته المقدّسة المستجمعة لجميع الصفات الكمالية، ودلالة ذلك على الغفران الواسع وانحصاره فيه عزّ وجلّ، لأنه المسلّط على ذلك كله، فإنّ مَن بيده أصل الخلق وتدبير شؤونهم، يكون مسلّطاً على الغفران بالأولى، وليس لغيره هذا الحقّ، وهذا ما يدلّ عليه الحصر المستفاد من النفي والإثبات.

وفيه الإنكار على مَن يطلب المغفرة من الأوثان أو الأفراد الذين لم يأذن لهم الله تعالى بالاستشفاع لديه في غفران الذنوب بالخصوص.

ويؤكّد ذلك ورود الخطاب على هيئة الإنشاء دون الإخبار.

وفي ذكر الجمع المحلّى باللام الدال على العموم، إعلان بأن الله جلّ شأنه يغفر جميع الذنوب، صغائرها وكبائرها، فيكون المذنب بعد الاستغفار والتوبة عنده كمَن لا ذنب له، كما في الحديث.

ثم إن مجيء هذا الخطاب بعد ذكر الفاحشة وظلم النفس، فيه الدلالة على سعة غفران الله تعالى وعدم مبالاته فيه، فإن الذنوب مهما كبرت وجلّت، ولكن عفوه وغفرانه أجلّ وأعظم وأكبر.

قال تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

الإصرار على الشيء: المداومة عليه وملازمته، وأكثر ما يستعمل في الشر والذنوب، وفي الحديث: «ويل للمصرين الذي يصرون على ما فعلوه وهم يعلمون»، وقد تقدّم اشتقاق هذه الكلمة في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾(١).

«وهم يعلمون» حال من فاعل الإصرار ومتعلّق به.

والمعنى: أنهم لم يداوموا على الذي فعلوه من الذنوب والمعاصي وهم عالمون بقبحها وبالنهي عنها والوعيد عليها.

وإنما قيّد الإصرار على الفعل بالمعصية، لبيان أن مجرّد الإصرار على المعصية مع الجهل بها لا يكون إصراراً شرعاً، كما يبينه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾(٢).

والآية الشريفة ترشد الناس إلى ترك الإصرار في المعاصي، لأنه يوجب عدم المبالاة برحمات الله تعالى والاستكبار عليه والاستهانة بأحكامه المقدّسة، ويجعل النفس ميالة إلى الطغيان والخروج عن الطاعة، فتنتفي العبودية وتخرج عن الفطرة المستقيمة، فلا ينفع حينئذٍ ذكر الله تعالى الذي كان يمنع عن المعصية والإقامة على الذنب.

قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

وعد منه عزّ وجلّ للمتّقين الموصوفين بما تقدّم من الأوصاف،

---

(١) آل عمران، الآية ١١٧.

(٢) النساء، الآية ١٧.

وبيان للأجر الجزيل والثواب الكبير المعدّ لهم، وهو المغفرة والجنّات العظيمة التي تجري من تحتها الأنهار زيادة في بهجتها، ولتمامية النعمة أنهم خالدون فيها لا يشوبها نقص.

ويمكن أن يكون ما ورد في هذه الآية المباركة هو نفس ما ذكره عزّ وجلّ في الآية السابقة من الأمر بالمسارعة إلى المغفرة وجنّة عرضها السماوات والأرض، فتكون تلك الأوصاف من المعدّات والأسباب للمغفرة والدخول في الجنّة، وتكون هذه الجنّات ضمن تلك الجنّة الفسيحة.

وقد أضاف سبحانه وتعالى الجزاء إلى ضمير «هم» تشريفاً، وفي ذكر الرب المضاف إلى «هم»، لبيان العلّة في نيلهم لذلك الجزاء العظيم وتربيته تعالى المعنوية لهم.

قال تعالى: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾.

تأكيد للوعد الجميل وتشويق لهم إلى العمل، أي: تلك المغفرة والجنّات إنما تكون على تلك الأعمال الحسنة التي تعدّ النفس إعداداً صالحاً، وتهيئوها لنيل تلك المراتب العالية.

والخطاب على إيجازه يشتمل على وجوه من الدلالات المحسّنة، الدالّة على عظمة الموضوع والاهتمام به، وتهييج الشوق والمسارعة إلى نيله.

منها: إقامة الأجر مقام الجزاء، إعلاماً بإنجاز الوعد وتحقّقه، ممّا يزيد في شوق العامل وتنشيطه للعمل، فكان العامل يستحق ذلك.

ومنها: ذكر الجمع المحلّى باللام وإقامته مقام الضمير تأكيداً، وللدلالة على حصول المطلوب.

ومنها: إتيان هذه الجملة بعد ذكر الجزاء وتفصيله لبيان الاهتمام بالوعد، والتأكيد على المسارعة لدركه.

قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾.

أمر بالاعتبار بما جرى على الأُمم الغابرة والنظر في ما بقي من آثارهم، زيادة في التحريض على العمل والاستعداد لنيل الكمال، وتشويقاً للجزاء الذي أعدّه الله تعالى للعاملين، وتنبيهاً للمؤمنين على عدم الغفلة، وتذكيراً لمَن خالف الرسول الكريم ﷺ، وتسلية للمؤمنين، وتوبيخاً لمن أعرض عن آيات الله تعالى وأحكامه المقدسة وغفل عن الاستكمال، وتشنيعاً على مَن أدرج نفسه في عداد المكذّبين بعد إتمام الحجّة، التي يكون منها الرجوع إلى أحوال الماضين والسير في الأرض والنظر في ما خلفته تلك الأمم من الآثار، فقد خلت عن أصحابها بعدما كانت قصوراً شاهقة أو عروشاً جمعت كلّ أسباب البهجة والسرور، وقد ابتهج ساكنوها وعمارها مدة فيها، أو كنوزاً امتلأت بكل أسباب العيش الهنيء، أو ذخائر عظيمة لم تدخل في الحسبان، وقد جرت عادته عزّ وجلّ أنه يرجع المخاطبين - بعد سرد جملة من الحوادث وبيان الأحكام الفردية والاجتماعية - إلى سنن الأُمم الغابرة، والأمر بالاعتبار بها والنظر في آثارهم لمزيد التنبيه، والاستفادة من تجاربهم ولئلا تتكرّر ما جرى عليهم على هذه الأُمة، وأن يسلكوا الطريق المستقيم الذي سلكه الصالحون منهم، والإعراض عن سبل المكذّبين لئلا يدخلوا في زمرتهم فينالوا جزاءهم، وقد جعل القرآن الكريم هذا الأمر من سبل إتمام الحجّة على العباد.

وخلت بمعنى مضت، والسنن جمع سنّة، وهي الطريق المعبّدة المسلوكة، وقد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم في ما يقرب من

سبعة عشر موضعاً، قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[٢].

والنظر في سنن الماضين من سبل الرشاد، وفيها وجوه من الحكمة، منها الاعتبار بها، وإتمام الحجّة على اللاحقين، وتسلية لما يجري عليهم، والاستفادة من تجاربهم وغير ذلك، ولذا اهتم بها عزّ وجلّ فذكرها في مواضع متعدّدة.

وبالجملة: فهو إرشاد إلهي.

والمراد بها في المقام منهاج الماضين وما جرى عليهم، سواء كان سنّة المؤمنين الصادقين المجاهدين في سبيل الله تعالى والعاملين المستعدّين للقائه والدار الآخرة، وما كابدوا من عتاة زمانهم وجبابرتهم وصعوبة العيش، فرضوا بما قسمه الله لهم وصبروا وآثروا الآخرة على الحياة الدنيا الفانية، وسنّة الكاذبين الكافرين الذين آثروا الحياة الدنيا على الآخرة ونعيمها، لانهماكهم في الضلال والشهوات مع وضوح الحجّة ومعرفة البيّنات، والأمر بالسير في الأرض لزيادة الاعتبار من آثار الماضين والتبصّر منها، ويدخل في السير في الأرض السير في حالات أهل الأرض من خلال التأريخ والحوادث الواقعة فيهم.

قال تعالى: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

المراد بالنظر هو التأمّل والتبصّر بأنه كيف كان علاقة المكذّبين مع المؤمنين، وما جرى من الصراع بين الحق والباطل، وما آل أمر المؤمنين

(١) الأنفال، الآية ٣٨.
(٢) الحجر، الآية ١٣.

إليه، وعاقبة أمر المكذّبين وما حلّ بهم من العذاب والهلاك بسوء أعمالهم، فإن النظر في ذكل كلّه يزيد المعرفة ويوجب التسلية بما يجري على المؤمنين، ويفيد العظة والاعتبرا، والتوبيخ للمكذبين الكافرين.

قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

الإشارة راجعة إلى ما ورد في الآيات السابقة من ذكر غزوة أُحد والمضامين العالية التي احتوتها تلك الآيات، والتقسيم باعتبار حالات الناس ومدى تأثّرهم بالقرآن الكريم، فبعضهم يكون القرآن بالنسبة إليه بلاغاً وبياناً، والبعض الآخر يكون هدىً وموصلاً له إلى الهداية وموعظة تدعوه إلى الاتعاظ والاعتبار وزيادة الإيمان وثباته، كلّ ذلك لا بد أن يكون للذين أعدوا أنفسهم لقبول الهداية والاتعاظ، وهم المتّقون الذين يتأثّرون بالبيان وينتفعون منه ويهتدون بهداه ويتّعظون بمواعظه دون سواهم.

بحوث المقام

بحث دلالي

تدلّ الآيات الشريفة على أمور:

الأول: قد جمعت الآيات المباركة المتقدّمة وجوه البرّ ومكارم الأخلاق التي لا بد من التحلّي بها ولا يسع لأحد الإعراض عنها، فإنها فاتحة الكمالات وجامعة للخيرات، وهي من المكارم الفردية والاجتماعية، بها يعيش الفرد حياة سعيدة خالية عن ما ينغصه من الكدورات والشرور، وبها يصلح المجتمع.

ومن هذه الآيات الشريفة نستفيد المنهج الأخلاقي في الإسلام، فإنا ذكرنا في أحد مباحثنا الأخلاقية: أن المنهج الأخلاقي في الإسلام يختلف عن المناهج الأخرى في الأصول والأسلوب والطريقة، وأن الإسلام ينظر إلى التقوى والعمل أولاً وبالذات، وأنه السبيل الوحيد لنيل الكمال والوصول إلى الغاية، وهذه الآيات تبيّن المنهج العملي، ونظير هذه الآيات قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ

وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[١]، فراجع ما ذكرناه هناك.

الثاني: إنما قدّم عزّ وجلّ المغفرة على الجنّة، لأن المغفرة سبب للدخول فيها، وكلّ سبب مقدّم على المسبب، مع أن الجنّة دار طهر لا يصلح لدخول غير المطهرين فيها، وبالمغفرة يطهر المذنب فيصلح للدخول فيها.

الثالث: يستفاد من قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾، أن التقوى هي السبب في إعداد الجنّة وتهيئتها للمتقين وحضورها لهم.

الرابع: يستفاد من قوله تعالى: ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾، كمال الجنّة من جميع الجهات وتمامية التنعمة فيها، فإن الجنّة التي تكون سعتها كذلك فلا بد أن تكون محفوفة بجميع موجبات البهجة والسرور، وفيها الحياة الكاملة كما قال عزّ وجلّ: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾[٢].

الخامس: يستفاد من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أن كلّ وصف سابق معدّ للوصف اللاحق، فإن الإنفاق يوجب ترويض النفس المحبّة للأموال والملذات والسيطرة عليها، فتستعد لكظم الغيظ، وهذا موجب للعفو عن الناس، وهو موجب لمزيد الإحسان.

السادس: يستفاد من قوله تعالى: ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾، أن ذكر الله تعالى هو السبب في انقلاع العبد عن المعصية والانزجار عن الذنوب وعدم العود إليها والتوبة إلى الله تعالى وطلب المغفرة منه عزّ وجلّ، لأن غفران

(١) البقرة، الآية ١٧٧.
(٢) العنكبوت، الآية ٦٤.

الذنوب تحت سلطته عزّ وجلّ، وأن الإصرار على المعصية يسلب التوفيق عن تذكّر الله تعالى، وهم يعلمون بأن الإصرار يكون كذلك، ويوجب التجرّي على الله تعالى والاستكبار عليه وعدم المبالاة بحرماته، وتزول عنه حالة الندم والخوف عن نفسه.

السابع: إنما جعل عزّ وجلّ قصص الماضين ـ سواء الصالحين منهم أم الظالمين ـ خاتمة لتلك التعاليم الإسلامية، عبرة للاحقين ودستوراً للعمل ومنهاجاً في سيرهم وسلوكهم، مضافاً إلى كونها مواعظ يتّعظ بها المتعلّمون، ويصلح بها الفاسد.

بحث روائي

في المجمع: عن النبي ﷺ أنه سئل إذا كانت عرضها السماوات والأرض فأين تكون النار؟ فقال ﷺ: «سبحان الله إذا جاء النهار فأين الليل».

أقول: روى السيوطي أيضاً في الدر المنثور هذا الجواب منه ﷺ إقناعياً إسكاتياً. كما يمكن أن يكون على وجه التحقيق، بأن نقول إن خلق النار تبع لخلق الجنّة، فهي لا تنفكّ عنها، كما أن خلق الليل لا ينفكّ عن خلق النهار، وأما وجه التبعية، فلقوله تعالى: ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾(١)، و«سبقت رحمته غضبه».

وفي الخصال: عن أمير المؤمنين عليه السلام في قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾، قال عليه السلام: «إنكم لن تنالوها إلا بالتقوى».

أقول: لمّا تقدم من أن التوقى سبب لحصول الجنّة فلا يعقل نيلها

---

(١) غافر، الآية ٧.

إلا بالتقوى، ولا بد من تعميم التقوى إلى التوبة والاستغفار، كما في صدر الآية الشريفة.

وفي الكافي: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ما من عبد كظم غيظاً إلا زاده عزّاً في الدنيا والآخرة، قال الله عزّ وجلّ: والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحبّ المحسنين».

أقول: وردت روايات كثيرة في شأن كظم الغيظ، سيأتي في المحل المناسب التعرّض لبعضها.

وفي الكافي - أيضاً -: عن الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: عليكم بالعفو، فإنه لا يزيد العبد إلا عزّاً، فتعافوا يعزّكم الله».

أقول: لأن العفو من صفات الله تعالى، فيعزّ العبد العافي بعزّه، ويأتي في الموضع المناسب شرح ذلك.

وفي المجمع والإرشاد للمفيد: «أن جارية لعلي بن الحسين عليه السلام جعلت تسكب عليه الماء ليتهيأ للصلاة فسقط الإبريق من يدها فشجّه فرفع رأسه إليها، فقالت له الجارية: إن الله تعالى يقول: والكاظمين الغيظ، فقال لها: كظمت غيظي، قالت: والعافين عن الناس. قال: عفا الله عنك. قال: والله يحبّ المحسنين، قال: اذهبي فأنت حرّة لوجه الله».

أقول: رواه السيوطي في الدر المنثور أيضاً عن البيهقي، والحديث يدلّ على أن الإحسان أمر زائد على أصل العفو، ومثل ذلك كثير في العالمين العاملين بعلمهم.

وفي الكافي وتفسير العياشي: عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا﴾، قال عليه السلام: «الإصرار أن يذنب الذنب فلا يستغفر الله، ولا يحدث نفسه بتوبة، فذلك الإصرار».

أقول: الأحاديث في ذلك كثيرة، وقد تقدّم ما يشهد لذلك، وسيأتي ما يرتبط بذلك أيضاً.

وفي تفسير العياشي في حديث قال: «وفي كتاب الله نجاة من الزديء وبصيرة من العمى، وشفاء لما في الصدور في ما أمركم الله به من الاستغفار والتوبة، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، فهذا ما أمر الله به من الاستغفار واشترط معه التوبة والإقلاع عمّا حرّم الله، فإنه يقول: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ وبهذه الآية يستدل على أن الاستغفار لا يرفعه الله إلا بالعمل الصالح والتوبة».

أقول: تقدّم مكرّراً أن العمل الصالح من الإيمان، فلا إيمان إلا به.

وفي المجالس: عن عبد الرحمن بن غنم الدوسي في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾، نزل في بهلول النباش وكان ينبش القبور فنبش قبر واحدة من بنات الأنصار فأخرجها ونزع أكفانها ـ وكانت بيضاء جميلة ـ فسوّل له الشيطان فزنى بها ثم ندم، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وآله فردّه ثم اعتزل الناس وانقطع عنهم يتعبّد ويتبتّل في بعض جبال المدينة، حتى قبل ونزل فيه القرآن».

وفي أسباب النزول للواحدي: عن ابن عباس في رواية عطا قال: «نزلت الآية وهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ في نبهان التمار

أتته امرأة حسناء تبتاع منه تمراً، فضمها إلى نفسه وقبّلها ثم ندم على ذلك، فأتى النبي ﷺ وذكر ذلك له فنزلت هذه الآية».

أقول: قد وردت روايات متعدّدة في شأن هذه الآية، وهي على فرض صحتها لا تكون مخصصة للآية، بل هي بعمومها تشمل كلّ فاحشة تاب صاحبها عنها.

وفي المجالس: عن الصادق عليه السلام قال: «لما نزلت هذه الآية ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾، صعد إبليس جبلاً بمكّة يقال له ثور، فصرخ بأعلى صوته بعفاريته فاجتمعوا إليه فقالوا له: يا سيدنا لِمَ تدعونا؟ قال: نزلت هذه الآية فمَن لها؟ فقام عفريت من الشياطين فقال: أنا لها بكذا وكذا. فقال: لست لها. فقام آخر فقال مثل ذلك. فقال: لست لها. فقال الوسواس الخناس: أنا لها. بماذا؟ قال: أعدهم وأمنيهم حتى يواقعوا الخطيئة، فإذا واقعوها أنسيتهم الاستغفار. فقال: أنت لها، فوكّلها بها إلى يوم القيامة».

أقول: روي مثله من طرق الجمهور أيضاً.

الإصرار على الذنب

الإصرار على الذنب ـ سواء كان صغيراً أم كبيراً ـ من القبائح العقلية التي يحكم العقل بقبحه وشناعته، بل هو من أشدّ القبائح، لأنه يوجب شقاوة النفس والجرأة على الله تعالى، وقد يصل إلى حدّ الاستهزاء بحرماته عزّ وجلّ، وهو على حدّ الكفر. والإصرار على الذنب على أقسام:

الأول: إتيان الذنب ثم تكراره، والبناء على إتيانه مكرّراً من دون تخلل التوبة والاستغفار.

الثاني: إتيان الذنب والبناء على الإصرار والتكرار، ولكن لم يتهيأ له أسباب إتيانه مع السعي في مقدّمات الإتيان.

الثالث: نفس الصورة السابقة مع عدم السعي في المقدمات.

الرابع: أن يأتي بالذنب، وكان بانياً على الإتيان قلباً من دون صدور عمل خارجي منه أصلاً.

الخامس: أن يأتي بذنب، ثم يتوب به ثانياً.

وغير الأخير كلّه من الإصرار بحسب مراتبه، وأما الأخير فمقتضى قوله ﷺ: «لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار» محو الأوّل

وزواله بسبب التوبة، فلا يتحقّق موضوع الإصرار حينئذٍ، والإصرار كما يتحقّق بفعل المعصية يتحقّق بترك الواجب عصياناً أيضاً.

وظهر ممّا مرّ انعقاب أصل المعصية شيء وعقاب الإصرار شيء آخر، فيتعدّد العقاب ولا موجب لتداخله، فإن تعدّد المنشأ والسبب يستلزم تعدّد المسبب لا محالة.

ثم إن الغفلة عن الله جلّ جلاله، وعدم الاعتقاد بحضوره تعالى هي من أشدّ الذنوب، والمداومة على هذه الحالة ذنب عظيم، بل هي أُم المفاسد ورأسها، والكتب الإلهية وأنبياء الله تعالى إنما اهتموا لإزالة هذه الحالة وإرجاع العبد إلى الله تعالى، ويتحقّق التوجّه إليه عزّ وجلّ بإتيان الصلاة، فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، كما نطق به التنزيل.

العفو والمغفرة

لا ريب في أن عالم الدنيا متقوّم بالخيالات والأوهام والجهالات، والناس بعيدون عن الحقائق والواقعيات، وموجبات الإغراء بالشهوات كثيرة ومتعدّدة، والآيات الشريفة المتقدّمة ترشد الإنسان إلى أهم الحقائق التي بها يستقيم الفرد وينتظم نظام المجتمع، وحقيقة هذه الآيات ترجع إلى التغافل عن ما يصيب الفرد من المكروه والأذى من الغير، وذل أحبّ الأشياء لديه وهو المال والجاه، وترويض النفس وجعلها تحت إمارة العقل والحكمة، واعتبار الفرد نفسه من أفراد المجتمع وجزءاً لا يتجزّأ منه، بحيث يعتبر ما يكون كمالاً للمجتمع كمالاً له وما يصيبهم من السوء يصيب نفسه.

وقد أكّد عزّ وجلّ إرساء قواعد العفو والمغفرة بين الناس، فإن كلّ فرد أحوج من غيره إلى العفو والمغفرة لما يصدر منه من الذنوب والمعاصي، فبالعفو عن إساءة الغير وبذل ما عنده إليه يدخل في زمرة مَن تخلّق بأخلاق الله تعالى، التي من أهمها بالنسبة إلى الإنسان العفو والمغفرة، فإن الدنيا مزرعة الآخرة، فما يزرع فيها يحصد في الآخرة، وقد فتح الله تعالى باب التوبة والرجوع إليه عزّ وجلّ بأي وجه أمكن، فإن لها جهتان، جهة تكوينية وهي تربية الإنسان، وجهة تشريعية وهي تكثير صفوف المتقين، وقد اهتم الله عزّ وجلّ اهتماماً بليغاً وأعلن في جميع الكتب السماوية ـ خصوصاً القرآن الكريم ـ بأنه الغفور الرحيم، وجهز

بقبول التوبة والدعوة بالرجوع إليه، وهذا هو عين ما يدعو إليه العقل المجرّد، فما ورد في تلك الآيات الشريفة كلّه من الأحكام العقلية النظامية، صدر عن خالق العقل وموجده[١].

(١) م ـ ن، ٣٠٨ ـ ٣٢٧، ج (٦).

التوكّل في القرآن والسُنّة

قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

التفات من خطاب المؤمنين إلى خطاب الرسول الكريم ﷺ، لأن الخطاب يتضمّن اللوم والعتاب لما صدر عنهم في أُحُد، وقد استحقوا بسببه التوبيخ من النبي ﷺ والتعنيف، فقد فعلوا ما أوجب الهزيمة وما يمسّ النبي ﷺ بالاعتراض عليه، فإنّهم قالوا: إنّ النبيّ هو الذي أورد مَن قتل منهم إلى ذلك، ولكن عظمة رحمة الله تعالى التي أنزلها على رسوله الكريم شملت الجميع فخاطب رسوله الكريم لأنه أرسله رحمةً للعالمين، كما قال عزّ شأنه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

وممّا ذكر يظهر أن الفاء في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ﴾ هو لترتيب مضمون الكلام على ما سبق.

والمعروف أن «ما» زائدة جائت مؤكّدة للكلام، وأُدعي الإجماع عليه.

ولكنّه موهون، لأنه ليس في القرآن الكريم حرف زائد، مضافاً إلى ذهاب جمع إلى الخلاف في المقام، وسيأتي في البحث الأدبي ما يتعلّق بذلك.

(١) الأنبياء، الآية ١٠٧.

قال تعالى: ﴿لِنتَ لَهُمْ﴾.

مادة (لَيَنَ) تدلّ على ضد الخشونة والصلابة، وفي حديث أوصاف المؤمنين: «يتلون كتاب الله ليّناً»، أي: سهلاً على ألسنتهم لكثرة تلاوتهم له.

والمعنى: مع كون المؤمنين على ما وصفناهم فبرحمة من الله تعالى عليك ـ حيث جعلك متّصفاً بمكارم الأخلاق ـ لأن جانبك ورؤفت بالمؤمنين وصرت تحتملهم وتعطف علهيم وتعفو عنهم وتشاورهم في الأمر، مع ما هم عليه من اختلاف الآراء والأحوال وما صدر عنهم ممّا أجب اللوم والعتاب والتعنيف وعدم رضا الله تعالى عنهم، وبسبب هذه الرحمة العظيمة التي مَنَّ بها عزّ وجلّ عليهم ـ وبواسطة الفيض ـ دخلوا تحت لوائه واهتدوا بهداه وأُقيم عمود الدين وانتظمت شؤون الإسلام وانقمعت شوكة لكفر والطغيان.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾.

الفظاظة: هي الخشونة والشراسة في الأخلاق.

وغليظ القلب: أي قسيّ القلب، والثاني سبب للأول، فإن غلظة القلب وقساوته سبب للفظاظة، وقدّمها لظهورها في بادىء الأمر. وإنّما أكّد عليهما عزّ وجلّ لأنّه يتبعهما كلّ صفة ذميمة.

والانفضاض: التفرّق، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾(١)، وتستعمل في موارد التفرّق الموجب للسقوط في الهاوية والردى.

---

(١) الجمعة، الآية ١١.

والآية المباركة ترشد إلى أهم ما يجب على الزعيم الروحي أن يتحلّى به وهو نبذ كلّ ما يوجب نفرة الناس منه قولاً أو فعلاً، فإنّه مهما كثرة فضائله وعمت نوائله وفواضله، لكنهم يتفرّقون عنه ويتركونه وشأنه إذا رأوا منه ما يوجب تنفيرهم عنه، فلا ينتظم أمره ولا يستقيم بشأنه وتفوته الغاية التي بعث الأنبياء لأجلها، وهي الهداية والإرشاد والدعوة إلى الطاعة والعبودية.

وهكذا يقرّر الإسلام صفات القائد الإلهي، كالرسول العظيم الذي هو متّصف بمكارم الأخلاق وبالمؤمنين رؤوف رحيم مهتم بإرشادهم وحريص على هدايتهم.

قال تعالى: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾.

بيان لسيرته ﷺ مع المؤمنين وتقريره تعالى لها، وقد أمره عزّ وجلّ بعدم الترتيب على أفعالهم أثر المعصية إذا خالفوه في أمر الجهاد والقتال وما يرجع إلى نفسه المقدّسة، ويطلب لهم من الله تعالى المغفرة في ذلك

قال تعالى: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾.

المشاورة: والمناظرة والمراجعة في أخذ الرأي واستخلاصه من الغير قيل إنّه مأخوذ من شُرتُ العسل إذا اجتباه واستخرجه من موضعه، والاسم الشورى والمشورة بسكون الشين وفتح الواو.

والمراد بالأمر هو ما يهتم بشأنه كالحرب وما يتعلّق بها، كما هو المنساق من الآيات الشريفة، ولا تشمل الآية المباركة أمور الدين وما يتعلّق به أو ما أُنزل فيه الوحي من أمور الدنيا.

يعني: وشاورهم في ما يعرض عليك من الأمور فيما يهتم بشأنه

لمصالح كثيرة، منها استصلاحهم وتطميعاً لهم في الدخول في مكارم الإسلام والتخلّق بفضائل الأخلاق، واستمالة لقلوبهم وتعليماً لأُمّته بعدم تركها في أمورهم. وإلاّ فإنّه ﷺ لم يكن بحاجة إليهم ولم تفده المشاورة ـ علماً أو سداداً أو صلاحاً ـ كيف وهو المسدَّد من قِبل الله تعالى، وقد قال عزّ وجلّ في شأنه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[1]، وعن الحسن بن علي عليه السلام: «قد علم الله أنّه ما به إليهم حاجة ولكن أراد أن يستنّ به من بعده»، وعن ابن عباس عنه ﷺ: «أما إن الله ورسوله لغنيّان عنها ـ أي المشاورة ـ ولكن جعلها الله تعالى رحمة لأمّتي، فمَن استشار منهم لم يعدم رشداً، ومَن تركها لم يعدم غيّاً».

والآية الشريفة تدلّ على إمضاء سيرته عزّ وجلّ مع المؤمنين كالآية السابقة في المشاورة معهم، والله تعالى راض عنه، وقد استشار مع أصحابه في عدّة مواطن، منها: غزوة بدر الكبرى حينما نزل عند أدنى ماء بدر فأشاروا عليه أن ينزل أدنى ماء من القوم. وكاستشارته في غزوة أُحُد عندما كان رأيه أن يبقى في المدينة ويحارب فيها وقد أشاروا عليه الخروج عنها إلى أُحُد.

وكيف كان، فللشورى فوائد جمّة ومصالح كثيرة، وقد وردت روايات كثيرة في مدحها، ففي الحديث عنه ﷺ: «ما تشاور قوم قط إلاّ هُدُوا لأرشد أمرهم»، وعن علي عليه السلام: «لا ظهير كالمشاورة، وما ندم مَن استشار».

قال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾.

إرشاد إلهي بعدم الاتكال على المشاورة.

---

(١) النجم، الآية ٤.

والعزم: عقد القلب والإمضاء على إتيان الفعل بعد المشورة، وعزم قلبه ﷺ إنّما يكون بنور الله تعالى وتسديده له.

والتوكّل على الله: هو تفويض الأمر إليه عزّ وجلّ، فإنّه الأعلم بمصالح العباد وهو يقضي ما يشاء ويحكم ما يريد، والمشورة والفكر وإحكام الرأي وإمضائه لا تكفي في النجاح إلاّ بتوفيق من الله تعالى وتسديد منه، ولا تؤثر الأسباب إلاّ به تعالى، فإن الموانع كثيرة لا يعلمها ولا يقدر أحد أن يزيلها إلاّ الله عزّ وجل.

ومن ذلك يعرف أن التوكّل إنّما يتمّ إذا استحكم الإنسان أمره واستكمل العدّة وراعى الأسباب العادية الظاهرية، ولكن لا يعول عليها ولا يتّكل على حوله، بل على حول الله وقدرته عزّ وجلّ، فلا ينافي التوكّل مراعاة الأسباب العادية.

وللتوكّل فوائد جمّة أيضاً منها: إظهار العجز والعبودية وغيرها، كما يأتي في البحث الأخلاقي إن شاء الله تعالى.

وإنّما أتى عزّ وجلّ اسم الجلالة لبيان أن هذه الذات المستجمعة لجميع الصفات الكمالية تستدعي التوكّل عليه، ولا ينبغي للإنسان أن يتّكل على نفسه، وهو العاجز عن تدبيرها.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

المنقطعين إليه الواثقين به، وإذا أحبّ الله تعالى أحداً كان ولياً وناصراً له ولم يخذله بحال، ومحبّة الله تعالى هي من أعظم الكمالات التي يسعى الإنسان إليها، وهي الخير بجميع معنى الكلمة.

قال تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾.

جملة مستأنفة ترغّب المؤمنين إلى طاعة مَنْ يستمد منه النصر،

وتُحذّرهم عن عصيان مَن يكون عصيانه سبباً للخذلان، والخطاب فيها تشريفاً للمؤمنين يدعوهم إلى التوكّل، ببيان وجه من وجوه الحكمة في وجوب التوكّل على الله تعالى، وهو أن الإنسان إذا استعدّ للعمل وهيّأ مقدّماته على قدر المستطاع وهو لا يعلم عواقب الأمور، فتوكّل على مَن يعلمها ويدبرها على النحو الأحسن، فلا محالة تحصل في نفسه ثقة واطمئنان بتحقّقه، وقد اقتضت حكمته محبّة المتوكّلين عليه ونصرتهم، فإذا نصرهم فلا يغلب أحد عليه.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ يبيّن نفي الجنس بنفي جميع أفراد الغالب ذاتاً وصفة، وهذا أبلغ من قول: «لا يغلبكم أحد»، لأنّه يدلّ على نفي الصفة فقط.

قال تعالى: ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾.

أي: وإن أراد تعالى خذلانكم بسبب معاصيكم وعدم توتكلكم عليه، فلا أحد يملك نصركم بعد خذلانه. والاستفهام إنكاري يفيد نفي التأخير، والكلام في قوله تعالى: ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم﴾ على حدّ قوله تعالى: ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ من نفي الجنس بنفي جميع أفراد الناصرين ذاتاً وصفة.

وإنّما لم يذكر سبحانه النفي صريحاً في هذه الآية المباركة كما ذكره في جواب الشرط الأول، تلطفاً بالمؤمنين، حيث لم يصرّح سبحانه بأنّه لا ناصر لهم، واكتفى بعدم الغلبة لهم، وإن كان هذا يفيد ذلك أيضاً.

قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

أي: أن إيمان المؤمنين يستدعي التوكّل على الله تعالى، فإنّه لا ناصر ولا معين لهم إلاّ هو عزّ وجلّ، المستجمع لجميع صفات الكمال، وهو الذي وعد المؤمنين بالنصر يوفّقهم إلى ذلك وإليه يكون التجاؤهم.

بحوث المقام

بحث أدبي

تقدّم أن المعروف بين المفسّرين أن «ما» في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ﴾ زائدة جاءت مؤكدة، وادعى الطبرسي والزجاج الإجماع عليه.

ولكنّه موهون، لذهاب جمع إلى الخلاف، حيث ذهب جماعة إلى أنها نكرة بمعنى (شيء)، و«رحمة» بدل منها.

وقال جمع آخر: إن «ما» لتفخيم قدر الرحمة التي لان بها لهم، ويرجع هذا إلى قول مَن قال بأنّ (ما) استفهامية للتعجب والتقدير، والتنوين في رحمةٍ للتفخيم، يضاف إلى ذلك أنّه لم يرد شيء في القرآن الكريم إلاّ لمعنى مفيد ولم يكن حرف من حروف القرآن زائدة.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ لبيان ترتيب ما بعدها على ما تقدّم من غلبة المؤمنين، على تقدير نصر الله لهم أو مغلوبيتهم وخذلانه إيّاهم، والعلم بذلك يستدعي قصر التوكّل عليه عزّ وجلّ.

وقد اشتملت الآية الشريفة: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ على أسلوب لطيف وترتيب حسن يقبله الذوق السليم والطبع المستقيم، فقد أمر عزّ وجلّ بالعفو عن الحقوق التي ترجع إلى

نفسه ﷺ، ثم طلب الاستغفار من الله تعالى لهم فيما يتعلّق بحقوقه عزّ وجلّ بالمشورة معهم، ثم أمر بإظهار العبودية لله تعالى وعدم الاعتماد على غيره عزّ وجلّ بالتوكّل عليه تعالى والانقطاع إليه، فإنّه لا ملجأ إلاّ إليه ولا منجا إلاّ به.

بحث دلالي

يستفاد من الآيات الشريفة أمور:

الأول: يستفاد من قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ إلى آخر الآية الشريفة، أن النبوّات السماوية تتقوّم بأمرين:

الأول: المظهرية التامة لأخلاق الله تعالى والمرآتية الكاملة للوحي المبين.

الثاني: اجتماع جميع الجهات الإنسانية في النبيّ من دون نقص فيها.

بالأول يستفيض من الله تعالى، وبالثاني يخالط الناس ويعاشرهم فيفيدهم، وتدلّ على ما قلناه الأدلّة العقلية والنقليّة، قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾(٢)، وقال تعالى حكاية عن الكافرين: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾(٣)، وهذا الأمر لا يختصّ بنبيّ دون آخر، فهو جار في جميع الأنبياء والمرسلين، بل يجري بالنسبة إلى أولياء الله الداعين إليه، المستمدين علومهم من قوله تعالى:

---

(١) الأنعام، الآية ٩.
(٢) الكهف، الآية ١١٠.
(٣) الفرقان، الآية ٧.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾(١)، وأما سيّد الأنبياء وخاتمهم، فمقامه الجمع الجمعي من أجلّ المقامات وأعلاها، ففي كلّ آنٍ له سفران، سفر من الخلق إلى الحقّ المطلق، لأن يأخذ منه الكمالات المعنوية التي بها يربّي العباد تربية حقيقية كاملة، وسفر من الحقّ إلى الخلق، لتربية النفوس المستعدّة، وأسفاره الجسمانيّة وإن كانت محدودة، ولكن أسفاره الروحانية لا تعدّ ولا تحصى، كيف وهو ﷺ يقول: «أبيت عند ربّي يطعمني ويسقيني ربي»، بل قول خليل الله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ * وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾(٢)، يدلّ على أنّ لهم (صلوات الله عليهم) عالماً خاصاً غير ما نحن فيه وإن كانوا يشتركون معنا في كثير من الأمور.

والآيات الشريفة التي تقدّم تفسيرها تدلّ على ما ذكرناه، فهو ﷺ مظهر الرحمة الإلهية وأخلاق الله تعالى، كما أنّه بشر كسائر البشر، وقد أُمر بأن يخالط الناس ويتشاور معهم.

الثاني: الآيات الشريفة تدلّ على أن الرحمة واللّين مع الخلق والتودّد معهم والرحمة لهم من أجلّ صفات الله تعالى، فأفاضها على نبيّه ﷺ، فصارت من سيرته ﷺ، كما أن العفو عنهم، والاستغفار لهم، والمشاورة معهم كانت كذلك، والله سبحانه وتعالى راض عن فعله.

الثالث: يتضمّن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾، على شروط التوكّل على الله تعالى، وهي المخالطة مع الناس بأحسن وجه وتهيئة الأسباب

(١) البقرة، الآية ٢٨٢.
(٢) الشعراء، الآيات ٧٨ ـ ٨٠.

والمقدّمات والمشاورة معهم، وتبيين الوجه الصحيح وعزم النيّة وعقد القلب ثم التوكّل عليه عزّ وجلّ في إصلاح الأمور وإنجاحها، وسيأتي في البحث الأخلاق تفصيل ذلك.

الرابع: يدلّ قوله تعالى: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ على أن الأثر المهم المترتّب على التوكّل على الله هو النصر على الأعداء والظفر بالمراد، ولا يمكن أن يدفع ذلك أحد مهما كانت مرتبته أو عظمت سلطته، لأنّه يدخل في سلطان الله تعالى، وهو القويّ الذي لا يُغلب.

الخامس: يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أن شأن المؤمن أن يتوكّل على الله، ولا ينبغي له التخلّي عنه بعد أن آمن به عزّ وجلّ وعلم بأنّه مسبّب الأسباب، وأن الأمور تحت إرادته ومشيئته، ولا ناصر له غيره عزّ وجلّ، فلا محيص من التوكّل عليه، ولذا كان التوكّل من شأن جميع الأنبياء والمرسلين وأولياء الله الصالحين.

السادس: يدلّ قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ على أن رسول الله ﷺ مثال الإنسانية الكاملة والمرآتية الكبرى لله جلّ جلاله، وقد خلق من رحمته عزّ وجلّ، كما أرسله رحمة للعالمين، فصار ليّناً لهم كما هو شأنه عزّ وجلّ فقد سبقت رحمته غضبه، وعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ قضية فرضية امتناعيّة، كما هو شأن غالب استعمالات كلمة «لو»، فإن صدقها إنّما يكون بصدق لزوم ترتّب الجزاء على الشرط، لا الوقوع الخارجي، فتصدق هذه القضية مع الامتناع للشرط مهما كان ترتّب الجزاء على الشرط لازماً ولو امتنع الشرط.

وكيف كان، فهذا الخطاب البليغ ـ مع إيجازه ـ يبيّن أقصى مراتب الإنسانية الكاملة.

بحث روائي

في الخصال: عن عبد الله بن الفضل الهاشمي، قال: «سألت أبا عبد الله جعفر بن محمد عليه السلام عن قوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ وقوله عزّ وجلّ: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦۗ﴾، فقال عليه السلام: إذا فعل العبد ما أمره الله عزّ وجلّ به من الطاعة كان وفقاً لأمر الله، سمّي العبد موفقاً، وإذا أراد العبد أن يدخل في شيء من معاصي الله فحال الله تبارك وتعالى بينه وبين المعصية فتركها كان تركه لها بتوفيق الله تعالى، ومتى خلّى بينه وبين المعصية فلم يحل بينه وبينها حتّى يركبها، فقد خذله ولم ينصره».

أقول: مثل هذا الحديث يبيّن حقيقة الإيمان وكيفية انسلاخ العبد عنه وبيان مراتب التوفيق له، فيكون كلّ ذلك بمنشأية نفسه والإمدادات الغيبية، فالخذلان من نفس العبد إذا تجرّى على المعاصي، كما أن الوصول إلى المراتب يكون من نفسه أيضاً.

وفي تفسير العياشي: عن علي بن مهزيار: «كتب إليّ أبو جعفر الجواد عليه السلام: أن اسأل فلاناً يشير عليّ ويتخيّر لنفسه، فهو يعلم ما يجوز في بلده وكيف يعامل السلاطين فإن المشورة مباركة، قال الله تعالى لنبيّه في محكم كتابه: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾. فإن كان ما يقول ممّا يجوز كنت أصوب رأيه، وإن كان غير ذلك رجوت أن أضعه على الطريق الواضح إن شاء الله. ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِۖ﴾ قال عليه السلام: يعني الاستخارة».

أقول: الاستخارة من المؤمن من إحدى مراتب التوكّل، لفرض أن المستخير يكل أمره إلى الله تعالى، والمراد من قوله عليه السلام: «ويتخيّر لنفسه» أي: اختيار مورد المشورة لنفسه وبيانه لغيره.

مقام التوكل

التوكّل: فضيلة من الفضائل السامية وخُلق كريم من مكارم الأخلاق وخصلة حميدة، ومنزل شريف من منازل الإيمان، ومقام رفيع من مقامات الموقنين، بل أفضل مقامات الإنسانية الكاملة، به يظهر المؤمن صدق إيمانه وثبات اعتقاده، ويجتمع فيه كثير من الفضائل والخصال الحميدة، فهو قرين الصدق والعز والاستعانة بالله العظيم وغيرها، وبه ينتظم العلم والحال والعمل. وكفى به فضلاً ومنقبة أن الله تعالى يحبّ المتوكلين، وهو من أخلاق الأنبياء العظام، ولمكانته السامية فقد أمر به عزّ وجلّ نبيّه الكريم ﷺ بالتحلّي به في عدّة مواطن من كتابه الكريم، وقد ورد في فضل التوكّل ومدحه والترغيب إليه من الكتاب الكريم والسُنّة الشريفة الشيء الكثير، ونحن نذكر في هذا البحث ما ورد في التوكّل من الفضل، ومعنى التوكّل، وحقيقته، وشروطه، وآثاره.

فضل التوكّل:

قد ورد في مدح التوكّل وفضله والترغيب إليه والحثّ على التحلّي به في الكتاب الكريم والسنّة الشريفة ما يبهر منه العقول.

التوكّل في الكتاب الكريم:

وردت مادة (وكل) في القرآن المجيد على ما يناهز السبعين موضعاً، وغالب استعمالاتها تدلّ على مدحه والترغيب إليه، قال تعالى:

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾(٣).

وقد ورد قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾(٤)، في عدّة مواضع، وكذا قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾(٥)، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٦)، ويستفاد منه أن الإيمان منوط بالتوكّل، وقال تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾(٧)، وهذه الآية المباركة تبيّن حقيقة التوكّل على ما ستعرف.

ويستفاد من الآيات الواردة في شأن الأنبياء أن التوكّل كان من سيرتهم، وأنّه فضيلة مشتركة بينهم، قال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام والذي معه: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾(٨)، وقال تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام: ﴿وَقَالَ يَـٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾(٩)، وقال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ۞ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا

(١) الطلاق، الآية ٣.
(٢) الأنفال، الآية ٤٩.
(٣) آل عمران، الآية ١٥٩.
(٤) آل عمران، الآية ١٦٠.
(٥) إبراهيم، الآية ١٢.
(٦) المائدة، الآية ٢٣.
(٧) الشورى، الآية ٣٦.
(٨) الممتحنة، الآية ٤.
(٩) يوسف، الآية ٦٧.

رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[١]، وقال تعالى حكاية عن شعيب عليه السلام: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾[٢]، وقال تعالى حكاية عن هود عليه السلام: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٣]، وقال تعالى حكاية عن صالح عليه السلام: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[٤]، وقال تعالى حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾[٥]، وقد تحدّث سبحانه وتعالى عن جمع من الرُّسل عليهم السلام وحكى عن شأنهم، وذكر أن التوكّل من عمدة صفاتهم ومن سيرتهم، وهو والصبر قرينان لديهم، قال تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ * وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[٦].

ويكفي من فضله أن الله تعالى قد أمر به نبيّه الكريم صلى الله عليه وآله في مواضع كثيرة من كتابه الكريم، قال تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾[٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا

---

(١) يونس، الآيتان ٨٤ ـ ٨٥.
(٢) الأعراف، الآية ٨٩.
(٣) هود، الآية ٥٦.
(٤) هود، الآية ٨٨.
(٥) يونس، الآية ٧١.
(٦) إبراهيم، الآيتان ١١ ـ ١٢.
(٧) النساء، الآية ٨١.

هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[٢]، والمستفاد من جميع ذلك أن التوكّل فضيلة سامية، وأنّه من أعلى مقامات التوحيد، وهو يدلّ على كمال إيمان المؤمنين، ولذا كان من صفات الأنبياء الكرام والمؤمنين المخلصين، بل هو توحيد عملي يكشف عن درجة الإيمان وشدّة اعتمادهم على الله عزّ وجلّ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[٣]. ويستفاد منه أن التوكّل أجلى برهان وأحكم علامة على ثبات عقيدة المؤمن ورسوخ التوحيد في قلبه، لأنّه لا يرى لغيره عزّ وجلّ سلطة وشأناً، فهو خاضع له يطلب منه وحده تهيئة الأسباب وتدبيرها، قال تعالى في الشيطان: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[٤]، وسيأتي مزيد بيان.

التوكّل في السنّة الشريفة:

وردت أحاديث كثيرة عن نبيّنا الأعظم ﷺ والأئمة الهداة عليهم السلام تدلّ على فضل التوكّل على الله، وجميعها ـ سواء القولية والفعلية ـ تحكي سيرتهم التي تدلّ على شدّة اعتمادهم على الله تعالى وتفويضهم الأمر إليه وتحريض الناس عليه، ففي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن انقطع إلى الله عزّ وجلّ كفاه الله كلّ مؤونة ورزقه من حيث لا يحتسب، ومَن انقطع إلى الدنيا وكّله الله إليها».

---

(١) التوبة، الآية ١٢٩.
(٢) آل عمران، الآية ١٥٩.
(٣) الأنفال، الآية ٢.
(٤) النحل، الآية ٩٩.

وقال ﷺ: «لو أنّكم تتوكّلون على الله حقّ توكّله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً».

وقال ﷺ: «مَن سرّه أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يده».

وروي عن الصادق عليه السلام: «أوحى الله تعالى إلى داود: ما اعتصم عبد من عبادي بي من خلقي عرفت ذلك من نيّته، ثم تكيده السماوات والأرض ومَن فيهن، إلاّ جعلت له المخرج من بينهنّ، وما اعتصم عبد من عبادي بأحد من خلق عرفت ذلك من نيّته إلاّ قطعت أسباب السماوات والأرض من يديه وأسخت الأرض من تحته، ولم أُبال بأي وادٍ هلك».

وعنه عليه السلام: «أن الغنى والعزّ يجولان، فإذا ظفران بموضع التوكّل أوطنا».

وعن الكاظم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ قال: «التوكّل على الله على درجات، منها أن تتوكّل على الله في أمورك كلّها، فما فعل بك كنت عنه راضياً، تعلم أنّه لا يألوك خيراً وفضلاً، وتعلم أن الحكم في ذلك له، فتوكّل على الله بتفويض ذلك إليه وثق به وفي غيرها».

وقال الصادق عليه السلام: «مَن أُعطي ثلاثاً لا يمنع ثلاثاً، من أُعطي الدعاء أُعطي الإجابة، ومَن أُعطي الشكر أُعطي الزيادة، ومَن أُعطي التوكّل أُعطي الكفاية، ثم قال: أتلوت كتاب الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، وقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾». إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة الدالّة على فضل التوكّل ومدحه والترغيب إليه، وإنّه خُلق كريم يجب على المؤمن التحلّي به، ويدلّ عليه العقل أيضاً.

معنى التوكّل:

التوكّل مشتق من الوكالة، يقال: وكّل فلان الأمر إلى غيره، أي: فوّضه إليه واكتفى به لاعتماده عليه أنّه ينجزه ووثق به، ويسمّى المفوّض إليه متّكلاً ومتوكّلاً عليه.

وأمّا الوكيل: فإنّه فعيل يأتي بمعنى المفعول ـ وهو الذي يوكّل الأمر إليه أو موكول إليه الأمر، ويأتي بمعنى الفاعل فيكون بمعنى الحافظ والناصر والرقيب والمطّلع، لأنّه الذي يرعى الأمور ويحفظها ويتعهّدها وينصر مَن يركن إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾(١)، ولأنه هو الذي يتعهّد الأمور التي وكّلت إليه من عباده، وناصره وحافظه، والاسم التكلان (بضم التاء).

وإذا رجعنا إلى اللغة نرى أن التوكّل تارة يُطلق ويراد منه التولّي للغير، يقال: توكّلت لفلان، إذا صرت وكيلاً عنه وتولّيت له، ومنه الوكالة (بفتح الواو) أو (بالكسر على لغة)، وهي الوكالة المعروفة في الفقه. ويُطلق أخرى ويراد به الاعتماد على الغير والوثوق به.

والتوكّل على الله تعالى هو تفويض الأمر إليه عزّ وجلّ والاكتفاء به، ويشبه التوكّل التفويض من هذه الجهة، فهما يشتركان في تسليم الأمر إليه عزّ وجلّ، قال تعالى حكاية عن شعيب: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾(٢)، أي: أسلّم الأمور إليه عزّ وجلّ فهو الذي يكفيكها، وفي الحديث: أن النبي ﷺ كان يدعو فيقول: «اللهم إنّي أسلمت نفسي وفوّضت أمري إليك».

---

(١) آل عمران، الآية ١٧٣.

(٢) غافر، الآية ٤٤.

لكن التوكّل يزيد على التفويض في أنّه يتضمّن طلب النصرة منه، والوثوق بأنّه ينجزها، ويحفظ مَن يكل إليه أمره، والرضا بفعل الله عزّ وجلّ بعد الاعتراف بالعجز ولقصوره أمام عظمته وكبريائه.

حقيقة التوكّل

التوكّل على الله تعالى هو الاعتماد عليه عزّ وجلّ قلباً واطمئنان النفس به والوثوق بأنه لم يهمله، بعد الاعتراف بعجز الإنسان أمام قدرته وعلمه وإحاطته وقيموميته، والاعتقاد بأنّه تعالى هو الفاعل لا غيره، وأن لا ربّ غيره، فيعلم علماً قطيعاً بأنّه لا حول ولا قوة إلاّ بالله، يضع الأشياء في مواضعها بحكمته، وهو القادر على كل شيء في السماوات والأرض.

ومن ذلك يظهر السرّ في ذكره عزّ وجلّ العزّة والحكمة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، لأن الاعتقاد بأنّه حكيم يضع الأشياء في مواضعها، وعزيز قادر لا يمتنع عليه شيء إذا أراد فلا محالة يذعن المؤمن بأنه تعالى ناصره ومعينه وهو حسبه وكافيه، ويحصل له الاعتقاد بأن كل ما يسوقه إليه ربّه هو طيّب وكريم وحسن وخير ويعتمد عليه في جميع أموره، وتحصل الثقة بالله العظيم فيتوكّل عليه عزّ وجلّ.

فالتوكّل إنّما هو ارتباط عالم الشهادة المتناهية من كلّ جهة، بعالم الغيب غير المتناهي كذلك، ولذا نرى أنّه والتوحيد قرينان لا يتحقّق أحدهما من دون الآخر، فمَن لا توحيد له لا توكّل له، ومَن لا توكّل له لا إيمان له، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

بل يمكن أن يقال بأن التوكّل طريق لمعرفة إيمان المؤمن، بل هو محقّق له، لأنّه لا يرى لغير الله تعالى أثراً، فالجميع مسخّر تحت إرادته، وإنّما جعل لها نظاماً معيناً أقام أمور العالم به، فتجري وفق قانون الأسباب والمسبّبات خاضعة له لا تتخلّف عنه، إلا أنّها عاجزة عن أي نفع وضرر، لأنّها لا تفعل شيئاً إلا بإرادته ومشيئته عزّ وجلّ، والمؤمن يذعن بهذا النظام الذي أقام الله تعالى هذا العالم به، ويطلب كلّ شيء عن طريق سببه ويعمل ويكافح على إيجاد الأسباب الظاهرية المنوطة بها المسبّبات ويطلبها وفق ما أمره الله تعالى طلباً تكوينياً أو تشريعياً، ولكنّه يعترف بالعجز أمام قدرة الله تعالى ويذعن بالجهل أمام المقادير التي قدّرها عزّ وجلّ، ويعلم بأن الأسباب الظاهرية التي عمل لأجلها شيء والمقادير والقضاء والقدر والأسباب الخفية التي يجهلها شيء آخر، وجميعها خاضعة له عزّ وجلّ، مسخّرة أمام إرادته ومشيئته، وهو عاجز عنها فيوكّل أمره إليه معتقداً بأنّه حسبه وناصره ومعينه.

ومن جميع ذلك يعلم بأن التوكّل لا ينافي الأسباب الظاهرية، بل الاعتقاد بها والعمل عليها من جملة أساسيات فضيلة التوكّل. ويدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[1].

ويستفاد من هذه الآية الشريفة أمران:

الأول: أن الإنسان لا يمكن له التغاضي عن متاع الحياة الدنيا الذي هو من نِعَم الله تعالى عليه، فهو الذي يقضي به مآربه ويحقّق مقاصده ويعيش عليه في هذه الحياة الدنيا، وأما ما عند الله فهو خير من هذا المتاع

(١) الشورى، الآية ٣٦.

القليل في الكمية والكيفية، وإنّما جعل الله هذه الدنيا وسيلة لنيل ما هو أعظم منها، ولا يمكن تحصيل هذا المتاع إلاّ بأسباب خاصة معروفة يجري عليها نظام هذا العالم، فالتوكّل على الله تعالى والاعتماد على الأسباب الظاهرية قرينان، بل هي من طرق تحصيل التوكّل عليه عزّ وجلّ كما عرفت، ويدلّ عليه قوله ﷺ: «اعقلها ثم توكّل».

الثاني: أن التوكّل من شروط الإيمان الصحيح، بل هو من أعلى مقامات التوحيد، فإنّه التوحيد العملي الذي اعتنى به الله تعالى في كتابه الكريم واهتمّ به الأنبياء والمرسلون، فهو يبيّن الجانب العملي في الإيمان، لأنّ التوكّل وظيفة من وظائف القلب، فإنّ به تطمأن النفس ويسكن القلب، وبه يدخل المؤمن تحت الآية المباركة: ﴿يأيتها النفس المطمئنة * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾[(١)].

وبالجملة: لما كن هذا العالم متقوّماً بالأسباب والمسبّبات الطولية والعرضية، ولا بد من انتهاء تلك إلى سبب غيبي وربوبية عظمى لا يعقل فوقها ربوبية وقيمومية كبرى ليس وراءها قيم أصلاً، فيكون الجميع مسخّراً تحت إرادته ومشيئته التامة، فلا الماديات تعوق مشيئته ولا التكثّرات تمنع قهّاريته، ولا ريب في تحقّق ما ذكر في هذا النظام الأحسن، وآثار عظمته وإبداعه ووحدانيته ظاهرة في كلّ شيء، والتوحيد عبارة عن الاعتقاد بهذه الحقيقة، والتوكّل هو الاعتماد على مدبّر هذا العالم وخالقه وصانعه، فإن طابق الاعتقاد مع الواقع على ما هو عليه تتجلّى حقيقة التوكّل وإلاّ فلا توكّل.

ومن ذلك يظهر السر في ما ورد عن الأئمة عليهم السلام: «أن قول القائل:

---

(١) الفجر، الآيات ٢٧ ـ ٣٠.

لولا أن فلاناً لهلكت، شرك، قيل له عليه السلام: فكيف نقول؟ قال عليه السلام: تقول لولا أن مَنَّ الله عليَّ بفلان لهلكت»، كما يظهر السرّ في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[1]، فالتوكّل الحقيقي هو الاعتقاد باستناد الكلّ إليه عزّ وجلّ وانبعاث الجميع منه تعالى، ويستلزم ذلك الاعتقاد بتسبيب الأسباب والسعي في تحصيلها، فإنّ التوكّل بدون ذلك لا ثمرة فيه، بل هو لغو وباطل، فترجع حقيقة التوكّل إلى إرجاع الأمور ـ لا يتعلق بها عقولنا من تحصيل المقتضيات ـ إلى الله تعالى، لأنّه مسبّب الأسباب ومسهّل الأمور الصعاب.

ومن ذلك كلّه يظهر أن التوكّل عنوان التوحيد وهو داع إليه، فهما متلازمان، وبه ينتظم حال الإنسان وعلمه وعمله. وبما ذكرناه يرتفع الغموض من حيث أن ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك في التوحيد، والتباعد عنها خلاف طريقة العقل والشرع، والتوكّل يرفع الغموض والعسر عن ذلك كلّه.

(١) يوسف، الآية ١٠٦.

شروط التوكّل

للتوكّل على الله تعالى شروط لا يتحقّق إلاّ بها، تظهر من التمعّن في ما ذكرناه في حقيقة التوكّل، وهي:

الأول: الاعتقاد بالله تعالى وأنّه الربّ القيوم المدبّر لجميع ما سواه، وأنّه العزيز لا يمنعه شيء، الحكيم الذي يضع الأشياء في مواضعها وفق إرادة وعلم بجميع الخصوصيات.

الثاني: الاعتقاد بأنّه لا فاعل في هذا العالم إلاّ الله تعالى، وأن ما سواه مربوب له ومقهور تحت قهّاريته العظمى، فهو الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد.

الثالث: الإذعان بأن هذا العالم ينتظم بقانون خاص لا يمكن التخلّف فيه، وأن الله تعالى هو الذي جعل هذا القانون، وهو قانون الأسباب والمسبّبات، ولا يمكن فيه التغيير والتبديل ولا التخطّي عنه.

الرابع: تحصيل الأسباب والمعدّات والمقتضيات التي تقع تحت تصرّف الإنسان، والسعي في تهيئتها وإعدادها، وأمّا غيرها من الأمور الخفية التي لا يعلمها إلا الله تعالى، فلا بد من الرجوع فيها إليه تعالى والتضرّع لديه في تحقيقها.

الخامس: حسن الظن بالله تعالى واستسلام القلب له عزّ وجلّ، والخضوع لديه في رفع الموانع والعوائق في ترتّب النتيجة على المقدّمات والمسبّب على الأسباب.

السادس: أن يكون التوكّل على مَن يكون قادراً على جميع الأمور ومستجمعاً لجميع الشرائط، وهو ينحصر في الله تعالى، قال عزّ وجلّ في عدّة موارد من كتابه الكريم: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾(١)، وقال تعالى محكياً عن المؤمنين: ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾(٢)، فينحصر التوكّل عليه عزّ وجلّ قال سبحانه: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾(٣).

السابع: تفويض الأمر إلى الله تعالى وتوكيله في جميع الأمور والشؤون، فإنّه القادر على تحقيقها، يضعها وفق حكمته المتعالية، لأنّه العالم بحقائق الأمور وجميع خصوصياتها.

وإذا تحقّقت جميع هذه الشروط تحصل للإنسان راحة نفسية واطمئنان قلبي، فتحصل له حالة التوكّل عليه عزّ وجلّ ويدخل في زمرة المتوكّلين الذين يحبّهم الله تعالى، كما ورد في جملة من الآيات الشريفة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾(٤)، وقال عزّ وجلّ: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٥).

(١) الأحزاب، الآية ٣.
(٢) آل عمران، الآية ١٧٣.
(٣) النساء، الآية ٨١.
(٤) آل عمران، الآية ١٥٩.
(٥) المائدة، الآية ٢٣.

درجات التوكّل

للتوكّل درجات ومنازل تختلف حسب شدّة اليقين وضعفه، وحسب كثرة الأمور المتوكّل فيها وقلّتها، وهي:

الأولى: أن يكون المتوكّل على درجة كبيرة من اليقين والثبات في العقيدة والخضوع والطاعة لله تعالى، بحيث لا يرى شيئاً إلاّ يرى الله تعالى معه يثق بكرمه وعنايته، ويعبّر بعض علماء الأخلاق عن هذه الدرجة بتوكّل خاص الخاص، وفي هذا المنزل يفوّض المتوكّل جميع أموره إلى الله تعالى ويرضى بحكمه، فيكون بين يديه تعالى كالميّت الملقى بين يدي الغاسل، ولعل الآية المباركة تشير إلى هذه الدرجة: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا * وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾[1]، فإن مَن اتقى الله تعالى ووثق به عزّ وجلّ وتوكّل في جميع أموره عليه عزّ وجلّ، اطمأنت نفسه بأنّ الله ناصره وهو حسبه، وهذه المرتبة عزيزة الوجود في الناس وتختصّ بالأنبياء وأولياء الله تعالى المخلصين له، وقد حكى الله جلّ شأنه عن الأنبياء والمرسلين في كتابه الكريم ما يشهد لذلك.

الثانية: أن لا يكون على الدرجة من اليقين والثبات في العقيدة والاطمئنان بما قسمه الله تعالى لعباده، ولكن يعتمد في أموره على الله

(١) الطلاق، الآيتان ٢ ـ ٣.

تبارك وتعالى، يفزع إليه ويعتمد عليه ولا يترك الدعاء والتضرّع في كلّ مسألة وأمر، مثل الصبي الذي يفزع إلى أُمّه ويتعلّق بها وقد فنى في أُمّه ولا يرى غيرها، وفي هذه الحالة يفنى المتوكّل في الموكّل عليه ولا يلاحظ الواسطة، ويعبّر بعض علماء الأخلاق عن هذه الدرجة بتوكّل الخواص.

وتفترق هذه الدرجة عن الدرجة السابقة في أن المتوكّل في الأولى لا يرى شيئاً إلاّ الله تعالى قد وثق بكرمه ولطفه وعنايته، فربما يترك الدعاء والمسألة وثوقاً منه به عزّ وجلّ في قضاء الحوائج، كما قال إبراهيم الخليل عليه السلام: «حسبي من سؤالي علمه بحالي»، وفي هذه الدرجة لا يترك الدعاء والمسألة والتضرّع، وإلى هذه الدرجة يشير قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[1]، فقد توكّلوا في جميع أمورهم عليه عزّ وجلّ وأفنوا جميع حيثياتهم في الله تعالى وقد أعرضوا عن غيره.

الثالثة: أن يكون كثير الاعتناء بالأسباب، فيرى للتدبير والاختيار في تهيئة الأمور الأثر الكبير ولكن لا يترك التوكّل عليه عزّ وجلّ، وهو يعتمد على توكّله ويلتفت إليه دائماً في أموره لا يغضّ النظر عنه، وهذا هو الشغل الصارف عن الموكّل إليه، ولأجل ذلك اختلفت هذه الدرجة عن سابقتها في أن المتوكّلين في الدرجة الثانية يعتمدون على المتوكّل عليه وحده، كما يعتمد على التضرّع لديه بالدعاء والابتهاء إليه عزّ وجلّ، وإلى هذه الدرجة يشير قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[2].

وتختلف أيضاً عن السابقة في أن هذه الحالة قد تدوم أياماً كثيرة أو

(١) آل عمران، الآية ١٥٩.
(٢) آل عمران، الآية ١٦٠.

في جميع الحالات لدى المؤمنين، بينما في الدرجة الثانية لا تدوم إلاّ أياماً قليلة.

وقد عبّر بعض العلماء (رحمة الله تعالى عليه) عن هذه الدرجة بتوكّل العامي، وربّما يكون توكّلهم في جميع الأمرو وربما يكون في بعضها.

وبالجملة: أن درجات التوكّل تختلف باختلاف قوة الإيمان بالله عزّ وجلّ والاعتقاد به تعالى وتفويض الأمور إليه والتسليم بقضائه وقدره والرضا بما قسمه على عباده، كما أنّها تختلف باختلاف تفويض جميع الأمور أو بعضها وشدّة الاعتماد على الأسباب وقوّة الاعتقاد بها.

آثار التوكّل

إذا حصل التوكّل على الله تعالى فإنّه يخلّف آثاراً كبيرة على المتوكّل، نحن نذكر بعضاً منها:

الأول: التوكّل يحقّق الإيمان ويزيد فيه ويثبت دعائمه في المؤمن، ويثبّت عقيدة التوحيد في قلبه، قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[١].

الثاني: التوكّل سبب إلى النصر والفوز بالمراد، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[٢].

الثالث: التوكّل يفتح أمام صاحبه طريقاً إلى الجنة فيدخل ويُرزَق فيها بغير حساب، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ * ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[٣].

الرابع: أن التوكّل يورث محبّة الله تعالى والرضا الإلهي للمتوكّل، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[٤]، وكفى بذلك فخراً.

---

(١) المائدة، الآية ٢٣.
(٢) الطلاق، الآية ٣.
(٣) العنكبوت، الآيتان ٥٨ ـ ٥٩.
(٤) آل عمران، الآية ١٥٩.

الخامس: التوكّل يجعل كلّ ما يسوقه الله تعالى إلى العبد حسناً طيباً وخيراً.

السادس: التوكّل يورث الاطمئنان في قلب المتوكّل والراحة في نفسه.

هذا موجز ما أردنا أن نذكره في هذه الفضيلة الكبيرة، وهو غيض من فيض، فإن كلّ ما يقال في هذا الخلق الكريم قليل، وكفى بذلك داعياً في التخلّق بهذه الفضيلة والمسارعة إلى هذا الخير العظيم[١].

(١) م ـ ن، ٦ ـ ٢٦، ج (٧).

الذنوب الكبيرة

﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾.

الآية الشريفة على إيجازها البليغ وأسلوبها البديع تشتمل على الترغيب والترهيب والوعد والوعيد والأمل والرجاء بالسعادة، فهي تدلّ على وجوب الاجتناب عن المناهي، التي يوجب ارتكابها الشقاوة والعذاب العظيم.

كما أنّها تدلّ على أنّ الارتداع عن الكبائر المنهيّة يوجب الدخول في النعيم الأبدي، ويستلزم السعادة الحقيقيّة، ولا يخفى ارتباطها بما قبلها من الآيات التي تضمّنت جملة من الأحكام الشرعية والمناهي الإلهيّة التي شرّعها الله تعالى لأجل مصالح الإنسان.

التفسير

قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾.

الاجتناب أبلغ من الترك؛ لأنّه ملحوظ فيه النفور والاشمئزاز، وهو مأخوذ من الجنب الذي هو الجارحة. وإنّما بني عنه الفعل على سبيل الاستعارة، فإنّ الإنسان إذا أعرض عن شيء تركه جانباً، والاجتناب هو الابتعاد عن الشيء وملازمة تركه، وقد وردت هذه الكلمة في القرآن

الكريم في أربعة عشر موضعاً كلّها تدلّ على أهمية المنهي عنه كالطاغوت، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾(١).

والرجس، قال تعالى: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ﴾(٢).

وقول الزور، قال تعالى: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾(٣).

وعبادة الأصنام، قال تعالى: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾(٤).

والنّار، قال تعالى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾(٥).

وسوء الظنّ، قال تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ﴾(٦).

والتجنّب تارة يحصل بالنسبة إلى الشيء قصداً وفعلاً دائماً من أوّل التميز إلى حين الموت.

وأخرى: بالنسبة إلى القصد فقط دون العمل، بأن يقصد الاجتناب عن الكبائر مطلقاً، ولكن يتفق صدور بعضها عنه غفلة.

وثالثة: يكون اجتناباً عرفياً، بحيث يصدق على الشخص أنّه مجتنب عرفاً، فيكون له وللارتكاب مراتب متفاوتة.

ومقتضى القواعد الشرعية ـ وهو الموافق لسعة رحمته تبارك وتعالى ـ اعتبار الأخير، ولكن مقتضى الجمود على ظاهر اللفظ هو الثاني.

---

(١) النحل، الآية ٣٦.
(٢) الحج، الآية ٣٠.
(٣) الحجر، الآية ٣٠.
(٤) إبراهيم، الآية ٣٥.
(٥) الليل، الآية ١٧.
(٦) الحجرات، الآية ١٢.

والكبائر: جمع كبيرة، وهي الصغيرة من الأمور الإضافية. والآية الشريفة تدلّ على أنّ المعاصي قسمان كبيرة وصغيرة، والأولى هي الفعلة القبيحة من الذنوب المنهي عنها شرعاً، العظيم أمرها كالقتل، والزنا، والفرار من الزحف ونظائرها.

وإن كانت المعاصي كلّها تشترك في أصل المخالفة والعصيان على الله تعالى فهي كبيرة من هذه الجهة، فإنّ ذلك مقياس الذنب بين الإنسان المربوب المخلوق الضعيف، وبين الله تعالى الذي لا منتهى لعظمته وسلطانه، فلا فرق في أفراد المعاصي حينئذٍ.

وهنا لا ينافي كونها تتصف بالكبيرة والصغيرة إذا لوحظت فيما بينها كما هو الشأن في الأمور الإضافية، فإنّ كبر المعصية يدلّ على أهمية النهي عنها وعظم المخالفة، إذا قيس بالنسبة إلى النهي عن الآخر.

فهما وصفان للمعاصي والآثام والذنوب، وفي المقام حذف الموصوف وأُقيم الوصف مقامه، وإن الصغر والكبر من المبينات العرفيّة، وبهذا المعنى العرفي وقع في الكتاب والسنّة واصطلاح العلماء في علمي الفقه والأخلاق، فالنظر إلى الأجنبية مثلاً صغيرة إذا قيس إلى سائر الاستمتاعات بها، والمخالفة في الثاني أعظم وأكبر من المخالفة في الأوّل، ويدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿مَا نُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾، فإنّ المستفاد منه اختلاف المناهي في العظمة والأهمية، ولا بد من استفادة الأهمية من الشرع أيضاً.

وقد ذكر العلماء (قدس الله أسرارهم) طرقاً كثيرة، وأهمّها ما ذكره في الفقه وهو: أنّ كل ذنب أوعد عليه بالنار، أو تعدّد الخطاب فيه، والنهي عن الإصرار والتكرار.

وهذا هو المقياس في تحديد الكبائر في الإسلام، وربّما تكشف النصوص بعض الكبائر وتنصّ عليها بأنّها كبيرة، فتكون غيرها بالنسبة إليها صغيرة. وقد ذكر العلماء في تعريف الكبائر والصغائر وتمييز كلّ واحدة منها عن الأخرى وجوهاً، سيأتي في البحث الأخلاقي في ما يتعلّق بذلك.

وربّما يتوهّم أن الإضافة في قوله تعالى: ﴿كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ بيانيّة، فتدلّ الآية الكريمة على اجتناب جميع المعاصي، وتكون معنى الآية المباركة حينئذٍ: إن تجتنبوا المعاصي جميعاً نكفّر عنكم سيئاتكم، ولا سيئة مع اجتناب المعاصي، فتكون من قبيل السالبة المنتفية بانتفاء الموضوع.

ويردّ عليه أنّه خلاف ظاهر الآية الشريفة، إلا أن يقال: إنّه يرجع إلى تكفير سيئات المؤمنين قبل نزول الآية المباركة.

وفيه: أنّه يلزم تخصيص الآية الشريفة بمَن حضر عند النزول، وهو خلاف ظاهر الآية الكريمة أيضاً.

قال تعالى: ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾.

مادة (كفر) تدلّ على الستر، وكفّر الشيء إذا غطاه، ويقال للفلاح: كافر، لأنّه يكفر البذر، أي: يستره، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾[1]، ومنه كفر النعمة والإحسان إذا غطّاها بترك الحمد والشكر عليها أو جحدها، وفي الحديث: «رأيت أكثر أهل النّار النساء لكفرهن، قيل: أيكفرن بالله؟ قال: لا، ولكن يكفرن الإحسان ويكفرن العشير»، أي: يجحدن إحسان أزواجهن ويسترنه، ومنه سمّي الكافر

(١) الحديد، الآية ٢٠.

أيضاً؛ لأنّه كفر بالصانع والمبدأ، وكفّر الله عنه الذنب، إذا ستره ومحاه عن العبد.

وقد وردت هذه المادة في القرآن الكريم في ما يزيد عن خمسمائة مورد، أغلبها استعملت في مورد الكفر بالله والأنبياء واليوم الآخر.

ولكن ذكر التكفير عن السيئات في القرآن الكريم ورد في نحو ثلاثة عشر مورداً متعدياً بكلمة (عن).

والمستفاد من موارد استعماله في القرآن الكريم أنّ المراد منه العفو عن السيئات وحطّ وزرها عن المسيء، والإحباط نقيضه التكفير، وإنّما يتحقّق بفعل الطاعات وترك الكبائر، فيكون تكفير السيئات حينئذٍ من الله جلّت عظمته محو الذنب وإسقاطه بالمرّة، فلا يضرّ فعله بالعدالة إلا بالإصرار على الصغائر، فيكون من الكبائر، فلا يتحقّق حينئذٍ شرط التكفير وهو الاجتناب عن الكبائر، وهذا من أحسن التدبيرات الإلهيّة في عباده، حيث لا يبعدهم عن رحمته الواسعة بمجرّد ارتكاب المخالفة.

نعم، الإصرار إنّما يتحقّق بعدم تخلّل التوبة بين ارتكاب صغيرة وصغيرة أخرى، وإما مع تخلّلها، فلا موضوع حينئذٍ للإصرار.

ثمّ إنّ السيئات جميع السيئة، وقد أُطلقت في القرآن الكريم على معانٍ، منها كلّ ما يكرهه الإنسان ويسوؤه، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾[2].

ومنها: نتائج المعاصي والآثام، سواء كانت دنيوية أم أُخروية، قال

---

(١) النساء، الآية ٧٩.

(٢) الرعد، الآية ٦.

تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾[١]، وقال تعالى: ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾[٢].

ويمكن إرجاع هذا المعنى إلى الأوّل أيضاً، فإنّ تلك الآثار قد جلبها الإنسان على نفسه بسبب ارتكابه المحرّمات والمعاصي، وهي تسؤه في الدنيا أو الآخرة.

ومنها: مطلق المعصية، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[٣]، والإطلاق فيه يشمل الكبائر والصغائر.

وأما السيئات في الآية الشريفة: ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾، فإن لوحظت مقابلتها للكبائر، تنحصر لا محالة في الصغائر، وإن لوحظت سعة رحمته جلّ شأنه وسعة تكفيره وغفرانه، تعمّ الكبائر أيضاً، فيراد حينئذٍ بقوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾، صرف وجود الكبيرة، وإنّما أتى عزّ وجلّ بالجمع باعتبار جميع أفراد الناس، ومقتضى الجمود على ظاهر اللفظ هو الأول، ولكن مقتضى ما ورد في سعة رحمته عزّ وجلّ غير المتناهية هو الثاني، ويقتضيه ظاهر الامتنان في الآية المباركة، خصوصاً مع ما ذكره الفقهاء وعلماء الأخلاق من إنهاء الكبائر إلى سبع وسبعين، التي لا يخلو عنها غالب الناس، وما ورد عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «من الجمعة إلى الجمعة كفّارة من الذنوب»، وما ورد في غفران شهر رمضان، وما ورد في الغفران في يوم عرفة، قال عليه السلام: «ما

---

(١) النحل، الآية ٣٤.
(٢) الزمر، الآية ٥١.
(٣) الجاثية، الآية ٢١.

وقف بهذه الجبال أحد إلا غفر الله تعالى له، من مؤمن الناس وفاسقهم»، وغير ذلك ممّا ذكرناه في مبحث التوبة.

وكيف كان، فالآية الكريمة تدلّ على انقسام المعاصي إلى الكبائر والصغائر، سواء أكان الانقسام بحسب ملاحظة نفس المعاصي بعضها مع بعض، أم بحسب ملاحظة صدورها من الفاعل، فربّما يكون بعض الصغائر بالنسبة إلى شخص كبيرة وبالنسبة إلى شخص آخر صغيرة، كما ورد: «حسنات الأبرار سيئات المقرّبين».

قال تعالى: ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾.

المدخل ـ بضم الميم وفتح الخاء ـ والمعروف أنّه اسم مكان، والمراد به في الآية الشريفة الجنّة، فيكون منصوباً على الظرفيّة، وقيل: إنّ مصدر منصوب، فيكون مفعول ﴿ندخلكم﴾ الجنة ادخالاً.

وقيل: إنّه منصور بفعل مقدّر، والأصحّ هو الوجه الأول.

وكيف كان، فالمراد به الجنّة التي وعدها الله تعالى للصالحين.

والكريم: هو الحسن الطيب، ومن أسمائه جلّ شأنه «الكريم»، أي: الجواد المعطي الذي لا ينفد عطاؤه، فهو الكريم المطلق، والكريم الجامع لأنواع الخير والشرف والفضائل، فلا حدّ لكرمه ولا يمكن عدّ نعمائه.

وقد وصف عزّ وجلّ ذلك المكان به أيضاً، قال تعالى: ﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾[1]، والمقام الكريم ذلك المقام الذي يسعد الداخل فيه بحسن الثناء وعظيم النعمة، ويتّصف به الرزق أيضاً، قال تعالى: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ

(١) الدخان، الآية ٢٦.

كَرِيمٌ﴾[١]، كما يتّصف به الرسول أيضاً، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾[٢]، ويتّصف به غير ما ذكر كما ورد في الآيات الشريفة.

والمعنى: وندخلكم الجنّة في الآخرة التي يكرم بها مَن يدخلها فيسعد فيها، فإنّ الجنّة لا يدخلها أحد إلا بعد التطهير من الدنس ورذائل الصفات، قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾[٣].

وفي إضافة الإدخال إلى ذاته المقدسة فيها غاية اللطف ونهاية العناية وكمال المحبّة، حيث إنّه تعالى بعد المخالفة وكفران السيئات باجتناب الكبائر يدخل العبد مدخلاً كريماً.

---

(١) الحج، الآية ٥٠.
(٢) الحاقة، الآية ٤٠.
(٣) الأعراف، الآية ٤٣.

بحوث المقام

بحث دلالي

تدلّ الآية الشريفة على أُمور:

الأول: أن الآية المباركة بأسلوبها الجذّاب الدال على اللطف والحنان والمحبّة، وسياقها الظاهر في الزجر عن ارتكاب المعاصي والمتضمّن للوعد للتائبين بعظيم الجزاء ـ تدلّ على أنّ المنهي في الشريعة منه ما هو كبير ومنه ما هو صغير، والمستفاد منها أن المقياس في الكبائر والصغائر هو نسبة بعضها إلى بعض حيث جعل عزّ وجلّ الكبائر مقابل السيئات، ولم يبين سبحانه وتعالى الوجه في تشخيص كون المعصية كبيرة أو صغيرة، وقد تعرّضت السنّة الشريفة إلى بيان المقياس في ذلك، وسيأتي في البحث الأخلاقي في تفصيل ذلك.

والآية المباركة ردّ على مَن زعم أن المعاصي كلّها كبائر، حتى قال بعضهم: إنّه لا يمكن أن يقال في معصية إنّها صغيرة إلا على معنى أنّها تصغر عند اجتناب الكبائر، فالمعاصي كلّها كبائر، وهذا اجتهاد منهم في مقابل النص، إلا أن يراد أنّها كبيرة بالنسبة إلى أصل المخالفة وعصيان الله تعالى وعظمته عزّ وجل، كما عرفت آنفاً، وأشار إلى ذلك بعضهم فقال: إنّهم كرهوا تسمية المعصية صغيرة، نظراً إلى جلال الله تعالى وعظمته وشدّة عقابه، فإنّ المعاصي إذا لوحظت بالنسبة إليه تعالى كبيرة.

وما ذكره مسلّم لا إشكال فيه ولم ينكره أحد، إلا أنّ الكلام في مفاد الآية الشريفة بعد تقسيمها للمعاصي إلى الكبيرة والصغيرة.

الثاني: يستفاد من قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ شروط التكفير للسيئات والوصول إلى الرضوان وما وعد به الرحمن.

فمنها: أن يكون ترك الكبائر عن قدرة وإرادة، وهي متوقّفة على معرفة الكبائر والصغائر والتمييز بينهما، فإنّ المكلّف إذا عرف أنّها حرمات الله تعالى عزم همّه على تركها، بل قيل بوجوب معرفتها مقدّمة للاجتناب عنها، بل التهاون فيها كبيرة أيضاً يجب الاجتناب عنه، وإن لم يكن يجب اتقاء جميع المعاصي مخافة الوقوع في الكبائر والابتلاء بارتكابها، على ما هو مفصّل في الفقه.

ومنها: أن يكون النهي الشرعيّ منجزاً، وإلا فلا يجب الاجتناب كما في مورد الجهل بالموضوع وعدم بلوغ الحكم ونحو ذلك ممّا هو مفصّل في أصول الفقه، راجع كتابنا (تهذيب الأصول).

ومنها: أن يكون الاجتناب عن المعاصي الكبيرة عن إعراض النفس وعزوفها عن ارتكابها.

وبعبارة أخرى: أن يكون الاجتناب عن أثر في النفس، لما تدلّ عليه كلمة الاجتناب الواردة في الآية المباركة. وقال تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾[1].

الثالث: الآية الشريفة في مقام الامتنان على المؤمنين بأنّهم إذا اجتنبوا بعض المعاصي، كفّر عنهم البعض الآخر.

---

(١) النازعات، الآيتان ٤٠ ـ ٤١.

الرابع: يدلّ قوله تعالى: ﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ على الذنب، وأنّ التخلية مقدّمة على التحلية، وأنّها لا تتحقق إلا بعد التكفير والتزكية.

الخامس: إطلاق التكفير يشمل جميع الآثار الدنيوية والأُخروية، ونسبة التكفير إلى نفسه الأقدس يدلّ على أهمية الموضوع وعظمته وكمال الاعتناء بشأن المؤمنين.

وقال بعضهم: إنّ ظاهر الآية الشريفة وجوب تكفير السيئات والصغائر عند اجتناب الكبائر، وهذه من صغريات كبرى غفران الذنوب بعد التوبة، وقد ذكرنا في مبحث التوبة في سورة البقرة، قلنا: إنّ من قبيل ترتّب المعلول على العلّة مع تحقّق جميع الشرائط.

بحث روائي

الروايات الواردة عن الفريقين في تفسير هذه الآية الشريفة مع كثرتها هي على طوائف متعدّدة، تبيّن كلّ منها جانباً من الجوانب التي تضمّنتها الآية المباركة، ونذكر المهمّ منها:

ما ورد في تحديد الكبيرة

في الكافي: بسنده عن الصادق عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾، قال: «الكبائر التي أوجب الله عليها النار».

اقول: ومثله ما عن علي بن جعفر، عن أخيه موسى بن جعفر عليهما السلام.

وفي الفقيه: عن عباد بن كثير النوا قال: «سألت أبا جعفر عليه السلام عن الكبائر، فقال: كلّ ما أوعد الله عليه النار».

أقول: ومثله ما عن تفسير العياشيّ، ويستفاد من هذه الروايات تحديد شرعيّ للكبائر التي وردت في الكتاب والسنّة، وإيجاب النار أعمّ من أن يكون بالمطابقة أو بالملازمة، سواء أكان في كتاب الله تعالى أم في حديث المعصوم، وسواء رتّب الشارع عليها الحدّ في هذه الدنيا ـ كالزنا وشرب الخمر ـ أم لا. فما عن بعض من حصر الكبيرة في كلّ ذنب رتّب عليه الشارع الحدّ في هذه الدنيا ـ كما يأتي في البحث الأخلاقي ـ منافٍ لما تقدّم من الروايات.

وفي معاني الأخبار بإسناده عن الحسن بن زياد العطّار، عن الصادق عليه السلام قال: «قد سمّى الله المؤمنين بالعمل الصالح مؤمنين، ولم

يسمّ مَن ركب الكبائر وما وعد الله عزّ وجلّ عليه النار مؤمنين في القرآن، ولا نسمّيهم بالإيمان بعد ذلك الفعل».

أقول: تقدّم أنّ للإيمان مراتب، ومَن ارتكب الكبيرة ولم يخرج عن الإسلام لم يكن من الكمل إلا إذا تاب. وإنّها كالروايات المتقدّمة في تحديد الكبيرة بالوعيد، وسيأتي في البحث الأخلاقي ما يتعلّق بالمقام.

وفي ثواب الأعمال عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾، قال: «مَن اجتنب الكبائر، وهي ما أوعد الله عليه النار، إذا كان مؤمنا كفر الله عنه سيئاته».

أقول: ومثله ما في الكافي عن ابن محبوب. ويستفاد منها أن التكفير مشروط بالإيمان، كما هو المنساق من الآية الكريمة، وأن الكافر لو اجتنب لا يوجب التكفير عنه.

نعم، يمكن أن يكون له أثر في الدنيا أو في عالم البرزخ، ولا تنافي بينها وبين ما ورد في الفقيه عن الصادق عليه السلام: «مَن اجتنب الكبائر كفّر الله جميع ذنوبه، وذلك قول الله عزّ وجلّ»، أي: مع الإيمان بالله تعالى.

وكيف كان، فالمستفاد من هذه الروايات وغيرها ممّا ورد من طرق الجمهور عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله وسائر المعصومين عليهم السلام، أنّ الكبيرة ما أُوعد بالنار، والصغيرة هي الذنب الذي لم يوعد بالنار، أو لم يماثل في الروايات بذنب أُوعد فيه.

ما ورد في أعداد الكبائر

الروايات في أعداد الكبائر مختلفة، ففي جملة منها أنّها سبع، وإن اختلفت هذه في المعدود منها وأبدال كبيرة بأخرى في الذكر، كما يأتي.

وفي بعضها تسع، وفي آخر ثمان، وفي بعضها ثلاث.

وعن ابن عباس في الدرّ المنثور عدّها ثمان عشرة، وفي الكافي عن عبد العظيم الحسنيّ عن أبي جعفر الثاني عن الصادق عليه السلام أنّها عشرون - كما يأتي - وعن ابن عباس أنها أقرب إلى التسعين.

ولعلّ السرّ في اختلاف هذه الروايات أنّها في مقام بيان المهمّ من الكبائر بل أكبرها، أو باعتبار اقتضاء المقام، ونحن نذكر جملة منها على سبيل الاختصار وهي:

في التهذيب: بسنده عن معلى بن خنيس عن أبي الصامت عن الصادق: «أكبر الكبائر سبع: الشرك بالله العظيم، وقتل النفس التي حرّم الله عزّ وجلّ إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وعقوق الوالدين، وقذف المحصنات، والفرار من الزحف، وإنكار ما أنزل الله تعالى».

أقول: هذا الحصر إما بالنسبة إلى أكبر الكبائر، كما قال عليه السلام في صدر الحديث، أو إنّه إضافي؛ لأنها أكثر من السبع.

وفي الكافي: عن ابن محبوب قال: «كتب معي بعض أصحابنا إلى

أبي الحسن عليه السلام يسأل عن الكبائر كم هي وما هي؟ فكتب: الكبائر مَن اجتنب ما وعد الله عليه النّار كفر عنه سيئاته إذا كان مؤمناً، والسبع الموجبات: قتل النفس الحرام، وعقوق الوالدين، وأكل الربا، والتعرّب بعد الهجرة، وأكل مال اليتيم ظلماً، وقذف المحصنات، والفرار من الزحف».

أقول: ومثله ما عن الصدوق في ثواب الأعمال. وهذا الحصر إضافي، فلم يردّ فيها الشرك بالله تعالى، وقد عدّ في الرواية السابقة من أكبرها، ولكن قوله عليه السلام: «إذا كان مؤمناً»، يدلّ على أنّه منها.

وفيه ـ أيضاً ـ: عن عبيد بن زرارة قال: «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الكبائر؟ فقال: هنّ في كتاب علي عليه السلام سبع: الكفر بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين، وأكل الربا بعد البيّنة، وأكل مال اليتيم ظلماً، والفرار من الزحف، والتعرّب بعد الهجرة. فقلت: هذا أكبر المعاصي؟! فقال: نعم. قلت: فأكل الدرهم من مال اليتيم ظلماً أكبر أم ترك الصلاة؟ قال: ترك الصلاة. قلت: فما عدّدت ترك الصلاة في الكبائر؟ قال: أي شيء أوّل ما قلت لك؟ قلت: الكفر. قال: فإنّ تارك الصلاة كافر، يعني: من غير علّة».

أقول: الحصر فيه إضافي أيضاً، وأما كون تارك الصلاة عن عمد واختيار كافراً؛ لأنّه يرجع إلى إنكارهان وتقدّم في الرواية السابقة أن إنكار ما أنزل الله تعالى من الكبائر.

وفي صحيح محمد بن مسلم عن الصادق عليه السلام قال: «الكبائر سبع: قتل المؤمن متعمّداً، وقذف المحصنة، والفرار من الزحف، والتعرّب من الهجرة، وأكل مال اليتيم ظلماً، وأكل الربا بعد البيّنة، وكل ما أوجب الله النار».

أقول: عدّ الشرك منها إما لأجل المفروغيّة، كما تقدّم في الروايات السابقة، أو أنّه داخل في القاعدة الكليّة المذكورة في ذيل الرواية.

فهي تنطبق على كثير من المعاصي أيضاً، كالكذب والغيبة، والرشوة، وشرب الخمر، والسرقة، والزنا وغيرها.

وفي الكافي بسنده عن عبد الله بن سنان قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إنّ من الكبائر عقوق الوالدين، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله».

أقول: لأن جميع ذلك ممّا أوعد الله عليه النار، أو من الخسران، أو بمنزلة الكافر الذي أوعده الله النار كما يأتي.

وفي تفسير العياشي: عن أبي جعفر عليه السلام قال: «كنت أنا وعلقمة الحضرمي وأبو حسان العجلي وعبد الله بن عجلان ننتظر أبا جعفر عليه السلام، فخرج علينا فقال: مرحباً وأهلاً، ولله إنّي أحبّ ريحكم وأرواحكم، وإنّكم لعلى دين الله، فقال: علقمة فمَن كان على دين الله نشهد أنّه من أهل الجنّة؟ قال: فمكث هنيئة. قال: نوّروا أنفسكم، فإن لم تكونوا اقترفتم الكبائر، فأنا أشهد. قلنا: وما الكبائر؟ قال: هي في كتاب علي عليه السلام سبع. قلنا: فعدّها علينا جعلنا الله فداك. قال: الشرك بالله العظيم، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا بعد البيّنة، وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف، وقتل المؤمن وقذف المحصنة. قلنا: ما منا أحد أصاب من هذه شيئاً، قال: فأنتم إذاً».

أقول: تدلّ هذه الرواية على أن مَن اجتنب الكبائر يكون من أهل الجنّة بشهادة أبي جعفر الباقر عليه السلام.

وفي تفسير العياشي ـ أيضاً ـ: عن معاذ بن كثير عن الصادق عليه السلام

قال: «يا معاذ، الكبائر سبع، فينا أنزلت ومنا استحقّت، وأكبر الكبائر الشرك بالله، وقتل النفس التي حرّم الله، وعقوق الوالدين وقذف المحصنات، وأكل مال اليتيم، والفرار من الزحف، وإنكار حقّنا أهل البيت ـ الحديث ـ».

أقول: ما تضمّنته الرواية إضافي، ويكون من باب ذكر بعض المصاديق.

وفيه ـ أيضاً ـ: عن أبي خديجة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «الكذب على الله وعلى رسوله وعلى الأوصياء من الكبائر».

أقول: الرواية ليست في مقام الحصر حتى الإضافي منه، وإنّما هي في بيان ذكر بعض المصاديق. وأمثال هذه الرواية كثيرة.

وفي الكافي: عن عبد العظيم بن عبد الله الحسني قال: «حدثني أبو جعفر الثاني عليه السلام، قال: سمعت أبي موسى بن جعفر عليه السلام يقول: دخل عمرو بن عبيد على أبي عبد الله عليه السلام فلما سلّم وجلس تلا هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ ثمّ أمسك. فقال له الصادق عليه السلام: ما أسكتك؟ قال: أحبّ أن أعرف الكبائر من كتاب الله عزّ وجلّ، فقال: نعم يا عمرو، أكبر الكبائر: الإشراك بالله، يقول الله: ﴿مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾، وبعده اليأس من روح الله؛ لأن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾. ثم الأمن من مكر الله؛ لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾. ومنها: عقوق الوالدين؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى جعل العاق جبّاراً شقياً. وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحقّ؛ لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾. وقذف المحصنة؛ لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. وأكل مال اليتيم؛

لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾. والفرار من الزحف؛ لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾. وأكل الربا؛ لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾. والسحر؛ لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾. والزنا؛ لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ❊ يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيها مهانا﴾. واليمين الغموس الفاجرة؛ لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾. والغلول؛ لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. ومنع الزكاة المفروضة؛ لأن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾. وشهادة الزور وكتمان الشهادة؛ لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾. وشرب الخمر؛ لأنّ الله عزّ وجلّ نهى عنها كما نهى عن عبادة الأوثان، وترك الصلاة متعمّداً أو شيئاً ممّا فرض الله عزّ وجلّ؛ لأنّ رسول الله ﷺ قال: مَن ترك الصلاة متعمّداً فقد بريء من ذمّة الله وذمّة رسوله. ونقض العهد وقطيعة الرحم؛ لأنّ الله عزّ وجلّ يقول: ﴿لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾. قال: فخرج عمرو وله صراخ من بكائه، وهو يقول: هلك مَن قال برأيه، ونازعكم في الفضل والعلم».

أقول: هذه الرواية لا تنافي ما تقدّم من الروايات، لما عرفت من أنّ الحصر فيها ليس حقيقياً، وإنما كان إضافياً. وهذه الرواية تعدّ الكبائر المأخوذة من كتاب الله تعالى، كما عرفت.

وفي الخصال: بإسناده عن الصادق عليه السلام قال: «وجدنا في كتاب

علي عليه‌السلام الكبائر خمسة: الشرك، وعقوق الوالدين وأكل الربا بعد البيّنة، والفرار من الزحف، والتعرّب بعد الهجرة».

أقول: لا تنافي بينه وبين ما تقدّم، لما عرفت من أنّ الحصر في هذه الروايات إضافي وليس حقيقياً.

وفي العلل بإسناده عن عبيد بن زرارة قال: «قلت لأبي عبد الله عليه‌السلام: أخبرني عن الكبائر. فقال: هنّ خمس، وهنّ مما أوجب الله عليهنّ النار، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾. إلى آخر الآية. وقال عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾. ورمي المحصنات المؤمنات، وقتل مؤمن متعمّداً على دينه».

أقول: يستفاد من التعليل التعميم؛ لأنّ العلّة قد تعمّم وقد تخصّص.

وفي رواية أبي خديجة عن الصادق عليه‌السلام: الكذب على الله وعلى رسوله وعلى الأوصياء من الكبائر.

وفي كنز الفوائد: عن الصادق عليه‌السلام: «الكبائر تسع، أعظمهن: الإشراك بالله عزّ وجلّ، وقتل النفس المؤمنة، وأكل الربا وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، والفرار من الزحف، وعقوق الوالدين واستحلال البيت الحرام، والسحر، فمَن لقى الله عزّ وجلّ وهو بريء منهن، كان معي في جنة مصاريعها الجنّة».

أقول: جميع هذه الروايات تدلّ على ما ذكرنا من أنّ الحصر إضافي وليس حقيقياً.

وفي الخصال بإسناده عن الأعمش، عن جعفر بن محمد عليه‌السلام في حديث شرائع الدين قال: «والكبائر محرّمة، وهي: الشرك بالله، وقتل النفس التي حرّم الله، وعقوق الوالدين، والفرار من الزحف، وأكل مال اليتيم ظلماً، وأكل الربا بعد البيّنة، وقذف المحصنات».

وبعد ذلك الزنا واللواط والسرقة، وأكل الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهلّ لغير الله به من غير ضرورة، وأكل السحت، والبخس في الميزان والمكيال، والميسر، وشهادة الزور، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، وترك المعاونة المظلومين، والركون إلى الظالمين، واليمين الغموس، وحبس الحقوق من غير عسر، واستعمال التكبّر والتجبّر، والكذب، والإسراف، والتبذير، والخيانة، والاستخفاف بالحجّ، والمحاربة لأولياء الله، والملاهي التي تصدّ عن ذكر الله عزّ وجلّ مكروهة، كالغناء وضرب الأوتار، والإصرار على صغائر الذنوب».

أقول: عدّ عليه‌السلام في هذه الرواية الغناء من الكبائر، ولكن عبّر عنها في الحكم بالكراهة، والمراد منها الحرمة كما في قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾(١).

وفي الدرّ المنثور: أخرج جماعة عن ابن عباس أنّه سئل عن الكبائر: «أسبع هي؟ قال: هي السبعين أقرب».

وفيه ـ أيضاً ـ: عن ابن جبير عن ابن عباس: «هي إلى السبعمائة أقرب إلى سبع، غير أنه لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار».

---

(١) الإسراء، الآية ٣٨.

أقول: لا شكّ أنّ أكبر الكبائر الشرك بالله العظيم حتّى ولو كان خفياً، وما سواه كبير باختلاف المراتب، فلا تنافي بين الروايات الدالّة على السبع أو الخمس أو التسع أو السبعين أو أقلّ أو أكثر ما عرفت.

ما ورد في شمول الشفاعة لأهل الكبائر

كما أنّ التوبة تمحو الكبيرة وآثارها، كذلك الشفاعة تمحو الكبيرة وآثارها، وتدلّ على ذلك روايات كثيرة.

منها ما في التوحيد عن ابن أبي عمير، قال: «سمعت موسى بن جعفر عليه السلام يقول: مَن اجتنب الكبائر من المؤمنين لم يسأل عن الصغائر، قال الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾، قلت: فالشفاعة لمَن تجب؟ فقال: حدثني أبي، عن آبائه، عن عليّ عليه السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّما شفاعتي لأهل الكبائر من أُمتي، فأمّا المحسنون فما عليهم من سبيل. قال ابن أبي عمير فقلت له: يابن رسول الله، فكيف تكون الشفاعة لأهل الكبائر والله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾، ومَن يرتكب الكبائر لا يكون مرتضى، فقال: يا أبا أحمد، ما من مؤمن يذنب ذنباً إلا ساءه ذلك وندم عليه، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: كفى بالندم توبة. وقال: مَن سرّته حسنته وسائته سيئته فهو مؤمن، فمَن لم يندم على ذنب يرتكبه فليس بمؤمن، ولم تجب له الشفاعة ـ إلى أن قال النبي صلى الله عليه وآله ـ: لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار».

أقول: الروايات الدالّة على أنّ شفاعته صلى الله عليه وآله مدّخرة لأهل الكبائر من أمته مستفيضة بين الفريقين، وأنّها تغفر بالشفاعة، وأنّ المؤمن لا

يخلّد في النار، فإنّ التخليد فيه مختصّ بأهل الكفر والجحود، وأهل الضلال وأهل الشرك، كما في الرواية.

ومنها في الدرّ المنثور: أخرج عبد الله بن أحمد في زوائد الزهد عن أنس قال: «سمعت النبي ﷺ يقول: ألا إنّ شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، ثم تلا هذه الآية: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾».

أقول: ومثلهما غيرهما من الروايات ومقتضاها أنّ الشفاعة تختصّ بأهل الكبائر التي لا يخرج مرتكبيها عن الإيمان، كالشرك بالله العظيم، كما تقدّم في الروايات السابقة، فالمؤمن على قسمين:

الأول: ما إذا اجتنب الكبائر، فيدخل الجنّة إن شاء الله تعالى بمتقضى الآية الشريفة والرواية المتقدّمة.

الثاني: ما إذا ارتكب الكبائر وكان مؤمناً، فهو أيضاً من أهل الجنة بالشفاعة.

ما ورد في تحريم الإصرار على الصغيرة

الإصرار على الذنب هو: أن لا يتخلّل الاستغفار، ولا يحدّث نفسه بالتوبة، كما يأتي في الرواية عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، وأنّ الإصرار على الصغيرة كبيرة من الكبائر، كما تقدّم في الروايات السابقة، ففي الكافي: بسنده عن السكوني عن الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من علامات الشقاء جمود العين، وقسوة القلب، وشدّة الحرص في طلب الدنيا، والإصرار على الذنب».

أقول: المراد من الشقاء هو الشقاء في الآخرة، والمراد من جمود العين هو قسوة القلب، فيكون العطف بيانياً، فللقسوة مظهر خارجي، وهو جمود العين، ومنشأ واقعي وهو قسوة القلب.

وفي الكافي ـ أيضاً ـ: بسنده عن أبي بصير قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: لا والله، لا يقبل الله شيئاً من طاعته على الإصرار على شيء من معاصيه».

أقول: للقبول مراتب متفاوتة جداً، فلا ينافي أن يكون الإصرار على الذنب حراماً، ومعه لا يحصل المرتبة الكاملة من القبول، وسيأتي في البحث الأخلاقي ما يرتبط بالمقام.

وفي الروضة بإسناده عن الصادق عليه السلام في رسالته إلى أصحابه قال: «وإياكم أن تشره أنفسكم إلى شيء حرّم الله عليكم، فإنّ مَن انتهك

ما حرّم الله عليه هاهنا في الدنيا، حال الله بينه وبين الجنّة ونعيمها ولذتها وكرامها القائمة الدائمة لأهل الجنة أبد الآبدين ـ إلى أن قال ـ: وإيّاكم والإصرار على شيء ممّا حرّم الله في القرآن ظهره وبطنه، وقد قال: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾».

أقول: شره كفر، وهو الطلب مع الحرص أو بدونه، والمراد من الرواية ما حرّمه القرآن بظاهره ـ كما تقدّم ـ أو بباطنه، أي: بواسطة السنّة الشريفة.

الكبائر والصغائر

ذكرنا أنّ الآية الشريفة تدلّ على تقسيم المعاصي إلى كبائر وصغائر، ويدلّ عليه قوله تعالى أيضاً في آية أخرى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾[1]، وتدلّ عليه السنّة الشريفة، كما تقدّم في البحث الروائي.

والكبيرة والصغيرة من الأمور الإضافية النسبيّة، وهما يختلفان شدّة وضعفاً، فما من ذنب إلا وهو كبير بالإضافة إلى ما دونه، وصغير بالنسبة إلى ما فوقه، والجميع كبائر بالنسبة إلى مخالفة مولى الموالي، وهتك حجاب العبودية والتعدّي في سلطانه عزّ وجلّ، وقد اختلف العلماء في تعريف الكبيرة اختلافاً عظيماً.

فقيل: إنّ كلّ ما نهى عنه عزّ وجلّ فهو كبيرة، وينسب هذا القول إلى ابن عباس، ولكن ذكرنا آنفاً أن كون الذنوب كلّها كبائر بما هو القياس إلى حال الإنسان مع خالقه ومولاه الذي يجب إطاعته في جميع الحالات، لا بلحاظ بعضها إلى بعض.

وقيل: إنّ الكبيرة كلّ ما يسعر بالاستهانة بالدين وعدم الاكتراث به.

ويردّ عليه: أنّه أخصّ من المدّعي، فإنّ بعض الذنوب ينطبق عليها

(١) النجم، الآية ٣٢.

الكبيرة وإن لم تكن بهذا العنوان، مضافاً إلى أن كلّ اقتراف للذنب والآثام مع التعمّد ينطبق عليه عنوان الطغيان والاعتداء، الذي هو من إحدى الكبائر أيضاً.

وقيل: إنّ الكبيرة ما حرمت لنفسها، لا لعارض.

وفيه: أنّ بعض الذنوب يطرأ عليها عنوان الطغيان، فتصير كبيرة.

وقيل: إنّ الكبيرة كلّ ما أوعد الله تعالى عليه بالنار في القرآن الكريم أو السنّة الشريفة، أو ما مثله بالذنب الذي أوعد عليه النار، وهذا هو المشهور.

وفيه: أنّه وإن كان صحيحاً في الجملة، لكن لا كلّية له في انعكاسه، فليس كلّ ما لم يعد عليه الله تعالى بالنار صغيرة.

وقيل: إنّ الكبائر ما ورد في سورة النساء من أوّلها إلى الآية التي تقدّم تفسيرها.

وفيه: أنّه تقييد لإطلاق الآية الشريفة، فكأنّ القائل يريد أنّ قوله تعالى: ﴿كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ إشارة إلى تلك المحرّمات التي ذكرها الله تعالى في الآيات السابقة، وهو تخصيص بلا دليل.

وقيل: إنّ الكبيرة ما يكبر عقابه من ثوابه، والصغيرة ما نقص عقابه من ثواب صاحبه. ونسب هذا القول إلى بعض المعتزلة.

وفيه: أنّه لا دليل عليه من عقل أو نقل.

وقيل: إنّ الكبيرة كلّ ما أوعد الله عليه في الآخرة عقاباً ووضع له في الدنيا حدّاً.

وفيه: أنّ الأمر ليس كذلك، فإنّ بعض الكبائر لم يوضع لها حدّ،

مثل الغيبة والإصرار على الصغائر، وأكل مال اليتيم، والفرار من الزحف، وأكل الربا وغيرها.

ونسب إلى الغزالي في كتاب الأحياء جامعاً بين الأقوال وخلاصته: أنّ مقياس الكبائر والصغائر على نحوين، إما بقياس بعضها إلى بعض، أو بملاحظة الأثر المترتّب على المعصية، فقال: «أما الأوّل، فإنّها بملاحظة بعضها إلى بعض تكون كبيرة وصغيرة، وإن كانت بعض المعاصي تكبر بانطباق العناوين المهلكة الموبقة عليه، كالإصرار على الصغائر، فتصير المعصية كبيرة بعدما لم تكن منها. ثمّ هي مع ذلك تنقسم إلى قسمين بالنظر إلى اثر الذنب ووباله وأثر الطاعة، فتكون لهما حالات ثلاثة، فأمّا أن يحبط أثر الذنب الثواب بغلبته عليه أو نقصه عنه إذا لم يغلبه، فيزول بزوال مقدار ما يعادله من الثواب، فإنّ لكلّ طاعة تأثيراً حسناً في النفس، يوجب رفعة مقامها وتخلّصها من قذارة البعد وظلمة الجهل، كما أنّ لكلّ معصية تأثيراً سيئاً فيها ـ على خلاف أثر الطاعة ـ فيوجب انحطاط محلّها وسقوطها في هاوية البعد وظلمة الجهل. وأما أن يتصادم الأثران ويتحقّق التحابط في ما إذا فعل الطاعة والمعصية، فيتصادم اثر الأولى مع أثر الثانية، فإن غلبت ظلمة المعصية نور الطاعة وظهرت عليه أحبطته، وهذه هي المعصية الكبيرة، وإن غلبت الطاعة بما لها من النور والصفاء، أزالت ظلمة الجهل، وبوار الذنب ببطلان مقدار منها يعادل نور الطاعة، فيبقى منه شيء تصفوا به النفس، وهذا هو التحابط بمعنى غفران الذنوب الصغيرة وتكفير السيئات. وهذا النوع من المعاصي هي المعاصي الصغيرة. وإما أن تتكافأ السيئة والحسنة بما لهما من العقاب والثواب، فهو وإن كان ممّا يحتمله العقل بدواً ولازمه صحّة فرض إنسان أعزل لا طاعة له ولا معصية، ولا نور لنفسه ولا ظلمة، لكن يبطله قوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾.

وردّ الفخر الرازي في تفسير بأنّه يبتني على أصول المعتزلة الباطلة عندنا.

وشدّد النكير على الرازي بعض المفسرين وقال: إنّ إنكار الأشاعرة لانقسام المعاصي إلى الصغيرة والكبيرة، أرادوا به مخالفة المعتزلة ولو بتأويل، كما يعلم من كلام ابن فورك، فإنّه صحّح كلام الأشعرية وقال: معاصي الله كلّها كبائر. وإنّما يقال لبعضها صغيرة وكبيرة لا بإضافة، بل بحسب القصود، وقالت المعتزلة: الذنوب على ضربين، صغائر وكبائر، وهذا ليس بصحيح.

أقول: هذا الموضوع واحد من تلك الموضوعات التي كثر الجدال فيها بين المعتزلة والأشاعرة، وتعصّب كلّ فريق لمذهبه، واستدلّ عليه بأمور عقلية ونقليّة حتّى حدى ببعضهم إلى تأويل الآيات الكريمة والروايات لنصرة رأيه، ولو كان لأجل مخالفة المذهب الآخر، وقد شغل هذا النحو من الجدال مصنّفات الأعلام، وغلب على أفكارهم، فصرفوا جلّ اهتمامهم إلى ذلك، فحرموا غيرهم، بل حتّى أنفسهم من قريحتهم الفذّة، فصاروا وكتبهم فتنة افتتن بهما مَن بعدهم، وأصبحت وسيلة لطمس الحقّ وأهله.

أما مقالة الغزالي، فهي وإن كانت حسنة ثبوتاً، ولكن لا دليل عليها في مقام الإثبات، بل هي تطويل ـ للمعاصي الكبيرة والصغيرة بما بيّنها الله تعالى في كتابه الكريم والسنّة المقدّسة ـ بلا طائل تحته، كما فصّله الفيض(قده) في إحياء الأحياء، والنراقي(قده) في جامع السعادات، وكلمات الغزالي مشحونة من مثل هذه التشقيقات، كما لا يخفى على مَن راجعها، وسيأتي الكلام في الإحباط والتحابط بالنسبة إلى الثواب والعقاب، ولا ربط لهما بالكبيرة والصغيرة، مع أنّ ظواهر الآيات الشريفة

والروايات تقسّم الذنب إلى الكبيرة والصغيرة بالنسبة إلى حيثيّة الصدور، لا حيثيّة الأثر، فخلط بين الحيثيتين. وكم له من هذه المغالطات. وهناك وجوه أخرى لا يخفى فسادها على مَن راجعها.

والحقّ أن يقال: إن اختلاف العلماء في تعريف الكبائر وتعيينها لا يرجى زواله، ولعلّ الحكمة في عدم تعيين الشرع لها، هي الإبقاء على إبهامها وإجمالها، ليكون العباد على وجل منها، فلا تهتك حرمات الله تعالى فيها، فلا يتجرّؤوا على ارتكابها اعتماداً على التكفير، بل يعزموا على ترك المعاصي كلّها، لاحتمال وجود الكبار فيها، كما أبهم عزّ وجلّ بعض الأمور أيضاً، مثل الاسم الأعظم، ليواظبوا على جميع الأسماء الحسنى، وليلة القدر ليعظم جدّ الناس واجتهادهم في المواظبة على الطاعة في جملة من الليالي. ووليّ الله تعالى بين الناس ليحترموا جميع الأفراد، فلا يسيئوا الظنّ بأحد منهم، وساعة الاستجابة في الأيام وغير ذلك.

مع أنّ لنا نقول: إنّ الكبائر قد بيّنها القرآن الكريم والسنّة المقدّسة في الجملة، فإنّ من المعاصي ما قد جعل لها الإسلام حدّاً معلوماً في الدنيا، كالزنا واللواط والسرقة والقذف ونحو ذلك من موجبات الحدود المعروفة في الفقه، وهذه لا إشكال عند أحد في كونها كبيرة، وكذا تكون المعصية كبيرة إذا كانت العقوبة عليها النار، بنصّ من الشرع المبين كتاباً أو سنّة، فتكون كبيرة لكون العقاب عظيماً.

وأما غير ذلك، فإنّه يحتمل أن تكون كبيرة وقد أبهم الأمر فيها عزّ وجل، ليكون الناس على حذر منها.

ثم إن الذنوب والمعاصي لها إضافات متعدّدة:

الأولى: الإضافة إلى الله عزّ وجلّ، وبحسب هذه الإضافة تكون كبيرة، فإن ارتكابها جرأة على الله تعالى، وعلى هذا يحمل ما ورد في بعض الأخبار من أنّ الذنوب كلّها كبيرة، كما عرفت آنفاً.

الثانية: الإضافة إلى الفاعل العاصي.

الثالثة: إضافة بعضها إلى بعض، وبحسب هاتين الإضافتين تتحقّق الكبيرة والصغيرة في الذنوب، وحينئذٍ فإمّا أن تكون كبيرة مطلقاً ولا صغيرة فيها، كالكذب والغيبة والبهتان وإيذاء المؤمن، وأكل مال الناس ونحو ذلك. وإمّا أن تكون صغيرة ولا كبيرة فيها إلا مع الإصرار، كوضع اليد على مال الغير بدون إذنه، والنظر إلى الأجنبيّة. وإمّا أن تكون فيه الكبيرة والصغيرة، كالظلم والشتم بغير حقّ، والضرب والقتل كذلك، فبعض مراتب الأول صغيرة والأخرى كبيرة.

موجبات الكبائر

إنّ إتيان المعاصي ـ صغيرة كانت أو كبيرة ـ وصدورها، يكون باختيار العبد وجرأته، ولكن ذكر علماء الأخلاق أنّ أسباب الكبائر مندرجة في أمور ثلاثة:

الأول: اتباع الهوى، والهوى: ميلان النفس إلى ما يستلذّ به، فيقع الإنسان في جملة من الكبائر، كالزنا واللواط وقطع الرحم وقذف المحصنات أو كترك الصلاة وترك الطاعات وغيرها.

الثاني: حبّ الدنيا، فإنّه السبب للوقوع في كثير من الكبائر، كالقتل والظلم والغصب، وأكل مال اليتيم، وشهادة الزور والحيف في الوصية وغيرها، قال نبيّنا الأعظم ﷺ: «أتاني جبرئيل وقال: إنّ الله تعالى قال وعزّتي وجلالي، إنّه ليس من الكبائر كبيرة هي أعظم عندي من حبّ الدنيا»، وقال ﷺ: «حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة».

الثالث: رؤية الغير، فإنّها منشأ للرياء (الشرك الخفي)، والنفاق والعجب بالنفس والشرك بالله العظيم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾، وقال ﷺ: «اليسير من الرياء شرك».

طرق تمييز الكبيرة

ذكرنا أنّه لم يرد في القرآن الكريم تحديد الكبيرة وبيان خصوصياتها، وإنّما أبهم عزّ وجلّ الأمر فيها لطفاً بعباده، ولأنّه من إحدى طرق التهذيب والإصلاح لئلاّ يجترىء الإنسان المغرور على ارتكاب غيرها اتكالاً على التكفير، غفلة منه كما عفرت، ولكن ذكر العلماء لتميز الكبيرة عن الصغيرة أموراً:

الأول: التوعيد بالنار، وقد دلّت عليه نصوص كثير متواترة بين الفريقين، وتقدّم في البحث الروائي نقل جملة منها، وهو مورد إجماع المسلمين أيضاً.

ويمكن الاستدلال عليه بالدليل العقلي، فإنّه ليس بأعظم من النار شيئاً، فإذا كانت المعصية هي الموجبة لورودها، فلا بد أن تكون كبيرة وعظيمة لعظم الغاية، وتختصّ معرفة ذلك بما ورد في الكتاب والسنّة.

الثاني: الإصرار على الصغيرة، إجماعاً ونصوصاً، كما تقدمت جملة منها، وقد ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ عن الإمام الباقر عليه السلام: «الإصرار أن يذنب الذنب فلا يستغفر ولا يحدّث نفسه بتوبة، فذلك الإصرار، وقد تقدّم في تفسير الآية الشريفة: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1]، بعض الكلام فراجع.

(١) آل عمران، الآية ١٣٥.

الثالث: ثبوت الحدّ الشرعي في الدنيا على المعصية، ذكره جمع من العلماء، وهو صحيح في الجملة، فإنّ ثبوت الحدّ يدلّ على كبر المنهي عنه في الشرع، كالزنا والسرقة ونحوهما.

الرابع: استصغار الذنب، فعن أمير المؤمنين عليه السلام: «تصغروا ما ينفع يوم القيامة، ولا تصغروا ما يضرّ يوم القيامة، فكونوا في ما أخبركم الله كمّن عاين»، وهذا لا إشكال فيه ظاهراً واستصغار الذنب إما لأجل جعل التمكّن من ذلك نعمة منه عزّ وجلّ، أو لأجل السرور بفعل المعصية الصغيرة، وإما بالاغترار بستر الله تعالى وعدم المبالاة بفعل المعصية وغير ذلك، ويجمعها غرور النفس والغفلة.

الخامس: أن يكون الفاعل ذا منزلة كبيرة اجتماعية، بحيث يقتدي الناس بفعله، فإنّ المعصية الصغيرة حينئذٍ تكون كبيرة إذا فعله بحضرة من الناس أو بحيث إذا اطلعوا عليه منه فعلوها اقتداءً به.

السادس: أن يكون الأثر المترتّب عليه كبيراً جداً.

السابع: شدّة النهي عنها، فإنّها تدلّ على كون المنهي عنه كبيرة.

ثم لا يخفى أنّ الكبائر في حدّ أنفسها تكون مختلفة، فبعضها تكون أفظع وأعظم من الأخرى، وفي بعض الأخبار كما مرّ: «أكبر الكبائر الشرك بالله العظيم».

موجبات محو الذنوب

وهي كثيرة كما هي المستفادة من الكتاب والسنّة، وقد ذكرنا جملة منها في بحث التوبة في سورة البقرة، ونذكر المهم منها في المقام، وهي:

الأول: التوبة على ما عرفت التفصيل فيها، ويدلّ عليه الكتاب الكريم، والسنّة الشريفة، والإجماع المحقّق بين المسلمين، فمن الكتاب آيات كثيرة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[٤]، وغير ذلك من الآيات المباركة وإطلاقها يشمل التوبة عن الذنوب الصغيرة والكبيرة.

ومن السنّة الشريفة ما تقدّم في بحث التوبة فراجع، ويمكن إقامة الدليل العقليّ عليه على ما عرفت التفصيل.

---

(١) النساء، الآية ١٧.

(٢) طه، الآية ٨٢.

(٣) الشورى، الآية ٢٥.

(٤) السناء، الآية ٤٨.

الثاني: الطاعات، فإنّها مكفّر للسيئات، بل تمحوا آثارها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾(١)، وإطلاقه يشمل جميع السيئات، الصغائر والكبائر، وقال نبيّنا الأعظم ﷺ: «الصلوات الخمس مكفّرة لما بينها، ما اجتنب الكبائر»، وفي حديث آخر عنه ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفّرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر»، ويقيّد إطلاق الآية الشريفة بمثل هذه الأخبار.

الثالث: اجتناب الكبائر كما تدلّ عليه الآية الشريفة المتقدّمة، والمستفاد منها أنّ الاجتناب بنفسه مكفّر للسيئات كالتوبة والطاعة، لا أنّ الاجتناب عن الكبائر يوجب التخلية بين الصغائر والطاعات الحسنة وهذه الأخيرة تكفّر السيئات، فيدخل تحت قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، بل للاجتناب دخل في التكفير، وله خصوصية خاصة.

بل يمكن إقامة الدليل العقلي على المطلوب، وهو: أنّ الأخذ بالصغائر بعد الاجتناب عن الكبائر، مداقة منه عزّ وجلّ في الحساب، ولا ينبغي ذلك بالنسبة إليه تعالى، لأنّه الجواد المطلق والغفور الرحيم.

ثمّ إنّ إطلاق الآية الشريفة يشمل جميع الكبائر، وهي تكفّر عن السيئات جميعاً، ما تقدّم منها وما تأخّر، إلا أن تكون من حقوق الناس، فإنّها لا تكفّر إلا بأدائها إلى أصحابها، وقد ذكرنا شروط التكفير فيما تقدّم.

والمستفاد من هذه الآية الشريفة ترتيب الثواب على اجتناب الكبائر والابتعاد عنها؛ لقوله تعالى: ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾، مضافاً إلى ما ورد في بعض الأخبار الوعد بالثواب.

---

(١) هود، الآية ١١٤.

بحث فقهي في المقام

تختصّ السيئات المكفّرة باجتناب الكبائر بحقوق الله تعالى، وأمّا حقوق الناس فلا تشملها الآية الشريفة، وتدلّ على ذلك الأخبار الكثيرة، مثل قوله عليه السلام: «مَن ترك من أخيه حقاً يطلبه به يوم القيامة»، مع أنّ جملة منها داخلة في الكبائر التي يكون اجتنابها شرطاً للتكفير، ويشهد لما ذكرناه ما دلّ على أنّ «أوّل قطرة من دم الشهيد في سبيل الله تعالى توجب غفران ذنوبه إلا ما كان من حقّ الناس».

بحث عرفاني في المقام

الآية الشريفة من الآيات الداعية إلى الاستكمال، وهي تتضمّن دعوة من الكمال المطلق الحقيقي لتوجيه النفس إلى التربية والتهذيب والإصلاح بترك كلّ ما يوجب البعد عن معدن الرحمة والعظمة والجلال والكبرياء، وتوجب القسوة وكدورة النفس، وقد فتح الله تعالى على عباده باباً سمّاه التوبة ودعاهم إلى السلوك فيه والدخول منه، وهو حرم الله الأكبر الذي مَن دخله كان من الآمنين، وجعل الطريق إليه اجتناب الكبائر والتكفير بالنسبة إلى علم الله تعالى الأزلي المحيط بحقائق الممكنات ـ كلّياتها وجزئياتها ـ فالبحث عن السبق واللحوق لا وجه له حينئذٍ.

وأما إذا لوحظ ذلك بالنسبة إلى المتدرجات الزمانية، فهل يقتصر بالنسبة إلى الماضي أو المستقبل أيضاً؟ مقتضى كمال رأفته وعنايته الأزلية بعباده هو الأخير، ويمكن أن يتشهد له بما ورد في بعض الروايات من تأخير غفران الذنوب من عرفة إلى عرفة أخرى، أو من شهر رمضان إلى شهر رمضان قابل[١].

---

(١) م ـ ن، ص١١٧ ـ ١٤٤، ج (٨).

الورع وأقسامه

إنّ الورع على أقسام:

الأوّل: ورع التائبين وهو ما يخرج المكلّف به عن الفسق ويوجب قبول شهادته.

الثاني: ورع الصالحين، وهو ما يخرج المكلّف به عن الشبهات.

الثالث: ورع المتّقين، وهو ترك الحلال الذي يتخوّف انجراره إلى الحرام، وفي الحديث عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «لا يكون الرجل من المتّقين حتّى يدع ما لا بأس به مخافة أن يكون فيه بأس»، مثل أن يترك الكلام مع الغير مخافة الوقوع في شبهة الحرام.

الرابع: ورع الصدّيقين، وهو الإعراض عن غير الله تعالى خوفاً من ضياع ساعة من العمر فيما لا فائدة فيه. رزقنا الله تعالى رشحةً من رشحاته.

ولكلّ من هذه الأقسام مراتب ودرجات. كما أنّ الفرح كذلك، خصوصاً عنده جلّت عظمته، ولكن رحمته سبقت كلّ شيء وفضله عمّ.

وذيل الرواية من باب ذكر أكمل الأفراد وأجلّ المصاديق، وبهذا المعنى وردت روايات أخرى، ففي بعضها أنّ رسول الله ﷺ من النبيّين وعليّ عليه السلام من الصدّيقين، والشهداء الحسن والحسين عليهما السلام،

والصالحون حمزة، وحسن أُولئك رفيقاً سائر الأئمة عليهم السلام، وفي بعضها: والصالحون هم الكمّل من المؤمنين. وفي بعضها: الصالحون ابنتي فاطمة عليها السلام وأولادها، فلا منافاة بينها لما تقدّم.

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام: «المؤمن مؤمنان، مؤمن وفي الله بشروطه التي اشترطها عليه، فذلك مع النبيّين والصدّيقين والشهداء الصالحين وحسن أُولئك رفيقا، وذلك ممّن يشفع ولا يشفع له؛ وذلك ممّن لا تصيبه أهوال الدنيا ولا أهوال الآخرة. ومؤمن زلّت به قدم، فذلك كخامة الزرع كيف ما كفأته الريح انكفأ، وذلك يصيبه أهوال الدنيا وأهوال الآخرة، ويشفع له، وهو على خير».

أقول: لعلّ المراد من أهوال الدنيا أهوال البرزخ، وإلاّ فقد ورد: «أنّه كلما زيد في إيمان المؤمن، زيد في بلائه»، وقد ورد: «أنّه هل كتب البلاء إلاّ على المؤمن». أو أنّ المراد بأهوال الدنيا ما يوجب ضعف عقيدته والتشكيك في دينه.

وكيف كان، فإنّ التقسيم الوارد فيها حسب مراتب الإيمان، فإنّ أجلّ مراتبه وأكمله ما ورد في المؤمن الذي وفى الله تعالى بشروطه، كما في الرواية، وفي هذا المعنى ورد قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ﴾(١). وقد وردت روايات كثيرة عن الأئمة الهداة عليهم السلام: «المؤمن يشفع يوم القيامة»؛ لأنّ للإيمان الحقيقي الواقعي آثاراً، منها أنّه تعالى يخوّل إلى المؤمن صحائف الخلق في يوم المعاد، فيشفع فيهم حسب إرادته عزّ وجلّ.

(١) يونس، الآية ٦٣.

والخامة: ألفها منقلبة عن واو وهي الغصنة اللينة من الزرع، وفي الحديث: «مثل المؤمن مثل الخامة يفيئها الرياح».

وفي أمالي الشيخ بإسناده إلى عليّ عليه السلام قال: «جاء رجل من الأنصار إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله، ما أستطيع فراقك، وإنّي لأدخل منزلي فأذكرك فأترك ضيعتي وأقبل حتّى أنظر إليك حباً لك، فذكرت إذا كان يوم القيامة وأدخلت الجنة فرفعتَ في أعلى عليين، فكيف لي بك يا نبي الله؟! فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾، فدعا النبي صلى الله عليه وآله الرجل فقرأها عليه وبشّره بذاك».

أقول: وقريب منها ما في الدرّ المنثور وأسباب النزول للواحدي وغيرهما باختلاف يسير لا يضرّ بأصل المعنى، فإنّ الحبّ الواقعي الذي يوجب اتّباع المحبوب في كل ما يريده، يستلزم عدم الفراق بينهما في العوالم كلّها، فعن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «المرء مع مَن أحبّ». وعن سيد العرفاء عليّ عليه السلام في دعائه الملكوتي: «فهبني يا إلهي.. صبرت على عذابك، فكيف أصبر على فراقك»، فتكون الآية المباركة من باب التطبيق.

وفي صحيح مسلم وسنن النسائي وغيرهما، عن ربيعة بن كعب الأسلمي قال: «كنت أبيت عند النبي صلى الله عليه وآله فآتيه بوضوئه وحاجته. فقال صلى الله عليه وآله: سل، فقلت: يا رسول الله أسألك مرافقتك في الجنة. قال: أوَ غير ذلك؟ قلت: هو ذاك، قال: فأعنّي على نفسك بكثرة السجود».

أقول: السجود لله تعالى مع شرائطه له آثار وضعيّة وثواب عظيم، منها ما ذكره النبي صلى الله عليه وآله، فالرواية من باب التطبيق.

أخرج ابن جرير عن الربيع قال: «إنّ أصحاب النبيّ ﷺ قالوا: قد علمنا أنّ النبيّ ﷺ له فضل على مَن آمن به في درجات الجنة ممّن تبعه وصدّقه، فكيف لهم إذا اجتمعوا في الجنّة أن يرى بعضهم بعضاً؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية في ذلك، فقال له النبيّ ﷺ: إنّ العليين ينحدرون إلى مَن هو أسفل منهم فيجتمعون في رياضها، فيذكرون ما أنعم الله عليهم ويثنون عليه».

أقول: على فرض صحّة الرواية، انحدار العليّين لأجل ذكر نِعَم الله تعالى وبيانهم لغيرهم والثناء عليه تعالى، أو لأجل اشتهائهم فتحصل المعاشرة والمصاحبة قهراً، والرواية من باب التطبيق، وأمّا صعود مَن هو أسفل إلى العليّين في الجنّة فلا يتحقّق؛ لأنّ لكلّ مؤمن درجة وشأناً ولياقة، وذلك لا ينافي قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيَ أَنفُسُكُمْ﴾(١)، فإنّ ذلك لا يتجاوز حدود اللياقة والأهلية إلاّ إذا شاء الله تعالى.

العياشي عن عبد الله بن جندب، عن الرضا عليه السلام، قال: «حقّ على الله أن يجعل وليّنا رفيقاً للنبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أُولئك رفيقاً».

أقول: المراد من صدر الرواية أنّه تعالى ألزم على نفسه حسب إرادته أن يجعل المؤمن الواقعي رفيقاً لتلك الطوائف في الجنّة، وذلك من باب ترتّب المسبّب على السبب، والرواية من باب ذكر أجلى المصاديق وأكملها.

---

(١) فصلت، الآية ٣١.

مراتب الطاعة

المراد من الطاعة ـ التي هي الوسيلة للوصول إلى الدرجات الرفيعة السامية والأفق القريب منه جلّ شأنه، وهي التي أكّدت عليها الآيات الشريفة ودعي إليها الأنبياء والأولياء بألسنة مختلفة واهتمّوا بها؛ لأنّها المبعث لتكريم الإنسان ونيله أشرف المراتب وأجلّ المقامات، وهي الانقياد الكامل والامتثال مع الإخلاص لجلب رضا الحقّ وترك ما سواه.

ولها مراتب كثيرة ـ بل متفاوتة ـ حسب إخلاص العبد ومقام العبوديّة، بل حسب درجات الحبّ والمحبّة له جلّت عظمته، ففي الأثر: «إنّ الله تعالى أودع أنوار الملكوت في أصناف الطاعات». فأعلى مراتبها قتل النفس في الحقيقة وقمع هواها التي هي حياتها، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّنٰهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّنٰهَا﴾[1]، وبالخروج عن عالم المادة. ومن مراتبها تسليم النفس إليه تعالى ودوام المراقبة لها، كما ورد ذلك في روايات مستفيضة عن المعصومين عليهم السلام وفي الدعوات المأثورة عنهم، وفي الأثر: «كنّا في طريق مكّة، فإذا بشاب قائم في ليله يناجيه ربّه ويقول: يا مَن شوقي إليه، وقلبي محبّ له، ونفسي له خادم، وكلّي فناء في إرادتك ومشيئتك، فأنت ولا غيرك، متى تنجيني ـ إلى آخره ـ قلت له: رحمك الله، ما علامة حبّه؟ قال: اشتهاء لقائه. قلت: فما علامة

(١) الشمس، الآيتان ٩ ـ ١٠.

المشتاق؟ قال: ليس له قرار ولا سكون في ليل ولا نهار من شوقه إلى ربّه. قلت: فما علامة الفاني؟ قال: لا يعرف الصديق من العدو، ولا الحلو من المرّ من فنائه عن رسمه وجسمه. قلت: فما علامة الخادم؟ قال: إنّه يرفع قلبه وجوارحه وطعمه من ثواب الله ـ إلى آخره»، وعن نبيّنا الأعظم ﷺ: «لا يكون أحدكم كالعبد السوء إن خاف عمل، ولا كالأجير السوء إن لم يعط لم يعمل». وعن سيد العرفاء عليّ عليه السلام: «إلهي عبدتك لا خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنّتك، بل وجدتك أهلاً لذلك فعبدتك».

وبالطاعة الحقيقيّة ينال الإنسان الدرجات الرفيعة والمراتب الشريفة، ويتجاوز عن حدّ الكمال ويصل إلى درجة التكميل، فتكون له المعيّة في الدرجة لا في الاتّحاد ـ كما في بعض الروايات ـ لأنّ التساوي في كلّ جهة معه محال، كما ثبت في الفلسفة الإلهية.

كما أنّ العصيان والتجرّي بالإعراض عن طاعة الرحمن والإقبال على طاعة الشيطان، يصل الإنسان إلى أسفل الهاوية ومنتهى الهلاك، وإنّ له أيضاً مراتب، ومَن أبى؟ قال: مَن أطاعني دخل الجنة، ومَن عصاني فقد أبى»، فإنّ إطاعته إطاعة الله تعالى، كما أنّ عصيانه كذلك، كما تقدّم.

وإنّما جعل سبحانه وتعالى في هذه الآية المباركة جزاء الطائعين لله والرسول مرافقة الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين، ولم يجعل ـ كما في غير الطاعة ـ الجنّات التي تهفوا إليها القلوب وتخلد فيها النفوس؛ لأنّ الطاعة ليست تكليفاً محضاً حتى يجعل في مقابلها جزاءً، وإنّما هي وسيلة لرقي النفس وسبيل للوصول إلى المرتبة الكاملة والنيل إلى المرتقى.

ومعنى رقي النفس ورفعها بالوصول إلى الشاهق الأعلى، هو معاشرتها ومصاحبتها مع سنخها من النفوس القدسية، كالأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين، لما ثبت في الفلسفة الإلهية وغيرها من أنّ السنخيّة في جميع الأشياء وفي جميع العوالم لازمة وموجودة، فمقتضى قانون السنخيّة في عالم المصاحبة والمعاشرة ـ الذي يكون في عالم الشهادة وعالم البرزخ وعالم الآخرة ـ هو أن تكون النفوس الأخيرة مع أمثالها والنفوس الشريرة كذلك؛ لما بينهما من التباعد والتباين، فلا تلائم بين الصنفين أيضاً، فإنّ أرواح المطيعين ونفوس المؤمنين لا تميل ولا تستقرّ إلاّ مع النفوس التي تماثلها وتكون قريبة بينهم وفي أُفقهم، أي من سنخهم، وهي النفوس الرفيعة القدسية.

على أنّ ذلك يلازم دخول الجنّات التي تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها. ولعلّ التعبير بقوله تعالى: ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾، وقوله تعالى في ذيل الآية المباركة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ﴾، يدلان على ما ذكرناه، والله العالم بالحقائق.

وفي الآية الشريفة إشارة إلى أنه ينبغي للمؤمن أن يسعى في تكميل نفسه بالصلاح، ويترقّى إلى مرتبة الشهادة، ثمّ إلى مرتبة الصديقيّة، التي ليست بينها وبين مرتبة النبيّين أية واسطة إلاّ الوحي.

والحسن الوارد في قوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُولَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ من الصفات التي لها مراتب متفاوتة شدّة وضعفاً وكمالاً. وأنّ المراد من الحسن الحسن في الرفاقة في عالم الدنيا، ويستلزم الحسن في عالم الآخرة، بل لا يتمّ حسن إلاّ به[١].

---

(١) م ـ ن، ص١٤ ـ ١٩، ج (٩).

المعروف

المعروف: كلّ ما يستحسنه العقل ويقرّره الشرع من أصناف الجميل وأنواع البر ومكارم الأخلاق، فهو في مقابل ما تكرهه النفوس ـ سواء كان مشتملاً على رجحان أم لا ـ فيعمّ الواجب والمندوب وغيرهما ممّا يدخل في الحُسن.

وللمعروف مراتب أحسنها ما كان فيه الصلاح والإصلاح ـ بلا فرق بين أن يتعلّق بالفرد أو الأُسرة بأقسامها ـ وأسماها ما كان فيه صلاح المجتمع وإصلاحه، وقد عدّ من المعروف، كما في بعض الروايات ما لو كان فيه صلاح الحيوان، أو ما فيه نفع يعود له أو يحميه من الأذى.

والجميل قد لا يختلف فيه أحد واتّفق العقلاء على حسنه وبمدح فاعله، كإغاثة الملهوف، وإصلاح ذات البين، أو الخدمات التي فيها نفع المجتمع، وقد لا يكون كذلك فيتّصف بالإضافة لا محالة، وحينئذٍ لا بدّ وأن يرجع إلى القوانين الشرعية، فما وافقها ولم تنكره فهو من المعروف، وإلاّ فلا يكون منه لاحتوائه على مفسدة أو ضرر وإن لم يدركا فعلاً؛ لما ثبت في محلّه أنّ الأحكام الشرعية تابعة للمصالح والمفاسد وإن لم يكشف العقل المادي عنهما.

والترغيب إلى فعل المعروف يعمّ جميع المجتمعات الإنسانية والأديان السماوية بل الملل المستحدثة المختلفة، فيمكن أن يقال: إن

إقامة المعروف نحو حقّ على أفراد المجتمع ـ تحكم به الفطرة الخالصة ـ لأجل سوق مجتمعهم إلى الكمال المنشود، ولإصلاحه عن الطوارىء الفاسدة، وهذا الحقّ ثابت على أفراده ما لم يتحقّق الهدف المقصود ولم تحصل الصلة المفقودة ولم تثبت السعادة المنشودة لذلك المجتمع.

أقسام المعروف

يختلف المعروف حسب اختلاف الفقر والحاجة إليه، فتارة: يكون الاحتياج شخصياً وفردياً، سواء كان ذلك من الكمالات المعنوية أو المظاهر الخارجية. وأخرى: يكون نوعياً عاماًن وفي كلّ منهما قد يكون المعروف خلقياً وقولياً أو غيرهما، ولجميع ذلك مراتب وآثار خاصة.

والمعروف قد يصدر من الإنسان عن شعور واختيار ـ سواء كان بباعث ديني أو إلهام سماوي ـ وقد لا يكون ذلك، فجميع أقسامه حسن إلاّ أنّ ما فيه الإخلاص لله جلّ شأنه يكون أكثر نفعاً وأطول وزماناً وأشدّ تقرّباً له عزّ وجلّ.

آثار المعروف

يستفاد من الأحاديث الواردة عن المعصومين عليهم السلام في شأن المعروف ومدحه والترغيب إليه أنّ له آثاراً وضعيّة تخصّ صاحبها وفاعلها لا تنالها يد الاختيار، وأنها تترتّب على المعروف كترتّب الأثر على المقتضي التام.

بل يمكن إقامة الدليل العقلي على ذلك؛ لأنّ الأفعال الحسنة التي تصدر عن الإنسان تخلّف في نفس عاملها آثاراً خاصة وحالات مخصوصة، توجب ارتياح النفس وبعدها عن القلق النفسي الموجب للأمراض المتنوّعة، على خلاف الأفعال السيئة التي تخلّف التأنيب

الضميري والصراع النفسي، كما أثبتها علماء النفس قديماً وحديثاً، فمَن كان صادقاً ـ مثلاً ـ في كلامه دائماً أو يغمض عن إساءة الغير له ويعفو عنه ولا يكون في مقام الانتقام، يشعر بالراحة النفسية ويكون بعيداً عن الضيق والهمّ النفسي، وفي الحديث عن الصادق عليه السلام: «صنايع المعروف تدفع ميتة السوء»، وعنه عليه السلام أيضاً: «صنايع المعروف تقي مصارع الهوان»، أي: الذلّ، وغيرهما من الأحاديث. وفي المأثور عن بعض الصلحاء: «أنّ امرأة وضعت لقمة في فم سائل ثمّ ذهبت إلى مزرعتها فوضعت ولدها في موضع فأخذه الذئب، فقالت: يا ربّ ولدي، فأخذ عنق الذئب رجل واستخجر ولدها من غير أذى، ثمّ قال: هذه اللقمة بتلك اللقمة التي وضعتها في فم السائل»، فآثار المعروف تظهر على صاحبه في هذه الدنيا قبل الآخرة.

نعم، للزمان فيها دخل قد يؤجّل لمصالح لا يعلمها إلاّ الله تعالى.

وأمّا آثار المنكر والقبيح قد تظهر على صاحبه وقد تؤجّل إلى عالم الآخرة، فإنّ مقتضى رحمته تعالى أنّه عزّ وجلّ يظهر الجميل ويستر القبيح، وأنّ أثره القبيح قبيح يستره الله ويؤجّله إلى دار الآخرة والخلود.

عوائق المعروف

لا شك أنّ الفطرة المستقيمة الإنسانية تميل إلى المعروف وإقامته إلى الجميل وصنعه، وإلى البر وفعله ما لم تعوقها السبل عن مسيرها الاستكمالي، فعن الله تبارك وتعالى في القدسيات: «خلقت عبادي حنفاء»، أي: مستعدين لقبول الحق وإقامة المعروف، فالفطرة بخلقتها الأوليّة قابلة للترقي بالتربية والوصول إلى أعلى مراتب الكمالات وأسماها بالإرادة والاختيار، ويتحقّق ذلك بفعل المعروف وبثّه وترك المنكر وإزالته.

كما أن الفطرة لها قابلية النزول عن خلقتها المستقيمة مع الإرادة والاختيار بالانحراف الذي يحصل من أمور أهمها حبّ البقاء، والجهل، والخوف وحبّ المال، ويجمعها «حبّ الدنيا»، وهو السبب لتنزّل الفطرة تدريجياً وبلا شعور ـ كما في الروايات ـ عن استقامتها المنفطرة بقوله تعالى: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

والأسباب كلها ـ سواء كانت للرقي أو للنزول ـ إرادية اختيارية، ولو كان هناك أسباب غير اختيارية، فإنّها ترجع بالآخرة إلى الاختيار وإن كان مع الواسطة أو الوسائط، كما ذكرنا في أحد مباحثنا السابقة.

ومن عوائق المعروف والمانع عن تحقّقه الذنوب التي توجب البُعد عن ساحته تعالى وتطمس نور الفطرة وتكون صدّاً في الطريق إلى الكمال ومانعاً عن الاستكمال، وللبحث ذيل يأتي في الموضع المناسب إن شاء الله تعالى بعد رفع هذه الشدائد وكشف هذه الغمّة وزوال الظلم وأهله بحوله وعنايته، إنّه هو الرؤوف الرحيم.

الإخلاص

الأفعال الصادرة عن الإنسان في حقيقتها ـ تكون كالأشياء النامية ـ لها صورة خارجية وروح يمتاز بها عن أفعال سائر الحيوانات، فالإنسان الذي هو أشرف المخلوقات في عالم الإمكان مركّب في واقعه من جسم وروح، وكذا أفعاله لها صورة ـ وهي عبارة عن ما يشتخّص في الذهن من الكيفيّات، وهذا يعمّ جميع أفعال الحيوانات ـ وروح يتفرّد بها عن بقية الحيوانات، وهي أمر معنوي يحصل من التوجّه إلى الباري جلّ شأنه والسوق إلى الخالق جلّ عظمته ـ ولا ربط له بالإرادة ـ وأثره إفراد القلب له تعالى بارتباطه إلى ساحة كبريائه والتبرّي عن كلّ ما دونه تعالى، وهو الباعث لتحقّق الإضافة إليه تعالى، التي هي السبب لتحقّق الفعل خارجاً، وإذا وجد الفعل بدونها كان مجرّد صورة، كالأفعال التعليمية.

ويعبّر عنه في الكتاب والسنّة بالإخلاص في الأفعال العبادية أو المضافة إليه تعالى، المتفرّد بها الإنسان عن غيره، قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾(٢)، فكما لا قيام للأشباح إلاّ بالأرواح وإلاّ كانت ميتة ساقطة، كذلك الأعمال العباديّة، فلولا الإخلاص والروح المعنوي فيها كانت

---

(١) الزمر، الآية ٢.
(٢) البينة، الآية ٥.

مجرّد شبح وهيكل. مراتب الإخلاص كدرجاتها تختلف حسب درجات الإيمان، كما يأتي.

حقيقة الإخلاص

وهي من الحقائق المحجوبة، ولا تعرف إلاّ بالأثر، ولا يمكن وصفها وإن أدركها العرفاء الشامخون فإنّها تشرق على القلب وتنوّر النفس ويتشرّف المؤمن بالإخلاص إلى أعلى مراتب الكمال بلذّة ذلّ العبودية له تعالى، وبه يخرق الحجب ويصل إلى معدن العظمة، فعن نبيّنا الأعظم ﷺ: «أنّه سئل عن الإخلاص فقال ﷺ: حتى اسأل جبرائيل، فلما سأله قال: اسأل ربّ العزّة، فلما سأله قال له: هو سرّ من أسرار أودعه قلب مَن أحببت من عبادي، لا يطلع عليه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده»، وعن سيد العرفاء أمير المؤمنين عليه السلام: «هو أن تعبد الله كأنّك تراه»، فحقيقة الإخلاص يدركها الخلّص من عباده، ولكنّها لا توصف، والإخلاص من أعلى مراتب التفويض.

درجات الإخلاص

كما أنّ للعبودية درجات، ولكلّ منها مراتب، ولكلّ مرتبة منزلة حسب درجات الإيمان ومراتب المعرفة ومنازلهما، وأنّ التقرّب لديه جلّ شأنه يحصل بجميعها، وأنّ أسمى المراتب وأعلى الدرجات قبوله عزّ اسمه بالعبودية ـ وإن كان للقبول مراتب أيضاً ـ فإنّه هو الفوز العظيم، فعن بعض العرفاء: «قيل له بعد وفاته ـ في الرؤيا ـ: كيف حالك مع الملكين (النكير والمنكر)؟ فقال: لما قالا لي: مَن ربّك؟ قلت لهما: اسألا ربّي، فإن قال: هو عبدي وأنا ربّه، يكفي، وإلاّ فلو قلت: هو ربّي وأنا عبده مراراً لا يفيد بلا قبوله»، كذلك الإخلاص له درجات، وفي كلّ

منها مراتب، وفي كلّ مرتبة أنواع أهمّها وجامعها أقسام ثلاثة: إخلاص العوام، وإخلاص الخواص، وإخلاص أخصّ الخواص، وإن شئت قلت: مطلق الإخلاص، وإخلاص المحبّين، وإخلاص الموحّدين.

والأول: هو الإخلاص في العبادة لأجل الحظوظ ـ سواء كانت دنيويّة أم أُخروية ـ كحفظ البدن وسعة المال والقصور والحور.

والثاني: لأجل السعادة الأُخروية والدخول في الجنة دون الحظوظ الدنيوية.

والثالث: هو إخراج الحظوظ بالكلية، بل الإخلاص لأجل جنّة الشوق بالقرب له جلّت عظمته: «وفؤادي ليس فيه غيره».

ولكلّ من هذه الأقسام مراتب كما مرّ، وأنّ جميعها حسن إلاّ أن أسماها وأعلاها القسم الأخير، وفي دعاء كميل: «هب لي صبرت على حرّ نارك، فكيف أصبر على فراقك»، وعن سيد العرفاء المتألّهين الشامخين أمير المؤمنين عليه السلام: «إلهي عبدتك لا خوفاً من نارك ولا طمعاً لجنّتك، بل رأيتك أهلاً لذلك فعبدتك»، وعن بعض العرفاء المتألهين:

ليس سؤلي من الجنان نعيماً ... غير أنّي أحبّها لأراكا

ولهذا القسم درجات ومراتب، نسأل الله العظيم الفوز بمرتبة منها، ولا تنال هذه النعمة الكبرى إلاّ لمَن عصمه الله تعالى وأمدّه بحقّ اليقين بالتجلّي له، وكشف الأسرار له بإفاضة العلوم عليه، وقرّبه إلى ساحته بخلع الأنداد عنه، وكرّمه بتطهير النفس بمخالفة الهوى ونبذ الأغيار، وشرّفه بالرقي إلى مقام عرفانه بالتوجّه إليه والقرب لديه.

منافيات الإخلاص

الصفات الحميدة تقابلها الحالات السيئة، وتفسدها الصفات المنافية

لها، فالشجاعة مثلاً يفسدها الخوف؛ لأنّه ينافيها ولا يمكن الجمع بين المتنافيين في النفس وكذا القناعة ينافيها الحرص والجشع، كما أنّ الزهد ينافيه طول الأمل، وكذا غيرها من الصفات.

والإخلاص ينافيه أمور كثيرة؛ لأنّ سبب الإخلاص لله تعالى المعرفة والخوف، فإذا زال أحدهما لم يتحقّق الإخلاص. وأهمّ ما ينافي الإخلاص أمور:

منها: الريا ـ نستجير بالله العظيم منه ـ فعن نبيّنا الأعظم ﷺ عن الله تعالى في القدسيات: «انا أغنى الشركاء، مَن أشرك معي غيري تركته لغيري»، وعنه ﷺ: «أخوف ما أخاف على أُمّتي الشرك الخفي، وهو الريا»، وغيرهما من الروايات، وأنه دقيق جداً، «أدق من دبيب النمل في صخرة ملساء»، وسببه حبّ الدنيا بأقسامه، وللتخلّص منه طرق كثيرة لا يسع المجال للتعرّض لها.

ومنها: العجب بالعمل، فإنّه مناف للإخلاص وقادح في كمال العمل، وقد ورد في ذمّه روايات كثيرة.

ومنها: الاستهانة بالعمل ـ تحقيره ـ كما دلّت عليه روايات كثيرة.

ومنها: الإيكال في الأمور على غيره تعالى، سواء كان على النفس أو غيرها.

ومنها: التعمّق في حكمة الأشياء والبحث عن حِكَم الأحكام الشرعية، فإنّه منافٍ للإخلاص، كما دلّ عليه بعض الروايات، فعن نبيّنا الأعظم ﷺ: «إيّاكم والغلو في الدين»، أي: البحث عن عللها وغوامض متعبّداتها، وعن بعض مشايخنا من أهل العرفان ادّعاء التجربة في ذلك.

ومنها: عدم الثقة بالله العظيم، فإنّ ذلك مناف للإيمان، فكيف بالإخلاص، وإنّه من المعاصي الكبيرة على ما فصّل في محلّه.

وهناك أمور أخرى منافية للإخلاص، ذكرها علماء الأخلاق ومشائخ العرفان في كتبهم ورسائلهم، ومَن شاء فليرجع إليها.

الفرق بين الرضا والإخلاص

تقدّم أنّ الإخلاص مراتب، أدناها مرتبة الرضا، بل هو كتمهيد له؛ ولذا أنّ الإخلاص يتضمّن الرضا ولا عكس، هذا كلّه في العبيد. وأمّا رضائه تعالى، فهو عين محبّته، وإنّ محبّته عين إخلاصه، فلا يمكن التفكيك بينهما.

وممّا ذكرنا يظهر أنّ للرضا مراتب ودرجات، وأنّ أسماها هو التفويض، وأنّ أعلى مراتب التفويض الإخلاص، الذي هو مختصّ بالأولياء والصالحين.

وإنّ الصفات الحسنة المذكورة في الآية المباركة من الصدقة والمعروف، والإصلاح بين الناس، إذا كانت صادرة لابتغاء مرضاته تعالى وخالصاً لوجهه الكريم، كان ذلك مظهراً من مظاهر أسمائه، ويكون أدوم وأنفع للمجتمع ـ كما تقدّم ـ وإلاّ فالأمر إضافي[١].

(١) م ـ ن، ص٢٧١ ـ ٢٧٨، ج (٩).

الأمراض الروحية

أنّ الآية الشريفة: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، تدلّ على أنّ للقلوب مرضاً كما أنّ للأبدان مرضاً، بل لا يخلو من ارتباط المرضين بعضهما مع البعض لشدة ارتباط القلوب بالأبدان، ومن المعلوم أنّ المرض إذا أحلّ في مكان، فلا بدّ أن لا تكون هناك صحّة، إذ المرض والصحّة متقابلان، تقابل العدم والملكة، لا يتحقّق أحدهما في محلّ إلاّ بعد إمكان تلبّسه بالآخر، فإنّه لا يتّصف الجدار بالمرض لعدم شأنيّته للصحّة، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم في أكثر من عشرة مواضع، قال تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾(٢). والمستفاد من مواضع استعماله أنّ مرض القلب يخرج صاحبه عن الاستقامة ويوجب انحراف الشخص عن سواء الطريق ويجعل صاحبه في معرض الشكّ والارتياب، كما قال عزّ وجلّ عنهم في الآية السالفة: ﴿مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾، فيكدر صفو الإيمان بالله ورسوله، ويسلب الطمأنينة إلى آياته وتشريعاته، ويوجب خلط الإيمان بالشرك، فلا يقدر صاحبه على التمييز بين ما هو نافع له أو ضار. ولذلك ترى أنه

(١) الأنفال، الآية ٤٩.
(٢) الأحزاب، الآية ١٢.

يصدر عن صاحب هذا القلب في مقام العمل ما يناسب الشرك والكفر بالله تعالى وآياته، حتّى يصل إلى حدّ الكفر.

ويختلف هذا المرض كسائر الأمراض الجسمانية شدّة وضعفاً وكثرة وقلّة، كما تدلّ عليه الآية الشريفة: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾(٢).

ويستفاد من الآية الشريفة أن هذا المرض ربّما يزيد ويستقرّ في القلب حتّى يطبع المريض في مرضه، ثمّ ينجرّ به إلى الهلاك والموت على الكفر، لكثرة معاصيه وموبقاته، قال تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ﴾(٣).

ثمّ إن ظاهر قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾(٤)، أنّ الذين في قلوبهم مرض غير المنافقين، وإن كانا يشتركان في كثير من الأفعال والآثار، إلاّ أن النفاق لا يكون إلاّ في موت القلب والكفر الخالص، ولكنّ مرض القلب يجتمع مع ضعف الإيمان والشكّ والتردّد، فيميل مع كلّ ريح ويتبع كلّ ناعق. وأما المنافق فهو يبطن الكفر ويظهر الإيمان ليستميل المؤمنين ويكون معهم ظاهراً، لتنفيذ مآربه كما حكى عنهم عزّ وجلّ في مواضع من القرآن الكريم، وربما يشتركان في عدم استقرار الإيمان وعدم اشتمال باطنهم منه، كما يتّفقان في بعض الأفعال. وقد يكون مبدأ النفاق هو مرض القلب، فإذا لم يعالجه صاحبه

(١) البقرة، الآية ١٠.
(٢) التوبة، الآية ١٢٥.
(٣) الروم، الآية ١٠.
(٤) الأنفال، الآية ٣٩.

ينتهي به إلى الكفر والنفاق، كما قال عزّ وجلّ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾ إلى أن قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا﴾ . . . ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ﴾(١)، فإنّ المستفاد منها أنّ القوم كانوا في ابتداء أمرهم مرتابين فزادهم الله مرضاً حتى هلكوا بإنكارهم الحق واستهزائهم له. ثمّ إنّ مرض القلب تقابله سلامته التي هي الاستقامة مع الإيمان والطاعة لله عزّ وجلّ والرسول واتّباع أحكامه وعدم اتّباع الهوى والإعراض عمّا سوى الله تعالى، قال عزّ من قائل: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۞ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾(٢)، فإنّه يدلّ على أنّ سلامة القلب إنما تكون في الانقطاع إليه عزّ وجلّ والخلوص والإخلاص له والإعراض عمّا سواه تعالى. وعلى اختلاف درجات الانقطاع إليه والخلوص له تختلف درجات السلامة، وبذلك يمكن أن يعالج مرض القلب، فإنّه يتحقق بالإيمان به عزّ وجلّ والاعتصام بحبله وإصلاح النفس والإسراع بالتوبة إليه عمّا فعل من الموبقات، وترويض القلب على الطاعة وحسن النيّة والعمل الصالح، وقد ورد جميع ذلك في القرآن الكريم، وقد تقدّم في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾(٣)، الذي جمع الكمالات الواقعية المعنوية والظاهرية وطرق معالجة الأمراض النفسية التي تؤثّر على حياة الإنسان المادية والمعنوية.

وفي خصوص مرض القلب الذي أوجب محبّة أعداء الله تعالى فقد

---

(١) البقرة، الآيات ٧ ـ ٢٠.
(٢) الشعراء، الآية ٨٩.
(٣) البقرة، الآية ١٧٧.

ذكر عزّ وجلّ كيفيّة معالجته في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا * إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[1].

(١) النساء، الآية ١٤٦.

أحكام اجتماعية أخلاقية

إنّ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ﴾، يدلّ على النهي عن اتّخاذ الكافرين أولياء، وذكرنا أنّه حكم اجتماعي يحفظ به كيان الإسلام وهويّة المسلمين. وأنّ من أهم آثار هذا الفعل ـ أي: التودّد إليهم بالمحبّة والنصرة ـ أنّه يعتبر منهم ويكون حكمه حكمهم في الآثار الوخيمة المترتّبة على الكفر، لأنّه من ما يبغضه ربّ العباد ويوجب الابتعاد عن الحقّ، ولا يمكن اجتماع محبّة الله تعالى ومحبّة أعدائه في قلب واحد، وكلّما ضعفت إحداهما تشتدّ الأخرى، فإذا استولت إحداهما على المشاعر لا يصدر من صاحبها إلاّ ما يناسبها من الخير والعمل الصالح والتوجّه إلى الله عزّ وجلّ والإخلاص له إن كانت المحبة لله تعالى، أو الشرّ والعمل الطالح إن كانت المحبّة لأعدائه الذين لا مناسبة بينهم وبين الحق، ومن المعلوم أنّ النوايا وخفايا القلوب لها الأثر الكبير في حياة الإنسان العمليّة. وقد ورد التأكيد على الإعراض عمّا يبعد الإنسان عن الله تعالى، والابتعاد عن أعدائه عزّ وجلّ، وفي بعض الأحاديث: «لا تلبسوا ملابس أعدائي، ولا تسكنوا مساكنهم، لأنّها من مظاهر العدوان، وهي مبغوضة عند الله تعالى، والمحبّ لا بدّ أن يبتعد عمّا هو مبغوض لدى جنابه، فإنّ لها الأثر في سلوك المحبّ، فمَن يريد التقرّب إلى الله تعالى ومظاهر صفاته وأسمائه العليا، لا بدّ أولاً أن يبتعد عمّا يكدر القلوب ويزيل صفاءها،

فإنّها مجبولة على حبّ الله والاقتراب إلى الحق والعمل به، ومن أعظم ما يكون سبباً في ذلك تولّي أعداء الله تعالى ومحاكاتهم في الأقوال والأعمال، فإذا تحقّق ذلك يميل الإنسان إلى التقرّب إليه عزّ وجلّ بتنفيذ أحكامه وشرائعه، فإنّ ذلك كمال الإنسان ولا كمال فوقه، وأنّ فيه سعادة الدارين[١].

(١) م ـ ن، ص٣٠٨ ـ ٣١٢.

مكارم أخلاق المؤمن

أنّ الإنسان يختلف عن غيره من المخلوقات، إنّه كائن أخلاقي له استعداد فطري بالاتّصاف بمكارم الأخلاق أو بمساويها، فهو يسعد أو يشقى بمكوّناته الأخلاقية، وذكرنا أن نظرية القرآن تختلف عن سائر المذاهب الأخلاقية، فإنّ المهمّ في نظر القرآن الكريم أن يتّصف الإنسان بالتقوى والسعي في تحصيل هذه الملكة التي تجتمع فيها جميع الفضائل.

ولا تعير أهمية لما يقال في هذا المضمار من المذاهب والنظريات، التي تبعد الإنسان عن الواقع والحقيقة أكثر ممّا تلتمس حلاً لهذه المشكلة التي طالما كتب عنها الفلاسفة والعلماء، وقد ذكرنا نبذة منها في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[١]، فراجع هذا بالنسبة إلى كسب الكمال واكتساب المكارم والتحلّي بالفضائل.

وأمّا ما يتعلق بما يضاد تلك من مساوىء الأخلاق ورذائلها، فإنّ القرآن الكريم قد عدّ جملة منها وبيّن آثارها السيئة التي تؤثّر في النفس

(١) البقرة، الآية ١٧٧.

والفرد والمجتمع، إلاّ أن المستفاد من الآيات التي تقدّم تفسيرها أنّ النفاق يجمع كثيراً من الخصال السيئة والأخلاق الرذيلة.

ويمكن القول بأنّ الآيات الشريفة تدلّ على أنّ النفاق والتقوى على طرفي النقيض في مساوىء الأخلاق ومكارمها، فقد ذكر عزّ وجلّ جملة من الصفات السيئة التي اتّصف بها المنافقون، التي تعدّ من أمُهات الأخلاق السيئة وإليها ترجع سائرها، وهي:

الأولى: التذبذب في الإيمان، والترامي في الكفر وانهماكهم فيه لطول أُنسهم به، ويعتبر الكفر والشرك من أعظم الرذائل وأخسّها، قال تعالى حاكياً عن لقمان: ﴿يَبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1]؛ لأنّ الكفر والشرك خروج عن ناموس الفطرة، وهدم للقاعدة التي يمكن أن يعتمد عليها الإنسان في حياته الأخلاقية.

الثانية: موالاة الكافرين الذين هم أعداء الحق؛ لأنّ فيها الإعراض عن تهذيب النفس بالاعتماد على إنسان تغلّب عليه الشر والتماس النفع المادي والمعنوي منه، وهي مع كونها في نفسها سيئة كبيرة ورذيلة أخلاقية، تستلزم سلب الثقة عن الله تعالى، والاستهتار بالقِيَم الأخلاقية، وتذليل للنفس التي جعلها الله أبية ذات عزيمة وإرادة.

الثالثة: الاستهزاء بآيات الله تعالى وتعاليمه المقدّسة، فإنّه يبعد الإنسان عن منبع الكمال ومصدر الإتقاء، وكيف يمكن لأحد أن يلتمس خيراً من شيء هو يستهزأ به. وفي هذا هدم للإنسانية التي تبتني على قواعد حكيمة وأصول قديمة.

الرابعة: المخادعة مع الله تعالى في إظهار الإيمان في مجالس

(١) لقمان، الآية ١٣.

المؤمنين، وهو يبطن الكفر، والاستهزاء بآيات الله تعالى وبالمؤمنين. والمخادعة تؤثّر في النفس وتجعلها مشكّكة وتسلب الثقة عنها بالكليّة.

الخامسة: الرياء والكسل في العبادة، فإنّ مَن لا يؤمن بالله العظيم ولا يعتقد بآياته الكريمة وتوجيهاته القيمة، ويطلب المنفعة في جميع أفعاله، وقد سلب الثقة عن جميع ما حوله، لا تصدر عنه العبادة، ولا رغبة له فيها، بل يأتي بها لأجل تحقق أغراضه وإرضاء نزواته المادية.

والكسل في العبادة من آثار سلب التوفيق، ولم يكن شيء أعظم أثراً على الإنسان من سلب التوفيق، ولا يمكن أن يشعر به إلاّ مَن تخلّى عن تلك الرذائل.

هذه هي الصفات التي عدّها عزّ وجلّ من النفاق، وهي بحقّ أمهات الرذائل، وتتشعّب كلّ واحدة منها إلى صفات أخرى مهلكة، فيكون النفاق مجمع الرذائل؛ ولذا كان الجزاء عليه عظيماً، وإن كان يشترك مع الكفر في نار جهنّم إلاّ أنّ النفاق في الدرك الأسفل منها، ويدلّ عليه الشروط التي اشترطها عزّ وجلّ في التوبة منه؛ لأنّ النفاق يؤثّر في جميع جوانب الإنسان النفسية، والتربوية، والأخلاقية، والعقائدية، والفردية، والاجتماعية، فهو الداء العضال الذي لا يمكن أن يزول بأدنى استغفار كما في سائر المعاصي؛ لما له من الجذور التي يعصب قلعها من النفس، ويأتي التفصيل في موضع آخر إن شاء الله تعالى.

ثمّ إنّ للنفاق وجوهاً مختلفة، فقد يكون في الاعتقاد، سواء كان بالنسبة إلى الرسول ﷺ بأن يظهر الإيمان بعلمه مثلاً وهو يعتقد جهله والعياذ بالله تعالى ونحو ذلك.

أو بالنسبة إلى المؤمنين، كأن يظهر حسن النيّة والتصرّف معهم، وهو يعتقد فسقهم وفسادهم ونحو ذلك.

أو يكون في الأعمال، كأن يصلّي مع المؤمنين وهو يريد الخديعة بهم أو يحضر مجالسهم وهو يريد الإيقاع بهم، أو يصلّي رياءً، أو ينفق وهو يطلب المنفعة أو الخديعة بالمنفق عليهم. ومن هذا القسم إظهار الطاعة العلانيّة وعصيان الله تعالى في الخفاء، وقد حذرنا عزّ وجلّ من هذا القسم في عدّة مواضع من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾[2].

أو يكون في الصفات والملكات، كأن يظهر الحلم وهو على خلاف ذلك، أو يظهر السخاء وهو بخيل، ونحو ذلك.

أو يكون في الأخلاق، كما إذا أحسن القول صدقاً وعفواً وهو على خلاف ذلك، وأعظم النفاق ما إذا استولى على جميع مشاعر الإنسان وجوارحه وجوانحه، والآيات الشريفة المتقدّمة بيّنت هذا القسم وعظيم أثره وتومي إلى بقية الوجوه، كما لا يخفى.

وكيف كان، فإنّ النفاق في أي وجه كان ربما يكون على دقّة لا يمكن التمييز بين الاعتقاد السليم عن غيره، وقد ورد في الحديث: «أنّه لا يغرّنكم كثرة صلاة أحدكم وصيامه، ولكن انظروا إلى حسن عقيدته».

ولكن لا يخفى أنّ ذلك لا ينافي ما ورد من الحكم بإسلام المرء إذا صلّى وصام وعاشر المسلمين، فإنّ ما ورد في النفاق إنّما هو بينه وبين الله تعالى، وأنّ الله عزّ وجلّ يخدعه لو أراد خديعته تعالى.

وفي الآيات المباركة إيماء بأنّ نفاق الإنسان يظهر على أفعاله وأقواله

---

(١) المائدة، الآية ٩٤.

(٢) الأنبياء، الآية ٤٩.

واعتقاداته، بعيداً أم قريباً، مهما اجتهد على إخفائه، وسيظهر أثره السيء على نفسيته ما لم يتب منه توبة نصوحاً، كما فصّله عزّ وجلّ[١].

(١) م ـ ن، ص٨٢ ـ ٨٥، ج (١٠).

حب الشهوات الدنية

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ * قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾.

الآيات الشريفة تبيّن حقيقة الدنيا والآخرة، وأن الأولى محفوفة بحبّ الشهوات وما يوجب الضلال والخروج عن الصراط المستقيم، وأن رغائب النفوس ودوافع الغريزة هي التي تشغل الناس عن التبصّر والاعتبار والتوجّه إليه سبحانه وتعالى، وتحجبهم عن منابع النور والحكمة، كما تحرمهم عن نعيم الآخرة.

وقد عدّ سبحانه وتعالى في الآية الأولى أصول الشهوات المنسوبة إلى نفس الإنسان وأنها التي توجب الزيغ والضلال، وأن قلوب الناس ملئت حبّها وجعلت مشغوفة بها، وهي الستة ـ النساء، والبنون، والأموال، والخيل، والأرض المخصبة، والأنعام ـ التي تتدخل في سلوك الإنسان في الدنيا وتعيّن مستقبله في العقبى، فهي قضايا حقيقية تصدقها

العقول، فتكون الآية الشريفة بمنزلة الشرح لحقيقة حال مَن يعتقد أن الاستغناء إنما يكون بالتلذّذ بالنساء والأولاد والأموال وما وهبه الله تعالى، فأعرضوا عنه عزّ وجلّ، لانهماكهم في المشتهيات وحبّ الدنيا، وبيّن عزّ وجلّ أن ما في الدنيا من جميع المشتهيات هي متاع زائل لا قرار له.

وفي الآية التالية ذكر سبحانه وتعالى نعم الآخرة ولذائذها، وهي جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهّرة، وأهمّها رضوان من الله، وقد بيّن عزّ وجلّ ما يوجب الاستمتاع به والدخول في رضوانه جلّ شأنه والوسيلة لكسب السعادة في العقبى، كما بيّن الطريق الذي لا بد من سلوكه ليوصلنا إليه عزّ وجلّ، وهو الإيمان به تعالى واللجوء إليه والصبر والإنفاق والتوبة والإنابة، ثم الصدق في جميع ذلك والخضوع لديه عزّ وجل.

التفسير

قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾.

مادة (زين) من المواد الكثيرة الاستعمال في القرآن الكريم بهيئات شتّى، قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦٓ﴾(٣)، وفي حديث الاستسقاء: «اللهم أنزل علينا في أرضنا زينتها»، أي نباتها الذي يزيّنها.

والزينة من الأمور الإضافية المختلفة بحسب اختلاف العادات

(١) فصلت، الآية ١٢.
(٢) يونس، الآية ٢٤.
(٣) القصص، الآية ٧٩.

والأعصار والأمصار، وأنها من الجماليات التي يكون حسنها ممدوح وجذاب للنفوس، بل إن بعض مراتبها ممّا يدرك بالحسّ، ولا يمكن وصفها باللفظ، والزينة الحقيقية هي ما لا يشين الإنسان في شيء من أحواله، لا في الدنيا ولا في الآخرة، وغيرها ممّا يوجب الشين في حالة دون أخرى، فهي زينة بالوجه والاعتبار، وليست هي حقيقيّة على الإطلاق.

والزينة على أقسام ثلاثة: زينة نفسانية، كالعلم والاعتقادات الحسنة والكمالات النفسانية المقرّرة في الشريعة، وزينة بدنية جسمانية، كالشمائل الظاهرية الحسنة، قال عليّ عليه السلام: «زينة المرء حسن أدبه، وجمال الجمال في عقولهم، وعقول النساء في جمالهن»، وزينة خارجية كالمال والبنين والاعتبار. وقد ذكر تعالى جميع ذلك في مواضع من القرآن الكريم.

فتارة: نسبها إلى نفسه عزّ وجلّ، قال تعالى: ﴿ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينة في قلوبكم﴾[1]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾[2].

وأخرى: إلى الشيطان، قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[3].

وثالثة: لم يسم فاعلها ـ كما في المقام ـ والوجه في ذلك أن الله تعالى خلق الدنيا وما عليها وسيلة إلى نيل الكمال والوصول إلى غاية

(١) الحجرات، الآية ٧.
(٢) الأعراف، الآية ٣٢.
(٣) الأنعام، الآية ٤٣.

حميدة، وهي الدار الآخرة، فكانت الدنيا متاعاً ودام مقام ينزل إليها الإنسان في برهة من الزمن، ليتزوّد منها إلى سفر آخر طويل، فكلّما كان الزاد أحسن وأبقى، كان العيش في الآخرة أهنأ وأحسن، وقد خلق الله تعالى الدنيا زينة ليرغّب إليها الإنسان، وتكون وسيلة للتزوّد منها ويتوسّل بها إلى الدخول في رضوان الله تعالى، قال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا * وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾[1]، وإلى ذلك يشير كل ما ورد من الآيات التي تنسب الزينة إليه تعالى.

وأما إذا جعل الإنسان الدنيا وما عليها من الزينة محط نظره، واعتبرها أمراً مستقلاً وجعلها هي الغاية من دون أن تكون وسيلة وذريعة إلى الدخول في رضوانه تعالى، وأحبّها حتّى وصل بهم الأمر إلى أنهم جعلوا ما في الدنيا من الأموال والأولاد تغني عنهم، فزيّنت لهم أعمالهم، فكانت الدنيا وبالاً عليهم، فتكون الزينة مستندة إلى الشيطان أو إلى نفس الإنسان، وإن كانت الدنيا مخلوقة لله تعالى، وقد أذن للإنسان أن يتمتّع بها، ليتمّ النظام، ولكن لم يزين الدنيا لتلهّي الإنسان بها ويعرض عن ذكره عزّ وجلّ، فإن الله تعالى أعزّ وأمنع من أن يدبر خلقه بما لا غاية له، أو يوصل الإنسان إلى غاية فاسدة، فالتعبير بالمجهول في (زين) للتنبيه على ما تقدّم كما سيأتي.

وتقدّم معنى الحبّ في آية ١٦٥ من سورة البقرة.

ومادة (شهوة) تأتي بمعنى نزوع النفس إلى ما تريده. وهي إما صادقة، أي ما يقوم بها البدن ولا تتم الحياة البشرية إلا بها، وتكون من

---

(١) الكهف، الآيتان ٧ ـ ٨.

أتمّ ما بني عليه النظام الأحسن، بحيث لو اختلّت لبطل النظام وتعطلت أمور الأنام، فإنها من سنن الحياة المستلذة بها. وإما كاذبة، وهي الشهوة المذمومة، أي الإغواء أو الدافع الشيطاني، وإنها مستقذرة حذّرت الأديان الإلهية منها، وجعلتها محور الانحرافات والأخلاق الذميمة، سواء كانت خفية، أي الصفات الذميمة والأخلاق السيئة التي يضمرها صاحبها ويصرُّ عليها، كما في الحديث عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «أن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفيّة»، أم كانت ظاهرية، وهي ما كانت ظاهر من العمل.

والشهوات: جمع شهوة، وهي توقان النفس للملائم أو الملذ لها، وهي من أهم القوى التي خلقها الله تعالى في الحيوان، ولولاها لما قام له أصل ولا بنيان.

وسياق الآية المباركة يدلّ على أن فاعل التزيين هو الشيطان أو النفس، لأن حبّ الشهوات مذموم، ويشتدّ الذم كلّما اشتدّ الحب، ويخف كلّما خف حتى يصل إلى مرتبة الحب النظامي الذي هو من لوازم الطبيعة في الإنسان والحيوان، فتزول المذمّة رأساً، بل يكون ممدوحاً ويكون خلافه نقصاً ومذموماً، وعلى ذلك يحمل ما ورد عن سيد الأنبياء ﷺ: «أحببت من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء، وقرّة عيني الصلاة»، وسيأتي وجه آخر لحمل كلامه.

ويمكن أن تكون الآية الشريفة في مقام بيان طبيعة الإنسان وما يتدخّل في سلوكه، فإذا وفّق بين الحب والطبيعة، بحيث يتحكّم العقل بالتوفيق بينهما، كانت النتيجة فاضلة والأثر عظيماً، ويكون حبّاً ممدوحاً، وهو الذي يشاؤه الله ويريده ويرتضيه، ولا ريب في أنه ممدوح عقلاً أيضاً، فيكون تزيين الله تعالى هو إذنه وبيان حدوده، فقد زين حبّ

المذكورات في الآية الشريفة المتقدّمة وفق الحكمة المتعالية ليكون وسيلة لتنظيم النظام وبقاء النوع وحسن الاجتماع، وأما إذا ألهى القلب عن التوجّه إلى الله تعالى وأوجب الغفلة عنه عزّ وجلّ، فهو من تزيين الشيطان ووساوسه، وهو مذموم عقلاً أيضاً.

قال تعالى: ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾.

ذكر سبحانه وتعالى أموراً ستة من المشتهيات، وهي الأمور التي تتدخّل في شؤون الإنسان وسلوكه وتحدّد مصيره.

و(من) بيانيّة، والبنين جمع ابن، وهو الذكر من الأولاد، ولكن في المقام يشمل الذكور والإناث، بقرينة قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾(٣)، وإنما أتى عزّ وجلّ بصيغة الذكور إما تغليباً، أو يكون كناية عن حبّهم المذموم الذي كان دائراً بينهم.

وإنما زين حبّ البنين مع كونه من حبّ النساء أيضاً، لأن البنين هم الغاية القصوى من حبّ النساء، وهم النتيجة لذلك الحب.

والقناطير: جمع القنطار، وهو المال الكثير، وفي بعض الأخبار ملأ مسك ذهباً، وقيل: ملأ جلد ثور ذهباً. وقيل غير ذلك، وهو اسم لمعيار خاص أيضاً، وسمّي المال بالقنطار، لأن صاحبه يعبر بواسطته الحياة

---

(١) التغابن، الآية ١٥.
(٢) سبأ، الآية ٣٧.
(٣) الممتحنة، الآية ٣.

الدنيا، ويختلف ذلك اختلافاً كثيراً بحسب الأشخاص والأزمنة والأمكنة وغيرها، كالغنى الذي لا يمكن تحديده بحدّ خاص، ومن حدّدهما إنما يحدّدهما بحسب الجهات الخارجية، لا بحسب ذاتهما.

والمقنطرة اسم مفعول جيء به للتثبيت والتوكيد، كما هو عاد العرب في توصيف الشيء بما يشتق منه للمبالغة وتثبيت معناه له. وهذا التعبير مشعر بالكثرة والاقتناء.

وتعداد المشتهيات باعتبار كون الإنسان ذا أصناف، فإن بعضاً منه يتعلّق حبّه بالنساء، وبعضاً آخر يتعلّق بجمع المال وتخزينه، وثالثاً بالأولاد البنين منهم بالخصوص، ورابعاً بالأنعام والحرث. وربما يجتمع في فرد أكثر من واحد من تلك المشتهيات، فإن الشهوة ذات مراتب متفاوتة شدّة وضعفاً بالنسبة إلى شخص واحد في حالات مختلفة، فضلاً عن الأشخاص.

فالآية المباركة تبيّن طبع الإنسان على نحو القضية الحقيقية، كما أنها ليست في مقام حصر الشهوات، فقد يتعلّق حب الإنسان بالجاه والمقام ونحو ذلك، وإن كانت المشتهيات الأخرى ـ التي لم تذكر في الآية الشريفة ـ أقلّ تاثيراً ممّا ذكر فيها، فهي أمور وهمية تتعلق بها الرغبة ومقصودة ثانوية، فيكون الحصر إضافياً، فلا منافاة بين هذه الآية الشريفة وبين قوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[1]، وسيأتي في البحث العلمي ما يتعلق به.

وتعلّق حبّ الإنسان بهذه الثلاثة واضح، لأن بها ينتظم النظام الاجتماعي في هذه الدنيا، بل النظام الفردي والاقتصادي فيها، وبها

---

(١) الكهف، الآية ٤٦.

تتحقّق أغلب رغباته، وبقدر اشتداد هذه المشتهيات وضعفها يتحدّد سلوك الإنسان ويتعيّن خلقه في الدنيا ومصيره في الآخرة، فإن بالنساء تتحقّق المعاشرة الزوجية إليهن وتسكن النفوس، وهن الطرف الآخر من الحياة التي عليهن مسؤوليات كثيرة في الكفاح والعيش، فالمرأة والرجل متشابكان في عموم المنافع وانتظام النظام، ولأجل ذلك أسّس العلماء قاعدة اصطلحوا عليها بقاعدة الاشتراك، أي اشتراك النساء مع الرجال في الأحكام، إلا ما خرج بالدليل، وقد حدّد الشرع المقدّس هذه الشهوة بحدود خاصة تحدّد مسؤولية كلّ واحد منهما في هذه الحياة وتنظيم شؤونهما، والتعدّي عنها يوجب الفساد والدمار.

وإنما لم يذكر عزّ وجلّ حبّ النساء للرجال ـ مع أن الناس في صدر الآية الشريفة يشمل كلاً منهما، كما أن بقية الشهوات عامة لهما ـ إما لأن من أدب القرآن الكريم والسنّة الشريفة الستر على النساء مهما أمكن، أو لأجل أن كثيراً من الأمور التي تتعلّق بهذه الشهوة إنما يتعلق بالرجال وتقلّ في جانب النساء، فإن الأشد ولعاً بحبّ النساء واتخاذهن صواحب في اللذائذ ونحو ذلك هم الرجال، كما أنهن أشد تأثيراً على الرجال، إذا اشتدّ الغرام والتعشّق بهن.

قال تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِۗ﴾.

المسومة: إما بمعنى الراعية من سامت الإبل سوما إذا ذهبت لترعى، أو بمعنى المعلمة لتعرف من غيرها من السمة بمعنى العلامة، ومنه قوله ﷺ يوم بدر: «سوموا فإن الملائكة قد سومت»، أي اعملوا لكم علامة يعرف بها بعضكم بعضا، وهي تلك الخيل التي يقتنيها الأغنياء وغيرهم للافتخار والتباهي، مضافاً إلى كونها ممّا يبذل بأزائها المال الكثير.

والأنعام وهي الإبل والبقر والغنم، وإنها أموال أهل القرى والبادية، ومنها يكون معاشهم وثروتهم.

والحرث اسم لكلّ ما يحرث، أي المغروس والمزروع، فيشمل نفس الزرع وتربيته، فيكون فيه معنى الكسب. والحاجة إليه أشدّ من غيره، وحبّه لا يكون ضاراً بأمور الآخرة، ولذلك أخّره عن الأنواع السابقة، وبذلك تتم جميع ما يزين أصناف الناس، فقد ذكر سبحانه الأنواع التي توجب الافتنان بكلّ صنف، فالذهب والفضة لأهل التجارة والخيل للملوك وأهل الجاه والمقام، والأنعام لأهل البادية، والحرث لأهل القرى والأرياف، فتصلح الآية الشريفة لكلّ عصر ومصر من دون اختصاصها بنصف خاص مورد كذلك.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

المتاع اسم لكلّ ما يتمتّع به، ويعبّر عنه لكل ما هو في معرض الزوال والاندثار، والتعبير به للتزهيد في الدنيا والترغيب للآخرة، التي هي دار البقاء والحيوان، أي: ما ذكر من المشتهيات هي أمور يتمتّع بها في هذه الدنيا الفانية التي يتزوّد منها برهة من الزمن، يقضي بها حوائجه من دون أن تكون باقية دائمة.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾.

المآب: المرجع، وحسن المآب هو المرجع الذي لا فناء فيه ولا عناء والمنزّه عن كل نقص وعيب، فلا يشغل المتاع الزائل في الدنيا عن الخير الآجل والمطلق في العقبى.

وفي الآية المباركة كمال الترغيب إلى الآخرة، وتحقير الدنيا والتقليل من شأنها.

قال تعالى: ﴿قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ﴾.

تفصيل لما أجمل سابقاً، وبيان لقوله تعالى: ﴿والله عنده حسن المئاب﴾، فقد أمر سبحانه وتعالى نبيّه ببشارة المتقين، بأن لهم عند الله تعالى ما هو أعظم من هذه المشتهيات الزائلة المحدودة، التي لا تبقى ولا تدوم، وهو الخير للإنسان، فلا خير في ما سواه، وهو وإن كان مشابهاً لما في هذه الدنيا ومجانساً للشهوات الإنسانية، ولكنها أجلُّ النعم وأعظمها، وهو خال عن النقص وبريء عن القبح والشرور، وقد ذكر سبحانه ذلك في كلام بليغ تتوجّه إليه النفوس وتهتزّ من فرح اللقاء الأرواح والقلوب. وفيه جذبة ربوبيّة من الملكوت الأعلى للمتّقين المسجونين في سجن الدنيا، وقد وعدهم الجنة ومطهرات الأزواج والرضوان.

ومن إطلاق الخير يستفاد أنه خير في ذاته ومن جميع شؤونه وجهاته.

وإما أتى سبحانه بالكلام على صورة الاستفهام، لتوجيه النفوس إلى الجواب وتشويقهم إلى العمل، وهو أسلوب فصيح يؤثّر في النفس ويستفزّها على إصغاء الجواب.

قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ﴾.

جملة (للذين اتقوا) خبر مقدّم، وجملة: (جنات تجري) مبتدأ مؤخّر. والتقوى هي إتيان الواجبات الشرعية واجتناب المحرمات الإلهية، وهي المراد بالعمل الصالح الذي كثر الاهتمام به في القرآن الكريم، كما أنها الورع الذي حثّت عليه السنّة القدسية بألسنة شتّى، فقد ورد: «أن مَن

اجتنب محارم الله فهو من أورع الناس»، وهي أساس الكمالات وقرّة عين الأنبياء والمرسلين، وهي السبب المتّصل بين أهل الأرض والسماء، وبها ينتظم نظام الدنيا والعقبى.

ولفظ الجنّات يدلّ على كثرة الأشجار واستتار الأرض بها وتعدّدها وجريان الأنهار من تحت الأشجار إنما هو لأجل تماميّة بهجة الجنّات وازدياد رونقها، وكون الجنّات كذلك من أجلى مظاهر الفرح والانبساط، لا سيما إذا استيقن الإنسان بدوام تلك النعمة، ولذا عقّبها قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾، لتماميّة النعمة، بخلاف نعيم الدنيا.

ولجريان الأنهار أنواع كثيرة: منها ما إذا كان منبع الأنهار من غير تحت الأشجار، ومنها ما إذا كان المنبع من تحتها، ومنها ما إذا كان نزول الماء من الفوق في الأنهار ثم الجريان منها صاعداً (على نحو الفوارة) بالقدرة الأزلية الخلاّقة إلى غير ذلك، وبالجملة أن هذه الجنّات تشتمل على جميع اللذائذ بأعلى مراتبها.

والأزواج المطهّرة هي تلك الأزواج التي يرغب إليها الإنسان، التي تكون طاهرة من جميع الرذائل ومبرّأة من كل عيب وذم ونقصان، خلقاً وخُلقاً بما يلائم طبع الإنسان، فهي في غاية الملاحة والبشاشة والسرور، وفي ذلك تمام النعمة.

وقد خصّ الله تعالى الأزواج بالذكر من بين سائر اللذائذ الجسمانية، لأن النساء أعظم المشتهيات النفسانية، والوقاع من أشدّ اللذائذ عند الإنسان.

قال تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

الرضوان بكسر الراء أو ضمها من الرضا مصدران، وهو ملائمة الشيء لنفس صاحبه وسرورها به.

وقد تكرّرت مادة (رضى) في القرآن الكريم بهيئات شتّى تبلغ سبعين مورداً، وقد ينسب الرضا إلى الله عزّ وجلّ ويراد به عناية خاصة غير محدودة بأي حدّ من النعم المعنوية، بلا فرق بين أن يكون رضاؤه تعالى بالنسبة إلى أفعال العباد وطاعتهم له عزّ وجلّ، أو صفاتهم وأحوالهم، أو بالنسبة إلى أمر آخر يتعلق بهم، قال تعالى: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾[٣].

وقد ينسب إلى العبد، وهو أخر مقامات العبودية الخالصة الذي هو التخلّق بأخلاق الله تعالى، والتفاني في حبه، ولذلك درجات كثيرة، منها رضاء العبد عن الله تعالى لجزائه الحسنى وحكمه، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[٤].

ورضوان الله تعالى هي الغاية القصوى لكلّ ذي لب، وهي أعلى مراتب اللذائذ الروحانية، وذكره بالخصوص إنما هو لأجل بيان أن الرضا هو أقصى ما يشتهيه الإنسان من مشتهيات الدنيا، بل هو الغاية منها، فلا بد من السعي إلى رضوان الله تعالى الذي هو أعظم اللذائذ عند المتّقين وذوي الألباب، فهو الخير الذي لا يتصور أعظم منه، لا ما يتصوّره الإنسان من الخير في المال والقناطير، فإن ذلك إنما يكون برضائه تعالى،

---

(١) الفتح، الآية ١٨.
(٢) المائدة، الآية ٣.
(٣) الزمر، الآية ٧.
(٤) التوبة، الآية ١٠٠.

ولذلك اعتنى عزّ وجلّ به وأفرده بالذكر في مقابل الجنّات والأزواج المطهّرة في هذه الآية وفي سائر الآيات التي اقترن بغيره من اللذائذ، قال تعالى: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾[١]، وقال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ﴾[٣].

وقد جمع سبحانه وتعالى في هذه الآية الشريفة اللذائذ الجسمانية في الآخرة، وهي الجنّات والأزواج المطهّرة، واللذّة المعنوية الروحانية، وهي: الرضوان الذي يحدّه حدّ ولا يشوبه نقص.

ويستفاد من الآية الشريفة اختلاف درجات المتّقين في الآخرة، وأن لأهلها مراتب وطبقات، فمنهم مَن لا يليق به إلا اللذائذ الجسمانية، كالجنّات والأزواج المطهّرة، ومنهم مَن عظمت منزلته وارتقى إدراكه وعلا قربه، فلا يليق به إلا رضوان الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

أي: والله خبير بعباده عليم بأفعالهم وما تطويه ضمائرهم، فلا تخفى عليه خفاياهم وأمورهم، فيجازي كلّ فرد بما يكسبه وما يليق بأفعاله.

ويستفاد من الآية الشريفة أن امتياز كلّ فرد من أفراد الإنسان بما يشتهيه الداخل في عواطفه وسلوكه في حياته الدنيوية والأُخروية تحت إرادة الله تعالى وحكمته البالغة، وهو عالم بمصالحهم وجزائهم لا تخفى عليه أمورهم، فهذه الآية الشريفة بمنزلة التعليل لجميع ما سبق ذكره.

---

(١) المائدة، الآية ٢.
(٢) التوبة، الآية ٢٢.
(٣) الحديد، الآية ٢٠.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾.

بيان لصفات المتّقين المدلول عليهم بقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا﴾، وهي من الصفات الحميدة، وفيه إشارة إلى بعض صفات المحبّين المخلصين، وبعض مقامات العارفين، كلّ ذلك في خطاب بليغ إلى أعزّ حبيبه وأطهر قلب من الشرك وأنواع العيب، وفيه تظهر المعبوديّة المحضة للمعبود الحقيقي، كما أن فيه وعد الاستجابة للطائعين والعابدين.

والقول: مطلق ما يشعر بالحكاية عمّا في الضمير، بخلاف الكلام فإنه أعمّ من القول. فكل كلام قول ولا عكس، والمراد به في المقام مطابقة ضمائرهم مع ما يقولون بألسنتهم، وسياق الآية الشريفة شاهد لما قلناه.

ومادة (غفر) تأتي بمعنى إزالة الوسخ والدنس، يقال: «اغفر ثوبك في الوعاء ليذهب عنه وسخه»، وهي من الموارد الكثيرة الاستعمال في القرآن الكريم بهيئات مختلفة جداً، وقد أضافها الله تعالى إلى نفسه الأقدس في مواضع متعدّدة من القرآن الكريم، فهو الغفّار والغفور، وأن منه المغفرة، قال عزّ وجلّ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿أولئك لهم غفرة وأجر كبير﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[(٤)]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[(٥)].

---

(١) الرعد، الآية ٦.
(٢) طه، الآية ٨٢.
(٣) هود، الآية ١١.
(٤) آل عمران، الآية ٣٥.
(٥) يوسف، الآية ٩٨.

ومادة (ذنب) تأتي معنى التبعة، أي القبح الذي يتبع صاحبه، والفرق بينه وبين الجرم بالاعتبار، لأنه بمعنى القطع، أي يقطع ارتباط صاحبه بالله تعالى، فكلّ مجرم مذنب وكذا العكس.

والآية المباركة في مقام بيان استنجاز الوعد بعد الإيمان بالله تعالى ولذا فرع غفران الذنوب على الإيمان، يعني: أننا وفينا بما عهد إلينا وهو الإيمان، فانجز الله بوعدك بستر ذنوبنا بعفوك وخلاصنا من عذابك. وعهد الله تعالى هذا مذكور في جملة من الآيات صريحاً وضمناً، منها قوله تعالى: ﴿وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾(٣).

ومعنى الآية الشريفة: الذين يؤمنون ويعترفون بحقيقة العبودية لله تعالى والإيمان به عزّ وجلّ، ويجعلون ذلك وسيلة لطلب غفران الذنوب ونجاتهم من عذاب النار، لهم جنات تجري من تحتها الأنهار.

والآية المباركة ليست في مقام المنّة عليه عزّ وجلّ، بل له تعالى المنّة على عباده أن هداهم إلى الإيمان.

وإنما خصّوا اسم الرب في دعائهم لما فيه من إظهار العبودية والاسترحام.

---

(١) الأحقاف، الآية ٣١.
(٢) الزمر، الآية ٥٣.
(٣) الصف، الآيات ٩ ـ ١٢.

وإطلاق الآية المباركة يشمل جميع الذنوب الكبيرة والصغيرة، وقد قرّر عزّ وجلّ إيمانهم مع ذلك، فتكون الآية الشريفة حجّة على مَن قال بأن ارتكاب الكبيرة لا يجتمع مع الإيمان.

نعم، لو أراد أنه حين الارتكاب يزول إيمانه العملي بخصوص ما ارتكبه، كما هو المستفاد من قوله ﷺ: «لا يزني الزاني وهو مؤمن»، فله وجه، لكنّه لا ينافي بقاء أصل الإيمان بنحو الجملة والإجمال.

والوقاية من عذاب النار والنجاة منها أعمّ من المغفرة والدخول في الجنّة، وإنما طلبوا النجاة من عذاب النار لأنها الوسيلة للوصول إلى الجنة ومقدّمة له.

قال تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾.

الصابر هو الحابس نفسه عن ارتكاب المعاصي والملازم لامتثال الأوامر، والصادق المخبر بالشيء على ما هو عليه، والقانت المطيع، والقنوت لزوم الطاعة مع الخضوع، وقد فسّر بكلّ واحد منهما أيضاً، ولكن إذا استعمل في الأنبياء والأولياء وعباد الله المخلصين يراد به هما معاً، قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾[(١)]، والإنفاق هو بذل ما هو راجع بذله، فيشمل المال والجاه والعلم وقضاء حوائج الناس، والأسحار جمع سحر، وهذه المادة في أية هيئة استعملت تفيد معنى الخفاء والإخفاء. وفي المقام عبارة عن اختلاط ظلام آخر الليل بضياء الفجر، وهو اسم لذلك الوقت، وهو أفضل الأوقات وأشرفها وأحسنها للعبادة، وأطيبها لحضور القلب والإقبال على الدعاء والمناجاة مع الرب،

(١) النحل، الآية ١٢٠.

وأبعدها عن مداخلة الرياء، وكلّما قيل في مدحه وفضله فهو قليل، فكم لله تعالى فيه من نفحة عطرة منّ بها على مَن يشاء وجائزة موفرة يخصّ بها مَن أخلص في الدعاء، وكم من عبادة فيها هبّت عليها نسمات القبول، ودعوة من ذي طلبة مشفوعة بالمأمول، فهو وقت العلماء العاملين والعرفاء المتعبّدين، وهو وقت نجوى الحبيب مع الحبيب، بلا تخلل مغاير أو رقيب، فالسعيد مَن أدرك هذا الوقت الشريف واستفاد من رحمة الرب اللطيف.

وهذا الوقت من آخر معلوم، وهو اختلاط ظلام الليل بضياء النهار، وأما من أولّه، فعن جمع هو السدس الأخير من الليل، وعن آخرين أنه الثلث الأخير منه، وعن آخر أنه الثمن، والكلّ صحيح بحسب مراتب الفضل، وقد تعرّضنا لبعض الكلام فيه في كتابنا [مهذب الأحكام] فراجع.

والآية المباركة تشتمل على خمس خصال وصف بها المتّقون، وهي أمهات الصفات الحسنة والخصال الحميدة والأخلاق الكريمة، فبالصبر ينال الإنسان أعلى المقامات ويتحلّى بمحاسن الأخلاق، وبدونه لا يمكن أن يصل إلى درجة التقوى، ولذا قدّمه سبحانه في الكلام. وإطلاقه يشمل الصبر على الطاعة والصبر عن المعصية والصبر عند المصيبة، وهو والصدق من أعلى مقامات السالكين إلى الله تعالى وأفضل درجات أهل الحقّ واليقين، خصوصاً إن عمّمنا الصدق ليشمل صدق اللسان والحركات وخطرات الجنان وتطابق الظاهر مع الباطن، فحينئذٍ لا يتصوّر للعبودية مقام فوق ذلك إن طابق كلّ ذلك مع الشرع المبين واقترن مع الخضوع والتذلّل لله تعالى.

وهذه الخصال الخمس تستجمع جميع الخصال الحميد والأخلاق

الكريمة، ولا يشذ منها كلّ متّق، وهي خصال متكاملة تشيد صرح الإنسانية الكاملة وتبلغها إلى أوج السعادة وأقصى الدرجات.

وبالأولى منها ينال الإنسان تلك الصفات والخصال الكريمة التي تعلق بالنفس وتبعدها عن رذائل الأخلاق.

وبالصدق يتحلّى بالصفات التي تتعلّق بالظاهر.

وهاتان الخصلتان ترجعان إلى نفس الإنسان وتصلحان سريرته وعلانيّته.

والقنوت لله تعالى يجعل الإنسان خاضعاً ذليلاً بين يدي عظمته، مطيعاً لإرادته عزّ وجلّ، وهذ الخصلة تصلح ما بينه وبين الله تعالى.

والإنفاق يبعده عن رذيلة الشح ويجعله يشعر بما يجري على أخيه الإنسان، فيتحسّس بالمسؤولية، فهذه الخصلة تصلح بينه وبين الناس.

وأما القيام بالسحر، فهو ارتباط مع عالم الغيب طلباً منه العون في جميع أموره والاستعاذة من الشيطان والنفس الأمّارة.

والاستغفار بالأسحار هو القيام آخر الليل والصلاة فيه وطلب الرحمة والمغفرة، كما فسّرته السنّة المقدّسة بذلك، وما ورد في الآيات الكريمة بالنسبة إلى السحر على أقسام ثلاثة:

الأول: هذه الآية الشريفة وقوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾[1].

الثاني: قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا

---

(١) الذاريات، الآيات ١٧ ـ ١٩.

وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[١].

الثالث: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[٢]، والتهجّد بالليل هو الاستيقاظ بالعبادة من قراءة القرآن والدعاء والصلاة ونحوها من العبادات، ويستفاد من الجميع مطلوبيّة أصل الاستغفار في خصوص هذا الوقت الشريف، ولها مراتب كثيرة، منها أن يكون في الوتر من صلاة الليل، وهي أفضلها وأشرفها، ومنها أن يكون في ضمن الدعاء والمناجاة ولو كانا في غير الصلاة، ومنها نفس كلمة: «استغفر الله ربي وأتوب إليه»، ومقتضى الإطلاق مطلوبيّة الجميع مع اختلاف المراتب.

والاستغفار بالسحر يوجب التوفيق لترك الذنوب في أثناء النهار، فيكون سبباً لمحو الذنب السابق، ومقتضياً لترك الذنب اللاحق، فتستعدّ نفوس المستغفرين في الأسحار بذلك للاستعانة بأنوار الجلال والاستفادة من فيوضات الرحمن التي لم تزل ولا تزال.

---

(١) السجدة، الآيتان ١٧ ـ ١٨.

(٢) الإسراء، الآية ٧٩.

بحوث المقام

بحث دلالي

يستفاد من الآيات الشريفة أمور:

الأول: يدلّ قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾، على أن جميع ما يلهي الإنسان عن ذكر الله تعالى وما يؤثّر في سلوكه في دار الدنيا إنما هي هذه المذكورات في الآية الشريفة، وهي ردّ على مَن ذهب إلى أن عواطف الإنسان وأحاسيسه إنما توجّهها الشهوة الجنسية فقط، فهي التي تحدّد سلوكه في حاضره ومستقبله وتوجب الكآبة والأمراض النفسية أو الجسمية إن كبتها الفرد، ولذلك دعى إلى الإباحة الجنسية، وسيأتي في البحث العلمي تتميم الكلام.

الثاني: يستفاد من سياق الآية المباركة أن الفاعل لتزيين المذكورات فيها إنما هو الشيطان الذي يزين أعمال الإنسان، كما ورد في جملة من الآيات الشريفة القرآنية، قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٢]، فيكون حب

---

(١) العنكبوت، الآية ٣٨.
(٢) الأنعام، الآية ٤٣.

هذه الأشياء صارفاً عن محبة الله تعالى ما لم يجعلها الإنسان في طريق السعادة والفوز بالفلاح، ولا ينافي ذلك أن يكون أصل هذه الأشياء وطبايعها من صنع الله تعالى الخالق الحكيم القيوم على خلقه المدبر لهم تدبير علم وحكمة فإن من سنّته عزّ وجلّ أنه خلق الإنسان حرّاً مختاراً في أعماله، وأودع في خلقه بديع صنع وأرسل الرسل لهداية الناس وأنزل معهم الكتاب والحكمة لسعادتهم، وقد خلق إبليس الذين يوسوس للإنسان ويصرفه عن طريق الخير والسعادة على نحو الاقتضاء، كما لم يمنع الإنسان من اتباعه، كلّ ذلك لئلا يثبت الجبر فيبطل الثواب والعقاب، ولإتمام الحجّة والامتحان وتمييز المؤمن عن غيره، وإثبات التكليف والتشريع وتثبيت قانون الجزاء.

الثالث: أن التزيين على حبّ الشهوات دون نفسها، للدلالة على أن تلك الأمور بنفسها لم تكن مذمومة، فإن الشهوات الإنسانية لها دخل في الحياة وبها يتمّ النظام، ولكن إن تعلّق الحبّ بها بحيث يكون صدّاً عن الله تعالى، فيرجع تزيين حبّها للناس إلى جعل هذه الأمور في أعينهم بحيث يكون شغلهم الشاغل، والتولية فيها سبباً للإعراض عن الله تعالى، بأن يجعلوها أهدافاً لهم فقط لا وسيلة، فيكون هذا الحبّ مذموماً وتزداد المذمّة كلّما اشتدّ الحبّ، وتخف كلّ ما خف وضعف حتى يصل إلى مرتبة الحبّ النظامي الذي هو من لوازم الطبيعة الإنسانية ووسيلة تنظيم الحياة لكسب مرضاة الله تعالى، فتزول المذمّة رأساً، ويكون خلافه نقصاً ومذموماً، ويستفاد ما ذكرناه من جملة الآيات الشريفة، منها قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ

(١) الأعراض، الآية ٣٢.

﴿مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾[١]، إلى غير ذلك من الآيات المباركة، وعلى ذلك يحمل ما ورد عن المعصومين عليهم السلام في مدح بعض المشتهيات، منها ما عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «أحببت من دنياكم ثلاث: الطيب، والنساء، وقرّة عيني الصلاة».

الرابع: قد ورد في الآية الشريفة أقسام الشهوات التي تختلف رغبات الناس فيها ـ كما مرّ ـ فهم على أصناف بالنسبة إلى حبّها، فمنهم مَن يتعلّق حبّه بالنساء ولاهم إلا التعشّق بهن وصرف همه في المؤانسة بهن ومصاحبتهن، وإن استلزم المحرّمات ووجوه الفساد، ومنهم مَن يحب التكاثر والتقوي بالأولاد، وهذا لا يكون إلا بالبنين دون البنات، ولهذا خصّ ذكرهم دونهن، ومنهم مَن هو مغرم بالمال وجمعه، وهذا يتحقّق بالذهب والفضة اللذين بهما يتقوّم سائر الأشياء، ويكون حبّه لغيرهما بالتبع، ومنهم مَن يحبّ الحرث والزرع أو اتخاذ الأنعام، ومنهم مَن يحبّ الفروسية فيتخذ الخيل المسوّمة.

وربما يتحقّق في شخص واحد قسم واحد من هذه الشهوات، وربما يجتمع أكثر من واحد، وقلّما يجتمع جميعها في شخص واحد، فالآية الشريفة مع أنها في مقام بيان تعداد المشتهيات وتكثّرها، تكون في مقام بيان أصناف الناس واختلافهم في حبّ هذه المشتهيات بالملازمة.

الخامس: يدلّ قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾، على أن ما في الآخرة مشابه لما في الدنيا، وأن الإنسان يلتذّ بنعيم الآخرة كما يلتذّ بنعيم الدنيا من المأكل والمشرب والمناكح وغير ذلك، وأن الفرق هو أن نعيم الآخرة لا يشوبه نقص وأنه يختصّ

(١) القصص، الآية ٧٧.

بالمؤمن، بخلاف نعيم الدنيا، وذلك لأن وجود الإنسان في الآخرة عين وجوده في الدنيا، فهو بنفسه متقوّم بالاستفادة من اللذائذ دنيويّة كانت أو أُخروية، ولكلّ منهما أسباب خاصة تختلف باختلاف العوالم، وهو لا يوجب الاختلاف بحيث يعرض عن نعيم الآخرة وتكون باطلة وعبثا بالنسبة إليه، ويدلّ على ما قلناه جميع الكتب السماوية، خصوصاً القرآن الكريم في مواضع متعدّدة، ويؤكّد ذلك في قوله تعالى في آخر هذه الآية: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾، وسيأتي في الموضع المناسب تفصيل الكلام إن شاء الله تعالى.

السادس: يدلّ قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾، على نوعين من الجزاء..

أحدهما: جسماني، وهو الجنّات التي تجري فيها الأنهار والأزواج الطاهرة.

والثاني العقلي الروحاني الذي هو من أعظم اللذّات، وهو رضوان من الله تعالى الذي لا يتصوّر فوق لذّة.

السابع: يدلّ قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى﴾ على مراتب الجنّة، واختلاف درجات أهل الجنّة، وأنهم على مراتب ودرجات.

الثامن: يستفاد من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أن هذه الشهوات هي أمور دنيئة بالنسبة إلى ما عند الله عز وّجلّ من الرضوان والجنان، وأن هذه الشهوات هي أمور زائلة وقتية ليست مبنية على الحقيقة والواقع، وإنما خلقها الله تعالى لإقامة هذه الحياة الفانية الزائلة وتكوين الاجتماع الإنساني، وبدونها يعرض الاختلال بل الفناء عليه.

التاسع: إنما قدّم سبحانه وتعالى النساء على جميع الشهوات، لأنهنّ حرث بني آدم، وأن شهوة النساء هي أكثر الشهوات إعمالاً عند الناس، وهي من أعظم اللذائذ الجسمية عند الإنسان، بل هي الركن الاساسي في الحياة، ولذا ورد في الحديث: «أن مَن تزوج فقد أحرز نصفه دينه أو ثلث دينه»، ولكن ليست هي الركيزة الوحيدة في الإنسان، كما يدّعيه بعض علماء النفس.

العاشر: إتيان لفظ «الجنات» في قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾، يدلّ على تعدّدها لكلّ واحد من المتّقين، مجهّزة بكلّ ما يتصوّر فيه من الفرح والانبساط والسرور والراحة، كماً وكيفاً، وذلك لأجل تعدّد موجبات استحقاق الجنان في هذه الدنيا، كما هو واضح.

الحادي عشر: يدلّ قوله تعالى: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾، على أن رضوان الله تعالى هو من مشتهيات الإنسان في الدارين، لأنه إنما يطلب مشتهيات الحياة الدنيا لأجل رضاء النفس بها وراحتها، فهو من مشتهياته إما بحدّ ذاته، أو بالملازمة، ولذا جعله تعالى في مقابل الجنات والأزواج في هذه الآية الشريفة، وفي مقابل الفضل والمغفرة والرحمة في آيات أخرى، قال تعالى: ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَٰنًا﴾[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ﴾[(٣)].

وإنما أطلق سبحانه الرضوان في المقام للدلالة على شموله للنفس، والصفة والفعل وجميع الخصوصيات.

---

(١) المائدة، الآية ٢.
(٢) الحديد، الآية ٢٠.
(٣) براءة، الآية ٢١.

الثاني عشر: يدلّ قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾، على تفصيل ما أجمله سبحانه في قوله تعالى: ﴿ٱتَّقَوْاْ﴾. أي أن التقوى إنما تتحقّق بما ذكر في الآية الشريفة، وهي الإيمان بالله، وإظهار العبوية له عزّ وجلّ، والاسترحام منه تعالى في طلب العفو والغفران، والصبر على الطاعة وعن المعصية وفي الخطوب، والصدق في القول والفعل، والخضوع له عزّ وجلّ، والإنفاق في سبيله تعالى، وقيام الليل والتهجّد فيه بالاستغفار.

الثالث عشر: إنما قرن سبحانه الاستغفار بالإنفاق في الآية الكريمة، للدلالة على أن شحّ النفس من أقوى موجبات الحرمان عن قربه عزّ وجلّ.

الرابع عشر: إنما أجمل تبارك وتعالى الاستغفار والدعاء في السحر للإشارة إلى كثرة أهمية هذا الوقت، ولا بد أن لا يفوت فضله على الإنسان بالدعاء وطلب الغفران.

بحث روائي

في الكافي: عن الصادق عليه السلام: «ما تلذّذ الناس في الدنيا والآخرة بلذّة أكثر لهم من لذّة النساء، وهو قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ﴾، ثم قال: وإن أهل الجنة ما يتلذّذون شيء من الجنّة أشهى عندهم من النكاح، لا طعام ولا شراب.

أقول: رواه العياشي في تفسيره أيضاً. والوجه أنه تعالى لم يخلق ألذّ من النساء في الجنة، لأنهنّ من منشآت الله تعالى مباشرة، كما قال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً * فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا * عُرُبًا أَتْرَابًا﴾[1]، فإنهنّ الجزء

(١) الواقعة، الآيات ٣٥ ـ ٣٧.

الأعظم من النظام الأتمّ كما تقدّم، ولأنها المؤانسة بما خلق من رحمته جلّت عظمته، هذا بحسب اللذائذ الجسمانية، وأما غيرها، فله شأن آخر سيأتي في البحث الفلسفي إن شاء الله تعالى.

وفي تفسير القمّي في قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾، قال أبو عبد الله عليه السلام: «القناطير جلود الثيران مملوءة ذهباً».

أقول: رواه في المجمع عن الباقر والصادق عليهما السلام أيضاً، وهو من أحدى معاني القناطير المقنطرة، وتقدّم تفسيرها بالمال الكثير الجامع لجميع ذلك.

وفي تفسير القمّي ـ أيضاً ـ: قال عليه السلام: «الخيل المسوّمة الراعية والأنعام، والحرث يعني الزرع».

أقول: تقدّم ما يرتبط بذلك في التفسير.

وفي تفسير العياشي: في قوله تعالى: ﴿فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾، عن الصادق عليه السلام: «لا يحضن ولا يحدثن».

أقول: هذا من مصاديق الطهارة، وإلا فهنّ طاهرات من كلّ خبث ودنس ورذيلة.

وفي الفقيه والخصال عن الصادق عليه السلام: «مَن قال في وتره إذا أوتر: استغفر الله وأتوب إليه سبعين مرة وهو قائم، فواظب على ذلك حتى تمضي سنة، كتبه الله تعالى عنده من المستغفرين بالأسحار ووجبت له المغفرة من الله تعالى».

وفي المجمع: عن الصادق عليه السلام قال: «مَن استغفر سبعين مرة في وقت السحر فهو من أهل هذه الآية».

أقول: الروايات في فضل الاستغفار ـ خصوصاً في الليل ـ كثيرة جداً تعرّضنا لبعضها سابقاً، ويمكن أن يستفاد وجوب المغفرة من استجابة الله تعالى دعاء المؤمنين ف يهذه الآية الشريفة: ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾[(١)].

(١) م ـ ن، ص١٠٩ ـ ١٢٩، ج (٥).

الغرور

الغرور: هو استعظام النفس أو عمل من أعمالها أو صفة من صفاتها، بحيث يوجب قصر النظر وانحصاره في ذلك وقطعه عن خالقه ومدبره ومديره، وهو من مبادىء الشرك، بل نفسه لدى النفوس القدسية، قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[١].

والغرور رذيلة من الرذائل الخلقيّة، بل يمكن أن يسمّى بأُم الرذائل والخبائث.

وقد استعملت مادة (غرر) في القرآن الكريم في موارد شتى مقرونة بالذم، قال تعالى: ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾[٣]، ويكفي في ذم الغرور أن الدنيا تسمّى بمتاع الغرور، قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[٤]، لأنها من مراتع الشيطان، وهو يوجب الحرمان عن جملة من مكارم الأخلاق والبعد عن ساحة الرحمن.

وإذا لاحظ المغرور نفسه رأى أنه ممكن من الممكنات، وحقيقة

---

(١) يوسف، الآية ١٠٦.
(٢) الإسراء، الآية ٦٤.
(٣) الملك، الآية ٢٠.
(٤) الحديد، الآية ٢٠.

الممكن هي العدم المحض بالنسبة إلى ذاته، وإنما يكون له حظ من الوجود من حيث الإضافة إلى جاعله وخالقه بحسب ما قدر له، فهو الربّ المدبّر لأحواله وجميع شؤونه وإضافاته وخصوصياته، وأن ما يحصل له يكون في معرض الزوال، فهو لا حول له ولا قوة له إلاّ بالله العليّ المدبّر العظيم، فلا يبقى موضوع للغرور، وما يعتقده المغرور إنما هو وهم وخيال، ومن نشأ في عالم الأضداد ودار الكون والفساد وتزاحم الآراء واختلاف الأهواء مع غلبة مشيئة العزيز الجبّار، كيف يصلح له أن يغتر بشيء. وكيف يرى شأناً لنفسه من نفسه، فإنه من أعظم أنواع كفران المنعم ونسيان النعمة والانهيار في الهاوية، وهذه من المقامات التي تحط دونها الرحال وتزل فيها أقدام الرجال.

وينحصر علاج هذا الداء العظيم المهلك بالتفكّر في عظمة الله تعالى وفناء الدنيا وما فيها، والتفكّر في الحوادث الواقعة بين أيدينا، وبعد التأمّل في جميع ذلك يزول الغرور لا محالة، كما نرى في حالات الأنبياء والأولياء وعباد الله المخلصين، فإنهم لا يرون لأنفسهم شأناً إلا بإضافة أنفسهم إلى الله تعالى، قال علي عليه السلام: «كفى بي فخراً أن أكون لك عبداً، وكفى بي عزّاً أن تكون لي ربّاً»، وقد سأل شخص مولانا الباقر عليه السلام: «أنت من علماء أمة محمد صلى الله عليه وآله؟ فقال عليه السلام: لست من جهّالها»، وفي الصحيفة الملكوتيّة السجاديّة: «اللهم لا ترفع لي درجة عند الناس إلا حططتني عند نفسي مثلها»[(١)].

(١) م - ن، ص١٧٢ - ١٧٣، ج (٥).

البر والإنفاق في القرآن

﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ * كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى جملة من أحوال الكافرين، وبيّن الميثاق الذي أُخذ منهم، وحاجّهم في ما ادعوه من الإيمان، ثم سرد أقسام الكافرين، وبيّن أن قسماً منهم تقبل توبتهم إذا كانوا في مقام الإصلاح وأتوا بالعمل الصالح.

يذكر عزّ وجلّ في المقام أن الإيمان لا بد وأن يقترن بالعمل بالأحكام الإلهية التي أنزلها الله تعالى على رسله، وأن الميزان الصحيح هو متابعة ملة إبراهيم ونبذ الشرك والكفر والعناد، وأن من أهم مظاهر الإيمان والعمل الصالح هو الإنفاق في سبيل الله تعالى، بل أن البر هو الثمرة الظاهرة للإيمان، فلا بد أن يقترن ذكره، لأن البر يكشف عن محبّة الله تعالى والزهد في حطام الدنيا والرغبة إلى ثوابه عزّ وجلّ ورضائه، فمن آثر شهوة المال وجمعه كان ممّن آثر حبّ الدنيا على محبّة الله تعالى، فالإنفاق في سبيل الله تعالى هو الميزان الفارق بين الإيمان الحقيقي والادعائي.

ثم بيّن بعض مفتريات اليهود على الله تعالى، وفنّد مزاعمهم ووبّخهم على التعدّي في أحكام الله والشرك به، وأوعدهم العذاب.

التفسير

قال تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾.

النيل هو الإصابة والوصول، وفي الحديث: «خرج بلال بفضل وضوء النبي ﷺ فبين ناضح ونائل»، أي مصيب منه وآخذ.

والبر: هو كلّ ما يصحّ أن يتقرّب به إلى الله تعالى من الخير والإحسان والفعل المرضي، ومن أسمائه تعالى: «البر» بالفتح، أي العطوف على عباده ببره ولطفه، وتقدّم في قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾[1]، بعض ما يتعلق باشتقاق هذه الكلمة.

والمشهور أن الخطاب للمؤمنين، ولكن يمكن أن يكون الخطاب للجميع، لا سيما بعد ورود هذه الآية بعد الآيات التي بيّنت أقسام الكافرين، وما سيذكره عزّ وجلّ من بيان خلاف اليهود وافترائهم.

والمراد بنيل البر: هو الدخول في زمرة الأبرار، والوصول إلى الدرجات العالية والثواب الجزيل الذي أعده الله تعالى لهم، وقد اختلف المفسرون في المراد بالبرّ الذي يناله المنفق في المقام، فقيل: إنه الجنّة، وقيل: إنه برّ الله تعالى وإحسانه، وقيل غير ذلك، ولكن كلّ ذلك يرجع إلى ما ذكرناه، وما ذكروه يكون أحد أفراده.

والبر كما يشمل الأفعال الخيرة كعبادة الله تعالى والطاعة له عزّ وجلّ بإتيان الواجبات وترك المحرمات والإنفاق في سبيل الله تعالى،

(١) البقرة، الآية ١٧٧.

يشمل أيضاً ما هو فعل القلب، كالإيمان بالله عزّ وجلّ وكتبه ورسله، والاعتقاد الحقّ، والنية الصادقة، وتهذيب النفس بمكارم الأخلاق، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[1]، فإنه تعالى جمع القسمين من البر: الأفعال القلبية والأفعال الجوارحية.

كما أن الإنفاق عام يشمل الإنفاق من الأموال وغيرها، ولكنه بقرينة ما يأتي يختصّ بتلك الأشياء التي يرغب إليها الإنسان ويعتزّ بها الأفراد ويهواها ويحبّها، وهو يعمّ المستحبّ وغيره، ولا معنى للنسخ حينئذٍ، لأن وجوب بعض أفراد الإنفاق لا ينافي استحباب بعضها الآخر.

وإنفاق المحبوبات والمشتهيات في سبيل الله تعالى من أعظم ما يختبر به الإيمان الصحيح عن الإيمان الفاسد، لأن فيه يظهر الاعتزاز بالإيمان بالله ومحبّته عزّوجلّ، التي لا بد أن تعلو على محبّة الأموال وغيرها، التي يعتزّ بها الإنسان وتشحّ بها نفسه ويرغب في ادخارها، فهو كاشف عن رضى الله تعالى والرغبة في ثوابه والإيمان الصادق، فيكون الإنفاق في حبّه براً يرضاه الله تعالى بالشروط التي ذكرها عزّ وجلّ في آيات الإنفاق في سورة البقرة.

وذكر بعض المفسّرين أنه يفهم من الحصر المستفاد من النفي والإثبات ـ أي: من إثبات البر في الإنفاق ونفيه عن غيره، وأن الإنفاق

(١) البقرة، الآية ١٧٧.

غاية لا ينال البرّ إلا بها ـ أن مَن أنفق ممّا يحبّ كان براً، وإن لم يأت بسائر شعب البرّ من الإيمان بجميع أركانه.

ولكنه باطل، لأن هذه الآية ـ بانضمام سائر الآيات الواردة في الإنفاق ـ يستفاد منها أن إنفاق المحبوب هو أحد أركان الإيمان، وقد جمع سبحانه وتعالى الإنفاق مع سائر أركان الإيمان وشعبه في سورة البقرة الآية ١٧٧. وإنما جعل الإنفاق غاية لنيل البر هنا للاهتمام به، لما يترتب عليه عظيم الفائدة، ولما فيه الآثار الكبيرة التربوية والنفسية والاجتماعية، ولأن الإنفاق من أهم الأساليب في ترويض غريزة النفس في حبّ الدنيا وما فيها، يكون فقد المال موجباً لتأمّله بخلاف غيره، كما قال علي عليه السلام: «ينام الإنسان على الثكل، ولا ينام على الحرب»، وقد تقدّم في آيات الإنفاق في سورة البقرة بعض ما يتعلّق به.

يضاف إلى ذلك أن قوله: ﴿مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ يدلّ على أن الشيء الذي يبذل لا بد أن يكون مرضياً لله تعالى، فإن الشيء الزهيد الذي لا ترضونه لا يدخل في الإنفاق المحبوب، لأن القصد هو التقرّب إلى الله تعالى وابتغاء وجهه الكريم، وهو من أحد طرقه، وبقية الأركان هي من شروطه.

ومن جميع ذلك يستفاد أن الألف واللام في «البر» إما للحقيقة، أي حقيقة البرّ التي بيّنها عزّ وجلّ في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، أو للعهد، أي ذلك البر المعهود الذي جعله الله تعالى للأبرار، وهم المؤمنون الصادقون المتقون.

قال تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾.

ترغيب للإنفاق، وترهيب عن تركه وتطييب لنفوس المنفقين، بأن ما

ينفقونه لا يذهب هدراً، والله تعالى عليهم بإنفاقهم ونياتهم وإخلاصهم، ويجازيهم على ذلك ويضاعف لهم الجزاء، كما وعدهم به، فلا يخشى أحد بعد ذلك من الإنفاق، ولكن لا بد من الإخلاص فيه ليفوز بالجزاء الأوفى.

وترشد الآية الشريفة إلى حسن الإخفاء في الإنفاق والحثّ عليه، فإن الله تعالى عليم به، وإن خفي عن الناس ولم يعلم به سوى المنفق.

قال تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾.

الطعام: ما يطعم ويتغذّى به، وفي الحديث: «ما لنا طعام إلا الأسودان، التمر والماء»، وإن كان يطلق عند أهل الحجاز على البر خاصة، وينصرف عند الإطلاق إليه عندهم، وفي حديث أبي سعيد: «كنا نخرج زكاة الفطر صاعاً من طعام، أو صاعاً من شعير»، ويأتي بمعنى المطعوم.

والحل: مصدر بمعنى المفعول، كالحل مقابل العقد، وهو ضد الحرام، وهما قسمان من أقسام الأحكام الخمسة التكليفية، وفي الحديث عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «مَن أكل من حلال القوت صفا قلبه ورق ودمعت عيناه، ولم يكن لدعوته حجاب».

وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وهي كلمة عبرانية مركبة، ومعناها المحارب أو المجاهد في الله أو جندي الله، وقد ذكر المؤرخون من اليهود في وجه تسمية يعقوب بهذا الاسم أنه صارع الله أو الملاك عند فنوئيل، وهو اسم موضع. وهذا ممّا يكّذبه القرآن الكريم والعقل السليم. وأُطلق على الأسباط الاثني عشر عموماً، ويعرّفون ببني

إسرائيل، وبعد ذلك صار اسماً للمملكة الشمالية التي لم تكن لقابئل يهوذا وبنيامين، ولاوي، ودان، وشمعون شركة فيها. وبعد سبي بابل اتخذ الراجعون من السبي إسرائيل اسماً لأمتهم، مع أن أكثرهم كانوا من مملكة يهوذا. وفي القرآن الكريم يطلق على من دان بدين موسى بن عمران.

والمعنى: كلّ الطعام بجميع أصولها كانت حلالاً لبني إسرائيل، إلا ما استثناه عزّ وجلّ من تحريم يعقوب على نفسه بعض المطعومات. وهذا الحكم إرفاقي وامتناني بالنسبة إليهم، كجملة كثيرة من الأحكام الامتنانية التي شرّعها الله جلّ جلاله عليهم ابتداءً، ولكنهم ظلموا فحرّم عزّ وجلّ عليهم بعض الطعام، تأديباً لهم وعقوبة لما فعلوه من الجرائم، كما حكى عزّ وجلّ في موضع آخر فقال: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾[1].

ويستفاد من قوله تعالى: «على نفسه»، أن التحريم لم يكن عاماً يشمل جميع بني إسرائيل، بل كان مختصاً به لأجل مصالح خاصة كانت تتعلق به.

وقد اختلف المفسّرون في النوع الذي حرّمه، فنسب إلى ابن عباس أنه الشحم الباطن والكليتان وزائدتا الكبد. وعن آخر أنه لحوم الأنعام، وعن ثالث أنّه حرّم لحوم الإبل وألبانها، ونقل الحاكم عن ابن عباس أنه عليه السلام كان به عرق النسا، فنذر إن شفي لم يأكل أحبّ الطعام إليه، وكانت تلك أحبّ الطعام إليه».

ولكن نقل شيخنا البلاغي أنه: «لم تذكر التوراة أن إسرائيل حرّم على نفسه شيئاً، بل إنما تذكر أن إسرائيل ضربَ على حُق فخذه على

---

(١) النساء، الآية ١٦٠.

عرق النسا، لذلك لا يأكل بنوا إسرائيل عرق النسا إلى هذا اليوم، فتوراتهم تقول إن ذلك تشريع منهم لا من إسرائيل، كما في الفصل الثاني والثلاثين من سفر التكوين».

والآية الشريفة مجملة من هذه الجهة، فلم تعيّن شيئاً، ولعلّ الغرض من ذلك إثبات أن التحريم كان لبعض أنواع المطعومات لشخص معين، لا لجميع الشعب، وأن الله تعالى قد أحلّ لهم جميعها، فما تقولّه اليهود في هذا المجال افتراء على الله تعالى.

وقال بعض المفسّرين: إن المراد من إسرائيل الشعب كله، كما هو شايع في الاستعمال عندهم، لا يعقوب فحسب.

ويرد عليه: أنه استعمال غير معهود في القرآن الكريم، بل عند العرب في عرص النزول، وقد ورد لفظ بني إسرائيل في ما يقرب من أربعين مورداً. مع أن ذكر بني إسرائيل أولاً شاهد على أن المراد من إسرائيل هو يعقوب عليه السلام، ولا يتصوّر وجه لحذف المضاف من الكلمة الثانية في موضع الإبهام والالتباس، يضاف إلى ذلك رجوع الضمير المفرد في ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ إليه، فلو كان بني إسرائيل لكان الضمير ضمير الجمع.

قال تعالى: ﴿مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾.

الظاهر أنه متعلّق بـ«حرم».

والمعنى: أن الله تعالى يحرّم من الطعام شيئاً على بني إسرائيل قبل نزول التوراة إلا ما حرّم إسرائيل على نفسه.

وذكر بعض المفسرين أنه متعلّق بـ﴿كَانَ حِلًّا﴾.

وأورد عليه بأنه يلزم الفصل باجني وهو جملة ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾، المشعرة بتمام ما قبلها، فيلزم التعقيد والإبهام.

وأجيب عنه بأنه لا يضرّ الفصل بالاستثناء، إذ هو فصل جائز، لأنه من متممات الكلام.

وكيف كان، فالمعنى على كلا التقديرين واضح، وهو إثبات الحلّية العامّة والحرمة الخاصة قبل نزول التوراة.

والاحتمالات في الآية الكريمة ثلاثة:

الأول: أن تكون الآية الشريفة مقولة قول اليهود، ومن مزاعمهم الفاسدة، ويؤيّده ذيل الآية المباركة: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، الذي هو في مقام الردّ عليهم بالرجوع إلى توراتهم.

فيصير معنى الآية: أن بعض أهل الكتاب قالوا إن جميع المطعومات كانت حلالاً لبني إسرائيل قبل أن تحرم التوراة بعضاً منها واستثنوا من ذلك ما حرمه إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة، فنزلت هي بتحريمه.

وجميع ذلك كذب منهم وافتراء، فإن التوراة حرّمت الرجس عليهم، كما في العدد الثالث من الفصل الرابع من سفر التثنية، ونصّت في الفصل الحادي عشر من سفر اللاويين على حرمة الحيوانات البرية والمائية والطيور، فيكف يكون الرجس حلالاً عليهم قبل نزول التوراة، كما أن التوراة لم تذكر أن إسرائيل حرّم على نفس شيئاً ـ كما عرفت آنفاً ـ فما ذكروه افتراء وكذب.

الثاني: أن تكون الآية جملة خبرية في مقام الإنشاء، وهذا كثير شايع في المحاورة، واعتمد عليه في علم الأصول، نظير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾(١) وغير ذلك.

(١) البقرة، الآية ٨٠.

وحينئذٍ فالآية في مقام الاستفهام الإنكاري، حذفت منه أداة الاستفهام لدلالة المقام عليه، فيكون قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ تفسيراً وإثباتاً لمضمونها.

الثالث: أن يكون قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾، حكاية عن قول اليهود الذي أوردته لإلقاء الشبهة على المؤمنين، ونفي كون الإسلام دين الفطرة وعلى ملّة إبراهيم، وهي أن الرسول لو كان صادقاً لما أخبر بالنسخ، وأن حرّم الطيبات لظلمهم بعدما كانت حلالاً لبني إسرائيل، ويكون قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ واردة في دفع الشبهة لإظهار كذبهم وإبطال شبههم، فأمرهم الرسول ﷺ بتعليم من الله عزّ وجلّ بالرجوع إلى التوراة، فإنها الفصل في الدعوى وردّ لمزاعمهم، وهي دالّة على حلّية كلّ الطعام، فإن أبيتم الإتيان بالتوراة وتلاوتها فاعلموا أنكم المفترون على الله كذباً وأنكم الظالمون، وأن الرسول هو الصادق في دعوته وأن ملّته على ملّة إبراهيم.

وقد ذكر بعض المفسرين في المقام وجوهاً لم يقم دليل على صحتها، بل بعضها خلاف ظاهر الآية الشريفة فراجع.

قال تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

خطاب إلى الرسول الكريم بالمحاجّة معهم لإظهار حقيقة مدعاهم، وأمرهم بإتيان التوراة وتلاوتها في الموارد التي حاجّوا المؤمنين وافتروا على الله الكذب فيها ليتبيّن أي الفريقين على الحقّ وأي منهما كاذب في دعواه.

وفي الآية الشريفة دلالة على صحة دعوة نبوّة نبيّنا الأعظم ﷺ،

فإنه أخبر عن أن التوراة تدلّ على كذبهم وهو لم يقرأها، وهذا لا يكون إلا عن وحي من الله تعالى.

قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

الخطاب توبيخي للفريق الكاذب بعد المحاجّة معهم، وقد ذمّهم عزّ وجل بافترائهم على الله بعد قيام الحجّة، والأمر بالكفّ عن الافتراء على الله، وإلا كانوا ظالمين لأنفسهم يستحقون العقاب.

والافتراء: هو الكذب المخترع. وأصله القطع، وكأن المفتري يقطع صلة كلامه بالواقع والحقيقة فيكون كذباً.

قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ﴾.

أي: أعلمهم بأن الله تعالى صادق في جميع ما أخبر به، وأني لم أستطع أن أُنبئكم بذلك لولا وحي الله تعالى إليّ، فإذا عرفتم صدقي في الدعوة وأني على حقّ فلا بدّ من متابعة ديني والاعتراف بأني على ملّة إبراهيم، وفي الآية الشريفة تثبت لدعواه ونبوّته.

قال تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

تفريع على معرفة الحق وثبوت صدق الرسول ﷺ وإنما أمرهم بمتابعة ملّة إبراهيم لأنهم كانوا معترفين بملّته عليه السلام، وليبان أن شريعته على ملّة إبراهيم التي هي على دين الفطرة، والمبتنية على الإخلاص لله تعالى والتسليم لوجهه الكريم ونبذ كلّ أنحاء الشرك، وللإرشاد إلى أن عدم قبول الإسلام يستلزم عدم متابعة ملّة إبراهيم كما تزعمون، وهذه حجّة أخرى على بطلان مزاعمهم وإظهار كذبهم. وإنما وصف إبراهيم بكونه حنيفاً وعدم كونه من المشركين، لإظهار عظيم منزلته وجلالة قدره، ولبيان أن شريعته كذلك أيضاً، وفيه التعريض لهم بأنهم على الشرك.

بحوث المقام

بحث أدبي

الطعام: مصدر منعوت، وكلّ مصدر منعوت يستوي فيه المذكر والمؤنّث والواحد والجمع، وهو بمنزلة الجنس، وكلّ في قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ﴾، لتأكيد الاستغراق المفهوم من الجنس المعرّف بالألف واللام (الطعام).

وذكر شيخنا الأديب النيسابوري الأول رحمه الله أن بعض الآيات القرآنية تجيء في النظم والأسلوب وزان الشعر، مع أنه ليس ذلك مراد المتكلّم، وهو يدلّ على نهاية الفصاحة والبلاغة، وكان يعدّ جملة كثيرة من الآيات الكريمة منها هذه الآية الشريفة: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، التي هي من البحر السابع وهو بحر الرمل. ومنها قوله تعالى: ﴿إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾[1]، وهو من بحر الرَجَز.

بحث دلالي

يستفاد من الآية الشريفة أمور:

الأول: كلمة البرّ الواردة في قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ﴾، موضوعة

(١) الأنفال، الآية ٣٨.

لذات البرّ وطبيعته بلا اختصاص له بنوع دون آخر، فتشمل البر المادي والمعنوي بجميع مراتبهما.

كما أن لفظ الإنفاق كذلك، فإنه يشمل إنفاق الماديات والمعارف الحقّة والكمالات الإنسانية، وذلك لأن الألفاظ موضوعة في حدّ ذاتها للمعاني العامة، من غير تقييد في حاق الواقع بنوع دون آخر، ولا لعالم مخصوص دون سائر العوالم، وإنما التقييد والتخصيص يحصل من ناحية الاستعمال بلا التفات إليهما، وقد جعل بعض الأعاظم ذلك من الأصول العقلائية النظامية، وأثبتها علماء الادب والأصول بأدلّة كثيرة، فالأية المباركة بعمومها تشمل من حيث المعنى جميع ما يمكن أن يفرض من الكمالات الإنسانية الفردية والاجتماعية والنوعية والشخصية، وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[١]، في جمعها للكمالات الإنسانية، وإنما الاختلاف بينهما بالإجمال والتفصيل.

الثاني: لعلّ وجه ارتباط قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ بآية البرّ من حيث المفهوم ببيان لطيف وأسلوب رفيع، وهو أن غير الإخلاص والصدق ليس من البرّ حتى ينفق، اعتقاداً كان أو قولاً أو عملاً، فلا بد في جميع ذلك من الإخلاص والصدق ليكون برّاً يقبله الله تعالى ويثب عليه بالجزاء الأوفى، فما ورد

(١) البقرة، الآية ١٧٧.

في الآية من الحلّية والحرمة إذا كانتا من افتعال اليهود فلا ربط لها بالبرّ وهما خارجان عن البر موضوعاً، وأما إذا كانتا من شرائع الله تعالى فهما عين البر، فيشملهما قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾.

الثالث: يستفاد من قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. التعريض باليهود في أنهم يكذبون ولا يصدقون، وأنهم لا يعلمون أحكام الله تعالى ويستهزئون بها، مع أن الله تعالى في مقام الامتنان عليهم والتسهيل لهم.

الرابع: يدلّ قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ على تحريف التوراة وأنهم يكذبون في كثير من الأمور التي ينسبونها إليها، وليس المراد بالتوراة في الآية الشريفة هي التوراة المحرّفة التي هي بين أيدي اليهود، بل المراد منها التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام، والتي لم تنلها يد التحريف، فإن الله تعالى أمرهم بالرجوع إليها وطرح التوراة المحرّفة، فالآية الشريفة من الآيات الكثيرة التي تدلّ على تحريفها، وتنهاهم عن الكذب والافتراء على الله تعالى وتأمرهم بالرجوع إلى الحق، ويشهد لذلك الآية التي تدلّ على أنهم يفترون على الله الكذب، بقرينة قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

الخامس: يدلّ قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ على أنهم هم الظالمون الذين عرفوا بتحريف أحكام الله تعالى وتبديل آياته عزّ وجلّ، وأن مقابلهم على الصدق والحقّ. كما تدلّ عليه الآية التالية، فيكون تفريع قوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ من قبيل ترتّب النتيجة على المقدّمات المعلومة.

بحث روائي

في الكافي وتفسير العياشي: عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾، قال عليه السلام: «هكذا فاقرأها».

أقول: هذه قراءة أهل البيت، والفرق بينها وبين قراءة المشهور أن الأولى تبيّن مصداق المحبوب عند المنفق، والثانية تبيّن فرداً من كلّ محبوب، فيشمل المصداق أيضاً.

وفي المجمع: عن ابن عمر قال: «سئل النبي صلى الله عليه وآله عن هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ هو أن ينفق العبد المال وهو شحيح، يأمل الدنيا ويرجو الغنى ويخاف الفقر».

أقول: وردت روايات كثيرة عن أهل البيت عليهم السلام في ذلك، وإنّما عدّد صلى الله عليه وآله هذه الجهات لأن كل واحدة منها من الأمور التي تورث محبّة الشيء، فإذا اجتمعت وأنفق المال معها كان جزاؤه أعظم ونيله للبرّ أكثر.

وفي تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾، قال: «إن يعقوب كان يصيبه عرق النسا فحرّم على نفسه لحم الجمل، فقال اليهود: إن لحم الجمل محرّم في التوراة، فقال عزّ وجلّ لهم: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ إنّما حرّم إسرائيل على نفسه ولم يحرّمه على الناس، وهذا حكاية عن اليهود ولفظه لفظ الخبر».

أقول: ذكرنا سابقاً المحتملات في الآيات الشريفة وهذا من أحدها.

وفي الكافي وتفسير العياشي: عن الصادق عليه السلام: «إن إسرائيل كان إذا أكل لحم الإبل هيج عليه وجع الخاصرة، فحرّم على نفسه لحم الإبل، وذلك قبل أن تنزل التوراة، فلما نزلت التوراة لم يحرّمه ولم يأكله».

أقول: لا منافاة بين وجع الخاصرة الذي ورد في الحديث وعرق النسا الذي ورد في الحديث السابق، لإمكان اجتماعهما، ويظهر منه أن التحريم لم يكن تحريماً شرعياً، بل كان تنزيهاً لأجل ذلك العارض.

ومعنى قوله عليه السلام: «لم يحرمه ولم يأكله»، أي لم يحرّمه إسرائيل بعنوان التشريع السماوي، ولكنه لم يأكله خيفةً من عروض ذلك العارض عليه. ويحتمل أن يرجع الضمير فيهما إلى موسى عليه السلام المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ﴾.

وفي أسباب النزول للواحدي: في قوله تعالى: ﴿كل الطعام كان حلا لبني إسرءيل﴾، قال أبو رَوق والكلبي: نزلت حين قال النبي صلى الله عليه وآله: «أنا على ملّة إبراهيم، فقالت اليهود: كيف وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها؟! فقال النبي صلى الله عليه وآله: كان ذلك حلالاً لإبراهيم فنحن نحلّه، فقالت اليهود: كلّ شيء أصبحنا اليوم نحرّمه فإن كان محرّماً على نوح وإبراهيم حتى انتهى إلينا، فأنزل الله عزّ وجلّ تكذيباً لهم: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾.

أقول: على فرض اعتبار الرواية، فإن ما ورد فيها يكون من جملة الاحتمالات التي ذكرناها سابقاً، وتقدّم أن مقالة اليهود كذب وافتراء.

أفضل البرّ

من أفضل البرّ وأهمّه هو الانقياد لأوامر الله تعالى وإطاعته في كلّ ما شاء وأراد، والتفاني في مرضاته عزّ وجلّ الذي هو آخر حدّ الإمكان وأول حدّ الوجوب، كما أن أعلى المحبوبات عند الناس هو حبّ الجاه والشرف والعزّة، ولا بد من إنفاق هذا المحبوب في ساحته جلّ جلاله لينال العبد الغاية القصوى من البرّ بالمعنى المطلق، وعليه سيرة أولياء الله المخلصين، ونسب إلى سيدهم علي عليه السلام:

«إلهي كفى بي عزّاً أن أكون لك عبداً، وكفى بي فخراً أن تكون لي ربّاً، أنت كما أحبّ فاجعلني كما تحبّ»، حيث لم يجعل لنفسه عزّاً ولم ينسب إليها فخراً مقابل جلال الله تعالى وعظمته، وما ورد في هذا المعنى من أولياء الله أكثر من أن يحصى[1].

---

(١) م ـ ن، ص ١٣١ ـ ١٤٤، ج (٦).

كمال النفس البشرية

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ * وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ * وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ * وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ * يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ * وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ * تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾.

هذه الآيات من جلائل الآيات الكريمة التي وردت في تكميل النفوس الإنسانية وتنظيم نظام الدنيا والآخرة بالنحو الأحسن الأكمل الذي تعترف به جميع العقول وتقبله الفطرة المستقيمة، وهي مرتبطة بالآيات السابقة، فإنه تعالى بعدما حذّر المؤمنين من مكائد الكافرين وفتن أهل الكتاب وإضلالهم، أمرهم بالاعتصام بحبل الله جلّت عظمته، ليهديهم إلى الصراط المستقيم ويوفّقهم للدين القويم ويحفظهم من المهالك.

ويبيّن سبحانه في هذه الآيات المباركة الصلة به تعالى، تلك التي يحبّها كلّ قلب مؤمن، وهي التقوى لأنها من سبل الاعتصام بالله، بل من

أهمها، فكل ما اقترب العبد من الله بتقواه اشتاق إلى مقام أرفع ممّا بلغ إليه.

وقد دعا سبحانه وتعالى في هذه الآيات الشريفة أيضاً إلى الاعتصام بحبل الله، من الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهي كلها من سبل الاعتصام به.

ثم أمرهم بالاجتماع وعدم التفرّق ونهاهم عن الاختلاف، ووعدهم الحسنى والخير إن هم قاموا بالوظيفة التي أمرهم بها.

فهذه الآيات المباركة تعتبر تتمة الآيات السابقة، فإن السياق في الطائفتين واحد.

التفسير

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾.

تقدّم ما يتعلّق بهذا الخطاب في أول سورة البقرة وغيره من الآيات الشريفة، وفي تكراره لا يخفى من اللطف بالمؤمنين والتشريف لهم، لا سيما بعد خطاب: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾[1].

والتقوى كما تقدّم مكرراً هي الطاعة لله تعالى والاحتراز عن الوقوع في ما يوجب سخطه وعذابه، ويلزم ذلك الشكر لنعمه، وإنما أمرهم بالتقوى لأنها جوهرة الكمالات الإنسانية ومفتاح السعادة وأساس مكارم الأخلاق، وبها يفوز العبد بالقرب إلى الله تعالى والبُعد عن النار، وهي تحفظ إيمان المؤمن وتزيده قوة وثباتاً.

هذا، ولكن التقوى على نحوين، تقوى ظاهرية خالية عن الخلوص

(١) البقرة، الآية ١٠١.

والإخلاص، وباطنية حقيقة مشتملة عليهما، وهي التي لا يشوبها باطل ولا فساد، وهي ذكر المنعم بلا نسيان وطاعته بلا عصيان. وبالجملة، فهي العبودية المحضة التي لا كمال بعدها، وهذا النحو من التقوى هو حقّ في نفسه. وحقّ الله تعالى، وهي التي تليق بساحته تبارك وتعالى دون غيرها.

وقد ورد مثل هذا التعبير في ستّة مواضع من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾[٤]، ومثله في سورة الحج، الآية ٧٤ وسورة الزمر، الآية ٦٧، والمستفاد من هذا التعبير هو الأمر بالحقيقة الخالصة من شوائب الأوهام، وتدل تلك الجملات على كمال الأهمية بالمورد، حتّى أنه تعالى نفى الحقّية عن غيره كما هو المستفاد من النفي والإثبات، وعرفان الحقّ لا يحتاج إلى البيان. فإنه نفس واقع الشيء على ما هو عليه في ذاته.

ويحتمل أن يكون المراد في قوله تعالى: «حقّ تقاته»، آخر مراتب التقوى وأعلاه درجاتها التي من صفات الأنبياء والأولياء، وهي حقيقة التقوى التي أوحاها عزّ وجلّ إلى أنبيائه، وبشّرت بها رسله، وغيرها خارج عن تلك الحقيقة وليست شيئاً زائداً عليها.

نعم، الاشتداد والتضعّف الجاريان في كلّ مقولة يجريان في هذه

---

(١) البقرة، الآية ١٢١.
(٢) الحج، الآية ٧٨.
(٣) الحديد، الآية ٢٧.
(٤) الأنعام، الآية ٩١.

الحقيقة أيضاً، ولكن الآية المباركة ليست ناظرة إلى هذه الجهة، كما أنها ليست منسوخة ولا ناسخة، فيكون تعميم الخطاب في صدر الآية لجميع المؤمنين تشريفاً لهم شيئاً وطلب حقّ التقوى شيئاً آخر، وطلب الموت على الإسلام في ذيل الآية الشريفة شيئاً ثالثاً، فيصير صدر الآية وذيلها شاهدين على أن ليس المراد بالتقوى هنا خصوص تقوى الأنبياء والأولياء فقط، بل هي عامة تشمل الآية جميع المراتب كلّ على حسب ما يقدر عليه.

ويحتمل التنزيل على مراتب القدرة والاستطاعة، بل هي ظاهر الآية الشريفة، فالصحيح يصلّي قائماً مثلاً والمريض جالساً، وهكذا كلّ على قدر استطاعته. وعلى هذا، فيكون قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[1]، شارحاً لهذه الآية الشريفة.

ومحصّل معنى الآيتين: أن مراتب التقوى، كمراتب أصل التكليف، كما أن الأخير لا يتعلّق إلا بالمستطاع وينحلّ إلى مراتب كثيرة، وكذلك التقوى فكلّ مؤمن لا بد أن يحظى بالتقوى على قدر استطاعته وطاعته.

كما أنه يحتمل أن يكون المراد من قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾[2]، الترغيب إلى إتيان المندوبات، والتنزه عن إتيان المكروهات، لأن الأولى من شؤون الواجبات والثانية من شؤون المحرمات، وكلّ ذلك من حمى الله تعالى كما في بعض الروايات. وعليه فلا ربط لها لهذه الآية الشريفة.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾.

---

(١) التغابن، الآية ١٦.
(٢) التغابن، الآية ١٦.

تحريض على مداومة التقوى بعد الأمر بتحصيل حقيقتها والخلوص فيها. فيكون المراد من الإسلام في الآية هو الإسلام الحقيقي الاستمراري حتى الانتقال إلى النشأة الأخرى ووقوع الموت، الذي هو أمر غيبي في حال الإسلام والتسليم.

وعلى هذا، لا وجه للتفصيل يكون الطلب في الآية الشريفة متعلقاً بأمر تكويني أو بجامع من الأمر التكويني والاختياري، فإن ظاهر الآية هو الأمر بتحصيل المداومة على التقوى حتى الموت، وتقدّم بعض الكلام في آية ١٨٩ من سورة البقرة.

والمراد بالإسلام هو الطاعة لله تعالى وعدم المحادّة له بالمعصية، وهذه هي التقوى التي أمرنا الله تعالى بها سابقاً.

وذكر بعض المفسرين أن المراد بالإسلام هو الإيمان القلبي، لأن الأعمال حال الموت ممّا لا تكاد أن تتأتى.

وفيه من التكلّف ما لا يخفى، فما ذكرناه أظهر من الآية الشريفة وأنسب إلى الأمر بالتقوى كما عرفت.

وكيف كان، ففي الآية المباركة التأكيد على ترك طاعة أهل الكتاب.

قال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾.

الاعتصام: هو التمسّك والالتجاء، وتقدّم اشتقاق الكلمة في الآية السابقة.

والحبل: معروف ويستعمل في سبب منيع يوصل إلى البغية والحاجة، وفي الدعاء: «يا ذا الحبل الشديد»، والمراد به القرآن أو الدين أو السبب، كما ورد في صفة القرآن: «كتاب الله حبل ممدود من السماء

إلى الأرض»، أي نور هداه يكون كذلك، وفي حديث آخر: «وهو حبل الله المتين».

وقيل: المراد عهده وأمانه الذي يؤمن من العذاب.

وقيل: المراد منه العهد والميثاق.

وقيل غير ذلك، وجميعها من باب التفسير بالمصداق.

والمراد به في المقام ما جعله الله تعالى سبباً عاصماً من الوقوع في الضلالة والمهالك، والمعروف أن في الكلام استعارة تمثيلية، بأن شبّه التمسّك بما جعله الله عاصماً من الوقوع في المهالك بالتمسّك بالحبل المتدلّي من مكان رفيع وثيق مأمون الانقطاع، الذي يمنع التمسّك من السقوط والهلكة.

وجميعاً: حال من فاعل اعتصموا، أي: مجتمعين، فيكون قوله تعالى: ﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ تأكيداً، والنهي عن التفرّق باتباع السبل المختلفة، فيوجب البعد عن سبيل الله تعالى، كما قال عز وّجلّ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾[(١)].

واختلف المفسّرون في المراد بالحبل في هذه الآية الشريفة.

فقيل: إنه كتاب الله.

وقيل: إنه الإسلام.

وقيل: إنه الطاعة والجماعة.

والحقّ أن يقال إنه بعد أن بيّن عزّ وجلّ في الآية السابقة أن التمسّك

(١) الأنعام، الآية ١٥٢.

بآيات الله تعالى، وبالرسول اعتصام بالله تعالى مضمون له الهدى ومأمون من الضلال والهلاك، فإن كلّ واحد منهما يكمّل الآخر ويفسّره. والرسول كتاب ناطق، كما أن القرآن رسول صامت، فيكون التمسّك بالرسول ﷺ تمسّكاً بالقرآن، لا سيما بعد أمر القرآن بذلك، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[1]، وقد أمرنا سبحانه وتعالى بالاعتصام بحبل الله في هذه الآية، فتكون النتيجة أن حبل الله هو الكتاب والرسول، ولكن بما أن الحكم في الآية السابقة معلّق على شخص الرسول الكريم، باعتباره جامعاً لجميع الكمالات وملتزماً للطاعات ومعصوماً من المعاصي والزلات شارحاً للكتاب المبين ومفسّراً لرموزه ودقائقه، فمن يكون مثل الرسول من هذه الجهة يكون من مصاديق حبل الله، ويدلّ على ذلك حديث الثقلين المتواتر بين الفريقين: «إني مخلف فيكم الثقلين ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي». فإن الكتاب والرسول وعترته كلّها مشاعر هدايته عزّ وجلّ ومصاديق حبل الله، وأن حقيقة هذا الحبل هي الإنسانية الكاملة، التي هي في الحقيقة الصراط المستقيم، وأن الكتب السماوية والأنبياء والمرسلين تدعو إلى الاهتداء إليها، وهي حقيقة الجنّة التي وعد الله عباده بها، وهي التي توجب مخالفتها النار، فلهذه الحقيقة صورة كثيرة مختلفة في جميع العوالم والنشآت.

فتارة: يكون موسى بن عمران والتوراة.

وأخرى: يكون عيسى بن مريم والإنجيل.

وثالثة: يكون حبيب الله محمد بن عبد الله والقرآن الكريم.

---

(١) الحشر، الآية ٧.

ورابعة: يكون عترته الطاهرة، لأنهم شرّاح القرآن وامتداد لشخص الرسول الكريم كما عرفت، وحينئذٍ يكون الأمر بالاعتصام بحبل الله أمراً حقيقياً واقعياً تكوينياً، وهو عبارة عن الإضافة بين العلّة والمعلول، أو المقتضي (بالكسر) مع المقتضى (بالفتح)، أو بين الخالق والمخلوق، فالخطاب من سنخ الخطابات التكوينية التي لا يختصّ بزمان دون زمان ولا بقوم دون آخرين.

نعم، أفضل مصاديقه الإنسان الكامل والإسلام، لأنهما أفضل الممكنات.

ومن ذلك كله يعرف أنه ليس المراد بالاعتصام القولي منه فقط أو الاعتقادي، بل الاعتصام العملي والطاعة لله تعالى بكلّ ما شاء وأراد، ومثل هذا الاعتصام تحكم بحسنه فطرة العقول، لأن اعتصام الفقير المطلق بالغني كذلك ممّا تحكم بلزومه الفطرة، بل أن الممكن بذاته معتصم لمبداه، لا سيما بعد أن أثبت المحققون من الفلاسفة أن مناط الحاجة هو الإمكان لا الحدوث، ولا بد وأن يظهر الإنسان هذا الاعتصام الذاتي في الاعتقاد والقول والعمل، بأن يطابق ما يصدر عنه لما هو المحبوب لدى المعتصم به.

وإنما أمر سبحانه وتعالى بالاعتصام بحبل الله على نحو الجمع في قوله: «واعتصموا»، ثم أكّده بقوله تعالى: «جميعاً»، وثالثة بقوله: «ولا تفرقوا»، لأن اختلاف الأمة أحزاباً وأشياعاً أضرّ شيء بالنظامن ويستفاد من أن هذا الحكم لا يتحقّق حدوثاً وبقاءً إلا على نحو الجمع والاجتماع، فالاعتصام الفردي من دون الجماعة لا يثبت المطلوب والغرض من هذا الحكم، فيكون عدم الاجتماع على هذا الحكم من موجبات التفرّق والاختلاف والوقوع في المهالك، فالآية السابقة تتعرّض لحكم الفرد من حيث التقوى والموت على الإسلام، وهذه الآية لحكم الجماعة.

قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ﴾.

دعوى إلى تذكر نِعم الله تعالى التي فيها الموعظة والعبرة، وفيها الحثّ على الاجتماع إلى الاعتصام بحبل الله تعالى المؤدّي إلى التآلف وزوال الأضغان والنفرة بين أفراد المجتمع.

وفي الآية الشريفة دعوة إلى تعلّم العلل والأسباب التي تؤدّي إلى خير الإنسان وسعادته، وتهديه إلى الحق والتوفيق إلى الإيمان الصحيح ونبذ التقليد الأعمى، الذي لا يجنى منه الخير. وهذا هو الأصل القويم الذي اعتمد عليه القرآن الكريم في تعليم الإنسان وهديه إلى سعادته، فإنه يأمره بالعلم النافع والعمل الصالح، ليمكّنه معرفة الحقائق وارتباط بعضها مع البعض، ثم كيفية ارتباطها مع مسبّب الأسباب والمبدأ الفياض ورجوعها إلى الله تعالى والامر بالاعتصام بحبله والتسليم لأمره، فإن في ذلك السعادة الحقيقية وفي غيره الجهل والبعد عن الحقيقة، وقد نهى عزّ وجلّ عن التقليد الأعمى الذي يسلب الإرادة عن الإنسان وينفي عنه التفكّر الصحيح، ويشوه الحقائق. وقد أقام سبحانه أدلّة ثلاثة على ما حثّ عليه من التذكّر وندب إليه من التفكّر، اثنتان منها تشهد عليهما التجربة، والثالث مبني على البرهان القطعي.

قال تعالى: ﴿إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ﴾.

هذا هو الدليل الأول، وهو تذكّر العداوة التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي الفاسد والبغضاء التي كانت قائمة بينهم، وقد قاسوا مرارتها وكابدوا شدائدها وأهوالها، فقد كانت الحروب والقتل والدمار والضغائن والأحقاد ملتهبة وبلغت ذروته أبان الدعوة الإسلامية، فألّف عزّ وجلّ بين القلوب بالإسلام والرسول الكريم الأمين، فزالت تلك الأحقاد وحلّ الصلح والوئام وقد تألّفت قلوبهم، وهو أكبر دليل على حقيقة

الإيمان بالله والاعتصام بحبله وتذكّر نعمه فإنه لولا الإسلام لما ذاق الاجتماع حلاوة المحبّة والأخوة، ولما زالت مرارة العداوة والفرقة.

قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾.

هذا هو الدليل الثاني، والإخوان جمع الأخ. وقيل إن أكثر ما يجمع أخو الصداقة على الإخوان، والأخ في النسب على الإخوة، وقد ورد في أخ الصداقة قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1]، وفي النسب قوله تعالى: ﴿أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ﴾[3].

والمراد بها وقوع التآلف في القلوب، كعادة الإخوة الأشقاء في كونهم يداً واحدة بقلوب مؤتلفة. وفي تكرار هذه المنّة التنبيه على ما ذكرناه والحثّ على التمسّك بحبل الله والاعتصام به وتذكّر نعمه التي توصّلكم إلى السعادة وتهديكم إلى الرشادن فإن في الأُخوة التي منّها الله تعالى عليهم الاجتماع والتآلف.

قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾.

عطف على كنتم «أعداء»، وهذا هو الدليل الثالث المبني على البرهان، وشفا حفرة أي طرف الحفرة وحافتها، فإن شفا كلّ شيء جرفه وحافته. ومنه حديث علي عليه السلام: «نازل بشفى جُرُف هار» أي جانبه، وفي المأثور: «لا تنظروا إلى صلاة أحد ولا إلى صيامه، ولكن انظروا إلى ورعه إذا شفى»، أي أشرف على الدنيا وأقبلت عليه، ويقال: «أشفى على الهلاك»، أي ورد على شفاه.

---

(١) الحجرات، الآية ١٠. (٢) النور، الآية ٣١. (٣) النور، الآية ٦١.

وقيل إن كلمة «شفى» لا تستعمل إلا في الشر.

وقد تستعمل في القليل أيضاً، يقال: «ما بقي منه إلا شفا»، أي قليل، ويثنى على شفوين والجمع أشفاء، ويضاف إلى الأعلى وإلى الأسفل، وكنتم على شفا حفرة أي مشرفين على السقوط فيها.

والمراد من النار هي التي أوقدوها بأعمالهم ومعتقداتهم التي كانت سبباً للنار الحقيقي وهي نار جهنم، ونار الدنيا التي هي الحروب والمنازعات، فإنها استعملت فيها كثيراً في المحاولات الصحيحة، كقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ﴾[1].

وكيف كان، فالآية الشريفة تبيّن حالهم في المجتمع الجاهل الفاسد المبني على الضغائن والحروب والمنازعات والتنافر والافتراق، كما تبيّن مآلهم الذي يصلون إليه، وهو الدخول في النار في الآخرة وسلب الطمأنينة والأمن، فقد جلبت لهم الشقاوة والعناء والزوال في الدنيا. وقد أنقذهم الله تعالى من مآلهم الفاسد بالإسلام الذي جلب لهم الطمأنينة والأمن والرفاه والعيش الهنيء والسعادة، وقد شاهدوا بدخولهم في الغسلام ما لم يتخيّلوه في الحسبان، فلذلك كان هذا البرهان أوقع في النفوس من غيره، لأنه كان به خلاصهم من العذاب في الآخرة والشقاء والحرمان في الدنيا، وهذا الدليل حاصل مضمون الدليلين المتقدّمين المشتملين على الحسّ والوجدان، دون محض التقدير ومجرّد الحسبان.

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾.

أي يبيّنها برهاناً ووجداناً ومشاهدةً، لأجل اهتدائكم إلى حقيقة الإيمان والاعتصام بحبل الله المبين، وتدخلون في الصراط المستقيم وتتذكّرون نعمه التي أنعمها الله تعالى على المسلمين.

---

(١) المائدة، الآية ٦٤.

قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾.

أمر سبحانه وتعالى بتكميل الغير بعدما أمرهم بتكميل أنفسهم، حيث إن الاعتصام بحبل الله تعالى المادة المهيأة لتوارد الصور الكمالية عليها. ومن المعلوم أن المادة لا فعلية لها إلا بالصورة، كما هو ثابت في الفلسفة الإلهية، فلا بد من السعي في تحصيل تلك الصورة، وهي الدعوة إلى الخير، سواء كان من النبيّ أم الوصي أو مَن يقوم مقامهما في هذا الشأن.

وإنما تكون الدعوة إلى الخير بمنزلة الصورة الفعلية للاعتصام بالله تعالى، والدعوة إلى الخير هي من أهم الأسباب التي تكون دخيلة في رقي الأمة وتقدّمها في كلّ المجالات، فهي تحفظ العلم عن الضياع والعمل عن الفساد، والمجتمع عن الانهيار في مهلكة الشرور، فهي جامعة السعادة ومانعة الشقاوة، وأن القوانين المجعولة ـ خالقية كانت أم خلقية ـ إنما يترتب الأثر عليها من حيث البقاء ومداومة العمل بها، لا بمجرّد حدوثها فقط، وأن البقاء يتقوّم بأمرين:

الأول: العمل بها بشرائطها المقرّرة.

الثاني: الترغيب إلى فعلها والترهيب عن تركها، وبعبارة أخرى أن القوة المجرية لها في مقام حفظ القانون هي الدعوة، ويعبّر عنها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولذا كانت لهما المنزلة العظيمة في الشرائع السماوية، بل في القوانين المجعولة، ولولاهما لاختل النظام وتعطّلت الأحكام، ولأنبياء الله العظام وأوصيائهم الكرام الزعامة الكبرى في التصدّي لهذين التكليفين العظيمين.

والمراد من الخير كلّ ما له دخل في الاعتصام بحبل الله، سواء كان من المعارف الحقّة أم الأعمال الصالحة أو مكارم الأخلاق، وما ذكره عزّ وجلّ في المقام ترغيباً إلى الخير الذي تدعو إليه فطرة العقول ويحبّه كلّ إنسان، ولا يمكن أن يجهله أحد، ولبيان أن المجتمع الذي يكون الخير هو مطلبهم ومنهاجهم وعملهم هو المجتمع السعيد والأمة الراقية.

وقد اختلف المفسّرون في معنى الخير في المقام، فقيل: إنه الإسلام.

وقيل: إنه اتباع القرآن وسنّة الرسول، وقيل غير ذلك.

والحقّ أن ما ذكروه من مصاديق مطلق الخير، والصحيح ما ذكرناه، فإن جميع ذلك دواع إلى الاعتصام بحبل الله تعالى.

والأمة: الجماعة التي تؤم أمراً معيناً، وقد أُطلقت في القرآن الكريم كثيراً على اتباع الأنبياء لأنهم اجتمعوا على قصد واحد، وهو اتباع الحق وراء قدوة شخص معين، وتطلق أيضاً على الدين والملّة، قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾[١]، وعلى السنين، قال تعالى: ﴿واذكر بعد أمة﴾[٢]، والجميع يرجع إلى معنى واحد، وقد تقدّم في قوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً﴾[٣]، وكذا في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾[٤] بعض الكلام في اشتقاق هذه الكلمة.

والدعاء إلى الخير هو الدعاء إلى كلّ ما فيه صلاح الأمة ديناً ودنياً

---

(١) الزخرف، الآية ٢٢.
(٢) يوسف، الآية ٤٥.
(٣) البقرة، الآية ١٢٨.
(٤) البقرة، الآية ١٤١.

وآخرة، كما عرفت. وفي الحديث: «سأخبركم بأول أمري: دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى»، دعوة إبراهيم عليه السلام هي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ﴾(١)، وبشارة عيسى هي قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرَۢا بِرَسُولٖ يَأۡتِي مِنۢ بَعۡدِي ٱسۡمُهُۥٓ أَحۡمَدُ﴾(٢).

والمعروف: كلّ ما هو خير وحسن عقلاً ولم ينه عنه شرعاً، فهو اسم جامع يشمل طاعة الله جلّ جلاله والتقرّب إليه والإحسان إلى الناس، وفي الحديث: «أهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة»، يعني مَن بذل معروفه في الدنيا وأحسن العشرة مع الناس، آتاه الله جزاء معروفه في الآخرة، وروي عن ابن عباس في معنى الحديث: «يأتي أصحاب المعروف في الدنيا يوم القيامة فيغفر لهم بمعروفهم وتبقى حسناتهم جامة (جامدة) فيعطونها لمَن زادت سيئاته على حسناته، فيغفر له ويدخل الجنة، فيجتمع لهم الإحسان إلى الناس في الدنيا والآخرة».

والمنكر: هو ما أنكره العقل والشرع، فيكون ضد المعروف.

وعطف الأمر بالمعروف على دعوة الخير، يكون عطفاً تفسيراً لبيان أن دعوة الخير هي الأمر بالعروف والنهي عن المنكر، ولمعلومية الخير ومحبوبيّته لدى الجميع، فلا بد أن يكون المعروف والمنكر معلومين عند الداعي إلى الخير، وللإعلام بأن المجتمع الذي بلغ من الكمال بالاعتصام بحبل الله تعالى صار المعروف عندهم هو الخير والمنكر هو الشرّ، كما أنه يمكن أن يكون أيضاً لأجل أن المعروف والمنكر عند الشرع هو الخير والشر، المعروفان عند العقل وتدعو إليهما الفطرة.

(١) البقرة، الآية ١٢٩.
(٢) الصف، الآية ٦.

وقيل: إن عطف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على دعوة الخير، هو من عطف الخاص على العام، فيكون من قبيل عطف أفضل الأفراد على الكلّي.

ولا ينافي ذلك ما ذكرناه.

وكيف كان، فالآية الشريفة تدلّ على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلا شك في ذلك.

وإنما البحث والخلاف في كونه كفائياً أو عينياً، والظاهر أنه يرجع إلى دلالة «من»، **فقيل**: إنها للتبعيض، فيكون الوجوب كفائياً.

وقيل: إنها بيانية. **والمعنى**: كونوا أمة كذلك، فيكون الوجوب عينياً.

وسياق الآية الشريفة يدلّ على الأول، ويرجّحه أن الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنما تكون واجبة لأجل البعث على الطاعات والزجر عن القبائح والمعاصي، ولا معنى لوجوبهما بعد حصول الغرض من البعض، فالخطاب وإن كان متعلقاً بالجميع لكن الغرض يحصل من أي فرد كان، وبما أن المقام يحتاج إلى التعاضد والتعاون حتى يكون له التأثير القوي في حصول الغرض، وليسا كغيرهما من الواجبات، كان الأمر متعلقاً بالجميع، وبعد ذلك فلا وقع للنزاع في كون «من» تبعيضية أو بيانية، فإن الأمر متعلّق بالجميع بقدر ما يتعلّق بالأفراد والبعض، فإن هذا التكليف لطف إلهي يتعلّق بالجميع، ولا بد من التعاضد والتعاون ولا يمكن ترك القائم به لوحده والإعراض عنه، وقد ذكرنا في الأصول أنه لا فرق بين الوجوب الكفائي والوجوب العيني بحسب ذات الوجوب، وإنما الفرق بينهما باعتبار سقوط التكليف عن

الكلّ بعد قيام البعض به في الأول دون الثاني. وهذا يكون من باب تعدّد الدال والمدلول، لا باعتبار حقيقة الوجوب، ولذا اشتهر بين الفقهاء أن في ترك الجميع للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعاقب الكلّ لا البعض، فراجع ما ذكرناه في [مهذب الأحكام]، ويدلّ على ما ذكرناه ذيل الآية الشريفة الظاهر في الرجوع إلى الموصوفين بهذه الصفة.

قال تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

جملة استينافية، أي الداعون إلى المعروف والناهون عن المنكر هم الكاملون في الفلاح، كما هو قضية الحصر.

ويستفاد من الآية الشريفة كمال الأهمية لهذ التكليف الإلهي والمنصب الرفيع، بل هما من مناصب الأنبياء والأوصياء والأولياء الصالحين، وقد ورد في فضلهما روايات كثيرة، يأتي في البحث الروائي نقل بعضها، ولهما شروط وآداب كثيرة، يستفاد بعضها من هذه الآية الشريفة والبقية من غيرها.

ويستفاد من مجموع الأدلّة الواردة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كتاباً وسنّة، أن هذه الدعوة من صفات الباري جلّ جلاله، كالحكم بين الناس بالعدل، وقد فوّض الله تعالى ذلك إلى أنبيائه وأوصيائه والقائمين مقامهم، وهذه الدعوة ترجع إلى التخلّق بأخلاق الله تعالى والتخلّي عمّا لا يرضاه الله والتحلّي بما يرضاه، وتفاني الدنيا في عالم العقبى، فيصير الكلّ باقياً ببقاء الله تعالى، ولعلّ ما ورد في الحديث: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خلقان من خلق الله تعالى، مَن أحياهما أحياه الله تعالى»، يرجع إلى ذلك، فإن الخلق إنما يعتبر في مرتبة الفعل لا في مرتبة الذات، والمراد بالإحياء الأعم من الإحياء الدنيوي والأُخروي، وسبب الإحياء معلومن لأنه اتصال فعلي بالحيّ القيوم.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾.

بعدما أكدّ سبحانه الدعوة إلى الاتحاد والاعتصام بحبل الله تعالى والدعوة إلى الخير، بيّن سبحانه وتعالى في هذه الآية ما يترتب على الإعراض عن ذلك والإحجام عن ما أمرهم في سبيل الوحدة والاتحاد بين أفراد المجتمع، فإنه لا يمكن أن تختلف أمة إذا اجتمعت على مقصد واحد وهدف معين واتّفقت عقائدهم، وكانت بعيدة عن الأهواء الباطلة وما يوجب الضلال، وتحقّق التعاون والتناصر بين أفرادها، وقويت أواصر الوحدة فيهم، وبعدت عمّا يوجب الافتراق والاختلاف بينهم، فهذه الآية كالدليل على لزوم متابعة ما ورد في الآيات السابقة.

والتفرّق إنما يكون في ما يجب فيه الاجتماع ممّا فيه الصلاح والإصلاح، ويكون ابتداءً في الأبدان والابتعاد عمّا يوجب اتحاد الأفراد.

وأما الاختلاف إنما يكون في العقائد والآراء ويوجبه الافتراق في الكلمة، فهو كالمقدمة التي توصل إلى الاختلاف في العقائد والآراء، فإن كلّ اختلاف في الرأي إنما ينشأ عن التفرّق في الكلمة وتباعد أفراد المجتمع، والاختلاف هذا إنما يكون عن ضلال الأهواء والبغي، ولذا نسب سبحانه وتعالى الاختلاف إلى البغي في عدّة آيات، منها قوله تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾[1]، فإن الاختلاف بعد مجيء الآيات للحقّ الموجبة للاتحاد والاجتماع إما يكون عن إعراض عنها، فيكون عن بغي وضلال.

والمعنى: ولا تكونوا كالذين تفرّقوا في الكلمة ولم يجتمعوا على ما

(١) البقرة، الآية ٢١٣.

أمرهم الله تعالى وخرجوا عن الجماعة، فأوجب التباغض بينهم والتباين في آرائهم والاختلاف في عقائدهم، فصاروا شيعاً وأحزاباً، وفي ذلك زوال سعادتهم ووقوعهم في الشقاق والنفاق والحروب والمنازعات، فتذهب كرامتهم واستقلالهم وأمنهم وأمانهم.

ويستفاد من الآية الشريفة أن الاختلاف المذموم هو ما إذا كان البغي والضلال، وأما غيره فلا ضرر فيه، بل هو ضروري لاختلاف الأفهام والإدراكات، ويكون سبباً للرقي والاستكمال ولكن لا بد أن لا يصل إلى حدّ يوجب التباغض والتنافر.

قال تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

جملة استينافية هي نتيجة للسابق، أي: أن الذين افترقوا واختلفوا في دين الله لهم عذاب عظيم، جزءاً لظلمهم وعدوانهم لما أوجدوا من التفرّق والاختلاف.

وإنما ختم سبحانه وتعالى هذه الآية الشريفة بهذه الجملة مقابلةً للآية السابقة، فإن النتيجة إذا كان فيها الفلاح والنجاح فلا محالة يكون في عكس ذلك الخسران والعذاب.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾.

تفريع على التقسيم السابق، وبيان لجزاء الطائفتين المتقدّمتين، ويكون التقسيم من اللف والنشر المشوش المصطلح عليه في علم البديع، فتكون وجوه المفلحين مبيضّة ووجوه الظالمين مسودّة.

وإنما ذكر عزّ وجلّ الوجوه من بين سائر الأعضاء، إعلاناً لرفعة شأن المفلحين في الآخرة، حتى يعرفهم جميع أهل المحشر وينظروا إليهم، وتبييناً لخسة الظالمين وإذلالهم حتى يكونوا منفعلين في الآخرة كما كانوا كذلك في الدنيا.

وقد خصّ سبحانه وتعالى من نِعَم الآخرة وعذابها بياض الوجه وسواده، لأن المفلحين لما كانوا معتصمين بحبل الله تعالى تلحقهم البشارات الإلهية في كلّ آن وكانوا مجتمعين في الاعتصام به عزّ وجلّ، كانت الطلاقة والبشاشة ظاهرة في وجوههم في الدار الدنيا، فيكونون كذلك في الدار الآخرة، وأما الظالمون الذين أعرضوا عن الاعتصام بحبله، فانقطعت عنهم البشارات الربانية، ووقعوا في النزاع والتباغض والاختلاف، فكانوا مخذولين قد ظهر على وجوههم الانكسار والانفعال في الدنيا، فلحقهم مثل ذلك في الدار الآخرة، فكان الجزاء مناسباً لأعمالهم وصفاتهم.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾.

تفصيل بعد إجمال. والجملة مركبة من الشرط، وهو: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾، والجواب فيقال لهم: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾، وحذف القول واستتباع الفاء في الحذف له شايع في كلمات الفصحاء، وإنما الممنوع حذفها وحدها.

وعن بعض المفسرين يجوز أن يكون الجواب: «فهم في عذاب أليم» كما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾، ويناسب قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، وفائدة ذلك التهويل بالجواب ليقدّره السامع بكل نحو يشعر به المقام من الهول، وهو باب واسع في البلاغة.

ولكن، يمكن أن يقال إنه لا وجه لهذا الاختلاف في الأسباب التوليدية، كما أثبتناه في علم الأصول، سواء كان الجواب السبب أم المسبب، مع أن هذا التهويل والتخويف يستفاد من لفظ العذاب المعهود الموصوف بالعظمة.

وكيف كان، ففي قوله تعالى: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ التفات لغرض التوبيخ والتقريع. وإنما قدّم عزّ وجلّ جزاء الظالمين لمجاورته لقوله تعالى: ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾، وتوبيخاً لهم وتشنيعاً لفعلهم، مع أنه عزّ وجلّ ابتدأ بذكر أصل الثواب، واختتم بجزاء المفلحين، ليكون الابتداء والاختتام بما يشرح الصدر ويسرّ الطبع، وللإعلام بأن رحمته سبقت غضبه. وحقيقة هذا الخطاب عامة بالنسبة إلى الدنيا والآخرة.

والمراد بالإيمان الظاهري منه، أي الذين آمنوا به، كما أن المراد بالكفر ترك الاعتصام بحبل الله، فتفرّقوا واختلفوا وبدّلوا دين الله تعالى وهتكوا حرماته فكفروا بأنعم الله، وحينئذٍ لا تختصّ الآية الشريفة بطائفة خاصة كما قيل، بل تعمّ جميع مَن آمن صورة وترك العمل بما آمن به وكفر بأنعمه عزّ وجلّ.

قال تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

إنما أطلق عزّ وجلّ العذاب ولم يصفه بأمر، تعظيماً له وتهويلاً، والأمر للإهانة، والفاء للإيذان بأن العذاب مترتّب على الكفر، كما يدلّ عليه ذيل الآية الشريفة: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، والباء للسببية.

وإنما جمع عزّ وجلّ الفعل الماضي والمستقبل، للدلالة على استمرارهم على الكفر، وكأنه صار طبعهم، وبذلك استحقّوا الجزاء الأليم، وأن ذلك العذاب جزاء أعمالهم، اختاروه بسوء أعمالهم.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

الرحمة عامة شاملة لجميع مواهبه تعالى وإفاضاته بالنسبة إلى عباده المؤمنين، دنيوية كانت تلك الرحمة أو أُخروية، وكلّ ما يكون في الدنيا

يتمثّل في العقبى بصورة حسنة، وكلّ ما هو في الجنّة يكون في صورة الفلاح والنجاح، فهما متّحدان ذاتاً، فيكون الجزاء في الطائفتين مناسباً لأفعالهم، فكلّ ما يصدر عنهم في الدنيا يكون لهم أو عليهم في العقبى.

قال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ﴾.

الظرف متعلّق بالآيات، كما يصحّ تعلّقه بقوله: «نتلوها»، لأن المتلو عين تلك الآيات، وهي عين ما يتلوها الله تعالى على نبيّه، فلا فرق بين تعلّق الظرف بالتلاوة أو بالآيات المتلوة، وهو قيد توضيحي، لأن كلّ ما يصدر عنه تبارك وتعالى حقّ بجميع معنى الكلمة.

والمراد بالآيات والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما أن المراد بالحقّ نفس الأمر الواقعي، الذي يقوم به نظام الدنيا والآخرة، فإن الأحكام التي شرّعها الله تعالى لعباده تتضمّن سعادتهم الدنيوية والأُخروية، بل لأجلها شرّعت.

قال تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾.

بيان لمعنى الحقّ، فإن ما هو الحقّ واقعاً لا يعقل منه الظلم، لأنه إنما يكون لترميم النقص وتكميله، والمفروض أنه محال عليه تعالى، فهو عام يشمل جميع أنحاء الظلم تشريعاً وجزاءً، كما تدلّ عليه الآية الشريفة، فإن الظلم نكرة واقعة في سياق النفي.

والعالمين جمع محلى باللام، يفيد الاستغراق يشمل كلّ عالم في سلسلة الزمان، كما يشمل عالم البرزخ والآخرة إلى ما لا نهاية له. وهذه الآية تأكيد لقوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، فإن العذاب إذا كان نتيجة الكفر لا وجه لاحتمال الظلم بالنسبة إلى العامل الذي اختار الجزاء بنفسه، فتكون جميع المساوي والشرور التي تصيب الإنسان في

العالمين ـ الدنيا والآخرة ـ من ترك الاعتصام بحبل الله تعالى عملاً، ومن التفرّق والاختلاف كما تقدّم.

بحوث المقام

بحث أدبي

نصب «حق» في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ على النيابة عن المفعول المطلق المضاف إليه، لأنه من صفاته.

واللام في قوله تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ﴾ للأمر، والجمهور على إسكانها، وقرىء بكسرها على الأصل، و(تكن) إما من كان التامّة، فتكون «أُمة» فاعلاً وجملة «يدعون» صفته، و«منكم» متعلق بـ(تكن)، أو بمحذوف يكون صفة لأُمة قدّم عليها فصار حالاً، وإما من كان الناقصة فتكون «أُمة» اسمها و(يدعون) خبرها و(منكم) إما حال من أمة، أو متعلّق بكان الناقصة.

وإنما أتى «يدعون» مذكراً باعتبار إرادة الجماعة من الذكور من الأُمة، وتدخل النساء تغليباً، إن لم نقل باشتراك الصيغة للمذكر والمؤنث.

ونصب يوم في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ﴾ للظرفية، قيل: إن العامل فيه «عظيم»، ويجوز أن تعمل فيه الجملة في معنى يعذبون يوم.

وقيل: إنه منصوب على الظرفية، أي (لهم)، لأن فيه معنى الاستقرارية.

وقيل: إنه منصوب بإضمار (اذكر) على أنه مفعول.

وقيل: إنه ظرف لفلاح المفلحين وعاقبة المتفرّقين.

والحق أن يقال: إن النصب لما كان يدلّ على الإعلان والإظهار والتفخيم، فيكون المقدر «أعلن يومَ تبيض وجوه وتسود وجوه»، فتدلّ الآية المباركة على عظمة هذا الخطاب وتجليله وتعظيمه، بحيث يجذب القلوب وتصير العقول صرعى.

بحث دلالي

تدلّ الآيات الشريفة على أمور:

الأول: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾، على مراعاة التقوى والمبالغة فيها في جميع الأحوال، بحيث لا تشوبها غفلة فلا يتركها أحد قدر المستطاع، ولذا قسّم أهل العرفان التقوى على مراتب ثلاث: تقوى العوام، وهي الاجتناب عن ما لا يرضاه الله تعالى، وتقوى الخواص وهي الاجتناب عن كلّ مرجوح حتى المكروهات، وتقوى أخصّ الخواص، وهي الاجتناب عمّا سوى الله تعالى في الكونين.

الثاني: يدلّ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾، على لزوم الإسلام في جميع الأزمان، وعدم الانصراف عنه في وقت من الأوقات، والتمسّك به حتى يقع الموت وهو على الإسلام، بحيث لا تصرفه الشبهات ولا تعوقه المشكلات عن العمل بأحكام الإسلام، فلا يردّه بعد إيمانه كافراً، فإن الحشر إنما يكون على ما يقع عليه الموت، وقد ورد عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «كما تعيشون تموتون وكما تموتون تحشرون»، فإذا مات على دين الإسلام والالتزام به اعتقاداً وعملاً، حشر على هذه

الحالة وفاز بالسعادة والرضوان من حين موته، ومن ذلك يظهر الوجه في التأكيد والحصر الواردين في الآية الشريفة.

كما أنه يمكن أن يستفاد من هذه الآية أيضاً أن المعصية قد توجب الصرف عن الإيمان حين الموت، فيتحقّق الخسران لا محالة، فلا بد من ترك المعصية مطلقاً حتى لا يكون للشيطان فيه مطمع، وعلى هذا يكون ترتّب هذه الآية على قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ من قبيل ترتّب المقتضى (بالفتح) على المقتضي (بالكسر)، واللازم على الملزوم.

الثالث: يستفاد من قوله: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ أن الاعتصام بحبل الله تعالى إنما هو أمر من الأمور الاجتماعية التي تؤثّر في المجتمع ولا يمكن أن ينال الأثر المطلوب منه إلا بعمل جميع أفراد المجتمع به وعدم التفرّق عنه بوجه من الوجوه، وعلى هذا لا بد أن يكون هذا الحبل ذا أثر اجتماعي قويم وله التأثير الكبير في المجتمع، ويكون مقبولاً لديهم، وهم مأمورون بالتمسّك به عملاً، وهو بمنزلة الروح للأمة، ولولاه لما كان للأفراد أثر أصلاً، بل كانوا كالجسم بلا روح. والروح الاجتماعية في الإسلام إنما هي الاعتصام بحبل الله تعالى عملاً، وهذه الروح هي النعمة الحقيقية على المجتمع. ومثل هذا الحبل في الإسلام هو القرآن الكريم ومَن أُنزل عليه ومَن شرح القرآن حقّ الشرح.

ومن ذلك يعرف السرّ في تعقيب هذه الآية بقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾. فإنه تعالى يبيّن بعض وجوه التفرّق والإعراض عن الاعتصام بحبل الله في عصر ما قبل الإسلامن ثم ما وصل إليه الأمر بعد التمسّك بحبل الله في عصر ما قبل الإسلام، ثم ما وصل إليه الأمر بعد التمسّك بحبل الله

والالتفات حول الرسول الكريم والاجتماع على الإخوة، كما عرفت في التفسير. فيكون الاعتصام بحبل الله حقّ الاعتصام علّة تامّة منحصرة لحفظ الاجتماع عن الخلاف والاختلاف حدوثاً وبقاءً، كما أن الانفصام عنه علّة تامّة منحصرة للنفاق والتفرّق والخلاف والسقوط في هاوية الهلاك، والعيان في كلّ ذلك يغني عن البيان والبرهان.

الرابع: يستفاد من التأكيد في إتيان لفظ «جميعاً»، والنهي عن التفرّق في قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾، أن جعل الداعي إلى الاجتماع والمانع عن الخلاف والاختلاف أمر حقيقي خارجي وقاعي وواحد، لا أن يكون اعتقادياً، بأن يدّعي كلّ أحد أنه معتصم بحبل الله تعالى ولا يلزم الخلاف الباطل بضرورة العقل، فيصحّ أن يقال إنه كلّ ما حصل الخلاف والاختلاف، لم يتحقّق الاعتصام الحقيقي بحبل الله، فيرجع محصل معنى الآية: أن اجعلوا أنفسكم من مظاهر الاعتصام بالله. ولعلّ من أحد أسرار هذا التأكيد على الاجتماع والنهي عن الاختلاف هو ما كان يعلمه الله تعالى من مستقبل هذه الأمة من وقوع الاختلاف فيها، وأنها تختلف كما اختلف غيرهم من اليهود والنصارى. وهذا هو دأب القرآن الكريم، أنه إذا بالغ في التحذير عن شيء إنما يريد التنبيه على ترتّب وقوعه، وهو من ملاحم القرآن الكريم.

الخامس: يدلّ قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ على وجوب النظر في الأدلّة والآيات والتفكّر الصحيح المنتج، فإن في ذلك الهداية للإنسان.

السادس: يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾، أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد أمر عزّ وجلّ الأمة إلى تحمّل هذه المسؤولية أولاً، لأن المقام يحتاج إلى التعاون

والتعاضد، فلا يمكن ترك المتصدّي وحده كما مرّ في التفسير، ثم أمر طائفة خاصة منها إلى التصدّي لهما، لأنه يشترط فيهما العلم والقدرة، ومن المعلوم عدم تحقّق جميع الشروط في كل فرد، ثم ثبوت الجزاء الجزيل على ذلك وتشديد النكير على تركه.

وأخيراً، أن هذا التكليف من أسباب التكميل والتهذيب والصلاح والإصلاح وترويض النفس وتزيينها بالفضائل والكمالات وسعادة الفرد والمجتمع وتحسين نظام الاجتماع والمدنية، ولذا كان التكليف جارياً على أحسن نهج وما هو الأوفق بالحكمة، فهو من أعظم صفات الله تعالى، أوكلها إلى أنبيائه ورسله.

ويدلّ على ذلك جملة من الأحاديث، فقد ورد عن الإمام محمد الباقر عليه السلام في حديث: «إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء ومنهاج الصلحاء، فريضة عظيمة بها تقام الفرائض وتؤمن المذاهب، وتحلّ المكاسب، وتردّ المظالم، وتعمّر الأرض، وينتصف من الأعداء، ويستقيم الأمر ـ الحديث ـ».

السابع: يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ مراتب هذه الدعوة، فإنها تبتني على كونها باعثة على الانقياد، وداعية إلى زجر ورادعة عن المنكر من القول والفعل وسائر الأمور المحصلة لهذا الغرض، وإن كان في بعض المراتب يتوقّف على إذن ولي الأمر، فإن عموم الدعوة يشمل جميع هذه المراب القولية والعملية وغيرهما.

الثامن: يستفاد من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾، أن الدار الآخرة وما فيها من النعيم والجحيم بمنزلة المرآة للدار الدنيا (أو كالصورة)، فكلّ ما هناك لا يعلم إلا بما هاهنا.

كما تدل الآية الشريفة على سنخية الثواب والعقاب مع العمل، ويصحّ أن يراد باليوم في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾، طبيعة اليوم المنطبقة على يوم الآخرة وأيام الدنيا، فإن المفلحين مبيضّة وجوههم في هذا العالم قبل يوم الآخرة، والظالمين عكس ذلك، ويكون البياض كناية عن الراحة النفسية واستقرار الضمير واعتماد الناس عليه. وفي الآيات الكريمة والسنّة المقدّسة شواهد كثيرة يأتي في المحل المناسب شرح ذلك إن شاء الله تعالى.

التاسع: يدلّ قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾، أن ترك التكاليف الإلهية يوجب اختلال النظام وسوء الحال في كلّ عام، فيكون كل ظلم يرد على الإنسان إنما يرد من ناحيته. وأما التكاليف، فقد وضعها الله تعالى على عباده لسعادتهم وتحسين نظامهم وصلاحهم وإصلاحهم وحسن معيشتهم ورفع الظلم من بين أفراد الناس[1].

(١) م ـ ن، ص١٨٢ ـ ٢٠٦، ج (٦).

الخصال الحميدة

﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ * وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ * قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ * هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

الآيات الشريفة من جلائل الآيات التي يذكر فيها أهم الخصال الحميدة الفردية والاجتماعية، وه يتهدي الإنسان إلى استكمال نفسه ومجتمعه، وتعلّمه كيفية علاج الذائل النفسانية، فهي تدعوه إلى الخير والإحسان، والتحلي بمكارم الأخلاق والانزجار عن الشرّ والسوء ومساوىء الأخلاق.

وقد عدّد سبحانه وتعالى جملة من الأخلاق الكريمة والخصال الحميدة وهي المسارعة إلى الخير، والإنفاق في سبيل الله في السرّاء والضرّاء، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس، والتوبة عن المعاصي والذنوب التي تبعد الإنسان عن خالقه وتوقعه في الورطات والمشاكل.

وقد أمر عزّ وجلّ بنيل الإحسان وكلّ خير فردي واجتماعي، وبيّن سبحانه وتعالى أن في التخلقّ بها وفي إفشائها يحقّق للإنسان الحياة السعيدة وتأمنه من الوقوع في المهالك وتوجب له النجاة من الشدائد، وبها تثبت الوحدة بين أفراد المجتمع ويشدّ بعضهم بعضاً.

فهذه الآيات الشريفة تبيّن الصراط المستقيم الذي مَن سلكه لا يضلّ ولا يشقى، وقد ذكر سبحانه في الآيات السابقة أهم ما يمنع الإنسان من السير على ذلك الصراط المستقيم، وما يعيقه من تكميل نفسه ومجتمعه، وهو الربا الذي يعدّ في نظر الإسلام من أهم الموانع المادية والمعنوية التي تحرم الإنسان عن الحياة السعيدة، وتمنع من الإنفاق الذي يعدّ من أهم الأسس في نيل السعادة.

وقد عدّ عزّ وجلّ أن التعدّي عمّا ذكره والإعراض عمّا بيّنه يؤدّي إلى الشقاء والحرمان، وأمر عزّ وجلّ بالاعتبار عمّا جرى في الأمم السابقة التي أعرضت عمّا ارتضاه الله تعالى لهم.

التفسير

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾.

دعوة عامة إلى الغفران، وبشارة عظيمة لجميع أهل الذنوب والعصيان، واستضافة من الجواد الغني لجميع الواردين عليه، وترغيب إلى العباد في إزاحة جميع الأغشية والظلمات، ودفع أنواع الجهالات، ووعد منه عزّ وجلّ لمَن أطاع الله وأطاع الرسول، وقد ذكر جزاء المتقين المطيعين اتباعاً للوعيد بالوعد الجميل، واقتراناً للترهيب بالترغيب، كما هو سنّته عزّ وجلّ.

والمسارعة المبادرة والاشتداد في السرعة، وهي في الخير ممدوحة

وفي الشرّ مذمومة، والمسارعة إلى الخيرات هي المبادرة إليها. وإنما أمر سبحانه وتعالى بالمسارعة إليها بإطاعة الله تعالى والرسول، للتنبيه على ترك التسويف الذي يفوت به الأجر والحظ، وكثرة المثبطات ووسوسة الشيطان التي توهن العزائم.

ويمكن أن يكون قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾، مبيّناً للمغفرة في هذه الآية الشريفة، كما أن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ مبيّناً للمسارعة إلى الجنة.

وكيف كان، فإن أسباب المغفرة والدخول في الجنة معروفة مذكورة في القرآن الكريم والسنّة الشريفة، كما أن أسباب الدخول في النار كذلك.

قال تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾.

العرض خلاف الطول، وهو أقصر الامتدادين عادة، ويكنّى به عن السعة، واستعماله في ذلك شائع، يقال: بلاد عريضة، أي واسعة، ومنه قولهم: أعرض في المكارم إذا توسع فيها، وفي الحديث عنه ﷺ: «لقد ذهبتم فيها عريضة»، أي الأرض الواسعة، وقد قال ﷺ ذلك عندما هرب جماعة يوم أُحد فراراً من الزحف.

ومن ذلك يظهر أنه لا وجه لما ذكره بعض من أنه إذا كان العرض كذلك فأين الطول وما مقداره، مع أنه لا يجري ذلك إذا فرضنا كروية الجنّة.

ويمكن أن لا يكون التعبير كنائياً، بل كان على الحقيقة، إما بناءً على عدم تناهي الأبعاد، كما عن جمع من الفلاسفة، فالأمر واضح. وإما بناءً على التناهي كما عن بعض، فلا ريب في أنه على فرض صحته إنما هو في الدنيا، وأما في الآخرة فهي غير متناهية من جميع الجهات، زماناً ومكاناً، وسعة ونعمة، وغير ذلك.

وقد ذكر المفسّرون في معنى العرض في المقام بما لا يرجع إلى محصل.

ونقل عن أبي مسلم بن بحر: أن المراد من العرض في الآية الشريفة هو من عرضك الشيء على البيع، والمقايضة، أي لو عرضت الجنة بالسماوات والأرض لكانتا ثمناً.

وهذا تأويل باطل.

وكيف كان، فالآية الشريفة ترمز إلى معنى جميل، ترغّب المخاطبين إلى المراد بأسلوب لطيف وجار على ما يتصوّره الناس من التمثيل بالموجود في الخارج، وتبيّن بلوغ الجنّة في السعة بحيث لا يمكن أن يحدّها حدّ وهمي، وهذا ممّا يوجب اطمئنان الإنسان بأن له ما تشتهيه النفس من جميع الجهات، ففي بعض الأحاديث القدسية: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»، وهذا هو شأن النعمة التي أُعدت من غير المتناهي من كلّ جهة إلى المنعم عليه المتناهي من كلّ جهة، وهذه هي الحياة الكاملة الأبدية التي لا ينبغي للإنسان إلا السعي في دركها.

قال تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

الإعداد: التهيئة، وهو إما علمي أو خارجي، في هذه النشأة أو في نشأة أخرى أو في عالم الملكوت الذي يكون كالصورة والمرآة لهذا العالم بجميع جزئياته وكلياته، ويمكن أن يعبّر عنه بعالم المثال الخارجي، وهو موجود بوجود روحاني معنوي، ودخله سيد الأنبياء ﷺ في معراجه واطلع على خصوصياته، فيكون الإعداد مطابقاً للوجود العلمي الأزلي، والوجود الخارجي في الدنيا والوجود الأُخروي في ما لا يزال.

والتقوى هي سبب معدّ للجنة، فتكون حقيقة التقوى منزلة من العلم الأزلي مثّل بالوجود المثالي، ثم نزلت إلى هذا العالم وستعود إلى المحل الذي أعدته لنفسها، كما أنها حقيقة العصيان والطغيان والكفر كذلك، ولكلّ منها مظاهر خاصة تناسب عالم ظهورها، ويمكن التمثيل له في هذا العالم أيضاً، فإن بعض الأراضي لا قابلية لها إلا لزراعة مثل الزعفران، وقطعة أخرى لا تصلح إلا أن تكون سبخة يعلوها الملح. وذلك كله بنحو الاقتضاء لا العلّية التامة، ومن ذلك يعلم المراد من قولهم عليهم السلام: «كلّ ما هناك لا يعلم إلا بما هنا»، أو: «إن الدنيا مزرعة الآخرة».

وإنما أتى عزّ وجلّ الفعل مجهولاً، للإشارة إلى أن لفعل الفاعل دخلاً في الإعداد، وأُضيفت الجنّة إلى المتقين، لبيان أن الوصف ـ وهو التقوى ـ علّة هذا الإعداد.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾(١)، ولعلّ الاختلاف في التعبير بالمسارعة والمسابقة، لأجل أن المسارعة تكليف للجميع من غير اختصاص بفرد، والمسابقة تكليف فردي بأن يتسابق كلّ فرد فرداً آخر حين المسارعة، فتكون المسابقة أخصّ من المسارعة، ويكون المراد بالجنّة في آية المسابقة جنّة خاصة، عرضها كعرض السماء والأرض، فإن لله تعالى جنّات كثيرة، بل غير متناهية.

كما أن المراد بالجنّة في آية المسارعة الجنس التي يكون عرضها السماوات والأرض، ويصحّ أن يراد بالسماء في آية المسابقة الجنس، فيتحدّ مفاد الآيتين حينئذٍ.

---

(١) الحديد، الآية ٢١.

ثم إنه تعالى ذكر المتّقين في المقام لغرض الأوصاف التي وصفهم بها، وهي أوصاف جامعة لمكارم الأخلاق وهي تفيد المجتمع كما تفيد الأفراد، أُمروا بالتحلّي بها لغاية تهذيبهم وتكميلهم، وقد نزلت هذه الآيات بعد غزوة أُحد، وقد جرى على المسلمين ما جرى، كما صدر منهم ما صدر، فاستلزم ذلك تنبيه المؤمنين وتهذيبهم وإعدادهم لما ستجري عليهم من الحوادث.

وقد وصف عزّ وجلّ المتّقين بأوصاف خمسة، وهي:

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾.

السراء: من السرور، وهو الرخاء والفضل، والضرّاء من الضرر، وهو الشدّة والعسر والضيق. أي: الذين ينفقون لوجه الله تعالى في حالة الرخاء والسرور، وحالة الشدّة والضيق والعسر.

وظاهر الآية الشريفة أن السرّاء والضرّاء حالتان للمنفق، ويحتمل أن تكونا حالتين للإنفاق في حالة الرخاء والسرور، وحالتي الضيق والشدّة، فمن الأول الإنفاق في التوسعة على العيال، ومن الثاني الإنفاق لرفع ما يضطرون إليه.

وإنما حذف عزّ وجلّ متعلّق الإنفاق ليشمل القليل والكثير، وكلّ ما يصلح للإنفاق، سواء كان مالاً أم غيره.

وقد بدأ سبحانه وتعالى من بين الأوصاف بالإنفاق مقابلة للربا الذي نهى عنه عزّ وجلّ في الآية السابقة، الماحق لكلّ فضل وفضيلة، ولأن الإنفاق في الحالتين يكشف عن محبة المنفق لله تعالى وتقواه، لأن أنفق أحبّ الأشياء لنفسه. ولأن الإنفاق أنفع للناس من سائر الصفات، فإن فيه يظهر التعاون بين أفراد المجتمع، وبه ترتفع المشكلات وتنحل

المعضلات، ويخفف من هموم الفقراء ويبعث في نفوسهم الأمل ويشدّهم مع سائر أفراد المجتمع.

قال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾.

وصف ثان، ومادة (كظم) تدلّ على الحبس والإمساك، ومنه الحديث: «إذا تثاءب أحدكم فليكظم ما استطاع»، أي يحبسه مهما أمكن، ويقال: كظم البعير، أي أمسك عن الجرة، وكظم القربة شدّ رأسها عند الامتلاء، والغيظ شدّة الغضب وفوران الدم للانتقام.

قال تعالى: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾.

وصف ثالث، وهو من أجلّ مكارم أخلاق الله تعالى، فإن بعفوه يتم تدبير نظام العالم. ومن أسمائه تعالى العفوّ، وهو المبالغة في العفو الذي هو التجاوز عن الذنب وترك العقاب عليه، وأصله المحو والطمس، والعفو عن الناس هو ترك مؤاخذتهم مع القدرة عليها والتجاوز عن عقوبة مَن استحقها، وهو أقرب للتقوى، وفي الحديث: «سلوا الله العفو والعافية والمعافاة»، أما العفو فمحو الذنوب، والعافية أن تسلم من الأسقام والبلايا وهي الصحة، والمعافاة هي صرف أذى الناس عنك وأذاك عنهم، ويغنيك عنهم ويغنيهم عنك.

وإنما حذف المتعلّق ليشمل كلّ ما يدخل تحت حقّه.

وهذا الوصف يكشف عن كرم المتصف به وحسن سريرته وضبط نفس الأمارة تحت إرادته وحكمته، فتكون مرتبة هذا الوصف أعلى من مرتبة كظم الغيظ، فإن الشخص قد يكظم غيظه ولكن على عقد وضغينة، والعفو دليل على انتفائهما.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

وصف رابع، وهو الإحسان الذي له المرتبة الأعلى من بين جميع ما سبق، بل هو أكرم المكارم، ولعلّه لأجل ذلك لم يعطفه على ما سبق.

والإحسان: صفة كريمة تتصف بها النفس يكشف بها كظم الغيظ والعفو عن الناس، فإن هذه نعوت معدّة لكسب الإحسان والتحلّي به، والإحسان: هو جعل الأشياء في موضعها وإتيان الأعمال على الوجه اللائق بها، وبالإحسان يتمّ الإنفاق الذي لا بد أن يعرى عن جميع ما يشينه ويكمل كظم الغيظ والعفو عن الناس، ولذلك كان للمحسنين أجر عظيم ومنزلة كبيرة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾(١)، ويكفي في منزلة هذا الوصف أن الله يحب المحسنين ويثيبهم على إحسانهم، وكفى بذلك فخراً وفوزاً.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾.

وصف خامس، وهو أعظم آية في القرآن الكريم في تهييج رجاء العبد، وفيها التنويه بمقام العفو والإحسان، وتذكّر المتّقين بعدم اليأس لو صدر منهم ذنب، فإنه بعد أن ذكر أوصاف المتّقين ـ من كظم الغيظ والعفو والإحسان ـ عقبه سبحانه بأعظم ما منَّ به على العباد، وهو العفو عن المذنبين والإحسان بهم، تعليماً لهم وتنويهاً لمقامهما وإعلاماً بأن الإنسان لا يخلو عن الذنب إلا أن يكون معصوماً بعصمة الله تعالى، فهو محتاج إلى العفو والإحسان، فتكون الجملة معطوفة على المتّقين، (وأُولئك) في الآية التالية إشارة إلى الجميع.

والفاحشة من الفحش، وهو مجاوزة الحدّ في السوء، فتكون الفاحشة كلّ اشتدّ قبحه من الذنوب والمعاصي، وشاع استعماله في الزنا

---

(١) العنكبوت، الآية ٦٩.

باعتبار أنه أظهر أفراد الفحشاء؛ وكلّ خصلة قبيحة فهي فاحشة من الأقوال والأفعال، وفي الحديث: «إن الله لا يحبّ الفحش والتفاحش».

والمراد بها في الآية الشريفة ـ بقرينة المقابلة للظلم ـ المعصية الفاحشة في قبحها، سواء كانت مقتصرة على النفس، كترك الصلاة ونحوه، أم متعدّية إلى الغير، كالقتل والغيبة ونحوهما. والظلم ما دون ذلك، كما يصحّ أن يكون الفرق بينهما كالفرق بين الكبيرة والصغيرة.

قال تعالى: ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾.

أي: تذكّروا عظمة الله تعالى وآياته الموجبتين للخشية منه، وأنه مرجعهم في كلّ خوف ورجاء، بعد أن أغفلهم الشيطان وأنساهم ذكر ربّهم حين الذنب، فيسرعون إلى الاستغفار وطلب المغفرة.

والمراد بذكر الله هو الذكر الحقيقي الذي يكون داعياً إلى ترك الذنب واستشعار الخوف والرجوع إليه تعالى، لا مجرّد الذكر اللفظي مع البقاء على الذنب، فإنه حينئذٍ يكون كالمستهزىء به تعالى.

قال تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾.

أي: حين ما ذكروا الله وتذكّروا جلاله وكبرياءه أحبّوا التقرّب إليه بعد أن انصرف عنهم طائف الشيطان، فتابوا إليه طالبين المغفرة منه عزّ وجلّ لجميع ذنوبهم.

والآية الشريفة في مقام التمييز بين مَن يفعل المعاصي محادة وعناداً ولجاجاً، فإنه بعيد عن الاستغفار ولا يوفق إليه أبداً. وبين مَن تذكّر الله تعالى حين المعصية وارتدع عنها خوفاً، فتاب إليه تعالى وطلب المغفرة منه، فإن لهم مقاماً معلوماً.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

بشارة عظيمة، وتطييب للنفوس، وتشويق إلى التوبة والاستغفار، وتنبيه للمذنبين بالالتجاء إلى الله تعالى وعدم اليأس منه عزّ وجلّ، فإنه لا منجى من الذنوب ولا ملجأ في الغفران إلا إلى الله تعالى، وهذا ممّا يؤكد الفزع والرجوع إليه عزّ وجلّ.

والآية المباركة ـ بأسلوبها البديع وخطابها البليغ ـ تؤثّر في المخاطبين أبلغ التأثير، وينبّه الضمير الإنساني الذي تأثّر بارتكاب الذنوب والمعاصي بالرجوع إلى الله والإنابة إليه، لإزالة ما يوجب ضلاله وإغوائه.

وفي هذا الخطاب وجوه من الدلالة على المعنى المراد، كإظهار اسم الجلالة، وإسناد المغفرة إلى ذاته المقدّسة المستجمعة لجميع الصفات الكمالية، ودلالة ذلك على الغفران الواسع وانحصاره فيه عزّ وجلّ، لأنه المسلّط على ذلك كله، فإنّ مَن بيده أصل الخلق وتدبير شؤونهم، يكون مسلّطاً على الغفران بالأولى، وليس لغيره هذا الحقّ، وهذا ما يدلّ عليه الحصر المستفاد من النفي والإثبات.

وفيه الإنكار على مَن يطلب المغفرة من الأوثان أو الأفراد الذين لم يأذن لهم الله تعالى بالاستشفاع لديه في غفران الذنوب بالخصوص.

ويؤكّد ذلك ورود الخطاب على هيئة الإنشاء دون الإخبار.

وفي ذكر الجمع المحلّى باللام الدال على العموم، إعلان بأن الله جلّ شأنه يغفر جميع الذنوب، صغائرها وكبائرها، فيكون المذنب بعد الاستغفار والتوبة عنده كمَن لا ذنب له، كما في الحديث.

ثم إن مجيء هذا الخطاب بعد ذكر الفاحشة وظلم النفس، فيه الدلالة على سعة غفران الله تعالى وعدم مبالاته فيه، فإن الذنوب مهما كبرت وجلّت، ولكن عفوه وغفرانه أجلّ وأعظم وأكبر.

قال تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

الإصرار على الشيء: المداومة عليه وملازمته، وأكثر ما يستعمل في الشر والذنوب، وفي الحديث: «ويل للمصرين الذي يصرون على ما فعلوه وهم يعلمون»، وقد تقدّم اشتقاق هذه الكلمة في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾(١).

«وهم يعلمون» حال من فاعل الإصرار ومتعلّق به.

والمعنى: أنهم لم يداوموا على الذي فعلوه من الذنوب والمعاصي وهم عالمون بقبحها وبالنهي عنها والوعيد عليها.

وإنما قيّد الإصرار على الفعل بالمعصية، لبيان أن مجرّد الإصرار على المعصية مع الجهل بها لا يكون إصراراً شرعاً، كما يبينه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾(٢).

والآية الشريفة ترشد الناس إلى ترك الإصرار في المعاصي، لأنه يوجب عدم المبالاة برحمات الله تعالى والاستكبار عليه والاستهانة بأحكامه المقدّسة، ويجعل النفس ميالة إلى الطغيان والخروج عن الطاعة، فتنتفي العبودية وتخرج عن الفطرة المستقيمة، فلا ينفع حينئذٍ ذكر الله تعالى الذي كان يمنع عن المعصية والإقامة على الذنب.

قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

وعد منه عزّ وجلّ للمتّقين الموصوفين بما تقدّم من الأوصاف،

---

(١) آل عمران، الآية ١١٧.
(٢) النساء، الآية ١٧.

وبيان للأجر الجزيل والثواب الكبير المعدّ لهم، وهو المغفرة والجنّات العظيمة التي تجري من تحتها الأنهار زيادة في بهجتها، ولتمامية النعمة أنهم خالدون فيها لا يشوبها نقص.

ويمكن أن يكون ما ورد في هذه الآية المباركة هو نفس ما ذكره عزّ وجلّ في الآية السابقة من الأمر بالمسارعة إلى المغفرة وجنّة عرضها السماوات والأرض، فتكون تلك الأوصاف من المعدّات والأسباب للمغفرة والدخول في الجنّة، وتكون هذه الجنّات ضمن تلك الجنّة الفسيحة.

وقد أضاف سبحانه وتعالى الجزاء إلى ضمير «هم» تشريفاً، وفي ذكر الرب المضاف إلى «هم»، لبيان العلّة في نيلهم لذلك الجزاء العظيم وتربيته تعالى المعنوية لهم.

قال تعالى: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾.

تأكيد للوعد الجميل وتشويق لهم إلى العمل، أي: تلك المغفرة والجنّات إنما تكون على تلك الأعمال الحسنة التي تعدّ النفس إعداداً صالحاً، وتهيئوها لنيل تلك المراتب العالية.

والخطاب على إيجازه يشتمل على وجوه من الدلالات المحسّنة، الدالّة على عظمة الموضوع والاهتمام به، وتهييج الشوق والمسارعة إلى نيله.

منها: إقامة الأجر مقام الجزاء، إعلاماً بإنجاز الوعد وتحقّقه، ممّا يزيد في شوق العامل وتنشيطه للعمل، فكان العامل يستحق ذلك.

ومنها: ذكر الجمع المحلّى باللام وإقامته مقام الضمير تأكيداً، وللدلالة على حصول المطلوب.

ومنها: إتيان هذه الجملة بعد ذكر الجزاء وتفصيله لبيان الاهتمام بالوعد، والتأكيد على المسارعة لدركه.

قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾.

أمر بالاعتبار بما جرى على الأُمم الغابرة والنظر في ما بقي من آثارهم، زيادة في التحريض على العمل والاستعداد لنيل الكمال، وتشويقاً للجزاء الذي أعدّه الله تعالى للعاملين، وتنبيهاً للمؤمنين على عدم الغفلة، وتذكيراً لمَن خالف الرسول الكريم ﷺ، وتسلية للمؤمنين، وتوبيخاً لمن أعرض عن آيات الله تعالى وأحكامه المقدسة وغفل عن الاستكمال، وتشنيعاً على مَن أدرج نفسه في عداد المكذّبين بعد إتمام الحجّة، التي يكون منها الرجوع إلى أحوال الماضين والسير في الأرض والنظر في ما خلفته تلك الأمم من الآثار، فقد خلت عن أصحابها بعدما كانت قصوراً شاهقة أو عروشاً جمعت كلّ أسباب البهجة والسرور، وقد ابتهج ساكنوها وعمارها مدة فيها، أو كنوزاً امتلأت بكل أسباب العيش الهنيء، أو ذخائر عظيمة لم تدخل في الحسبان، وقد جرت عادته عزّ وجلّ أنه يرجع المخاطبين ـ بعد سرد جملة من الحوادث وبيان الأحكام الفردية والاجتماعية ـ إلى سنن الأُمم الغابرة، والأمر بالاعتبار بها والنظر في آثارهم لمزيد التنبيه، والاستفادة من تجاربهم ولئلا تتكرّر ما جرى عليهم على هذه الأُمة، وأن يسلكوا الطريق المستقيم الذي سلكه الصالحون منهم، والإعراض عن سبل المكذّبين لئلا يدخلوا في زمرتهم فينالوا جزاءهم، وقد جعل القرآن الكريم هذا الأمر من سبل إتمام الحجّة على العباد.

وخلت بمعنى مضت، والسنن جمع سنّة، وهي الطريق المعبّدة المسلوكة، وقد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم في ما يقرب من

سبعة عشر موضعاً، قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾(٢).

والنظر في سنن الماضين من سبل الرشاد، وفيها وجوه من الحكمة، منها الاعتبار بها، وإتمام الحجّة على اللاحقين، وتسلية لما يجري عليهم، والاستفادة من تجاربهم وغير ذلك، ولذا اهتم بها عزّ وجلّ فذكرها في مواضع متعدّدة.

وبالجملة: فهو إرشاد إلهي.

والمراد بها في المقام منهاج الماضين وما جرى عليهم، سواء كان سنّة المؤمنين الصادقين المجاهدين في سبيل الله تعالى والعاملين المستعدّين للقائه والدار الآخرة، وما كابدوا من عتاة زمانهم وجبابرتهم وصعوبة العيش، فرضوا بما قسمه الله لهم وصبروا وآثروا الآخرة على الحياة الدنيا الفانية، وسنّة الكاذبين الكافرين الذين آثروا الحياة الدنيا على الآخرة ونعيمها، لانهماكهم في الضلال والشهوات مع وضوح الحجّة ومعرفة البيّنات، والأمر بالسير في الأرض لزيادة الاعتبار من آثار الماضين والتبصّر منها، ويدخل في السير في الأرض السير في حالات أهل الأرض من خلال التأريخ والحوادث الواقعة فيهم.

قال تعالى: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾.

المراد بالنظر هو التأمّل والتبصّر بأنه كيف كان علاقة المكذّبين مع المؤمنين، وما جرى من الصراع بين الحق والباطل، وما آل أمر المؤمنين

---

(١) الأنفال، الآية ٣٨.
(٢) الحجر، الآية ١٣.

إليه، وعاقبة أمر المكذّبين وما حلّ بهم من العذاب والهلاك بسوء أعمالهم، فإن النظر في ذكل كلّه يزيد المعرفة ويوجب التسلية بما يجري على المؤمنين، ويفيد العظة والاعتبرا، والتوبيخ للمكذبين الكافرين.

قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

الإشارة راجعة إلى ما ورد في الآيات السابقة من ذكر غزوة أُحد والمضامين العالية التي احتوتها تلك الآيات، والتقسيم باعتبار حالات الناس ومدى تأثّرهم بالقرآن الكريم، فبعضهم يكون القرآن بالنسبة إليه بلاغاً وبياناً، والبعض الآخر يكون هدىً وموصلاً له إلى الهداية وموعظة تدعوه إلى الاتعاظ والاعتبار وزيادة الإيمان وثباته، كلّ ذلك لا بد أن يكون للذين أعدوا أنفسهم لقبول الهداية والاتعاظ، وهم المتّقون الذين يتأثّرون بالبيان وينتفعون منه ويهتدون بهداه ويتّعظون بمواعظه دون سواهم، وقد تقدّم نظير ذلك في أول سورة البقرة، فراجع.

المنهج الأخلاقي في الإسلام

بحث دلالي

تدلّ الآيات الشريفة على أمور:

الأول: قد جمعت الآيات المباركة المتقدّمة وجوه البرّ ومكارم الأخلاق التي لا بد من التحلّي بها ولا يسع لأحد الإعراض عنها، فإنها فاتحة الكمالات وجامعة للخيرات، وهي من المكارم الفردية والاجتماعية، بها يعيش الفرد حياة سعيدة خالية عن ما ينغصه من الكدورات والشرور، وبها يصلح المجتمع.

ومن هذه الآيات الشريفة نستفيد المنهج الأخلاقي في الإسلام، فإنا ذكرنا في أحد مباحثنا الأخلاقية: أن المنهج الأخلاقي في الإسلام يختلف عن المناهج الأخرى في الأصول والأسلوب والطريقة، وأن الإسلام ينظر إلى التقوى والعمل أولاً وبالذات، وأنه السبيل الوحيد لنيل الكمال والوصول إلى الغاية، وهذه الآيات تبيّن المنهج العملي، ونظير هذه الآيات قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ

وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾(١)، فراجع ما ذكرناه هناك.

الثاني: إنما قدّم عزّ وجلّ المغفرة على الجنّة، لأن المغفرة سبب للدخول فيها، وكلّ سبب مقدّم على المسبب، مع أن الجنّة دار طهر لا يصلح لدخول غير المطهرين فيها، وبالمغفرة يطهر المذنب فيصلح للدخول فيها.

الثالث: يستفاد من قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾، أن التقوى هي السبب في إعداد الجنّة وتهيئتها للمتقين وحضورها لهم.

الرابع: يستفاد من قوله تعالى: ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾، كمال الجنّة من جميع الجهات وتمامية النعمة فيها، فإن الجنّة التي تكون سعتها كذلك فلا بد أن تكون محفوفة بجميع موجبات البهجة والسرور، وفيها الحياة الكاملة كما قال عزّ وجلّ: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾(٢).

الخامس: يستفاد من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أن كلّ وصف سابق معدّ للوصف اللاحق، فإن الإنفاق يوجب ترويض النفس المحبّة للأموال والملذات والسيطرة عليها، فتستعد لكظم الغيظ، وهذا موجب للعفو عن الناس، وهو موجب لمزيد الإحسان.

السادس: يستفاد من قوله تعالى: ﴿ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ﴾، أن ذكر الله تعالى هو السبب في انقلاع العبد عن المعصية والانزجار عن الذنوب وعدم العود إليها والتوبة إلى الله تعالى وطلب المغفرة منه عزّ وجلّ، لأن غفران

---

(١) البقرة، الآية ١٧٧.
(٢) العنكبوت، الآية ٦٤.

الذنوب تحت سلطته عزّ وجلّ، وأن الإصرار على المعصية يسلب التوفيق عن تذكّر الله تعالى، وهم يعلمون بأن الإصرار يكون كذلك، ويوجب التجرّي على الله تعالى والاستكبار عليه وعدم المبالاة بحرماته، وتزول عنه حالة الندم والخوف عن نفسه.

السابع: إنما جعل عزّ وجلّ قصص الماضين ـ سواء الصالحين منهم أم الظالمين ـ خاتمة لتلك التعاليم الإسلامية، عبرة للاحقين ودستوراً للعمل ومنهاجاً في سيرهم وسلوكهم، مضافاً إلى كونها مواعظ يتّعظ بها المتعلّمون، ويصلح بها الفاسد.

بحث روائي

في المجمع: عن النبي ﷺ أنه سئل إذا كانت عرضها السماوات والأرض فأين تكون النار؟ فقال ﷺ: «سبحان الله إذا جاء النهار فأين الليل».

أقول: روى السيوطي أيضاً في الدر المنثور هذا الجواب منه ﷺ إقناعياً إسكاتياً. كما يمكن أن يكون على وجه التحقيق، بأن نقول إن خلق النار تبع لخلق الجنّة، فهي لا تنفكّ عنها، كما أن خلق الليل لا ينفكّ عن خلق النهار، وأما وجه التبعية، فلقوله تعالى: ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾(١)، و«سبقت رحمته غضبه».

وفي الخصال: عن أمير المؤمنين عليه السلام في قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾، قال عليه السلام: «إنكم لن تنالوها إلا بالتقوى».

أقول: لمّا تقدم من أن التوقى سبب لحصول الجنّة فلا يعقل نيلها

(١) غافر، الآية ٧.

إلا بالتقوى، ولا بد من تعميم التقوى إلى التوبة والاستغفار، كما في صدر الآية الشريفة.

وفي الكافي: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «ما من عبد كظم غيظاً إلا زاده عزّاً في الدنيا والآخرة، قال الله عزّ وجلّ: والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحبّ المحسنين».

أقول: وردت روايات كثيرة في شأن كظم الغيظ، سيأتي في المحل المناسب التعرّض لبعضها.

وفي الكافي - أيضاً -: عن الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: عليكم بالعفو، فإنه لا يزيد العبد إلا عزّاً، فتعافوا يعزّكم الله».

أقول: لأن العفو من صفات الله تعالى، فيعزّ العبد العافي بعزّه، ويأتي في الموضع المناسب شرح ذلك.

وفي المجمع والإرشاد للمفيد: «أن جارية لعلي بن الحسين عليه السلام جعلت تسكب عليه الماء ليتهيأ للصلاة فسقط الإبريق من يدها فشجّه فرفع رأسه إليها، فقالت له الجارية: إن الله تعالى يقول: والكاظمين الغيظ، فقال لها: كظمت غيظي، قالت: والعافين عن الناس. قال: عفا الله عنك. قال: والله يحبّ المحسنين، قال: اذهبي فأنت حرّة لوجه الله».

أقول: رواه السيوطي في الدر المنثور أيضاً عن البيهقي، والحديث يدلّ على أن الإحسان أمر زائد على أصل العفو، ومثل ذلك كثير في العالمين العاملين بعلمهم.

وفي الكافي وتفسير العياشي: عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في قوله

تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا﴾، قال عليه السلام: «الإصرار أن يذنب الذنب فلا يستغفر الله، ولا يحدث نفسه بتوبة، فذلك الإصرار».

أقول: الأحاديث في ذلك كثيرة، وقد تقدّم ما يشهد لذلك، وسيأتي ما يرتبط بذلك أيضاً.

وفي تفسير العياشي في حديث قال: «وفي كتاب الله نجاة من الرديء وبصيرة من العمى، وشفاء لما في الصدور في ما أمركم الله به من الاستغفار والتوبة، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾، فهذا ما أمر الله به من الاستغفار واشترط معه التوبة والإقلاع عمّا حرّم الله، فإنه يقول: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ وبهذه الآية يستدل على أن الاستغفار لا يرفعه الله إلا بالعمل الصالح والتوبة».

أقول: تقدّم مكرّراً أن العمل الصالح من الإيمان، فلا إيمان إلا به.

وفي المجالس: عن عبد الرحمن بن غنم الدوسي في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾، نزل في بهلول النباش وكان ينبش القبور فنبش قبر واحدة من بنات الأنصار فأخرجها ونزع أكفانها ـ وكانت بيضاء جميلة ـ فسوّل له الشيطان فزنى بها ثم ندم، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وآله فردّه ثم اعتزل الناس وانقطع عنهم يتعبّد ويتبتّل في بعض جبال المدينة، حتى قبل ونزل فيه القرآن».

وفي أسباب النزول للواحدي: عن ابن عباس في رواية عطا قال: «نزلت الآية وهي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾ في نبهان التمار

أتته امرأة حسناء تبتاع منه تمراً، فضمها إلى نفسه وقبّلها ثم ندم على ذلك، فأتى النبي ﷺ وذكر ذلك له فنزلت هذه الآية».

أقول: قد وردت روايات متعدّدة في شأن هذه الآية، وهي على فرض صحتها لا تكون مخصصة للآية، بل هي بعمومها تشمل كلّ فاحشة تاب صاحبها عنها.

وفي المجالس: عن الصادق عليه السلام قال: «لما نزلت هذه الآية ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾، صعد إبليس جبلاً بمكّة يقال له ثور، فصرخ بأعلى صوته بعفاريته فاجتمعوا إليه فقالوا له: يا سيدنا لِمَ تدعونا؟ قال: نزلت هذه الآية فمَن لها؟ فقام عفريت من الشياطين فقال: أنا لها بكذا وكذا. فقال: لست لها. فقام آخر فقال مثل ذلك. فقال: لست لها. فقال الوسواس الخناس: أنا لها. بماذا؟ قال: أعدهم وأمنيهم حتى يواقعوا الخطيئة، فإذا واقعوها أنسيتهم الاستغفار. فقال: أنت لها، فوكّلها بها إلى يوم القيامة».

أقول: روي مثله من طرق الجمهور أيضاً.

التوبة في القرآن

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

لما ختم سبحانه وتعالى الآيات السابقة بالتوبة، وبيّن أن بها تسقط العقوبة والحدّ الشرعي، ذكر عزّ وجلّ في هاتين الآيتين الشريفتين حقيقة من الحقائق الإلهيّة التي امتاز بها الإسلام عن سائر الأديان السماوية، فبيّن عزّ وجلّ حكم التوبة وأنّها حقّ من حقوق العبد على خالقه ومربّيه، وقد وصف نفسه بالرحمة وذكر شروط التوبة ومواردها التي تقبل من الإنسان، والموارد التي لا تقبل.

كما بيّن عزّ وجلّ أن التوبة إنّما تكون وفق النظام الربوبي المتقن المبني على الحكمة والعلم.

والآية من الآيات المتعدّدة التي ترغّب العاصين إلى هذه الموهبة الربّانية وتحرّضهم إلى التوبة قبل فوات الأوان. وإنما ذكر عزّ وجلّ هذه الحقيقة ضمن الأحكام الإلهية، لما لها من الأهمية الكبرى في تربية الإنسان وهدايته إلى السعادة والكمال، ولا تخلو الآيتان من الارتباط بالآيات الأخرى.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾.

بيان لحقيقة من الحقائق الإلهية التي كشف عنها القرآن الكريم بما لم يكشف عنها كتاب سماوي آخر، فإنّه بيّن حقيقة التوبة وشروطها ومواردها وآدابها وآثارها. ويمكن اعتبارها بحقّ من التعاليم المختصّة بهذا الكتاب العزيز، وأنّها لم تكن بهذه الخصوصية في سائر الشرايع الإلهية، وقد اهتمّ القرآن المجيد بها اهتماماً بليغاً حتى ورد ذكرها فيه بما يزيد على ثمانين مورداً، وسمّيت سورة من سور القرآن المجيد باسم التوبة.

والتوبة في نظر الإسلام من الأمور المعدودة التي لها جوانب متعدّدة، فهي عملية تربويّة تربّي الإنسان تربية دينية مبنيّة على الحقيقة دون الوهم والخيال، كما أنّها عملية إصلاحية، تصلح النفوس الفاسدة وتهذّبها وتزكيها وتصلح المجتمع وتجعله في المسار الصحيح، كما أنّها فضيلة أخلاقية، وهي من أجلّ مكارم الأخلاق. ونحن ذكرنا ما يتعلّق بها في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ۞ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1]، فراجع الآية الكريمة.

ومادة (توب) تدلّ على الرجوع، سواء استعملت بالنسبة إليه عزّ وجلّ أم استعملت بالنسبة إلى العبد، قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟﴾[2]، وتوبة الله تعالى على العبد هي الرجوع عليه بالرحمة والتوفيق وغفران الذنوب، وتوبة العبد هي الرجوع إلى الله تعالى بالندامة والانصراف عن المعصية.

---

(١) البقرة، الآيتان ١٥٩ ـ ١٦٠.

(٢) التوبة، الآية ١١٨.

والمستفاد من الآيات الواردة في هذا الموضوع أن توبة العبد محفوفة بتوبتين من الله تعالى:

إحداهما: التوفيق لها، لأن العبد محتاج بذاته وهو الفقير إليه عزّ وجلّ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾[١]، فإذا وفّقه الله تعالى للتوبة، تاب ورجع إليه عزّ وجلّ بالندامة والانصراف عن المعصية.

الثانية: توبة الله تعالى عليه بالقبول والغفران، فتكون مطهّرة للعبد ممّا أصاب نفسه بسبب المعصية من القذارات والنجاسات المعنويّة، فيحصل بها التقرّب إليه عزّ وجلّ.

و(على) في قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ تفيد اللزوم والثبوت، وهو يرادف الوجوب، وإنّما وجبت التوبة لأنها من أفراد رحمته التي أوجبها على نفسه، قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾[٢]، واستعمال (على) في الوجوب واللزوم كثير ولا ضير في ذلك.

إلا ما يقال: من أن استعمال الوجوب بالنسبة إليه عزّ وجلّ أمر مستنكر، بل لا يصلح لأنّه لا سلطة على الله تعالى يوجب بها عليه، ولذا ذكر بعض المفسرين أن هذه العبارة وأمثالها التي هي ظاهرة في وجوب بعض الأشياء على الله قد جاءت على طريق العرب في التخاطب، ولا يفهم منه إلاّ أنه واقع لا محالة.

ولا يخفى أن ذلك تطويل لا طائل تحته، وما ذكره أنّما هو تغيير في ظاهر اللّفظ، فلا مانع من إيجاب الله تعالى على نفسه أموراً تقتضيها

---

(١) فاطر، الآية ١٥.
(٢) الأنعام، الآية ٥٤.

حكمته المتعالية، وقد نطق بها القرآن الكريم وشهد بها العقل السليم من دون أن يكون لغيره سلطة عليه يوجب عليه شيئاً أو يكلّفه بتكليف، فإذا كانت التوبة من مصاديق الرحمة الإلهية التي وعد بها عباده، والله لا يخلف الميعاد، فيجب عليه قبول توبة عباده من هذه الجهة أيضاً.

ثم إن إطلاق الآية الشريفة يشمل جميع أقسام التوبة من الفكر والشرك والضلال وأنحاء الفسق والعصيان، إلاّ ما يستثنيه سبحانه وتعالى بعد ذلك.

نعم، تختلف أنحاء التوبة، ففي بعض المعاصي تكون بالإيمان بالله تعالى، وفي البعض الآخر تكون بأداء الحقوق، وفي ثالث بإيقاع الحدّ، وفي رابع باجتناب الكبائر، وفي خامس بالطاعة والمواظبة على الصلاة، وقد ذكرنا جميع ذلك في مبحث التوبة، فراجع آية ١٦٠ من سورة البقرة.

قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾.

(للذين) خبر، و(التوبة) مبتدأ، و(على الله) متعلّق بما تعلّق به الخبر، وقيل غير ذلك، و(بجهالة) حال من فاعل (يعملون) والباء للسببيّة، و(السوء) هو العمل القبيح الذي يسوء فاعله بارتكابه، وهو لا يليق به سواءً كان كفراً أم معصية كبيرة أم صغيرة، و(الذين) عام يشمل المؤمن والكافر معاً، فالجملة تبيّن حالهما، لأنّهما معاً يعملان السوء. و(العمل) أعمّ من الجوارح أو عمل القلوب. والتعبير به ـ مع أن الكفر من أعمال القلوب ـ لبيان أن الكفر سيئة ومنشأ للأعمال السيئة.

والجهالة من الجهل مقابل العلم، والمراد بها إمّا عدم العلم بالموضوع أو الحكم أو هما معاً، قصوراً أو تقصيراً، وفي الكلّ لا يتحقّق العصيان حتى يتحقّق موضوع التوبة، لأن مقتضى ما هو المتواتر بين

المسلمين عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «رفع عن أُمّتي ما لا يعلمون»، عموم الحكم لجميع أفراد عدم العلم. إلاّ أن يدعى الانصراف عن مورد التقصير، كما عن جمع من العلماء من تحقّق العصيان في الجهل التقصيري، وهو مقتضى ظاهر بعض الأخبار أيضاً، فلا تكون الجهالة في المقام بهذا المعنى بلا إشكال.

أو المراد بالجهالة في المقام فعل كلّ ما لا ينبغي صدوره عن العاقل المتوجّه إلى نفسه والعارف ـ ببصيرته ـ ما فيه صلاحه عن ما يسوؤه، كما في قوله تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ﴾[1]، فما يصدر حينئذٍ عن الفرد إنما يكون من داع نفساني غالب على ما تقتضيه القوة العاقلة، فيكون مغلوباً لنفس أمّارة وداعية شهويّة أو غضبيّة، وغواية الشيطان الذي يمني الإنسان بالسوء وحبّ العاجل والتغاضي عن الجزاء، فإن جميع ذلك توجب الغفلة والوقوع في الجهالة، فيغفل عن وجه قبح الفعل وذمّه مع كون الفاعل إنّما يفعل عن علم وإرادة، وعلى هذا تكون الجهالة قيداً توضيحياً، لكلّ معصية تصدر عن الهوى، وغلبة الشهوى والغضب، فتكون صادرة عن الجهالة، ولذا لو سكنت ثائرة الغضب وخمد لهيب الشهوة ورأى جزاء عمله عاد إلى العلم وزالت الجهالة وندم على فعلهن وممّا ذكرنا يظهر السرّ في قوله ﷺ: «كفى بالندم توبة».

هذا إذا لم يكن صدور الذنب عن المكابرة للحقّ وعناد معه، وإلاّ فإن ذلك يرجع إلى خبث الذات ورداءة الفطرة، ومعهما لا يرجع إلى الحقّ بالتوبة ويستمر على ذلك طول حياته، إلاّ إذا لحقته العناية الربّانية

(١) يوسف، الآية ٨٩.

فيرجع عن عناده ولجاجته وتلحقه الندامة، وفي غير هذه الحالة لا يكون المعاند نادماً، وإن أظهر الندامة فإنّما يكون لحيلة يحتالها لنفسه فراراً عن الجزاء ونحوه، ويدلّ عليه رجوعه إلى غيّه ولجاجته لو ارتفعت الضرورة، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[1].

وممّا ذكرنا يظهر أن القيد يمكن أن يكون احترازياً أيضاً، فيكون المراد به أن لا يكون الذنب عن عناد ولجاجة واستعلاء على الله تعالى، ويشهد لذلك عدم تقييد عمل السيّئات بالجهالة في الآية التالية، فإن المنساق منها هو التعمّد والتجبّر على الله تعالى، كما يشهد قوله تعالى: ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾، فالحالة التي تكون بين الموت وعمل السيّئة على أقسام:

الأول: أن يكون مبادراً إلى التوبة بعد عمل المعصية، فهذا تقبل التوبة منه.

الثاني: أن يكون بانياً على الطغيان والعصيان إلى أن يحضر بعض علامات الموت فيتوب حينئذٍ، والمنساق من الآيات الشريفة عدم قبول التوبة حينئذٍ، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾[2]، لأنّ التوبة إنّما تقبل في ظرف اختيار العبد وتمشّي القصد الجدّي منه، وهو لا يتحقق في وقت ظهور علامات الموت وورود الإنسان في الإشراف على أول منازل الآخرة وهو البرزخ، إذ لا اختيار له.

---

(١) الأنعام، الآية ٢٨.
(٢) غافر، الآيتان ٨٤ ـ ٨٥.

الثالث: ما إذا كان بانياً على التوبة بحسب الفطرة، ولكن تساهل فيها لغلبة الشهوات الدنيوية، حتى إذا حضر بعض علامات الموت التي لا تسلب الاختيار ويتحقّق منه القصد الجدّي في الطاعة والمعصية ويترتّب عليهما الآثار الشرعية والعرفيّة فتاب عن قصد، فحينئذٍ تقبل التوبة إن كانت جامعة للشرائط، كما تقبل وصيته، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾[(١)]، والروايات الدالّة على قبول التوبة حتى إذا بلغت النفس الحلقوم تختصّ بهذه الصورة، فتقبل التوبة لتحقّق موضوعها.

وبالجملة: بعد إرجاع بعض الآيات إلى بعض يستفاد منها أن عدم قبول التوبة إمّا لأجل عدم تحقّق الموضوع، كما في صورة العناد واللجاج، أو لأجل عدم تحقّق ظرفها وهو الاختيار والقصد للطاعة والمعصية، ونرجو منه جلّت عظمته أن يدخل عباده في قوله عزّ شأنه في القدسيات: «اغفر ولا أُبالي».

وقد ظهر من جميع ذلك أن الاحتمال الأول وهو كون القيد احترازياً، وإن كان أوفق للقواعد، فإن المعروف أن الأصل في القيود أن يكون احترازياً إلاّ أن كونه توضيحياً أوفق لسعة رحمته.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾.

القريب من الأمور الإضافية وله مراتب كثيرة، وقد استفاد العلماء من هذا اللفظ الفورية العرفية في التوبة، وهي في نفسها حسن، لأن العصيان حجاب بين العبد والمعبود ودرن للروح، والعقل يحكم بإزالة

---

(١) البقرة، الآية ١٨٠.

الدرن والنجاسة عن اللّباس والبدن فضلاً عن الروح، وهذا لا ينافي أن تكون الجملة إشارة إلى المسارعة وعدم التساهل، فيكون المراد من القريب الزمان القريب قبل ظهور الموت وبروز آيات الآخرة، بحيث لا يعدّ تساهلاً في أمر التوبة حتى تفوت الفرصة بحضور علامات الموت.

وبالجملة: المراد من قوله تعالى: ﴿مِن قَرِيبٍ﴾ التوبة في عهد قريب من قبل أن تموت الشهوات وتسقط دواعي المعصية، بل تكون في حال صراع النفس مع القوة العاقلة، فترغم النفس الأمّارة ويقلع عن المعصية ندماً، ويرغب في الطاعة شوقاً إلى رضاء الله تعالى وطلباً لعفوه وغفرانه، ويؤدّي حقوق الناس وحقوق الله سبحانه وتعالى لو كانتا عليه، ففي كلّ وقت صحّ إبراز ما في الضمير والإرادة الجدّية من القلب تقبل التوبة، كما عرفت آنفاً.

قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾.

أولئك اسم الإشارة الموضوع للبعيد، وهو مبتدأ وخبر جملة: «يتوب الله عليهم»، وعدّيت التوبة بـ(عليهم) لتضمّنها معنى العطف والرحمة، أي: أنّه تعالى يعطف عليهم بقبول التوبة ويعود بالرحمة.

وإنّما أشار إليهم بالبعيد إعلاماً بعلوّ قدرهم وتعظيم شأنهم، لأنّهم تابوا على حقيقة التوبة، والتفريع بالفاء المفيدة لسببيّة ما قبلها لما بعدها، ولبيان أن قبول التوبة من مصاديق ذلك الوعد الذي قرّره تعالى في صدر الآية الكريمة.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

أي: أن الله تعالى عالم بحقيقة الحال، فيعلم شؤون عباده

ومصالحهم، ويعلم المخلص في توبته، حكيم في أفعاله، قد وضع التوبة وفق نظام محكم، فلا تغرّه ظواهر الأحوال وصريف الأقوال.

وإنّما ذكر هذين الاسمين لبيان أهمية الموضوع وأنّه تابع لعلمه الأتمّ وحكمته المتعالية، يضع التوبة في مواضعها وهو أرحم الراحمين.

قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

بيان لحال مَن لا تقبل توبتهم، وهم طائفتان:

إحداهما: لأجل عدم تحقّق موضوع التوبة منهم، وهم الذين يعملون السيئات دوماً ولا يتحقّق منهم الندم حتى إذا حضرهم الموت وانتفى أسباب العمل فلا داعي فيهم لعمل السيئات، لانقطاع آمالهم وموت شهواتهم، فلا تقبل توبتهم.

وإنما ترك عزّ وجلّ إعادة اسم الجلالة (على الله) لبيان انقطاع العناية الإلهية عنهم، وللإعلام بأن التوبة الصحيحة لا تقع منهم، لنفي موضوعها كما عرفت آنفاً.

وإنّما جمع عزّ وجلّ السيّئات وأفردها في الآية السابقة، وقال: ﴿يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ﴾، للدلالة على إحصاء سيئاتهم الكثيرة العديدة، واستمرارهم على فعلها وإصرارهم على التكرار، بلا فرق بين أن تكون السيّئة المكرّرة من أنواع مختلفة أو من نوع واحد، فإن التكرار يوجب التعدّد لا محالة.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾.

أي: حتى إذا حضر الموت برؤية علاماته لاهية قلوبهم، والجملة تدلّ على استهانتهم بالتوبة واستحقارهم لموجبات الرحمة والمغفرة، فهم

يدّعون التوبة حال العجز ولم تتحقّق حقيقتها عندهم، ولم ترغب نفوسهم عن الذنب، فإذا زال عنهم المهلكة عادوا إلى الذنب ورجعوا إلى المخالفة والعصيان، كما يخبر عن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا﴾[1].

قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ﴾.

أي: أنّه في حال العجز واليأس يردّد على لسانه التوبة في تلك الحال فقط، من دون أن يكون ذلك من حاق نفسه.

والآية تدلّ على تحقّق التوبة اللّسانية مرّة واحدة بلا استمرار عليها، بخلاف الآية السابقة التي دلّت على الاستمرار المستفاد من هيئة المضارع في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾، وهذه تؤكد ما ذكرناه آنفاً من أن التوبة منه ليست على الحقيقة، فإنّه التجأ إليها عند مشاهدة سلطان الآخرة وانقطاع أمله عن الدنيا بحضور الموت، ولذا ذكر عزّ وجلّ: ﴿قَالَ إِنِّي﴾، ولم يقل: (تاب) ونحو ذلك، تحاشياً عن تسمية ما قاله توبة، ونظير ذلك قوله تعالى حكاية عن المجرمين: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾[2].

قال تعالى: ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾.

بيان لحال الطائفة الثانية، وهم الذين يصدر عنهم الذنب عناداً ولجاجاً واستكباراً على الله تعالى، فلا توبة لهؤلاء، كما لا توبة لأولئك لأنّهم تمادوا في الكفر فماتوا وهم كافرون، فلم تصدر عنهم السيّئات بجهالة، بل عن عناد ولجاج، فإذا مات الإنسان على هذه الحالة لا تنفعه

---

(١) الأنعام، الآية ٢٨.

(٢) السجدة، الآية ١٢.

التوبة ولا نجاة له بعد الموت، وقد أكّد القرآن الكريم ذلك في مواضع متعدّدة، قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾[1].

قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

أي: أولئك الفريقان قد أعتدنا لهم وهيّانا لهم عذاباً أليماً مؤلماً، جزاءً لأعمالهم السيئة التي قدّموها في دار الأعمال. وقد ذكرهم باسم الإشارة للدلالة على بعدهم عن ساحة القرب والعناية الربّانية.

---

(١) البقرة، الآيات ١٥٩ ـ ١٦٢.

بحوث المقام

بحث دلالي

يستفاد من الآيات الشريفة أمور:

الأول: يستفاد من الحصر الوارد في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أن التوبة من الأمور المختصّة به عزّ وجلّ، ومن مظاهر ربوبيّته العظمى، ومن مصاديق رحمته الواسعة التي وسعت كلّ شيء، وهو ردّ على كلّ مَن يدّعي أن هذا الأمر يمكن أن يتصدّيه بعض الأفراد، إمّا ولي من أولياء الله تعالى، أو الكنيسة كما في الديانة المسيحية التي اعترفت لها غفران الذنوب حتى بلغ من إفراط الكنيسة أنها كانت تبيع صكوك الغفران بعدما كانت التوبة في هذه الديانة من الأمور غير النافعة للإنسان، لأن المسيح عليه السلام فدّى بنفسه لأجل خلاص الإنسان، على ما هو المعروف عندهم.

فالآية الشريفة ردّ على جميع المزاعم، فإنّها صريحة في أن التوبة من شؤون الباري عزّ وجلّ، وأنّها محصورة عليه تبارك وتعالى لا شأن لأحد غيره فيها.

الثاني: تدلّ الآية الشريفة على فضل التوبة، وأنّها من مظاهر رحمته عزّ وجلّ وفضله العظيم، وقد منّ بها على عباده، ومن المعلوم أنّه لا شيء يوجب رحمته عليه، ولكن لا ينافي ذلك وجوب هذا القسم من

الفضل عليه بإيجاب من نفسه على نفسه لا من إيجاب غيره عليه، وقد ذكرنا ما يتعلّق بذلك في مبحث التوبة في سورة البقرة الآية ١٦٢.

وأما ما ذكره بعض المفسّرين من أن الله تعالى غير مجبور في قبول التوبة، لأنّ له الأمر والمُلك يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، واستدلّ على ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾[١]، وقوله تعالى، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا﴾[٢].

فإنّه يردّ عليه: أن الله تعالى قد وعد عباده بقبول التوبة ـ كما اعترف به هذا المستدلّ ـ وكلّ وعد منه عزّ وجلّ واجب الوفاء عليه، كما قال في كتابه العزيز: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾[٣]، والآيات الشريفة التي استدلّ بها تدلّ على عدم قبول توبة المتمادي في الكفر، وهذا ما استثناه عزّ وجلّ من القبول في المقام أيضاً كما عرفت.

وكيف، فالآية الشريفة من الآيات التي تعتني بشأن العاصين، وتأمرهم بالتوبة من الشرك والضلال والسيّئات والمعاصي كلّها.

وللتوبة آثار عظيمة، فإنّها من سُبل الصلاح والتقوى، وتجلب السعادة وتزيل درن الشقاء والرذيلة من القلب الذي هو محل الصلاح والفساد معاً. وتصفي النفوس التي انكدرت بالعصيان، وتزيل الغشاوة عن القلوب، وترفع الموانع عن طريق سير الإنسان نحو السعادة والكمال، وتخلّص الناس من بوار الذنب وهلاك المعصية، وهي الوسيلة للفلاح، قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٤].

---

(١) آل عمران، الآية ٩٠.
(٢) النساء، الآية ١٣٧.
(٣) آل عمران، الآية ٩.
(٤) النور، الآية ٣١.

ومن آثار التوبة أيضاً أنّها تجعل قلب المذنب متعلّقاً بالرحمة الإلهية وتبعث روح الرجاء بعد انخماد نور النفس بظلمة الذنب، وتمحو الآثار السيئة التي تترتب على الحياة بسبب العصيان وعمل السيّئات. والآية المباركة تعدّ البشارة العظمى للمذنبين.

ثم إن للتوبة مظاهر مختلفة كالندم، والاستغفار، والانقلاع عن المعصية، وإتيان الطاعة، والتلبّس بالعمل الصالح، وأداء الحقوق، وغير ذلك ممّا ذكره علماء الأخلاق، وتقدّم في مبحث التوبة، وهي تبدّل السيّئات بالحسنات.

الثالث: يستفاد من الآية الشريفة أن التوبة أمر اختياري، فإنّها رجوع إلى الله تعالى بعد البُعد عنه بسبب فعل السيئة وإتيان المعصية، بالدخول في سلك الطاعة والعبودية بعد الإعراض عنه عزّ وجلّ، وذلك لا يتحقّق إلاّ في ظرف الاختيار، وكون العبد مخيّراً بين طريقي الصلاح والسعادة، والطلاح والشقاوة، وفي غير ذلك فلا توبة له، لما يدلّ عليه ذيل الآية الشريفة.

الرابع: يستفاد من قوله تعالى: ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾ أن كلّ ذنب يصدر عن جهالة قابل للعفو والغفران من الله تعالى، وبهذا القيد يخرج كلّ ذنب يصدر عن لجاج وعناد مع الحقّ واستكباراً على الله تعالى، وقد عرفت في التفسير أن الجهالة في المقام ـ وفي باب الأعمال على العموم ـ هي الغفلة عن وجه قبح الفعل وفساده، لغلبة الشهوة واستيلاء الهوى، ولكن ذلك لا يسلب نسبة الفعل إلى الفاعل، لأنّه صدر عنه عن علم وإرادة، كما يسمّى الشاب قليل التجربة جاهلاً، لأجل غلبة العواطف والنزوات الشهوانية عليه.

والخامس: يستفاد من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ أن

المؤمن إذا صدر عنه الذنب ينبغي أن يبادر إلى التوبة بعده ولا يسوّف في ذلك، فهو في صراع مع النفس الأمّارة، وتوبة مستمرة يرجو رحمة ربّه، وهذا ينبىء عن حسن السريرة وشدّة الأمل بالله تعالى، ولعلّ ما ورد في بعض الروايات: «طوبى لمن كان له تحت كلّ سيئة توبة»، إشارة إلى ذلك، ويستفاد من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾، أولويّة التوبة من الذنب من ترك الذنب رأساً، فإن الله تعالى مدح التائبين من الذنب وأدخلهم تحت رحمته وقرّبهم إليه. وقال بعض العلماء: إن ترك الذنب مطلقاً أحسن وأولى من ارتكابه ثم التوبة عنه، لأن الله تعالى مدح هؤلاء بما لم يرد في غيرهم، وهم المختصّون لمقام العبودية التشريفيّة.

ولكن، يمكن اختيار الأوّل لكثرة ما ورد من الترغيب إلى التوبة كتاباً وسنّة، وقد ورد عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «التائب من الذنب كمَن لا ذنب له»، فيصير التائب من الذنب مساوياً له من هذه الجهة، أي: عدم الذنب، ويكون تذلّله ممّا في نفسه عند ربّه لتصوّره لما صدر منه من المعصية موجباً لترجيح هذا المقام بنفسه عند الله تبارك وتعالى.

نعم، مَن عصمه الله من الزلل كالأنبياء والأئمة الهداة عليهم السلام والأولياء، لهم مقام خاص وهبه الله تعالى لهم.

وفي حديث آخر: «لولا أنّكم تذنبون الله ثم تستغفرونه لذهب بكم، ثم يأتي بأقوام يذنبونه ثم يستغفرونه»، وهذا هو المطابق لما هو المتسالم بين أذواق المتألّهين من أن كلّ اسم من أسماء الله المقدّسة لا بد له من مظهر خارجي، ومن أسمائه جلّت عظمته التوّاب والغفور، ولا مظهر لذلك إلاّ بعد الذنب والتوبة.

مع أن حالة الندامة والاستحياء من الله تعالى من حالات العبد وأحسنها، ولا تتحقق تلك الحالة إلاّ بذلك.

السادس: يدلّ قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾ على وعد منه عزّ وجلّ للمذنبين بقبول توبتهم، وهو لا يخلف الميعاد. كما أنه يدلّ على أن التوبة الصحيحة الجامعة للشرائط تمحو الذنوب وتزيلها.

السابع: يمكن أن يكون المراد من قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ﴾ موت الأمزجة والقوى، فمَن كانت معاصيه من سنخ أعمال الشهوة الجنسية ووصل إلى سن الأربعين مثلاً وترك تلك المعاصي لأجل عوارض عرضت عليه، فلا توبة له حينئذٍ، وكذلك سائر القوى، لأنّه لا توبة بعد انتفاء القدرة على ارتكاب المعاصي، وهذا الاحتمال وإن كان مخالفاً لما استفدناه من الآيات المباركة، ولكنّه احتمال حسن يوجب المسارعة إلى التوبة والاستعداد لها في حال القدرة.

الثامن: إطلاق الآية الشريفة: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ﴾، يشمل التوبة من الشرك وجميع المعاصي، ويشمل أيضاً المؤمن والكافر إذا تاب عن كفره، فيكون إسلامه توبة لما صدر عنه في حال كفره، لقوله ﷺ: «الإسلام يجب ما قبله» وأما توبته عن معصية فيها حقّ الله في حال كفره، مع بقائه على الكفر فيشكل قبولها.

نعم، إذا كان الذنب من حقوق الناس كالسرقة وإيذاء الناس ونحوهما، فأرضى الناس، سقط هذا الذنب منه لزوال موضوعه، ويمكن أن يستفاد ذلك من مفهوم قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ﴾، أن توبة الكافرين في حال حياتهم مقبولة، إلاّ أن يستظهر ذلك بخصوص إسلامهم.

التاسع: يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾، أن التوبة من الله تعالى تشمل العاصين من المؤمنين إذا استغفر لهم الأحياء ولو بعد مماتهم، بخلاف الكافر المعاند الذي مات على الكفر، بلا فرق بين أقسامه.

بحث روائي

في الكافي: عن جميل بن دراج، قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إذا بلغت النفس هاهنا ـ وأشار بيده إلى حلقه ـ لم يكن للعالم توبة، ثم قرأ: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ﴾.

أقول: أراد عليه السلام بالعالم هو اللجوج المستكبر على الله تعالى، وإطلاق الآية الشريفة لا ينافي ما ذكرناه سابقاً، ويمكن أن يجمع بذلك بين ما ورد من عدم قبول التوبة حين ظهور علامات الموت، وما ورد من قبولها حينها، بحمل الأوّل على العالم العامد المستكبر على الله تعالى كفرعون ونحوه، والثاني على غيره.

وفي تفسير العياشي: عن أبي عمرو الزبيري، عن الصادق عليه السلام قال: «كل ذنب عمله العبد وإن كان عالماً به فهو جاهل حين خاطر لنفسه في معصية ربّه، وقد قال في ذلك تبارك وتعالى يحكي عن قول يوسف لإخوته: ﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾، فنسبهم إلى الجهل لمخاطرتهم بأنفسهم في معصية الله عزّ وجلّ < ﴾.

أقول: يشهد ذلك على ما قلناه في معنى الجهالة.

وفي تفسير العياشي ـ أيضاً ـ: عن زرارة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إذا بلغت النفس هذه ـ وأهوى بيده إلى حنجرته ـ لم يكن للعالم توبة، وكانت للجاهل توبة».

أقول: يشهد ذلك على ما جمعنا به بين الروايات آنفاً.

وفي الكافي: عن محمّد بن مسلم، عن جعفر عليه السلام قال: «يا محمّد بن مسلم، ذنوب المؤمن إذا تاب عنها مغفورة له، فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة، أما والله أنّها ليست إلاّ لأهل الإيمان، قلت: فإن عاد بعد التوبة والاستغفار في الذنوب وعاد في التوبة؟ فقال: يا محمّد بن مسلم، أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه فيستغفر الله منه ويتوب ثم لا يقبل الله توبته؟! قلت: فإن فعل ذلك مراراً، يذنب ثم يتوب ويستغفر؟ فقال: كلّما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة، عاد الله تعالى عليه بالمغفرة، وإن الله غفور رحيم يقبل التوبة ويعفو عن السيئات، فإيّاك أن تقنط المؤمنين من رحمة الله».

أقول: ورد في بعض الروايات إلى سبعين مرة، ويشهد لذلك تحذير الإمام عليه السلام الراوي في ذيل الرواية، ويستفاد ذلك من قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[١]، إذ المراد بالجميع الكثرة العددية، ثم إنّه قد ذكرنا الروايات الواردة في التوبة في مبحث التوبة، فراجع سورة البقرة الآية ١٦٠.

---

(١) الزمر، الآية ٥٣.

محبوبية التوبة

التذلّل لدى المعبود الحقيقي الجامع لجميع الكمالات غير المتناهيّة، والاعتراف بالقصور والتقصير عنده، محبوبان لديه عزّ وجلّ. والعبودية التي هي غاية مقامات العارفين وأولياء الله المخلصين، متقوّمة بهما، فإنّه لا ريب في تحقّق الارتباط بين الممكن والواجب، كالارتباط بين المعلول مع العلّة التامة، والمخلوق مع الخالق، والأثر مع المؤثّر بلا فرق في ذلك بين المجرّدات والمادّيات والأملاك والأفلاك، فإن جميعها متعلّقة بالإرادة الأزليّة حدوثاً وبقاءً وبزوالها ينعدم جميع ما سوى الله تعالى، ولا يبقى إلاّ وجهه الواحد القهّار، ولكن الإنسان يرتبط مع الله جلّ جلاله بارتباطين:

الأول: الارتباط العام القهري، الذي يعمّ جميع الخلق وما سواه تعالى.

الثاني: الارتباط الاختياري، أي: الطاعة والامتثال والانقياد، وهذا هو الأصل والأساس في علاقة الإنسان مع الله عزّ وجلّ، فإذا زال يبقى الارتباط الأول، وهو يعمّ الجميع ـ الحيوان والجماد ـ على حدٍّ سواء.

والإنسانية إنّما تظهر في الارتباط الثاني، ولا يزول إلاّ بالطغيان والعصيان، وحينئذٍ لا بد من التوبة والرجوع إلى الله تعالى ليعود الارتباط إلى ما كان عليه وتستكمل به الإنسانية، وتزول الشقاوة وتحلّ محلها

السعادة الأبدية، إذ القرب من ينبوع الحكمة والعلم والكمال المطلق يوجب بلوغ الإنسانية إلى الكمال ويتم به العقل والدين، كما أن البعد عنه يوجب زوال ذلك كلّه، فللتوبة الحقيقية دخل في استكمال الإنسانية والدين والعقل، ويكفي في فضلها أن فيها يتجلّى المبعود الأعظم للتائبين بقوله عزّ وجلّ: ﴿وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، فالعبد يعترف بما هو مَن زي العبودية، والمعبود يظهر بما هو من شأن الربوبية الواقعية، ولذا ترى أن أحبّ حالات المتعبّدين إلى الله تعالى هي حالة الاعتراف بالتقصير، كما هو واضح في الدعوات المأثورة عن الأئمة الأطهار عليهم السلام، لا سيما الصحيفة الملكوتية السجادية على صاحبها ومنشئها عليه السلام، وليس الاعتراف بالتقصير مع عدم صدور ذلك عنهم كذباً، لأنّهم يعلمون أن تلك الحالة محبوبة لله عزّ وجلّ وتقرّبهم إليه تعالى، ويعترفون بذلك في جملة من دعواتهم الشريفة، وهذا كاشف عن اشتياقهم إلى هذا المقام من العبودية.

ثم إن ظاهر الآية الشريفة: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ﴾، إنما هو في الموت الطبيعي الذي هو مسير كلّ ذي حياة، وأما الموت الاختياري الذي هو غاية آمال العارفين وقرّة عين أهل التوقى واليقين، فهو فوق التوبة بمراتب كثيرة إذا وفّق له وليّ من أولياء الله تعالى بشرطه وشروطه[1].

(١) م ـ ن، ص٣٣١ ـ ٣٤٥، ج (٧).

الصلاة وتزكية النفس

من أسباب تزكية النفس ورقيّها الصلاة، بل هي من أهمّها وأسماها ـ لما علم الله تعالى من وجود الشره المؤدّي إلى الهلاك والخسران في الإنسان، جعل الطاعات والعبادات ـ خصوصاً الصلاة صوناً للنفس وحفظاً لها عن الهلاك والخسران، بل لرقيّها إلى مراتب الكمال، ففي الحديث: «ما افترض الله على خلقه بعد التوحيد شيئاً أحبّ إليه من الصلاة، ولو كان شيء أحبّ إليه من الصلاة تعبّد به ملائكته، فمنهم راكع وساجد وقائم وقاعد»، فبها يزول الدنس كما في بعض الروايات، وإنّها مطهرة للقلوب من المساوىء والعيوب، وبها تفتح أبواب الغيوب، وبها تطمئن القلوب، وبها ترفع الدرجات، وفيها المناجاة برفع الأستار، وتتسع فيها ميادين الأسرار، وبها تشرق شوارق الأنوار، وبها تزال الحجب والأستار بالقرب إليه، وبها تصفو المحبّة من كدر الجفاء ويتّصل المحبّ مع حبيبه في محلّ الصفا.

ولقد علم الله تعالى ضعف الإنسان ووساوس الشيطان، فقلّل أعدادها وفرض في ليلة المعراج خمس صلوات في خمس أوقات بشفاعة نبيّنا الأعظم ﷺ، وهذا لعوام الخلق، وإلاّ فالعارفون من الخواص: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ﴾[1]، منحهم ديمومة الصلاة من الأزل إلى

---

(١) المعارج، الآية ٢٣.

الأبد، وهذا لا يدرك بالعقول القاصرة المشوبة بالمادة الزائلة، فلا يعقلها إلاّ العالمون بالله تعالى.

وإنّ المقصود والأثر المطلوب من إقامة الصلاة معنويّاتها، لا مجرّد وجودها وشبحها، فإنّ الإقامة هي الإكمال والاتقان، يقال: (فلان أقام داره)، أي: أكملها وجعل فيها كلّ ما يحتاج إليه. وإنّ إقامة الصلاة تعديلها من جميع الجهات ـ بالتوجّه فيها إليه تعالى والتقرّب بها لديه جلّ شأنه وحفظ أركانها وشرائطها حتى تترتّب آثارها ـ فليس كلّ مصلّ مقيم، وكم من مصلّ ليس له من صلاته إلاّ التعب، وفي بعض الأحاديث: «مَن لم تنه صلاته من الفحشاء والمنكر، لم تزده من الله إلا بُعداً»، وعن نبيّنا الأعظم ﷺ: «إذا صلّى العبد فلم يتم ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها، لُفت كما يلف الثوب الخَلِق ثمّ يضرب بها وجهه»، فالمصلّون كثيرون والمقيمون قليلون وأهل الأشباح كثير وأهل القلوب وأرباب المعرفة قليل.

والتعبيرات الواردة في القرآن الكريم في مدح المصلّين أكثرها وأغلبها جاء بلفظ الإقامة أو بمعنى يرجع إليها، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾(١)، وقال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾(٤)، ولما ذكر المصلّين بالغفلة قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾(٥)، ولم يقل سبحانه

(١) البقرة، الآية ٣.
(٢) إبراهيم، الآية ٤٠.
(٣) الحج، الآية ٣٥.
(٤) التوبة، الآية ١٨.
(٥) الماعون، الآية ٥.

وتعالى: فويل للمقيمين الصلاة، وفي الحديث: «إنّ العبد إذا قام إلى الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبينه وواجهه بوجهه وقامت الملائكة من لدن منكبه إلى الهوىّ يصلّون بصلاته»، إلى غير ذلك من الروايات والأحاديث.

والتوجّه أو الخشوع فيها على مراتب:

الأولى: خشوع، خوف، إذلال وانكسار لعظمته وقهّاريته، وهي للعبّاد الزهّاد.

الثانية: خشوع تعظيم وهيبة وإجلال، وهي للمتّقين الأبرار.

الثالثة: خشوع فرح وسرور وإقبال، وهي للمقرّبين العارفين، ويسمّى هذا المقام بقرّة العين، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[1].

الرابعة: الجمع في مقام الجمع، وهذه تختصّ بالأولياء والمقرّبين، فيها تتمّ التصفية وتظهر المحبّة وتفتح الأبواب ويرتفع الحجاب، فتخرج الروح من ضيق الأشباح إلى فضاء الكمال في عالم الأرواح، أو من ضيق الملْك إلى سعة عالم الملكوت.

ولا شكّ أن إمداداته وإفاضاته جلّت عظمته غير محدودة بحدّ ولا بزمان معين؛ لصدورهما عن ذات غير المتناهي.

نعم، ترد على العبد حالات خاصة وظروفاً معيّنة يكون التوجّه فيهما إليه أشدّ وأكثر، فلها آثار مخصوصة لنجح المقاصد وإنجاز المطالب، منها حالة الصلاة، خصوصاً عن الانقطاع إليه تعالى كالسفر والخوف

---

(١) السجدة، الآية ٢٩.

والمرض وغيرها، ولأجل ذلك ورد الاستعانة بها وقالوا: إنّ الصلاة لا تسقط في أي حال؛ لأنّه لا بد للعبد من حفظ الصلة بينه وبين ربّه، وبها تتمّ المحبّة وتحصل المودّة[١].

(١) م ـ ن، ص٢٣٠ ـ ٢٣٢، ج (٩).

التقوى وتهذيب النفس

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا * إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾.

تتضمّن الآيتان الشريفتان على حكم تربوي إصلاحي له الأثر الكبير في تهذيب النفس، وتوحيد صفوف المجتمع الإسلامي الذي طالما تمنّى الأعداء تقويضه باستعمال كلّ الأمور والأساليب في إيجاد ثغرات ينفذون منها في تشتيت كلمتهم، وكان من أهم الأمور التي تفتّت عضد المسلمين وتشلّ قواهم وتهدّد كيانهم، وتقدح الفتنة بينهم، هي الأقوال السيئة التي تؤجّج البغضاء والعصبية، فإنّ ما يصدر من اللسان هو من أهم المؤثّرات في الإنسان، سواء أكانت إيجابية أم سلبية، وقد ورد في الحديث: «وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلاّ حصائد ألسنتهم»، أي: ما يقطعونه من الكلام الذي لا خير فيه.

والآيتان الشريفتان تعالجان هذا الموضوع من جوانب متعدّدة، فمن جانب تثبت فيه حكماً شرعياً، وهو التحريم بأسلوب لطيف يجعل المؤمن يشعر شعوراً داخلياً بأنّ الأمر مكروه وله مخاطر عديدة على النفس والمجتمع، فقال عزّ وجلّ: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾، ويكفي للمؤمنين هذا الخطاب الربوبي في إثبات إحساس داخلي متّصل بالحي القيوم بالإئتمار بأوامره والانتهاء عن نواهيه.

ومن جانب آخر يثبت الموضوع السوء من القول ويعتبره من أفراد الظلم الذي تشمئزّ منه النفوس وتنفر منه الطباع وتنكره الفطرة، وتعميمه بحيث يشمل جميع أفراده قولاً كالبهتان والشتم والسباب، أو عملاً كالهمز، وجميع ما يوجب إثارة الشحناء والبغضاء.

وإنّما خصّ عزّ وجلّ السيء من الأقوال لعظيم أثرها في النفوس؛ ولأنّها الوسيلة الوحيدة في تضعيفها، وانتشاء السيء من الأفعال ومنها ينفذ الأعداء، ثمّ يعالج الفرد الواقع منه في المجتمع بأسلوب تربوي يحدّ من انتشار أمثاله ويقلّل من تأثيره على الإنسان المظلوم، فأباح له مثل ما ظلم به من سيء القول، ولم يبح له أكثر من ذلك، فقال عزّ وجلّ: ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾، وأعطى الضمان عزّ وجلّ لهذا الحكم فقال عزّ من قائل: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾، فإن الله تعالى يسمع أقوال الظالمين فيجازيهم عليها، كما يعلم شكاوي المظلومين وتظلّمهم، فأباح لهم التظّلم بإظهار ما ظلموا به.

وهذا الحكم وإن لوحظ في الجانب التربوي للتحديد من الظلم إلاّ أنه لم يكن حاسماً للموقف، فحبّب إليهم الخير واعتبره عزّ وجلّ هو الأصلح في هذا الموقف الذي لا بّد من إزالة الشحناء وتطويق الخلاف، واعتبره حكماً إصلاحياً للنفوس بالترويض على الخير وجعله مستولياً على جميع مشاعرها، فلا يتقصر على الخير في حالة واحدة، بل من الأفضل تعميمه لجميع الحالات.

وخصّ من أفراد الخير العفو عن السيء كلّها؛ لأنه من صفات الباري عزّ وجلّ، ولأنّه يزيل ما أوجب كدر الصفو بين الأفراد، ويرجع الثقة بينهم، فتضمّنت هاتان الآيتان حكماً تربوياً إصلاحياً، واشتملتا على خلق كريم نبيل هو من أخلاق الله عزّ وجلّ، وقد عرفت في التفسير أنّ

هذا الخلق له الأثر العظيم في ما إذا كان عند المقدرة، دون العفو التابع من الذلّة، فإنّه ليس بتلك المثابة ولم يعد أن يكون خلقاً كريماً.

وتعلّق حبّه تعالى بأمر عقلي كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾(١)، يدلّ على أنّ ذلك لا يختصّ بهذا الدين الحنيف، وإنّما يعمّ جميع الأديان السماوية؛ لأن محبّة المحسنين أمر فطري، وكذا عدم حبّه لشيء تبغضه الفطرة، فيكون قبح الجهر ممّا لا يختصّ بهذا الدين.

وإنّ قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ﴾ يمكن أن يكون إشارة إلى المراتب في العمل، فمّن كان قادراً على الإبداء والجهر بأن صان نفسه عن المهالك ـ كالرياء والعجب والغرور ـ يبدي في العمل، وإلاّ فيخفي حفظاً عنها وصوناً عن الشوائب والمكائد الشيطانية.

بحث روائي

في تفسير العياشي بإسناده عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾، قال: «من أضاف قوماً فأساء ضيافتهم، فهو ممّن ظُلم، فلا جناح عليهم فيما قالوا فيه».

أقول: قريب منه ما في الدرّ المنثور، ومعنى الرواية أنّه لا يجوز التعدّي عن ما لاقاه الضعيف من سوء الضيافة، فغاية ما يجوز له أن يقول مثلاً: (لم يحسن ضيافتي، أو أساء في ضيافته)، فإنّ ذلك نوع من الظلم الخُلقي، ومن المعلوم أنّ للظلم أنواعاً، ولكلّ نوع مراتب، وفي كلّ مرتبة درجات، والرواية من باب ذكر أحد المصاديق كما هو واضح منها.

وفي تفسير العياشي عن أبي الجارود عن الصادق عليه السلام: ﴿ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ قال: أن يذكر الرجل بما فيه».

---

(١) البقرة، الآية ١٩٥.

أقول: لا بدّ وأن يقيّد بما لم يكن من المستثنيات.

وفي تفسير علي بن إبراهيم في قوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ﴾ قال: «لا يحبّ الله أن يجهر الرجل بالظلم والسوء ولا يظلم، إلاّ مَن ظُلم، فقد أطلق له أن يعارضه الظلم».

أقول: المراد من ذيل الرواية بما لا يوجب التعدّي عليه أو ينافي الشرع، وإلاّ فلا يجوز كما تقدّم، وفي بعض الروايات: «إنّ الله تعالى جعل لكلّ شيء حدّاً، وجعل على مَن تعدّى الحدّ حدّاً».

وفي تفسير القمّي في قوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ﴾ إن جاءك رجل وقال فيك ما ليس فيك من الخير والثناء والعمل الصالح، فلا تقبله منه فكذّبه فقد ظلمك».

أقول: إمّا عدم القبول لعدم الحقيقة ونفي الواقع، وإمّا تكذيبه لإرشاده إلى الواقع، والمراد من قوله عليه السلام: «فقد ظلمك»؛ لأنّه قال فيك ما ليس فيك، فإنّه يوجب حبّ الثناء والمحمدة، ويعتبر ذلك عند علماء الأخلاق أُم الفساد وأصل المهلكات؛ لما يستلزم الغرور وصرف النفس عن نيل الكمال والبُعد عن الحقائق والوقوع في المساوىء والضلال، وذلك ظلم كبير.

وفي المجمع: قال في الآية المباركة: «لا يحبّ الله الشتم في الانتصار، إلاّ مَن ظلم، فلا بأس له أن ينتصر ممّن ظلم بما يجوز الانتصار في الدين».

أقول: الروايات الدالّة على أن الله تبارك وتعالى يبغض القول السيء أو الشتم كثيرة جداً، إلاّ مَن ظلم بما يجوز في الدين، فلو حصل التعدّي أو ممّا لا يجوز في الدين، فلم يرخّصه الشارع.

وفي الدرّ المنثور: «إنّ رسول الله ﷺ قال: مَن دعا على مَن ظلمه فقد انتصر».

أقول: ورد في الروايات المستفيضة أنّ دعاء المظلوم لا يرد، وأنّها تخرق الحجب السبع. وقد أخذ المظلوم حقّه ممّا يهبه سبحانه وتعالى له؛ ولذا انتصر.

وفي بعض التواريخ يحكى عن ابن السكيت (رضوان الله تعالى عليه) معلم أبناء المتوكّل: جلس معه المتوكّل يوماً فجاء المعتز والمؤيد ابنا المتوكّل، فقال له: أيّما أحبّ إليك إبناي، أم الحسن والحسين عليهما السلام؟ فقال ابن السكيت: والله إنّ قنبر خادم علي عليه السلام خير منك ومن ابنيك، فقال المتوكل العباسي: سلوا لسانه من قفاه، ففعلوا فمات، ومن العجب أنّه أنشد قبل ذلك للمعتزّ والمؤيد.

يصاب الفتى من عثرة بلسانه وليس يصاب المرء من عثرة الرجل
فعثرته في القول تذهب رأسه وعثرته في الرجل تبرأ على مُهل

أقول: لعلّ ابن السكيت رحمه الله رأى تكليفه في إظهار الحقيقة والواقع، وعلم أنّ المتوكّل أراد قتله على أي حال استعمل التقيّة أو لم يستعملها، وإلاّ كان له الفرار من البلاء بذريعة التقيّة أو بغيرها ولم يتجاهر بعقيدته أو بالواقع؛ لقاعدة تقديم الأهمّ وهو حفظ النفس المؤمنة على غيره وهو المهمّ، أو هيّجه حبّه لأهل البيت عليهم السلام، وكيف كان فرضوان الله تعالى عليه.

بحث عرفاني

يمكن أن تكون الآية الشريفة: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾.

إشارة إلى ما تعرض على النفس من الحالات التي يتأثر المؤمن بها، كالتحدّث مع النفس في الخواص، سواء أكان ذلك في العقائد أم في العوائد، ولا فرق في العوائد بين أن تكون نفسية باطنية ـ كحبّ الجاه والرياسة، وطلب الخصوصية، وحبّ المدح، وخوف الفقر وغيرها ـ أم ظاهرية، مثل كثرة المخاصمة والعتاب وغيرها ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ بداعي البشرية غير الاختيارية كالابتلاء بالاضطرار، ودفع الحرج وغيرهما، فما يعرض على قلب المؤمن من الأوهام التي يتألّم ويتأثّر بها بلا أثر خارجي لتلك الأوهام ويصير المؤمن مظلوماً، فلا عتاب عليه من المحبوب.

أو ﴿لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوٓءِ﴾ بالخطرات التي تختلج على قلب أخصّ الخواص، فإنها توجب النزول عن سمو مقامهم ـ كما في بعض الروايات ـ لأنّ ما تمرّ على قلوبهم لها دخل في حطّ تقرّبهم لديه جلّ شأنه وإن لم يكن كذلك عند الخواص فضلاً عن العوام، فإنّ «حسنات الأبرار سيئات المتقرّبين»، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[١]، ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ بالمنع من التمتع بحضرة قدسه بشهود الجمال بالاشتغال في أمور العباد التي توجب هدايتهم إلى معرفة ربّ الأرباب، ونجاتهم من المهالك والظلمات.

أو ﴿لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوٓءِ﴾ بإفشاء أسرار الربوبيّة وإعلام المواهب الألوهية على مَن لا يليق بالتشرّف لساحة قدسه، وران على قلبه، وتاه في الظلمات فعمى عليه معرفة الخير من الشر ﴿إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾ بغلبات الأحوال من إظهار شيء من الحجّة والبرهان، لا بإفشاء الأسرار ورفع الحجب.

---

(١) المجادلة، الآية ١١.

وعلى أي حال، ﴿كَانَ ٱللَّهُ﴾ في الأزل والأبد ﴿سميعا﴾ لأقوالكم و﴿عَلِيمًا﴾ بأحوالكم ومقاماتكم. و﴿إن تبدو خيرا﴾ مما أفاض عليكم من النّعم والحالات وما وهب لكم من المكاشفات بترقّي النفوس إلى المقامات ووصلوها إلى أعلى الدرجات، ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ حفظاً عن الشوائب وصوناً عن المكائد ﴿أَوْ تَعْفُوا عَن سُوٓءٍ﴾ بترك إعلام ما جعل الله إظهاره سوءاً، أو تعفوا بما تدعوكم به النفس الأمارة بالسوء بأن لا تتّبعوها أو تصفحوا عن المسيء كما يصفح عنكم الجليل، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ كان في الأزل والأبد رحيماً، وبمقتضى رحمته كان ﴿عَفُوًّا﴾ عنكم لو اتّصفتم بمظاهر أخلاقه جلّ شأنه، ﴿قَدِيرًا﴾ على كل شيء، فإنه قادر على أن لا يعفو عن أحد ويذلّ عبده بردّه إلى نفسه وهواه وإيكاله إلى نفسه مع الاختيار ويؤاخذه لكفرانه، فإنّه ﴿لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾(١)، ولكن رحمته التي وسعت كل شيء، ومحبّته لخلقه ورأفته لهم تقتضيان أن يعفو عن الجميع، فإنّه ﴿يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾(٢)، ويعفو عن المسيء مهما توغل في الظلمات وبَعُدَ عن ساحة قدس ربّ السموات.

---

(١) إبراهيم، الآية ٣٤.

(٢) الزمر، الآية ٥٣.

الغيبــة

من المعاصي الكبيرة الغيبة، وهي: أن يذكر خلف إنسان ما هو مستور يغمّه لو سمعه، فإن كان صدقاً سمّي غيبةً وإلاّ فهو البهتان الذي هو أشدّ من الغيبة، بل من الموبقات.

ولا فرق في الغيبة بين أن يكون بقصد الانتقاص أو لم يكن كذلك لإطلاق ما يأتي من الأدلّة، كما لا فرق في العيب المستور بين أن يكون في بدنه، أو في خلقه، أو في نسبه، أو في قوله، أو في دينه، أو دنياه، وسواء كان الذكر بالقول أو الكتابة أو بالحكاية بوجود العيب في الشخص المغتاب (بالفتح)، كالإشارات والتمثيليات، ففي جميع ذلك تتحقّق الغيبة.

وتدلّ على أنّها أم الرذائل الأخلاقية ومن المعاصي الكبيرة الأدلّة الأربعة:

فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَاتَّقُوا اللَّهَۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾[1]، فشبّه سبحانه وتعالى لما يناله المغتاب (بالكسر) من عرض المغتاب (بالفتح) بأفحش وجه كما هو معلوم. وقال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾، أي: الذي

---

(١) الحجرات، الآية ١٢.

لا يبالي بالغيبة وهتك أعراض الناس، وقال تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾، فإنّ الجهر بالسوء سواء كان أمام الطرف أو خلفه مبغوض عند الله تعالى، وإنّ إطلاق السوء فيها كان يشمل الغيبة والبهتان يشمل الكذب، بل يشمل ترك التقيّة المكلّف بها أيضاً؛ فإنّه سوء للعامل أو الفاعل.

ومن السنّة روايات كثيرة بلغت حدّ التواتر، فعن نبيّنا الأعظم ﷺ: «مَن اغتاب امرءاً مسلماً بطل صومه ونقض وضوءه وجاء يوم القيامة تفوح من فيه رائحة من الجيفة يتأذّى بها أهل الموقف، وإن مات قبل أن يتوب مات مستحلاً لما حرّمه الله تعالى»، المحمول في بطلان الصوم ونقض الوضوء على المرتبة النازلة من الكمال، أو على الاستحباب بالقضاء أو التجديد، والمراد من الاستحلال عدم المبالاة في ارتكاب الغيبة.

وعن الصادق عليه السلام: «الغيبة أسرع في دين الرجل المسلم من الأكلة في جوفه»، إلى غير ذلك من الروايات المذكورة في كتب الأحاديث.

ومن الإجماع ما هو مسلّم بين المسلمين بجميع مذاهبهم، بل عدّ حرمتها من الضروريات الدينية.

ومن العقل حكمه بالقبح؛ لأنه نوع من التعدّي على الغائب وظلم عليه؛ لفرض أنّه يغمّه ويتأذّى لو سمع بذكر ما فيه.

ويعتبر فيها أمور:

الأول: وجود سامع بقصد إفهامه، فلو لم يكن سامع لا تكون غيبةً.

الثاني: تعيين المغتاب وتشخيصه، فلو قال: واحد من أهل البلد سارق، لا يكون غيبة، أو قال: أحد أولاد زيد جبان، لا يكون غيبة، أو قال: أحد أولاد الجار فاسق، لا يكون غيبة وإن حرّم من جهة انطباق عنوان آلهتك أو الإهانة بالانتقاص.

الثالث: أن لا يكون المغتاب (بالفتح) داخلاً في المستثنيات التي سنذكرها.

الرابع: أن يكون المغتاب (بالكسر) جامعاً لشرائط التكليف، ولو فقد أحد هذه الشروط انتفى الحكم وإن تحقّق مفهوم الغيبة لغةً في بعض الموارد.

وقد استثنى من حرمة الغيبة موارد كثيرة مذكورة في كتب الفقه، ولكن أهمّها هي:

الأول: المتجاهر بالفسق، فتجوز غيبته في العيب المتجاهر فيه ـ دون العيب المستتر فيه ـ إن قصد من غيبته ارتداعه عن فسقه بعد وصول الخبر إليه أو يحذّر الناس عنه، فعن نبيّنا الأعظم ﷺ: «اذكر الفاسق بما فيه كي يحذره الناس»، فإذا علم أنّه لا يؤثّر فيه ـ كغالب الفساق الذين انحرفوا عن الصراط المستقيم وران قلوبهم ـ ففي غيبته إشكال من إمكان شمول قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]، ودعوى سياق الآية الشريفة في غير المورد تحتاج إلى دليل، ومن شمول إطلاق بعض الروايات مثل قوله عليه السلام: «من ألقى جلباب الحياء، فلا غيبة له» إن لم يدع الانصراف عن المورد. نعم تجوز من جهة تحذير الناس في عدم وقوعهم في المهالك.

---

(١) النور، الآية ١٩.

الثاني: الظالم لغيره، فيجوز للمظلوم غيبته في ظلمه للانتصار وبلا تعدّي؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾، وإطلاق الآية الكريمة يشمل جميع أنواع الظلم ومراتبها، إلاّ إذا كان الظلم على نحو لا يعتنى به لدى عرف المتشرّعة ولا يحصل منه إيذاء، فالآية المباركة منصرفة عنه.

ولا فرق في ذلك بين ما كان في مجلس عام أو لم يكن فيه، كما لا فرق في الظلم من أن يطرأ على المغتاب، أو على مَن ينتسب إليه، كما إذا غصب زيد دار عمرو فمات عمرو، فيجوز لورثته غيبة زيد انتصاراً لحقّهم، وكذا لا فرق بين أن يكون الظالم حياً أو ميتاً، كلّ ذلك لإطلاق الآية الشريفة.

وهل تجوز الغيبة في ما لو وقع الظلم على شخص لا ينتسب إلى المغتاب (بالكسر) أصلاً إلاّ من باب الأُخوة الإيمانية ولم يرد إليه نفعاً؟

مقتضى الأدلّة عدم الجواز إلاّ من باب النهي عن المنكر إن توفّرت شرائطه.

الثالث: نصح المستشير لو استشاره شخص في أمر ذي بال كالتزويج، وشراء عقار، أو جعل وكيل، أو اتّخاذ أجير وغيرها، فيجوز نصحه ولو استلزمت الغيبة، ولا فرق في ذلك بين أن يكون ابتداءً ومن دون الاستشارة أو معها.

وهناك موارد أخرى مذكورة في الكتب الفقهيّة، كالخوف على الدين، فيجوز غيبته لئلا تترتّب عليه مفسدة دينية، أو كجرح الشهود، وقدح المقالات الباطلة وغيرها[1].

---

(١) م ـ ن، ص٩٢ ـ ١٠٠، ج (١٠).

الزهد في الدنيا والإعراض عن الشهوات

قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾.

بيان لشدة غضبه عزّ وجلّ على الذين كفروا من بني إسرائيل ولم يؤمنوا بالنبي وما أُنزل إليه، **واللعن** هو البعد عن الرحمة الإلهية التي لا يستغني عنها المخلوق في حياته المادية والمعنوية، ولعنهم إنما كان من الله تعالى على لسان أنبيائهم ولعله لأجل ذلك أتى الفعل بالمجهول، إما لبيان الكبرياء والعظمة، أو لأجل أن الله تعالى منبع كل خير ورحمة وقد لعنا عليهما السلام من كفر من بني إسرائيل بالله وواحد من رسله وفيه من التعريض لهم بأنهم ملعونون على لسان أنبيائهم أنفسهم وذلك لعصيانهم وتمرّدهم على الحق وأحكام الله تعالى كما ذكره عزّ وجلّ في ما يأتي، والآية تدل على أن اللعن كان بلسانهم دون الكتابة واللغة كما قيل وهو أدل على تقبيحهم وبعدهم.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾.

تأكيد لما سبق وبيان السبب في استحقاقهم اللعن، فإن كان بسبب العصيان له عزّ وجلّ واستمرارهم على العدوان، والجمع بين صيغتي

الماضي والمستقبل لبيان الامتداد والاستمرار الذي ذكرناه، والآية الشريفة تدل على أن اللعن إنما هو بحسب أعمالهم القبيحة وتجاوز الحد في العصيان واعتداءهم المتكرر المستمر دون غيرهما.

قال تعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾.

بيان خصوصيات العصيان والاعتداء المستمر فإنهم أصرّوا على ذلك غاية الإصرار وهاية الاعتداء على حدود الله وتجاوز الحد في العصيان والتناهي من التفاعل الدال على الشدة في فعل المنكر وتماديهم فيه، فهم جمعوا بين فعل المنكر والتجاهر به وعدم النهي عنه في ما بينهم، فكان لا ينهى بعضهم بعضاً ولا يتناهون عنه لو صدر منهم، والمنكر هو كل فعل منهى عنه والجملة مفسرة لما قبلها من المعصية والاعتداء ومفيدة لاستمرارها، والنهي عن المنكر مما لا ريب في حُسْنه عقلاً ووجوبه شرعاً لما فيه من حفظ الدين والمنع عن تجرؤ الفساق على إظهار فسقهم وفجورهم، وإذا ترك سيتجرأ الكثيرون على اقتراف المنكرات مما يوجب شيوعها في المجتمع الذي سيؤول إلى الضياع والفساد ويستحق الطرد من الرحمة الإلهية التي بها حياة الفرد والمجتمع. وقد ذكرنا ما يتعلق بالأمر المعروف والنهي عن المنكر، فراجع.

قال تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

تعجيب من سوء فعلهم وتأكيد حاصل من القسم ـ لذم ما كانوا يعملونه من المعاصي والآثام، وفي الآية الشريفة زجر شديد لمن يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال تعالى: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

تأكيد آخر لما سبق بالاستشهاد بالحس وبذكر بعض أحوال

الحاضرين التي هي من آثار فعل السلف وسيرتهم الراسخة الدالة على كونهم معتدين على دين الله الذي إذا أحبوه وقدروه حق التقدير لتولوا أهل التوحيد وآمنوا بالله ورسوله ولما تولوا أعداء الله من الذين كفروا وهو مشركوا قريش الذين عاندوا الحق، وقد ذكرنا سابقاً أن تولي الكفار يوجب الانخراط معهم والدخول في سلكهم وذلك ينبىء عن ضعف العقيدة وعصيان الله والتمرّد على أحكامه.

قال تعالى: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾.

ذم آخر مؤكد لما قدموه لأنفسهم وهو تولي الكفار في الدنيا ليلقوا جزائه ووباله في العقبى وفي ذكر ﴿أَنفُسَهُمْ﴾ الدلالة على أن الولاية إنما كانت عن هوى النفس وميولها المادية لا عن عقيدة بمن تولوهم.

قال تعالى: ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾.

بيان للجزاء العظيم والوبال الكبير الذي استحقوه وفي الآية كمال الذم والتسفيه لهم إن وضع جزاء العمل وعاقبته موضع العمل كأن أنفسهم قدمت لهم جزائه بتقديم نفسه.

وذكر الدخول في العذاب والخلود بعد استيلاء السخط عليهم لبيان أنهم لا محيص لهم عن الدخول في العذاب ولا يحيدون عنه مصرفاً لأن النجاة منه إنما يكون برضاء الله تعالى عنهم وهم لم يعملوا إلا ما أوجب سخطه ونقمته عليهم.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ﴾.

بيان لسبب تولي هؤلاء اليهود للذين كفروا وهو عدم الإيمان بالله وإعراضهم عما كانوا يقدسونه ويحترمونه، فإنهم لو كانوا كذلك لكانوا

آمنوا بالله والنبي وما أنزل إليه من الهدى والفرقان ولما اتخذوا أولئك الكافرين من عبدة الأصنام والأوثان أولياء وأنصار إلا أنهم أشباههم في الكفر فانجذبوا إليهم، بخلاف ما إذا كانوا مؤمنين، فإن الإيمان يقطع كل سبب سوى حب الله تعالى ويكون رادعاً عن تولي الذين كفروا قطعاً ويحتمل أن يرجع الضمير إلى الذين كفروا، أي ولو كان الذين كفروا ـ وهم المشركون ـ يؤمنون بالله وبالنبي محمد ﷺ وما أنزل إليه من الفرقان والهدى لما اتخذوا اليهود أولياء لأن الإيمان فيهم يستدعي قطع الصلة عن توليهم، ولكن الظاهر هو المعنى الأول بقرينه ذيل الآية الشريفة.

قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

إضراب عما سبق ولبيان العلة في عدم الإيمان لأن الكثير من هؤلاء اليهود فسقوا عن الدين وخرجوا عن طاعة رب العالمين ولا عبرة بالقليل فإنه لا يؤثر في أخلاق الأمة وسيرتها.

قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾، تفصيل في أخلاق الطائفتين اليهود والنصارى بالنسبة إلى أصل الإيمان بعد بيان اشتراكهما في بعض الرذائل النفسانية وذكر ما اختص به بعضهما كقول اليهود ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ وقول النصارى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ والوجدان يتعدى إلى مفعولين وهما أشد واليهود.

وفي ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ تأكيد أن اللام ونون التوكيد، والجملة عامة تشمل الناس واليهود في عصر الرسول ﷺ والتنزيل وبعده أيضاً، كما هو المعروف والمحسوس ولعله لهذا عبّر عزّ وجلّ بقوله ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ الدال على الوجود المحسوس وفي تقديم اليهود على الذين أشركوا إشعار في تقدمهم عليهم في العداوة وفي التعبير بالذين أشركوا دون المشركين مع

أنه أخصر للمبالغة في الذم، كما أن التعبير بالذين آمنوا لأنه أظهر في علية ما في حيّز الصلة، وعداوة اليهود والذين أشركوا معروفة منذ ظهور الإسلام إلى يومنا هذا لأن الكلام سيق لبيان الضابط العام كما في كثير من الآيات النازلة في شأنهم، فلا تختص الآية بعصر التنزيل كما ذكره بعض المفسرين وإنما أشرك عزّ وجلّ اليهود والمشركين لتضاعف كفرهم وتمردهم على الحق واستمرارهم على تكذيب الأنبياء ومعاداتهم وانهماكهم في اتباع الهوى، وكونهم على التقليد، وانفظاظ قلوبهم.

قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ﴾.

بيان لشدّة عطف النصارى ورقة قلوبهم ولين جانبهم وحسن إقبالهم على الحق، فهم الذين قالوا: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ فكان ابتغاؤهم نصرة الله، فهم لم يكافحوا الحق بالرد كما كافحه اليهود ولعله لأجل ذلك لم يعبر عزّ وجلّ بالنصارى كما قل جلّ شأنه اليهود لصلابتهم وامتناعهم عن الانقياد. وإنما ذكر عزّ وجلّ ﴿أَقْرَبَهُم﴾ دون غيره ولم يجعل جلّ شأنها ما به الاشتراك شيئاً واحداً قد تفاوتا فيه بالشدة واضعف كأن يقال: «لتجدن أبعد الناس مودة» أو أضعفهم مودة ونحو ذلك لبيان شدة التفاوت بينهما وكمال التباين بين الفريقين فإن أحدهما في أقصى المراتب من أحد النقيضين والآخر في أقرب النقيض الآخر.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

بيان السبب في كونهم أقرب مودة للذين آمنوا وقد ذرك عزّ وجلّ أموراً ثلاثة:

الأول: إن فيهم قسيسين وهم طائفة العلماء الذين يتولون تعليم

المسيحيين وتربيتهم الدينية والرؤساء فيهم في هذا المجال والقس والقسيسين مأخوذ من تقسيس الشيء إذا تتبعه سمي به لتتبعه آثار العلم والمعاني، وهي رتبة دينية عند النصارى دون الأسقف، ولم يرد هذا اللفظ في القرآن الكريم إلاهنا، ولا بد أن يكون أصل إطلاقه على بعض العلماء منهم حقاً لأن القرآن الكريم يذكرهم في مقام المدح لهم ثم انحرفوا كما هو الشأن في كثير من الأمور الدينية عند اليهود والنصارى، ولعل السبب ما ذكره بعض العلماء أن النصارى ضيعت الإنجيل وأدخلوا فيه ما ليس منه وبقي من علمائهم واحد على الحق والاستقامة يقال له قسيس، فمن كان على هديه ودينه فهو قسيس، وكيف كان فهم علماء يذكرون قومهم مقام الحق ومعارف الدين ويرشدونهم إلى ما هو الأصلح لهم.

الثاني: الرهبان وهو جمع الراهب وهو المتبتل المنقطع في الصومعة أو الدير للعبادة وحرمان النفس من النعم الدنيوية كالزواج والولد ولذات الطعام والزينة، وهو من الرهبة أي المخافة مع تحرز، والترهب التعبد والرهبانية من فرط الرهبة غلو في تحمل التعبد، والرهبانية يكون جمعاً ويكون واحداً وجمعه رهابين، كذا قيل.

والرهبنة دخلت في المسيحية لأسباب عديدة ولا يمكن أن نتغاضى عن السبب الأهم وهو أن الانقطاع عن العلائق الدنيوية أمر مركوز في الإنسان فقد يطغى الجانب الروحي في الإنسان ولأسباب معروفة فيتبتل للعبادة والطاعة وينقطع عن الدنيا وعلائقها وزخارفها، وقد يتغلب الجانب المادي فيحدث الإقبال على الدنيا والإعراض عن الجانب الآخر، وهذه الرهبانية قد تكون ممدوحة إذا كانت مطابقة لروح الشريعة الإلهية وأحكامها وقد تكون مذمومة إذا خالفتها، كما قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً

ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ﴾، وفي الحديث «لا رهبانية في الإسلام»، وقد ذكروا أسباباً عديدة لدخول الرهبانية في النصارى، بعضها لا تخلو من المناقشة وإن كان لتعاليم المسيحية وإدراك بعض علمائهم بطلان هذا العالم وخداع مظهره الخلاب ووقوع بعض الاضطهاد عليهم في ابتداء أمرهم وغير ذلك من الوجوه الأثر الكبير في دخولها فيهم، وقد مرت عندهم بمراحل متعددة متطورة بدءاً من الهروب من الناس إلى الاختلاء في الكهوف بقصد محاربة النفس والإكثار من العبادة والتأمل مع المحافظة على الوحدة والتفرّد، وبمرور الزمن كثر عددهم وصار عندهم نوع من العشرة والاجتماع بينهم بعد تعرضهم إلى المخاطر، فبنيت لهم الصوامع فنشأت الأديرة وكثرت ثم صار لها أسباب وقواعد، فأصبح الالتحاق بهذا السلك أمراً ليس بالهين، وكيف كان فالرهبانية الموجودة عندهم وإن كانت بدعة ولكن لا ينافي تأثيرها في تقريب النصارى من مودة المسلمين، ولما كان القساوسة والرهبان بكثرة في النصارة، بل صارت عقيدة، وفكرة عندهم أوجبت نسبة المودة إلى جنس النصارى.

الأمر الثالث: أنهم لا يستكبرون أي بأنهم لا يستكبرون عن اتباع الحق والإعان له لما فيهم من روح التواضع حتى صار شعارهم وأشهر آدابهم وأمروا بمحبة الأعداء.

والآية الكريمة تدل على أن التواضع والإقبال على العلم والعمل والزهد في الدنيا والإعراض عن الشهوات محمودة أينما كانت وأن اجتماعها في أي فرد يوجب الإذعان للحق وذلك لأن الإنسان إذا أراد السعادة في الدارين فلا بد أن يتوخاها في علم ليدرك به حقيقة الدين وأحكامه ومعارفه ليتمكن من العمل بها فإن العلم والعمل متلازمان ولا ينفك أحدهما عن الآخر في نيل السعادة وهما لا يتحققان إلا مع إزالة

الموانع من النفس وأهمها الاستكبار عن الحق بجميع هيئاته المتمثلة في العصبية والعادات والتقاليد الموروثة والبيئة التي يعيش فيها والتربية الفاسدة التي تربى بها، كل تلك موانع وحجب تمنع النفس من العلم الحق وحق العمل وهذا من الأمر المحسوس وقد دلّت عليه البراهين العقلية والفعلية فإن العصبية في النفس تمنع من الخضوع للحق والعلم به، كما أن العادات السيئة لها الأثر الكبير في باب الأعمال فإن استقرارها في النفس لا يبقى لها فراغاً لأن تتفكر في أمرها أو تتدبر في الخلاص منها فهي مانعة من العمل الصالح لا سيما إذا استقرت في المجتمع والمحيط الذي يعيش فيه الفرد، حينئذٍ يصعب إزالتها وتركها ولكن لا تصل إلى الامتناع كما هو المعلوم، فإن النفس وإن وقعت في الحرج والمشقة في ابتداء الأمر إذا كان الفعل الصادر منها مخالفاً لتلك العادات إلا أنها تسهل إذا استمرت عليها حتى تصير عادات بالتكرار وتصبح طبيعية ثانوية فإن الطبايع عادات ولها الأثر الكبير في النفس والمجتمع في تصحيحها أو إفسادها وحينئذٍ إذا علم الإنسان بالحق ونزع العناد واللجاج عن النفس فأذعن وخضع له صار العلم داعياً للعمل وتقبل النفس إتيانه، ولا بد أن لا ننسى أن ما ذكرناه ممكن وواقع في الخارج وإن كان التلقي لعمل يختلف شدة وضعفاً مع وجود الحواجب النفسانية كما عرفت ولكن الأرضية الخصبة هي الإعراض عن الدنيا والزهد فيها فإنها تسهل كثيراً للنفس ممارسة العمل الذي يدعو إليه العلم الحق ومن كل ذلك يعلم أن الآية الشريفة تشير إلى حقيقة من الحقائق الاجتماعية التي طالما اختلف فيها علماء الاجتماع والنفس في العادات والتقاليد ورواب النفس التي لها الأثر الكبير في الفرد والمجتمع وكيفية التخلص منها ومدى تأثيرها في الأجيال واختلاف القيم بسببها، والقرآن الكريم يرشدنا إلى أوضح السبل في الحد من تأثيرها والتغلب عليها ثم إزالتها، فالمجتمع إذا اشتمل على علماء

يهتمون بتربية الأفراد وتعليمهم ورجال يمثلون الجانب التطبيقي للعلم الحق ليذعن عن العامة بتطابق العلم مع العمل وإمكانه حتى مع وجود عادات سيئة متفشية بينهم فتعتاد على قبول الحق والخضوع له وعدم الاستكبار إذا انكشف لهم الواقع، ولأجل ذلك كان النصارى أقرب مودة للحق وأسلس قياداً لقبول الإسلام والإذعان له لوجود تلك الحقيقة فيهم، فإن منهم علماء لا يزالون يذكرونهم الحق والدعوة الله تعالى، ثم فيهم زهاد يعرضون عما يوجب البعد عن السعادة، فكان من نتيجة التطابق بينهما إن أثرت التربية الدينية والعملية فيهم لأنهم لا يستكبرون عن قبول الحق، وهذه الأمور إذا تحققت في أي مجتمع كان أقرب إلى قبول دين الحق.

وهذا بخلاف اليهود الذين خلوا عنها وقد وصفهم عزّ وجلّ في مواضع عديدة من القرآن الكريم بأنهم يستكبرون وفيهم علماء لا يذعنون للحق بل لا يدعون رذيلة إلا قترفوها فنشأ على ذلك مجتمعهم واستحكمت فيهم عادات سيئة لا يمكن إزالتها بسهولة، ومن هنا يظهر سر قوله تعالى فيما سبق ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ فصاروا قرناء مع المشركين الذين فقد فيهم العلماء الزهاد وفيهم رذيلة الاستكبار ولا ينفع وجود القلة إذا كان الكثير منهم على ذلك، كما بيّنه القرآن الكريم ولا سيما في الآيات السابقة ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَـٰسِقُونَ﴾.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾.

مظهر من مظاهر التواضع للحق وعدم الاستكبار من قوله وبيان لرقة قلوبهم وشدة خشيتهم ومسارعتهم لقبول الحق، والفيض الصباب عن امتلاء، وفاضت العين بالدمع أي سال دمعها بكثرة إما لامتلائها حتى

يتدفق الدمع من جوانبها، أو يراد منها المبالغة أي كأن الأعين ذابت وصارت دمعاً جارياً، و(من) في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ للابتداء متعلقة بمحذوف حال من (الدمع) أي حال كونه ناشئاً من معرفة الحق.

وقيل إنها للسبب متعلقة بتفيض وما مصدرية.

ومن في قوله تعالى ﴿مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ بيانية لـ(ما) بناءً على أنها موصولة وقيل إنها للتبعيض متعلقة بـ﴿عَرَفُوا۟﴾ على معنى أنهم عرفوا بعض الحق فأبكاهم، فكيف لو عرفوه كله، وهذا يلائم قول من يخص الآية الشريفة بواقعة معينة كالتي ورد في النجاشي وجماعته، والأول أولى لبيان أن ذلك شأنهم عند سماع القرآن. وكيف كان فالآية الشريفة تبين خصيصة من خصائص الذين قالوا أنّا نصارى التي عرفوا بها وهي الرقة، المعروفة عندهم مما توجب العبرة والاستعبار والدموع الغزيرة فيكون الخطاب عاماً.

قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾.

بيان لمقالهم بعد بيان حالهم من الحق فيقولون عند معرفتهم له يريدون به إنشاء الإيمان متضرعين لدى الله عزّ وجلّ في قبوله وجعلهم ممن شهد على الحق بأنه حق وهي منزلة عظيمة لا ينالها إلا ذو حظ عظيم في الاعتقاد والعلم والعمل، وقد كان من صفاء سريرة هؤلاء أن عرفوا الحق وتواضعوا له حق التواضع وجرت دموعهم بغزارة عظيمة فرحاً لوصولهم إلى الحق شوقاً إلى الحقيقة والوصول إليها، فألهمهم الله تعالى أن يطلبوا منه الدخول في زمرة الشاهدين وإن كانوا في بدء إسلامهم وهذا المعنى قد حرم منه قوم الرسول ﷺ فإنهم لجفوتهم وقساوة قلوبهم وبعدهم عن الحق والحقيقة ولانتفاء المعرفة فيهم مع أن الرسول الكريم ﷺ بين ظهرانيهم لم يدركوا تلك المعاني السامية التي وصل إليها الذين قالوا أنّا نصارى.

قال تعالى: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ﴾.

تقرير لما سبق، وتثبيت لإيمانهم باستبعاد ما يوجب انتفاءه مع قيام الداعي فيهم وهو الطمع والانخراط مع الصالحين، وهذه الأمور مطلوبة في تثبيت الإيمان وتوكيده، فإن مجرد القول والاعتقاد لا يضمن البقاء لكثرة الشواغل وما يوجب الانصارف وهم في بدء إسلامهم مع ما يرونه من الفتن والامتحان فيحتاج هذا الأمر المهم إلى ما يوجب التوكيد والتثبيت ليضمن به الاستمرار والبقاء وديمومة الإيمان.

وفي مقالهم هذا بيان لسر طلبهم من الله أن يكتبهم من الشاهدين وهو استقرار الإيمان في القلوب وعدم خلوفهم منه ليتم بذلك سبب الشهادة فإنها بمعنى الشهود وهو الحضور، فإذا لم يستقر الإيمان ولم يستقر القلب عليه وكان متزلزلاً فكيف يمكن أن يدخل في زمرة الشاهدين.

ومما ذكرنا تعرف الوجه في الاستفهام فلا يصغى إلى ما قيل فيه، فراجع.

قال تعالى: ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾.

بيان لرسوخ الإيمان في قلوبهم فطمعوا في الله تعالى أن يجعلهم مع القوم الصالحين وهم الذين خلصت نواياهم من كل شين وصلحت نفوسهم بالفضائل وتزكّت أعمالهم باستقامتها وتطابقها لما يرضاه الله تعالى. والجملة مستأنفة لبيان رسوخ الإيمان بعدما نفوا عنهم ما يوجب عدول الإيمان عنهم وفي الإتيان بلفظ ﴿مع﴾ دلالة على الدخول في مداخلهم والانخراط معهم.

قال تعالى: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

الإثابة المجازاة أي جزاهم الله تعالى ومنحهم من الثواب الجزيل بقولهم الذي عبر عن خلوص واعتقاد راسخ كما دلّ عليه قوله تعالى: ﴿مِمَّا عَرَفُوا﴾ فإن القول إذ اقترن بالمعرفة كما الإيمان، وهذا ما دلت عليه الآية الكريمة، كما عرفت والجزاء كان عظيماً وهو جنات تجري من تحتها الأنهار ليتم بها البهجة والسرور خالدين فيها أبدا.

قال تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

أي أن ذلك الأمر الجليل من الثواب الجزيل جزاء كل محسن الذي اعتاد الخير والإحسان، فيشملهم ذلك الجزاء إما بالمطابقة أو بالأولى، والآية الشريفة على قبول مناجاتهم مع الله ودعواتهم بذكر اللازم.

قال تعالى: ﴿والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم﴾.

بيان للترهيب والوعيد بعد ذكر الوعد والترغيب لتتم المقابلة التي جرت عليها عادة القرآن الكريم وليتم التحذير من المخالفة بعد الترغيب إلى الثواب فإنه بعدما ذكر للمؤمنين من الأجر الجزيل والثناء الجميل ذكر ما أعدّ للكافرين المكذبين من الجزاء الوبيل فتم ذلك باستيفاء الأقسام وتبين الأشياء.

بحوث المقام

بحث أدبي

إفراد اللسان في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أحد الاستعمالات الثلاثة المشهورة في مثل ذلك، وقيل أن الإفصاح منها أنه إذا فرق بين الجزئين اختير لفظ الأفراد على غيره، ولذلك جاء على لسان مفرداً ولم يأتِ على لساني داود وعيسى بن مريم ولا على ألسن داود وعيسى، وأما إذا كان المتضمنان غير مفترقين اختير لفظ الجمع على لفظ التثنية وعلى الأفراد نحو قوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾[1].

و﴿مُنكَرٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ للنوع، والتنوين للوحدة النوعية لا الشخصية، ويكون وصفه بالفعل الماضي في تعلق النهي به لأن متعلقه فرد من أفراد ما يتعلق النهي به والصحيح أن يقال أن الانتهاء عن مطلق المنكر باعتبار تحققه في ضمن أي فرد من أفراده فلا يبقى إشكال فني الآية الشريفة حيث ذكر بعضهم بأنها مشكلة باعتبار ذم القوم بالنهي عما وقع وإنما يكون عن الشيء قبل وقوعه، فلا بد من تأويلها بأن المراد النهي عن العود إليه إما بتقدير مضاف أي معاودة منكر أو الفهم من السياق أو المراد فعلوا مثل، أو يحمل على أرادوا فعله.

---

(١) التحريم، الآية ٤.

والجميع كما ترى خلاف ظاهر الآية الشريفة وهي واضحة لا تحتاج إلى هذه التأويلات الباردة، فراجع.

وقوله تعالى: ﴿أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾.

هو المخصوص بالذم على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه تنبيهاً على كمال التعلق والارتباط بينهما ومبالغة في الذم والمعنى موجب سخط الله عليهم وإنما اعتبروا المضاف لأن نفس سخط الله تعالى شأنه باعتبار إضافته إليه سبحانه ليس مذموماً بل المذموم ما أوجبه من الاسباب والخلاف في إعراب مخصوص نعم وبئس معروف مذكور في كتب النحو، فراجع.

وقد اختلفوا في إعراب قوله تعالى: ﴿وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ﴾، فقيل في موضع الحال، متسبب عما قبله، وليس هو داخلاً في حيز الحرف المصدري إعراباً.

وقيل ﴿أن﴾ مخففة عاملة في ضمير الشأن بتقدير أنه سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون.

وقيل: أنه معطوف على ثاني مفعولي ﴿تَرَىٰ﴾ بجعلها علمية أي تعلم كثيراً منهم يتولون الذين كفروا ويخلدون في النار، وفي كلا القولين من التعسّف ما لا يخفى، ولم يدخل اللام في جواب لو في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ لأنه الأفصح بل دخول اللام عليه قليل والوجدان في قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ﴾ متعد لاثنين أولها ﴿أَشَدَّ﴾ والثاني ﴿ٱلۡيَهُودَ﴾ وما عطف عليه، وقيل بالعكس ولا يغير التقديم والتأخير بعد ورود الدليل على الترتيب، وهو واضح في المقام كذا قيل و﴿عَدَٰوَةً﴾ تمييز واللام الداخلة على

الموصول متعلقة بها، ولا يضر كونها مؤنثة لأنها مبنية عليه، وقيل تعلقها بمحذوف وقع صفة لها أي عداوة كائنة للذين آمنوا ولا يخفى أنه خلاف الظاهر.

ورهباناً منسوب إلى الرهبنة بزيادة الألف والتنكير لإفادة الكثرة.

وقوله تعالى: ﴿تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ﴾ من أبلغ العبارات فإن الأصل فاض دمع العين ثم حولت إلى فاضت عينه دمعاً ثم حولت إلى نسبة الفعل إلى العين مجازاً ومبالغة، وجوز بعضٌ أن تكون ﴿من﴾ هي الداخلة على التمييز.

وأما **قال تعالى**: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ﴾، فإن الاستفهام فيه لأجل التحقق وتثبيت الإيمان وقد جعله بعضٌ للإنكار الذي هو متوجه للسبب والمسبب جميعاً كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾[1]، وأمثاله.

وقال بعضٌ: إنه جواب سائل، قال: لم آمنتم، واعترض عليه بأن العلماء صرحوا بأن الجملة المستأنفة الواقعة جواب سؤال مقدّر لا تقترن بالواو، إذ الجواب لا يعطف على السؤال وأجيب بأن الواو زائدة، ولكن كل ذلك تطويل بلا طائل تحته، وقد عرفت مكرراً أنه لا معنى للزيادة في القرآن الكريم.

ونطمع استيناف أخبار منهم، وقيل أنه في موضع حال عطفاً على قوله تعالى: ﴿لَا نُؤْمِنُ﴾ فيكون في حيّز النفي وقيل غير ذلك فراجع.

---

(١) الانشقاق، الآية ٢.

بحث دلالي

تدل الآيات الشريفة على أمور:

الأول: يدل قوله تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ على أن اللعن جائز شرعاً إذا تحقق موجبه وهو العصيان والاعتداء على حرمات الله تعالى المتحققان في الفكر بالله وآياته وتشريعاته المقدسة وإنما ذكر بني إسرائيل من باب المثال فيشمل غيرهم ولعل الإتيان بالفعل مبنياً للمفعول لأجل أن اللعن يتحقق من كل من يمكن أن يصدر منه اللعن سواء كان الله تعالى أو الأنبياء أو اللاعنين من غيرهما على كل من كان من شأنه الاعتداء ويستفاد ذلك أيضاً من تعليق الحكم على الوصف وهو العصيان فيستفاد من العلية منه كما هو معروف من مثل هذا الأسلوب وإلا فإن السبب معلوم من الكفر السابق.

الثاني: يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾، إن اقتراف المعاصي والآثام والتمرّد على الأحكام وعصيان الله عزّ وجلّ يوجب الاستهانة والاستهزاء بكل المقدسات فلا تبقى في النفس حرمة لها وينعدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا يتناهى عنه، فلو تحقق لا ينتهي عن المنكر وهذا هو السبب في ذم الله تعالى لأفعالهم التي أوجبت وقوعهم في هذا النوع من الذنب الذي له الأثر العظيم في فساد الفرد والمجتمع.

الثالث: يدل قوله تعالى: ﴿لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ على أن ترك النهي عن المنكر وعدم الانتهاء عنه لو تحقق منهم من الفعل الشنيع الذي ذمه الله تعالى لعظيم أثره في الأفراد والمجتمعات وتأثيره الكبير في الجرأة على هتك الحرمات وعدم احترام النفوس للتكاليف، وإذا تحقق ذلك في أي فرد أو مجتمع يوجب ضياع عن كل كمال ويستلزم فساده

الذي له الأثر في النوع والنظام الكياني، وقد قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ وقد بيّن عزّ وجلّ بعض آثاره الفظيعة على النفوس والأعمال وما استوجب من الجزاء العظيم وهو سخط الله تعالى الذي كان السبب في دخولهم النار مأوى العاصين ومظهر الغضب الإلهي.

الرابع: يدل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ﴾ على أن الإيمان بالله والنبي وما أنزل إليه من القرآن والمعارف والأحكام درع حصين من الدخول في زمرة الكافرين وموالاتهم وتعدد مصاديق الإيمان لأجل ثبوت أصل الإيمان في القلب ورسوخه في النفس، فيكون إيمانه خالصاً عن كل نفاق فيكون على طرف نقيض من الذين كفروا من عبدة الأوثان المعرضين عن كل كمال وتحدث البينونة بينهما فكيف يمكن والحال هذه أن يوالي الكافرين؟ فموالاتهم دليل نفاقهم وعدم رسوخ الإيمان في قلوبنهم وعلى هذا لا فرق بين إرجاع الضمير في ﴿كَانُوٓا۟﴾ إلى بني إسرائيل أو إلى المشركين فإن البينونة الحاصلة بين الطائفتين والفرقة الحادثة بينهما تنفي الموالاة فإذا تحققت لا بد أن يكون لأجل عدم الإيمان الموجب لاشتراكهما وإتيان النبي مجرداً عن الإضافة لبيان أن الأنبياء عليهم السلام هم رسل الله تعالى لهداية الإنسان فلا فرق بينهم من هذه الجهة، فإن الإيمان بالنبي محمد صلى الله عليه وآله يدعو إلى الإيمان بموسى عليه السلام وكذلك الأمر معكوساً والجميع يدعون إلى الله تعالى والإيمان به وبهم يقطع كل صلة مع الكافرين، كما عرفت مكرراً.

الخامس: يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾، إن الإيمان الظاهري الذي يعم جميع من يعتقد به غير كاف في ثبوت الآثار الواقعية المترتبة عليه فيهم، فإن الكثير الذين يوالون الكافرين

ويعملون المعاصي والآثام هم الذين خرجوا عن ربقة المؤمنين وصاروا بذلك فاسقين فهم السبب في دفع الآثار الواقعية فتبقى القلة الذين آمنوا وأعرضوا عن موالاة الكافرين مسلوبوا التأثير ولكن مع ذلك ذكرهم الله وهو من نصفة القرآن حيث أثبت لهؤلاء القلّة الحق ولم ينكره عليهم.

السادس: يستفاد من قوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾، أصناف العباد بالنسبة إلى المؤمنين من حيث القرب والبعد والعداوة والمحبة فطائفة منه يعادونهم وهذا هو المشاهد المحسوس منهم وذلك لأسباب معروفة ومعلومة ذكرها عزّ وجلّ في هذه الآيات وغيرها، منها موالاة الكافرين والعصيان المتكرر فيهم والاعتداء المستقر في النفوس وعدم احترام المقدسات والحرمات الإلهية، ففي أي قوم استقرّت فيهم هذه الصفات وتمكن في النفوس النفاق كانوا على عداء مع القوم المؤمنين وتختلف مراتبه حسب شدة الأسباب وضعفها، ولذا كانت اليهود على الأشد لأنهم على أقصى درجات الاستكبار والنفاق والطائفة الأخرى على قرب من المؤمنين ومحبة لهم وذلك لأسباب معلومة أيضاً وهي وجود العلماء العارفين الذين يدعون أقرانهم إلى الإيمان والطاعة، والزهاد الذين أعرضوا عما يوجب البعد عن الله تعالى والتواضع للحق وعدم الاستكبار عنه وهذه أمور عالية في غاية الكمال وإذا تحققت في أي قوم توجب الإذعان للحق وحب أهله، وتختلف أيضاً المحبة شدة وضعفاً بحسب زيادة الأفراد وقلّتهم وضعف الاستكبار، وكانت النصارى أقربهم مودة للذين آمنوا لكثرة مثل هؤلاء العلماء والزهاد وضعف الاستكبار منهم، ولعل التعبير بالوجدان لأجل معلومية تلك في النفوس وأنسها بها في الأمور المادية.

وتدل الآية على أن الزهد عن ملاذ الدنيا ووجود الزاهدين في كل قوم له الأثر في نفوس الآخرين وكذلك وجود العلماء الداعين إلى الله تعالى فيهم، فإن المؤانسة بين الأفراد لا محالة تؤثر وإن النفوس مجبولة على الرجوع إلى العلماء الداعين والزاهدين فتتأثر بها ولعل انتفاء الاستكبار من بينهم لأجل وجود هاتين الطائفتين في المجتمع فإن العلم إذا اقترن بالعمل في الخارج زاد في المعرفة وهي تدعو إلى التواضع وإذا أخذ ذلك في الشريعة أيضاً تمّ المطلوب وانتفى كل عناد ولجاج، وقد ذكرنا ما يتعلق بذلك في التفسير فراجع.

السابع: يدل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾، على أن النفوس المستعدة والقابلة لتلقي الفيض تنهضها مجرد سماع الحق ولا تحتاج إلى أمر زائد عن ذلك فترى أن القوم سمعوا القرآن الكريم فتأثروا به وأول أثر خارجي شوهد فيهم هو فياض أعينهم من الدمع الكاشف عن رقة القلوب وابتهاجها بعرفان الحق، ولعل ذكر الدموع الغزيرة من دون سائر الصفات لبيان الجانب الروحي المتغلب عليهم وانقطاع أنفسهم إلى عالم الغيب فإن الإنسان قد تبرق عليه بارقة فينقطع بها إلى تلك العوالم التي كانت الأرواح فيها ومحل أنسها وإذا استغلها بأحسن وجه وعرف عظيم أثرها لرأى العجب العجاب ولا تخلو لحظة يمر كل فرد فيها.

وأما طلبهم أن يجعلهم مع الشاهدين الذين عرفوا الحق وآمنوا به وأصبحوا شهوداً على قومهم بإيمانهم وصاروا شهداء على الحق بإيمانهم وأعمالهم فإذا كانوا كذلك فلم يؤمنوا بالله وما جاءهم من الحق الذي عرفوه؟ وما هو السبب في إعراضهم وقد صاروا شهوداً عليه؟ ولا مبرر لهم في ترك الحق حينئذٍ فهم صلحاء في عقائدهم وقد خلب الحق قلوبهم

فلم لا يطمعون في الدخول مع القوم الصالحين الذين صلحت سرائرهم وأعمالهم وخلص إيمانهم؟!

الثامن: يدل قوله تعالى: ﴿وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ على أن الإيمان المستقر في القلوب الذي يكون باعثاً على العمل الصالح يكفي في أن يجعل الفرد من القوم الصالحين وذلك بلطفه العمي ومنّه الكريم، فإن النوايا الحسنة والإيمان الصادق الباعث للعمل الصالح هما الموجبان لتلقي الثواب والدخول مع زمرة الصالحين الذين أعد لهم الله تعالى الثواب العظيم والأجر الجميل ويستفاد منه مصبوبة الطمع من فضل الله العظيم إذا تحققت القابلية لتلقي الفيض وأن كان مذموماً في أمور الدنيا.

التاسع: يدل قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، على أن عرفان الحق والإيمان به إحسان محض والمعتقد به يكون من المحسنين، وقد وصف هؤلاء بأوصاف ثلاثة تدل على عظيم منزلتهم وهما كونهم من الشاهدين والصالحين والمحسنين.

والأول: حصل من عرفان الحق والتواضع له وخلبه لمشاعرهم حتى فاضت دموعهم وانبهروا من شروق نوره على نفوسهم المستعدة.

والثاني: لأن الحق استقر في القلب وسيطر على المشاعر فصلحت نفوسهم ولم يصدر منهم إلا الصلاح فاستقاموا بالبقاء.

والثالث: حصل لهم بعد التجليات الباهرات.

بحث روائي

في الكافي بإسناده عن أبي عبيدة الحذاء عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ

وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۚ﴾، قال عليه السلام: الخنازير على لسان داود والقردة على لسان عيسى بن مريم.

أقول: رواه القمي والعياشي كما روى الجمهور في ذلك أيضاً عن قتادة ومجاهدة وغيرهما، ويكون المراد من اللعن على لسان هذين النبيين عليهما السلام نزول العذاب فعلاً عليهم فمسخهم قردة وخنازير وإن كانوا ملعونين على السن سائر أنبيائهم ولأجل ذلك خصّهما الله تعالى بالذكر.

وفي المجمع عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «أما داود فإنه لعن أهل إيلة لما اعتدوا في سبتهم وكان اعتداؤهم في زمانه، فقال: اللهم ألبسهم اللعنة مثل الرداء ومثل المنطقة على الخصرين، فمسخهم الله قردة، وأما عيسى فإنه لعن الذين نزلت عليهم المائدة ثم كفروا بعد ذلك، قال: فقال أبو جعفر عليه السلام: يتولون الملوك الجبارين ويزينون لهم هواهم ليصيبوا من دنياهم».

أقول: يستفاد من الحديث أن المقصود من الذين كفروا من بني إسرائيل في الآية الشريفة هم أهل إيلة الذين مسخهم الله قردة بدعاء داود عليهم لما اعتدوا في سبتهم، وقد ورد ذكرهم في القرآن الكريم في موضعين أحدهما سورة البقرة: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾[1]، والثاني في سورة الأعراف: ﴿وسئلهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون﴾[2]، ﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾[3].

(١) البقرة، الآية ٦٥.
(٢) الأعراف، الآية ١٦٣.
(٣) الأعراف، الآية ١٦٦.

ولكن هذا الحديث ينافي مع ما ورد في الحديث المتقدّم من أن الممسوخين على لسان داود كانوا خنازير وليسوا قردة، ويمكن رفع التنافي إما بتعدّد الواقعة، ففي إحداهما مسخوا خنازير وفي الثانية قردة أو في واقعة واحدة مسخ بعضهم قردة وهم أصحاب السبت المعروفون المتجاوزون على حدود الله وأحكامه المقدّسة والبعض خنازير حسب درجات أعمالهم الشنيعة وما يناسب ملكاتهمن ولم يبين في الحديث الممسوخ على لسان عيسى بن مريم وإنما تحقق اللعن عليهم منه عليه السلام ولكن الحديث المتقدّم بيّنه، وأما ذيل الحديث «يتولون الملوك الجبارين..» فإنه إنما يكون من مسخ القلوب التي مارست الذنوب والآثام فأعرضت عن الله تعالى وركنت إلى الدنيا ونسيت كل خير ومكرمة وتولّت الملوك الجبارين وغيرهم من أصحاب المعاصي والآثام للسنخية الحاصلة بينهم، وهذا الأمر لا يختص ببني إسرائيل بل يجري في غيرهم، ويشهد لما ذكرنا ما رواه القمي عن مسعدة ابن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سأله رجل عن قوم من شيعته يدخلون في أعمال السلطان ويعملون لهم ويحبون لهم ويوالونهم قال عليه السلام: ليس هم من الشيعة، ولكنهم من أولئك ثم قرأ أبو عبد الله عليه السلام هذه الآيات: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ * كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ * تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ * وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾.

وما رواه السيوطي في الدر المنثور عن معاذ بن جبل قال: قال

رسول الله ﷺ: «خذوا العطاء ما كان عطاءً فإذا كان رشوةً عن دينكم فلا تأخذوا ولن تتركوه يمنعكم من ذلك الفقر والمخافة، إن بني ياجوج قد جاءوا، وإن رحى الإسلام سيدور فحيثما دار القرآن فدوروا به، يوشك السلطان والقرآن أن يقتتلا ويتفرقا، إنه سيكون عليكم ملوك يحكمون لكم بحكم ولهم بغيره، فإن أطعتموهم أضلّوكم، وإن عصيتموهم قتلوكم».

قالوا: يا رسول الله كيف بنا إن أدركنا ذلك؟

قال: تكونوا كأصحاب عيسى نشروا بالمناشير، ورفعوا على الخشب، موت في طاعة خير من حياة في معصية، إن أول ما نقض في بني إسرائيل أنهم كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر سنة التغرير فكان أحدهم إذا لقى صاحبه الذي كان يصيب عليه آكله وشاربه وكأنه لم يعب عليه شيئاً فلعنهم الله على لسان داود، وذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف وتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم أشراركم، ثم ليدعون خياركم فلا يستجاب لكم، والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم فلتأطرن عليه أطراً أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض.

أقول: يبين ﷺ بعض ما يحصل في أمته من بعده يعفى القرآن الكريم ويعرض عنه ويحكم السلطان فيحكم فيهم بغير ما أنزل الله تعالى ويكثر الفساد، وحينئذٍ فلا بد من إظهار العالم علمه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحرم المداهنة وإلا استحقوا اللعن كما استحق الذين كفروا من بني إسرائيل اللعن على لسان داود وعيسى ثم ذكر ﷺ أن هذه الأمة تدخل مداخل اليهود إذا أعرضوا عن القرآن الكريم وما أنزله الله تعالى، وأخيراً بين بعض الآثار السيئة التي تترتب على ترك الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر وهي تسلّط الشرار وعدم استجابة الدعاء وإفشاء الحقد والضغائن بين الناس، إلا إذا أحيط على يد الظالم وأرغم على إقامة الحق والنهي عن المنكر.

وروى السيوطي في الدر المنثور عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ أن بني إسرائيل لما عملوا الخطيئة نهاهم وعلماؤهم تغريراً، ثم جالسوهم وآكلوهم وشاربوهم كأن لم يعملوا بالأمس خطيئة تذكر، فلما رأى الله ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض ولعنهم على لسان نبي من الأنبياء. ثم قال رسول الله ﷺ: «والله لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر ولتأطرن على الحق أطراً أو ليضرب الله بقلوب بعضكم على بعض وليلعننكم كما لعنهم».

أقول: الأحاديث في هذا المضمون وبيان الآثار السيئة التي تترتب على ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كثيرة، فراجع.

العياشي عن محمد بن الهيثم التميمي عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾، قال عليه السلام: «أما إنهم لم يكونوا يدخلون مداخلهم ولا يجالسون مجالسهم ولكن كانوا إذا لقوهم ضحكوا في وجوههم وأنسوا بهم».

أقول: إذا كان اللعن مترتباً على مداهنة المذنبين فقط فكيف إذا ما دخلوا مداخلهم.

ابن بابويه في ثواب الأعمال عن أمير المؤمنين عليه السلام: لما وقع التقصير في بني إسرائيل جعل الرجل منهم يرى أخاه في الذنب فينهاه فلا ينتهي فلا يمنعه ذلك من أن يكن أكيله وجليسه وشريبه حتى ضرب الله

قلوب بعضهم ببعض ونزل فيهم القرآن حيث يقول عزّ وجلّ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾.

وفي تفسير العياشي عن مروان عن بعض أصحابه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ذكر النصارى وعدواتهم فقال قول الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾، قال عليه السلام: أولئك كانوا قوماً بين عيسى ومحمد ينتظرون مجيء محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

أقول: عموم الآية الشريفة يشمل الجميع إلا إذا خرج النصارى عن الطريقة، وما ذكره الله تعالى، فلم يكن فيهم علماء يدعونهم إلى الصلاح ولا زهّاد يرغبونهم في الزهد عن الدنيا ولم يكن لهم تواضع للحق فيكونوا كسائر الأمم حتى أمة الإسلام إن خرجوا عن الطريقة وغيّروا أنفسهم بارتكاب الموبقات.

وفي الدر المنثور أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن سعيد بن جبير في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾، قال: «هم رسل النجاشي الذين أرسل بإسلامه وإسلام قومه كانوا سبعين رجلاً اختارهم من قومه الخير فالخير في الفقه والسن».

وفي رواية أخرى: بعث من خيار أصحابه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثلاثين رجلاً فلما أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دخلوا عليه فقرأ عليهم سورة (يس) فبكوا حين سمعوا القرآن وعرفوا أنه الحق فأنزل الله فيهم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾، ونزلت هذه الآية فيهم أيضاً ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾... ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾.

أقول: يمكن رفع اختلاف العدد في الروايتين على محامل منها أن

في ابتداء الأمر اختار سبعين، ولكن الذي وصل منهم إلى رسول الله ﷺ ثلاثون.

وفي تفسير القمّي في الآية، كان سبب نزولها أنه لما اشتدت قريش في أذى رسول الله ﷺ وأصحابه الذين آمنوا به بمكة قبل الهجرة فأمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا إلى الحبشة وأمر جعفر بن أبي طالب أن يخرج معهم فخرج معهم ومعه سبعون رجلاً من المسلمين حتى ركبوا البحر، فلما بلغ قريشاً خروجُهُم بعثوا عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد إلى النجاشي ليردّوهم وكان عمرو وعمارة متعاديين فقالت قريش: كيف نبعث رجلين متعاديين، فبرئت بنو مخزوم من جناية عمارة وبرئت بنو سهم من جناية عمرو بن العاص، فخرج عمارة وكان حسن الوجه شاباً مترفاً فأخرج عمرو بن العاص أهله معه فلما ركبوا السفينة شربوا الخمر فقال عمارة لعمرو بن العاص: قل لأهلك تقبلني فقال عمرو أيجوز هذا؟!! سبحان الله فسكت عمارة فلما انتشى عمرو وكان على صدر السفينة فدفعه عمارة وألقاه في البحر فتشبث عمرو بصدر السفينة وأدركوه فأخرجوه فوردوا على النجاشي وقد كانوا حملوا إليه هدايا فقبلها منهم فقال عمرو بن العاص: أيها الملك إن قوماً منّا خالفونا في ديننا وسبّوا آلهتنا وصاروا إليك فردّهم إلينا فبعث النجاشي إلى جعفر فجاءه فقال يا جعفر ما يقول هؤلاء؟ فقال جعفر(رضي الله عنه): أيها الملك ما يقولون؟ قال سألوني أن أردّكم إليهم، قال أيها الملك سلهم أعبيد نحن لهم؟ قال عمرو: لا بل أحرار كرام، قال: فسئلهم ألهم علينا ديون يطالبون بها؟ قال ما لنا عليكم ديون قال: فلكم في أعناقنا دم تطالبون به؟ قال عمرو: لا، قال: فما تريدون منا؟ آذيتمونا فخرجنا من بلادكم. فقال عمرو بن العاص: أيها الملك خالفونا في ديننا وسبّوا آلهتنا وأفسدوا شبابنا وفرّقوا

جماعتنا فردّهم إلينا لنجمع أمرنا، فقال جعفر: نعم أيها الملك خلقنا الله ثم بعث فينا نبياً أمرنا بخلع الأنداد وترك الاستقسام بالأزلام وأمرنا بالصلاة والزكاة وحرّم الظلم والجور وسفك الدماء بغير حقها والزنا والربا والميتة والدم ولحم الخنزير وأمرنا بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي. فقال النجاشي: بهذا بعث الله عيسى ابن مريم، ثم قال: يا جعفر هل تحفظ شيئاً مما أنزل الله على نبيك؟ قال: نعم فقرأ عليه سورة مريم فلما بلغ إلى قوله: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾، فلما سمع النجاشي ذلك بكى بكاءً شديداً، وقال: هذا والله هو الحق فقال عمرو بن العاص: أيها الملك إنه مخالف لنا فردّه إلينا، فدفع النجاشي يده فضربها وجه عمرو ثم قال: اسكت والله لئن ذكرته بسوء لأفقدنك نفسك، فقام عمرو ابن العاص من عنده والدماء تسيل على وجهه وهو يقول: إن هذا كما تقول أيها الملك فإنّا لا نتعرض له، وكانت على رأس النجاشي وصيفة له تذب عنه فنظرة إلى عمارة بن الوليد وكان فتى جميلاً فأحبته، فلما رجع عمرو بن العاص إلى منزله قال لعمارة: لو راسلت جارية الملك فراسلها فأجابته فقال له عمرو: قل لها تبعث إليك من طيب الملك شيئاً فقال لها فبعثت إليه فأخذ عمرو من ذلك الطيب فكان الذي فعل به عمارة في قلبه حين ألقاه في البحر، فأدخل الطيب على النجاشي فقال: أيها الملك إن حرمة الملك عندنا وطاعته علينا وما يكرمنا إذا دخلنا بلاده ونأمن فيه أن لا نغشه ولا نريبنه وإن صاحبي هذا الذي معي قد أرسل إلى حرمتك وخدعها وبعثت إليه من طيبك، ثم وضع بين يديه، فغضب النجاشي وهمّ بقتل عماره، ثم قال: لا يجوز قتله فإنهم دخلوا بلادي بأماني، فدعا النجاشي السحرة، فقال لهم: اعملوا به شيئاً أشدّ عليه من القتل فأخذوه ونفخوا في إحليله الزيبق فصار مع الوحش يغدو ويروح،

وكان لا يأنس الناس فبعثت قريش بعد ذلك فمكنوا له في موضع حتى ورد الماء مع الوحش فأخذوه ما زال يضطرب في أيديهم حتى مات. ورجع عمرو إلى قريش وأخبرهم أن جعفراً في أرض الحبشة في أكرم كرامة، فلم يزل بها حتى هادن رسول الله ﷺ قريشاً وصالحهم وفتح خيبر فوافي بجميع من معه، وولد لجعفر بالحبشة من أسماء بنت عميس عبد الله بن جعفر، وولد للنجاشي ابن فسمّاه محمداً.

وكانت أم حبيبة بنت أبي سفيان تحب عبد الله، فكتب رسول الله ﷺ إلى النجاشي يخطب أم حبيبة فبعث إليها النجاشي فخطبها لرسول الله ﷺ فأجابته فزوّجها منه وأصدقها أربعمائة دينار وساقها عن رسول الله ﷺ وبعث إليها بثياب وطيب كثير وجهّزها وبعثها إلى رسول الله ﷺ وبعث إليه بمارية القبطية أم إبراهيم وبعث إليه بثياب وطيب وفرس وبعث ثلاثين رجلاً من القسيسين فقال لهم، انظروا إلى كلامه ومقعده وإلى مطعمه ومشربه ومصلاه. فلما وافوا المدينة دعاهم رسول الله ﷺ إلى الإسلام وقرأ عليهم القرآن: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾.

فلما سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ بكوا وآمنوا ورجعوا إلى النجاشي فأخبروه خبر رسول الله ﷺ وقرأوا عليه ما قرأ عليهم فبكى النجاشي وبكى القسيسون وأسلم النجاشي ولم يظهر للحبشة إسلامه وخافهم على نفسه فخرج من بلاد الحببشة إلى النبي ﷺ فلما عبر البحر

توفي فأنزل الله: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ﴾ . . . ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ .

أقول: رواه بهذا المضمون مع اختلاف في بعض المفردات جمع كثير من المؤرخين والرواة وأصحاب السير.

وذكرنا أن الظاهر من الآية العموم ولا تختص بالنجاشي وقومه وتقدم ما يرتبط بذلك، فراجع.

بحث عرفاني

الآياتُ الشريفة المتقدمة تبيّن قسمين من الخصائص التي يمكن أن يرتقي بها إلى الكمالات أو يحبط بها إلى الدرجات السفلى فيخرج عن طور الإنسانية ويدخل في زمرة أدنى البهائم حسب الملكات التي اكتسبها من تكرر الأفعال والمداومة على العصيان.

وقدّم عزّ وجلّ هذه الأخيرة لتقدّم التخلية طبعاً إلا من أدركته العناية الإلهية بالكمالات وتنهار سيئات الملكات ورذائل الصفات، وقد ذكر صنفين مما يوجب الانخراط في الحيوانات أحدهما يتعلق بالنوايا وهي الاستمرار على العصيان والأخرى بالأفعال وهي المداومة على الاعتداء وارتكاب المحرمات وهتك الحرمات، فإذا استولى العصيان على النيات فلم يكن له نية خيّرة ولا همة شريفة حيث غلب الشر قلوبهم فلم يرج منها الصلاح وظهرت على أفعالهم وانهمكوا في ارتكاب المعاصي والآثام فلا يتوسهم فيهم الخير ولا يتناهون عن المنكر إذ استوعب المنكر شعورهم ومشاعرهم فاستحقوا اللعن ممن يعرف أن يضع اللعن في مواضعه والطرد عن الرحمة الإلهية التي هي أساس كل خير ومنبع كل كمال وسبب كل هداية، فمسخوا قردة وخنازير بما يناسب تلك الملكات التي اكتسبوها

باختيارهم وبقدر بعدهم عن الرحمة الإلهية، ابتعدوا عن الذين آمنوا واضمروا العداوة الشديدة لهم واقتربوا إلى الكفار المنكرين لوحدانية الله تعالى والعابدين للأوثان الذين هم مظاهر غضبه وسخطه فسخط عليهم بمثل ما سخط على هؤلاء فكانوا مشركين في العذاب وهم فيه خالدون لخلودهم في العصيان والعدوان، ولو عاشوا أبد الآبدين، وقد بيّن عزّ وجلّ لهم طريقاً يمكن لهم التخلص مما هم فيه وهو الإيمان بالله وبالنبي وما أنزل إليه ويصلحوا ما يمكن إصلاحه مما فسد فيهم ولكن أنَّ لهم ذلك وفيهم من الكفر والخروج عن طاعة الله ما سدّ عليهم طريق الرجوع وفي مقابل هؤلاء طائفة أخرى استفادوا من ضمائرهم وركنوا إلى إنسانيتهم التي أودع فيها الخير والسعادة وتشرفوا بمودّة أهل الإيمان لأنهم آثروا نصرة الله ودينه الحق وهذّبوا أنفسهم بالزهد عن ما يوجب الانخراط في الدنيا ويشغلهم عن عبادة الله وتسلّموا بسلاح الذي يتبين به الأمور فيعرف صحيحها من سقيمها وخيرها من شرها وكان المقتضى الأكبر فهم أنهم لم يجعلوا ذهاب تلك المجاهدات هدراً وبدون فائدة، فأخلصوا النيّة وعمدوا إلى التواضع للحق مهما كان ولم يستكبروا عن قبوله أينما كان فصاروا بذلك أهل الأنس فسمعوا ما تهفوا إليه النفوس الروحانية فأثارت فيها الشوق إلى عالمها فأفاضت عيونهم من الدمع الغزير لما تنبهت تلك النفوس المرتاحة من محيطها المادي الذي تزجرها بالابتعاد عن عالمها الروحاني الفسيح ورجعت إلى ما تحن إليه من الحق العتيد. وهذا هو شأن الإنسان الذي عرف قدره ومصدره ومنتهاه فإنه لم يزل الجانب الروحاني منه يحنو إلى مقام الأنس الذي كان فيه قبل خلق الأجساد، فإذا استغل هذا الجانب على الوجه الصحيح لما تعدّى عن الحق أبداً ولذا ترى أن الآية الكريمة التي هي من جلائل الآيات في هذا المجال قد بيّنت أموراً لا غنى عنها للسالك وطالب السير والسلوك والعرفان ولا يمكن الوصول

إلى تلك المرحلة العظيمة إلا بعد إزالة الموانع والحجب عن هذا الطريق[١].

---

(١) ٣٠٨ ـ ٣٤٠، ج (١٢).

معرفة النفس

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(١).

آية عظيمة في معرفة النفس والرجوع إليها وتهذيبها بالأخلاق الفاضلة وتكميلها بالكمالات الحقيقية، فيأمر عزّ وجلّ المؤمنين رحمة بهم بأن يكون شغلهم الشاغل لزوم أنفسهم والنظر فيها ورفع نقائصها، وأن يصرفوا هممهم في التخلية والتحلية ليتجلى لهم الرب فينبئهم بما عملوا ولا يضرهم عمل الغير وضلاله إذا لم يكن قابلاً للهداية فلا يمنعكم ضلالهم إذا كنتم على هداية ولا يوحشكم فقدانهم، وقد بيّن عزّ وجلّ في هذه الآية الكريمة مواقع النفوذ إلى النفس والتسلّط عليها ومن ذلك يعلم وجه الارتباط بما سبقها من الآيات التي بيّنت بعض عيوب النفس والعادات السيئة التي كان عليها أهل الضلال، وهي من الأمثال القرآنية التي تضرب بها الأمثال.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾.

خطاب لأهل الإيمان لما فيهم من الأهلية للتخاطب معهم، وإن لهم القابلية لمراعاة المضمون والالتزام بالمقصود. والمراد بقوله ﴿عَلَيْكُمْ

(١) المائدة، الآية ١٠٥.

﴿أَنفُسَكُمْ﴾ أي الزموها بالصلاح والتزكية واحفظوها من اقتراف المعاصي وارتكاب الآثام.

فعليكم من كلم الإغراء وهو اسم فعل أمر، و﴿أَنفُسَكُمْ﴾ على النصب مفعوله، وقرىء بالرفع فيكون الكلام حينئذ مبتدأ وخبراً أي لازمة عليكم أنفسكم.

قال تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾.

أعظم آية في بيان السلوك الذي يسلكه العارف وينقطع إليه القاصد ويتحرّاه الميطع الواله، ومن المعلوم أن الضلال والاهتداء إنما هما من صفات الطريق المسلوك وربما يتصف بهما السالك بالعناية، فلا بد للإنسان أن يسلك طريقاً فإما طريق الهداية والسعادة والعاقبة الحسنى التي بيَّنها عزّ وجلّ في حكم كتابه الكريم، أو طريق الضلال والغواية والشقاء وبالآخرة سوء العاقبة التي ذكر تعالى خصوصياتها فقد قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[2].

ولا ريب أن من التزم طريق الاهتداء سواء قلنا بأنه الصراط المستقيم الذي ذكره عزّ وجلّ في الفاتحة وأمرنا بطلب الهداية منه وتوفيقنا بسلوكه فتكون طرق الضلال هي السبل المنحرفة التي تتفرّق بنا عن سبيله، أو قلنا بأن الضلال والاهتداء وصفان لطريق واحد، فمن لازم متن الطريق يوصله إلى المقصد والغاية المطلوبة، وإن خرج عن مستواه كان ضلالاً فلا يصل إلى الغاية المنشودة ولا يدرك الكمال والسعادة المطلوبة، فمن لزمه نجا ومن تقدّم أو تأخر ضلّ وغوى.

(١) البلد، الآية ١٠. (٢) الدهر، الآية ٤.

الآية الشريفة تبين أموراً في هذا المجال:

الأول: أنه لا بد من طريق يسلكه الإنسان في حياته العملية وهناك طريقان طريق الهداية وطريق الضلال وكلاهما يرجعان إلى الله تعالى، كما ستعرف. وتأمر المؤمنين بلزوم أنفسهم بحملها على الطاعة والانقياد إلى خالقها والاعتناء بشأنها فلا يضيعوها باقتراف المعاصي والآثام.

الثاني: أنه لا بد من غاية في هذا السفر وهي تختلف بحسب اختلاف أفراد الإنسان والجميع يرغب في ثواب الله وإنما يناله المهتدون السالكون طريق الهداية ويحرم عنه الضالون السالكون طريق الضلال فالكل ينتهي إليه سبحانه وتعالى وعنده الغاية المقصودة إلا أن الطرق مختلفة، فبعضها يوصل الإنسان إلى الفلاح والسعادة، وآخر يضرب عليه الخيبة والحرمان ويوقعه في الشقاء الأبدي والعناء الدائم، وتدل على ذلك آيات كثيرة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾[1]، فإذا كان الجميع سائرين إليه وأن الطرق لا بد أن تنتهي إلى ما عنده ولكن باختلاف الغاية كما عرفت، فلا بد للإنسان أن يسعى في معرفة الطرق الموصلة إلى الغاية المنشودة وتمييزها عن غيرها من الطرق التي لا تنتهي إلا إلى الهلاك والبوار، وأن على المؤمن أن يشتغل بنفسه ويصلحها ولا يهمه ضلال غيره وما هم عليه من المعاصي والآثام فإنه كفى بنفسه شاغلاً، وقد تقدّم في قوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ ما يرشد إلى ذلك فإن العاقل اللبيب إذا رأى كثرة المعاصي واهتمام الناس بالخيانة وهتك الحرمات يزداد ثباتاً في وجه الباطل ولا يشغله ذلك وإن كثر أفراد

(١) الانشقاق، الآية ٦.

عن التمسّك بالحق وإن قلّ طلابه فإن الجميع سيحاسبون وتعطى كل نفس هداها، وقد قال عزّ وجل: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(١).

الثالث: تطمين المؤمنين المشغولين بأنفسهم المشتغلين بإصلاحها وتهذيبها بالوصول إلى الغاية المرضية وأنه لا يصيبهم ضرر من غيرهم الضالين الذين عكفوا على الضلال وارتكاب الآثام والصد عن الحق فلا يتأثروا من ضلال هؤلاء ولا يوجب ذلك صرفهم عن أهم أمر في حياة الإنسان العملية وهو إصلاح النفوس.

الرابع: إن الآية الشريفة تدل بالدلالة الالتزامية على نهي المؤمنين من التأثر من ضلال الضالين المعاندين للحق الصادين لأهله فلا يحملهم ذلك على ترك طريق الهداية فينشغلوا بهم وينسوا أنفسهم وحينئذٍ يصيرون مثلهم ثم يتعذرون بأمور واهية ويتعلّلون بعلل فاسدة، وقد كان لهم في كل زمان أعذاراً، فطوراً كانوا يقولون بما حكى عنهم عزّ وجلّ: ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾(٢)، وطوراً آخر يقولون إن الذي يبغون صار بالياً وأن المدنية الحاضرة لا تساعد على ذلك، وقد قالوا أموراً أخرى جميعها ترجع إلى النكوص عن الحق والابتعاد عنه بوجه من الوجوه مع أن العهد الذي أخذ منهم إنما هو الدعوة إلى الحق بما أراده الله عزّ وجلّ وما ورد في الشرع المبين، وإنما يتحقق ذلك بالطرق المتعارفة العادية التي فيها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجدال الحسن وغير ذلك من الأسباب المتعارفة، وأما تحقق المسببات فلا بد من إيكال أمرها إلى الله تعالى فليس المؤمن مأموراً بأكثر من ذلك ولا يجب

---

(١) البقرة، الآية ١٣٤.

(٢) القصص، الآية ٥٧.

عليه إهلاك نفسه في سبيل إنقاذ غيره، كما قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾[1]، وغير ذلك من الآيات التي تنهي المؤمنين عن إيقاع أنفسهم في الحرج والمشقة والضرر، ومن ذلك يعرف أن هذه الآية الكريمة لا تنافي آيات الدعوة إلى الإيمان والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكيف تكون منافية مع أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله من أهم طرق استكمال النفس ومن شؤون الاشتغال بها؟! أليس ذلك من أحكام هذا الدين ومن أهم أسسه وقواعده وأركانه، وقد قال عزّ وجلّ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾[2]، وقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ بالشروط المطلوبة فيهما، من دون إيقاع النفس في المهلكة والضرر فعند ذلك يسقط عنه هذا التكليف.

الخامس: إن الآية الشريفة تدل على أن نفس المؤمن هي الطريق الذي أمر بسلوكه ولزومه والتحفظ عليها أن تكون في طريق الهداية الذي ينتهي به إلى السعادة والفوز بالفلاح، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[3]، وهذه الآيات المباركة تبين كثيراً من الأمور التي تضمنتها الآية التي نحن بصدد تفسيرها وترفع الإجمال الذي فيها ويستفاد منها أن النفس الإنسانية هي الطريق وقد

---

(١) الكهف، الآية ٦.
(٢) يوسف، الآية ١٠٨.
(٣) الحشر، الآية ٢٠.

اجتمعت في النفس الإنسانية علل متعددة وإن فيها يتحد الدال والمدلول وأن المقصد من هذا المسير الاستكمالي هو الله تعالى ولا بد من المراقبة التامة والتذكّر المستمر لجميع ما له دخل في هذا المسير، فعلى المؤمن أن يكون دائباً على ذكر به ولا ينساه فإنه المقصد والمرجع، كما عرفت فإن نسيان المقصد والغاية يوجب نسيان الطريق فيفقد الأهلية للتزوّد بالزاد الذي يهنأ في حياه الأخرى، ومن ذلك تعرف سر قوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾. ولا ريب أن الاشتغال بالنفس لا يوجب نسيان الآخرين ومساعدتهم ومعونتهم في أعمال البر كما قال عزّ وجلّ: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾(١)، فإن المؤمن يرى أن سعادة الآخرين من سعادته بل هي من صميم الدين الذي أمر المؤمنين بإقامته وهو يعتبر أن الإحسان إلى الآخرين من الإحسان إلى النفس، قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾(٢).

السادس: الآية الشريفة تأمر المؤمنين بلزوم أنفسهم إذا اهتدوا، ومن المعلوم أن الاهتداء هو جعل النفس في المسير الاستكمالي الذي يطلبه الله تعالى ويرتضيه الشرع المبين، وأن عملية الاهتداء لا بد أن تكون مستمرة تامة صادرة من المؤمن الذي على ذكر ومراقبة للنفس كما عرفت وهي تتحقق في الاعتقادات والأعمال القلبية مع الأعمال الجوارحية، وبعبارة أخرى هو تطبق الأعمال الجوانحية والجوارحية على الشرع والسير على ذلك مع المراقبة والذكر، فالنفس هي الطريق والأعمال هي الزاد، والغاية والمقصد هو الله عزّ وجلّ كما تقدم، وهذا الطريق ضروري لا بد من أن يسلكه الإنسان في حياته مطلقاً مع اختلاف الأطوار التي يمر بها

---

(١) المائدة، الآية ٢.
(٢) الإسراء، الآية ٧.

ويشترك في ذلك المؤمن والكافر سواء كان على التفات أو على غفلة وعمى.

والآية الشريفة تنبّه المؤمن على ذلك وإن كان أمراً تكوينياً لا بد منه، ليكون على التفات ومراقبة تامة للنفس لئلا تضل فتخرج عن الهداية وتغفل عن ذكر ربها فتكون من المنسيين فيتزوّد من الزاد الذي ينفعها في يوم الجزاء فلا يكون سعيها خائباً فتكون من الخاسرين.

فهذه الآية الشريفة من هذه الجهة لا تخرج عن تلك الآيات التي تدل على أن غاية الإنسان ومستقر أمره من حيث السعادة والشقاء والفلاح والخيبة إنما تكون حسب الزاد الذي يتزوّد به في هذه الدار وما يقدمه من صالح الأعمال أو طالحها، أو تقوى وفجور كما قال عزّ وجلّ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۞٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۞٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۞٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۞١٢٣ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ۞١٢٤ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۞١٢٥ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾[(٢)]، وغير ذلك من الآيات الواردة في هذا الأمر فهي وإن كانت تبين الجانب الوضعي للأعمال وهو ترتب الجزاء على ما يقدمه الإنسان من أعمال ومعتقدات إلا أنها لا تغفل الجانب التكويني من الإنسان فهي تبيّن أن الإنسان هو المخلوق السويّ الذي لا يخرج عن وضع سائر المخلوقات من أنها واقعة تحت التربية الإلهية وإن الله تعالى هو القيوم عليها يحيطهم بعنايته ويكلؤهم برعايته وتربيته، فهو الرب العظيم المهيمن عليها لا يفوته شيء منها، كما قال تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ

---

(١) الشمس، الآية ١٠.

(٢) طه، الآية ١٢٦.

بِنَاصِيَتِهَآ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[١]، وإن جميعها ترجع إليه، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾[٢].

إلا أنه اختص الإنسان من بين سائر المخلوقات بأن عاقبته ومستقبل أمره إنما يكون تحت اختياره، فإما أن تكون الحسنى أو الخيبة والخسران وذلك بتزكية النفس أو دسّها بعدما ألهمه الله طريق الخير والصلاح وما يوجب الشر والفساد فهو لا يخرج عن هذه الفطرة التكوينية في مسيره ولا يتخطّى عنها، إلا أنه لا بد من التنبّه التام والمراقبة الكاملة للنفس حتى لا تحيد عن الطريق الذي يوصله إلى المقصد العظيم وهو الفلاح الذي يطلبه بفطرته ويجتهد في مسيرته العملية كما عرفت، فهذه الآية الكريمة على إيجازها البليغ تشتمل على حقائق واقعية ومطالب عالية تكفلت بيانها عدة آيات أخرى متفرقة في مواضع أخرى من القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾.

بيان المقصد بعد بيان السالك والمسلوك، وهي حقيقة من الحقائق الواقعية التي لها دخل في الجانب التكويني من الإنسان كما عرفت سابقاً وفي الجانب الوضعي التشريعي منه فإن الإنسان بعدما علم أنه في حياته سائر في مسيرة لا بد من أن يقطعها من أول تكوينه إلى أن ينتهي إلى ربه كما قال عزّ وجلّ: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾[٣]، وهذا الطريق مما لا مناص للإنسان عن سلوكه ويشترك فيه جميع أفراد الإنسان مطلقاً، ولا ريب أن بيان الطريق والسلوك والسالك يكفي في تعيين المقصد والمنتهى إذ أن كل طريق له بداية ونهاية، لكن ذكر المقصد فيه خصوصية خاصة لا يمكن

---

(١) هود، الآية ٥٦.
(٢) الشورى، الآية ٥٣.
(٣) النجم، الآية ٤٢.

دركها في بيان تلك الأمور فإن السالك إذا تنبّه إلى حقيقة موقفه من الله تعالى وأن له ميزة خاصة لم تكن لسائر المخلوقات حصل له حالة خاصة يشعر فيها أنه منقطع عن ما سواه مما يحيط به ويتوجه إلى بارئها المدبر لها المحيط بها إحاطة علمية قيومية وسائرة تحت ربوبيته العظمى على خلقه وإن هذه الإحاطة التامة التي يشعر بها الفرد المؤمن لكفيلة له بأن ينقطع على ربه ويخلو بنفسه ويخلصها مما يشينها عند ربها ويهذبها ويكملها بما يزينها إذا رجعت إلى الله تعالى فلا يغفل عنها لحظة، ولعل هذا هو السر في إتيان المقصد والتوجه إليه بعد قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ﴾، وعندئذٍ يسطع عليها نورٌ من الله بقدر أن يخرج من نالظلمات ليدفع به ظلمات الناس المضلين، وظلمات المعاصي والآثام كما بين عزّ وجلّ في قوله: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[1]، وحينئذٍ يدرك تلك الحقيقة الواقعية وتشعر النفس بحقيقتها وتدرك ما عليه وتهجر كل ما يوجب الظلمات وتهاجر أهل الشرك والكفر وتدخل في مقام العبودية وتستعد لدرك مقام التوحيد وتبعّد عنها ما ينافي الوحدانية وتنتهي إلى تكميل النفس بالكمالات الواقعية وتزيل عنها النقائص بعد أن أشرق عليها النور الرباني وأدركتها العناية الإلهية، وهذه المقامات هي حقائق قد لا يدركها الحس إلا أن النفس تشعر بها بأسبابها الخاصة وكيف يمكن أن تدركها الحواس وقد ركنت إلى المادة وخلدت إلى الأرض وأحبت الدنيا التي هي دار اللعب واللهو فلا يمكن لها أن تدرك إلا الزخارف المادية التي استوعبت جميع مشاعر الإنسان، وقد قال عزّ وجلّ: ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ﴾[2]، لكن الغور في فهم معاني القرآن والغوص في بحر دقائقه

(١) الأنعام، الآية ١٢٢. (٢) النجم، الآية ٣٠.

ورموزه يكشف لنا أن وراء ذلك عالماً فسيحاً جداً لا يمكن الوصول إليه ولأدرك حقائقه إلا بالرجوع إلى النفس ولزوم مراعاتها ودرك حقائقها ودوام مراقبتها وجعلها في المسلك الذي عيّنه الله تعالى والتنبّه التام للمقصد الذي ترد عليه والوقوف عنده فهناك تظهر الحقائق وتتبين آثارها ويتم التصديق بها ولا يمكن التغاضي عنها والرجوع إلى غيرها وعندئذٍ يتبين حقيقة قوله تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ وسر الرجوع إليه عزّ وجلّ.

قال تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وعد ووعيد للفريقين اللذين مرّ ذكرهما في ابتداء الكلام، فهو عزّ وجلّ المرجع الذي يرجع إليه في استخبار حال الفريقين فينبئهم بحالهما من الثواب والعقاب بما كانوا يعملونه في الدنيا من أعمال الهداية والضلال فلا يؤاخذ أحد بعمل غيره عقاباً أو ثواباً.

ومما ذكرنا يظهر أن هذه الآية الكريمة من أعظم الآيات في طريق السير والسلوك وأهمها في بيان أركانه من المسلك والمقصد والغاية والسالك وقلنا تبين الآية اتحاد المسلك والسالك واجتمع العلّة المادية والفاعلية التي هي النفس وإن مضمونها من الحقائق التي لها من العمومية والحيطة التي تشمل جميع الأفراد وتضم جميع الأزمان فلا يختص بزمان دون آخر، فما ذكره جمع كثير من المفسرين في حصر هذه الآية وأن عصرها لم يأت بعد، أو لم يجيء تأويل لها حتى هذا اليوم، أو أن مضمونها من المغيبات التي لا يظهر تأويلها إلا بعد عصر التنزيل. فإن جميع ذلك لا دليل عليه وإنما هو تجريد للآية عن المعنى المقصود وتأويلها بالرأي والله العالم وهو المسدد للصواب.

بحوث المقام

بحث أدبي

ذكرنا أن قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ من كلم الإغراء وله باب معقود في النحو، وأنه من أسماء الأفعال، فإن كان الفعل متعدياً كان اسمه متعدياً، وإن كان لازماً فهو لازم، وفي المقام بمعنى الزم وهو متعدٍ، ولذلك نصب ﴿أَنفُسَكُمْ﴾ على أنه مفعول به.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُم﴾ على الرفع على أنه كلام مستأنف في موضع التعليل ويحتمل الجزم جواباً للأمر، والمعنى إن لزمتم أنفسكم لا يضركم، وضمت الراء اتباعاً لضمة الضاد المنقولة إليها من الراء المدغمة والأصل لا يضرركم.

بحث دلالي

تدل الآية الكريمة على أمور:

الأول: يدل قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ على أن النفس هي محط الكمالات ومحور الملكات أما الفاضلة أو الرديئة الفاسدة كل حسب ما يعمله من الاهتداء والضلال، والوسيلة الوحيدة لتثبيت تلك الملكات إنما هي الأعمال الصادرة من الفرد، فإن وافقت الشرع على هداية واهتداء من صاحبها نفعته وأوصلته إلى المقصد والغاية الحميدة وهي ثواب الله

تعالى، وأما إذا كانت مخالفة لما عليه الشرع وكان صاحبها على ضلال وغواية كانت الغاية هي العقاب وإن كان مقصد الجميع واحداً وهو الله تعالى الذي عنده الجزاء، كما عرفت.

فالآية تحرض المؤمنين إلى الاهتداء والتزوّد بالزاد الحسن للوصول إلى الغاية الحسنى فلا يكون همهم إلا ذلك، فإن تذليل النفس في مقام العبودية وحملها على الطاعة مع كونها نفوراً لا يمكن السيطرة عليها بالسهولة من أقصى الكمالات وأبلغ المجاهدة، فلا ينبغي للمؤمن أن يخاف ممن هو على ضلال وغواية ولا يمكنه أن يضرّ المؤمن بعد أن كان يخاف الله تعالى وحده وكان جميع همه هو الوصول إلى مقام قربه والتنزّه عما يوجب البعد عنه، ولا فرق حينئذٍ بين أن نحمل الخطاب على آحاد المؤمنين وأفرادهم أي جعل الخطاب إفرادياً أو نحمله على الخطاب الجمعي أي مجموع المؤمنين ومجتمعهم بأن يكون المراد إصلاح مجتمع المؤمنين باتخاذ طريق الهداية والاهتداء بهدي الرسالة والاحتفاظ بالأعمال الصالحة والشعائر الإسلامية نظير قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[١]، الشامل للأفراد وللمجتمع لأن صلاح المجتمع بصلاح الأفراد وأن أحدهما مكمل للآخر فكما أن الفرد لا يصح أن يخرج عن الهداية والاهتداء بنور الشرع والتكاليف الآلهية والتعاليم الربانية وإن رأى من أهل الضلال ما يرى من اتباع الشهوات وإضاعة الصلوات كذلك ليس للمجتمع المؤمنين أن يخرجوا عن سبيل الهداية لما يرونه من المجتمعات الضالة التي انهمكت في اتباع الشهوات والتمتع بزخارف الدنيا نظير قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾[٢].

(١) آل عمران، الآية ١٠٣.
(٢) آل عمران، الآية ١٩٧.

ومن ذلك يعرف أن لا وجه لصرف الإطلاق إلى خصوص إحدى الجهتين فإن الخطابات القرآنية لها من الشمولية والإحاطة ما لا يكون في أي خطاب آخر.

الثاني: يستفاد من قوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ إمكانية السيطرة على النفس وتقويمها وإخراجها عن ما يشينها وما يلقيها في المهالك ويوردها المخاطر كما أنه يمكن إخراجها من مرتبة إلى مرتبة أخرى من الكمال.

وهذه الآية الكريمة رد لمن يزعم أن النفس إذا اعتادت على شيء لا يمكن تغييرها لأنها صعبة عنيدة لا تسلس لقائدها، وهذه مزاعم وأعذار واهية. نعم إن النفس إذا شبت على شيء واعتادت على أمر لا يمكن قلعها عنه بسهولة إلا أن ذلك ممكن بمجاهدة خاصة وتوفيق رباني وإلا لبطلت الشرائع ودعوات الإيمان وإرشادات الأولياء، وقد تقدم في بعض المباحث السابقة بعض الكلام.

الثالث: يدل قوله تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ﴾ على تبديل إيمانهم وعقائدهم أو مجتمعهم إلى غير الحق.. وأن أضرارهم منفية عن المؤمنين فهم في أمن من أضرار الأفراد والمجتمعات الضالة فلا يفزعوا مما هم عليه من كثرة الأموال والأفراد والعدّة والعدد، كما قال تعالى ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾[(١)].

وقد وعدهم الله تعالى النصرة والغلبة فليس بواجب على المؤمنين الجد في إيمان هؤلاء وإيقاع أنفسهم في المشقة والحرج زيادة على ما هو متعارف في الدعوة، فإن القلّة المؤمنة العارفة المشغولة بإصلاح أنفسها

(١) آل عمران، الآية ١١١.

خير من الكثرة التي لا هم لها إلا التمتّع بالحياة الفانية، فإن العبرة بالقلوب النبهة العارفة الزاكية لا الأبدان الضخمة البالية.

الرابع: يدل قوله تعالى: ﴿إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ﴾ على أن شرط إصلاح النفس والأمن من أضرار المضلين هو الاهتداء ولا ريب أنه الدخول في الهداية والإصرار على البقاء عليها والمداومة على تحقيق شروطها وإتيان الأعمال المفروضة، ولا يتم الاهتداء إلا بعد إتمام الحجّة وبيان التكاليف، قال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ﴾[1]، فالاهتداء اعتقاد بالجنان وعمل بالأركان واستقامة عليها.

الخامس: يدل قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾، على أن الضمان لعمل المؤمنين المهتدين هو الرجوع إلى الله عزّ وجلّ الذي عنده الجزاء فيثيب المهتدين المطيعين ويعاقب العاصين الضالين فيكون مزيداً لهمة المهتدين وتنبيهاً للضالين.

ويستفاد من قوله تعالى: ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾ أن الجميع على علم بالرجوع والعود إليه بعد ما كان البدء منه أيضاً، فإن الإنسان إذا كان على علم من هذا الأمر وأنه محاط بالمبدأ والمعاد ولا يمكنه الخروج عن الطريق الذي يكون مبدأ منه عزّ وجلّ ومعاده إليه تعالى يكون ذلك أدعى إلى اليقظة والتنبّه التام لئلا يخرج عن ذلك الطريق فلا يسعه التخطي عن ذلك ولو بخطوة، بخلاف من غفل عن ذلك ونسي الواقع الذي لا مفر منه والمرجع الذي لا بد من الرجوع إليه فيغفل عن نفسه لا محالة ويقع في الضلال والغواية فلا يكون حينئذ إلا الخسران كما عرفت في التفسير[2].

---

(١) يونس، الآية ١٠٨.

(٢) م ـ ن، ٥٢٣ ـ ٥٣٨، ج (١٢).

آداب الدعاء

الأدب المبحوث عنه في كتب الأخلاق وما ورد فيه في كتب الدعاء إنما هيئة حسنة، والصفة الخاصة التي يتلبس بها الداعي أو الشخص لملاقات شخص عظيم بلا فرق بين أن تكون في المنظر أو اللباس أو الأفعال والأقوال فتختص بما إذا كان الفعل محبوباً في حد نفسه فلا تشمل الممنوعات شرعاً وتشمل جميع الأفعال الاختيارية الحسنة وهذا مما اتفق عليه العقلاء وإن اختلفت المجتمعات في مصاديقها فالأدب محبوب بذاته تدعو إليه الفطرة ويتعاملها العقلاء ويستحسنونه مطلقاً واختلافهم في المصاديق والأفراد لا يضر بأصل حسنه بحيث يكون أدب كل مجتمع حاكياً عما عليه من العادات والتقاليد والأخلاق. إلا إن في الإسلام آداباً خاصة تنبىء عن حقائق متأصلة وهي عامة تشمل جميع مظاهر الحياة وتدل على كمال الإسلام ورقيّه عن جميع ما يكون مبتذلاً، ولما كانت دعوة الإسلام إلى التوحيد وتطبيقه في الاعتقاد والعمل به في جميع وجوه الحياة الدنيوية فكان الأدب في الإسلام موظفاً في هذا السبيل بحيث يرجع العبد في تطبيقه للأدب إلى جعل نفسه عبداً خاضعاً لله تعالى تظهر سمات العبودية على جميع جهات وجوده وأطواره ظاهراً وباطناً فكل من اشتد تأدّبه مع الله تعالى كانت سمات العبودية عليه أظهر ولا ريب أن الأنبياء والأولياء والصالحين من عباده لهم الحظ الأوفر وهم الأساس المتين في العبودية فيكون أدبهم مع الله تعالى أشد وأظهر وأعمق ولذا صاروا مربّين

ومعلمين لأممهم بهم يتقدى في عنوان العبودية ومظاهرها ويتعلم منها سمات الأدب لأنهم علّموا وعملوا بما علّموه فصاروا مظاهر قدوة لغيرهم وتأثرت نفوسهم القدسية فصاروا مظاهر العبودية لخالقهم وتهذبت بالتعاليم الربانية واشتغلوا بالطاعة لبارئهم فتأثرت النفوس المستعدة بهم فكانوا مربين حقيقيين وانقادت النفوس إليهم ومن المستحيل أن ينقاد شخص لآخر في العظة والنصيحة، والواعظ لم يعمل بما يعظ به غيره وهذا أمر فطري مركوز في النفوس لقد أرشد إلى هذه الفطرة قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾(١).

وقد أكد الإسلام على العمل ولم يكتف بالقوانين العامة والكليات العقلية ما لم تنطبق على المجالات العملية ولذا كان المربي في الإسلام قدوة حسنة في العلم والعمل وفيه شروط معينة لا يمكن أن يكون مربياً ما لم يكن متصفاً بما يصفه للمتعلم ومتلبساً بما يريد أن يخلعه على غيره.

ويمكن تقسيم الأدب إلى أقسام متعددة كالأدب العملي المنطبق على العمل والأدب القولي الذي يتحقق في القول الذي يحكي طبيعة نفس المتكلم ويدور فيها من كفر أو نفاق أو إيمان فإن في الكلام الصادر من كل متكلم جهتين متميزتين الدلالة الوضعية التي تلازم جهة الصلاح غالباً، والدلالات الالتزامية التي تدل على ما يكمن في النفس من الصفات ولا يمكن أن يعرفها إلا من كان على بصيرة من الأمر، وقد قال تعالى في وصف المنافقين ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِۚ﴾(٢)، وإذ تتبعنا كلامه عزّ وجلّ في ما يحكى عن حالات الأنبياء والمرسلين عليهم السلام يتنضح ما يتجلى فيها

---

(١) يونس، الآية ٣٥.
(٢) محمد، الآية ٣٠.

من غاية الأدب الإلهي في جميع حالاتهم مع الله تعالى أو مع الخلق وهي شواهد صدق على حسن تأدّبهم وإن بنفسها تعليماً عملياً لغيرهم ممن يريد الأسوة الحسنة وقد قال تعالى في حق أنبيائه الكرام ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾[1]، ولا ريب أن الهداية المأمور بالاقتداء إنما هي الهداية إلى التوحيد ونبذ الشرك وقد ذكرنا أنه لا بد من أن تظهر في الأعمال والأقوال والاعتقاد وتكون حاكية عن الاعتقاد الخالص الذي يتجسم في العمل فكان كل واحد منهما حاكياً ومرآة للتوحيد التام.

ومن هنا ترى أنهم في أدبهم العام في حياتهم العملية أنهم على خضوع وخشوع لله عزّ وجلّ فتراهم سجداً وبكيّاً ولا شبهة أنهما من أقوى مظاهر التوحيد واستيلاء صفة العبودية على جميع مشاعرهم ونفوسهم القدسية فلا يفترق عندهم الحال بين الخلوة مع الله العزيز المتعال أو مع خلقه، فهم في جميع الأحوال على أدب إلهي مع الله ومع الناس جميعاً وجميع أطوارهم على نهج واحد، وهذا الأدب إن كان انفرادياً لكل رسول ونبي ولكنهم لم يخرجوا عن المجتمع فهم من أفراده ولهم أدب خاص وهم المسمى بالأدب الاجتماعي وقد جمعهما الله تعالى في آيات متعددة في القرآن الكريم. قال عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾[2]، فقد أمرهم عزّ وجلّ بالأكل من الطيّبات والتصرف فيها والتنزّه عن الخبائث التي تتنفر منها الطباع وإتيان العمل الصالح الذي يجعل الإنسان من الصالحين وما ينبغي أن يكون صالحاً لأن يقدمه إلى رب العزّة والجلال، وهذا الأدب مما يتعلق بالأفراد منهم(صلوات الله عليهم أجمعين).

---

(١) الأنعام، الآية ٩٠.

(٢) المؤمنون، الآية ٥٢.

وأما الأدب الذي يتعلق بالناس بينهم بأن يكونوا أمة واحدة لا اختلاف فيها بلا فرق بين الرسول والمرسل إليهم وأن يجتمعوا على عبادة الرب ويتفقوا على كلمة التقوى وبذلك ينقطع دابر الفرقة والاختلاف بينهم فيتحقق مجتمع توحيدي لا اختلاف بين أفراده الذين اتفقوا على عبادة الله الواحد الأحد وقد سرى الأدب الإلهي بين الأفراد في جميع أحوالهم وأطوارهم فلا تتعدّى السعادة عنهم حينئذٍ أبداً، والآيات في ذلك كثيرة.

وأما أدب الدعاء الذي امتاز الأنبياء والمرسلون به فقد بلغ أعلى مراتبه وأقصى درجات العبودية والخلوص والإخلاص فيه، وقد حكى عزّ وجلّ جملة منها في كتابه الكريم ولا نريد أن ندخل في تفاصيل أدب كل رسول كما حكاه عزّ وجلّ في كتابه الكريم وما ورد في السنّة الشريفة، إلا أننا نذكر ما يتعلق بعيسى ابن مريم عليه السلام وحالاته مع الرب العظيم وقد تجلّى فيه الأدب الإلهي على مظاهر وجوده الشريف، وندع غيره في المواضع المناسبة إن شاء الله تعالى.

فالآيات الكريمة التي وردت في هذه السورة المباركة قد بيّنت كثيراً من الوجوه من حياته الشريفة والانقطاعية مع الله عزّ وجلّ وما تضمنته أفعاله وأقواله من الأدب الجليل العميق الظاهر عليه سمات العبودية المحضة الدالة على غاية الخضوع والخشوع إلى الله المتعال وحسن تأدبه معه وقد تقدّم في قصة المائدة إذ قال عزّ وجلّ حكاية عنه: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

فإنه عليه السلام استعمل في كلامه ما يدل على غاية خضوعه وخشوعه لخالقه العظيم بعد مواجهته لسؤال الحواريين عنه في نزول المائدة وما تضمن سؤالهم من الجفاء بظاهره وما لا يوافق الأدب العبودي وإن كان

اصل قصدهم معروفاً عنده، مضافاً إلى أن طلبهم كان اقتراحاً منهم لآية جديدة مع آياته الكثيرة الباهرة الواضحة التي استوعبت أغلب مجالات حياتهم المادية وأحاطت بهم من كل جهة وقد عدّدها عزّ وجلّ قبل قصة المائدة تسجيلاً عليهم لإتمام الحجّة عليهم ورفع كل ريب وشك فكان اختيارهم لآية جديدة يعود نفعها لأنفسهم يشبه اللعب بالآيات وهم منزهون عنه كما قال عليه السلام عند الاستخبار عن نواياهم ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فأظهروا منوياتهم فاستجاب لطلبهم ودعا الله تعالى بدعاء ذي أدب رفيع وأدرج فيه اقتراحهم بما يناسب مقام العظمة والكبرياء ونحن نذكر السمات المشتركة في أدب الأنبياء أولاً ثم نذكر الأدب الخاص به عليه السلام من جميع الآيات الواردة في شأنه.

الأول: إظهار العبودية المحضّة الشاملة لجميع مظاهر وجودهم المبارك قال تعالى حكاية عنه: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾، ومن لوازم مثل هذه العبودية السمع والطاعة فقالوا ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ لا كغيرهم إذ قالوا ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾.

الثاني: إبطال شأنهم مقابل معدن الكبرياء والعظمة فقال: ﴿مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ فقد عرفت أنه لم يجعل لنفسه مرتبة حتى ينفي القول عن نفسه بل نفاه بنفي لازمه وهذا من الأدب العبودي المتصف به هو وسائر الأنبياء العظام، ومن لوازم هذا النوع أن الأنبياء كلهم لم يتمنوا على الله بإيمانهم وطاعتهم شيئاً بل كانت طاعتهم عبادتهم عبادة الأحرار كما وصفها أمير المؤمنين عليه السلام بأنه «وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك» وفي الآيات الكريمة ما فيه الإشارة إلى ذلك فقال حكاية عنهم ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا﴾ بخلاف غيرهم فإن عبادتهم تختلف وقد حكى عزّ وجلّ عن اليهود حيث قالوا ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾.

الثالث: تنزيه ساحة الكبرياء والعظمة عن كل ما يتوهم النقص فيه كما قال عيسى عليه السلام: «سبحانك ربنا».

الرابع: اشتمال كلامهم على منتهى الثناء والابتهال بأبلغ بيان وأحسن وجه كما عرفت في آخر آيات هذه السورة وغيرها، وقال تعالى حكاية عن داود وسليمان عليهما السلام: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[(١)].

الخامس: تصدير دعواتهم المباركة بكلمة الرب كما قال عيسى عليه السلام: «اللهم ربنا أنزل علينا مائدة» الدال على حضوره عزّ وجلّ ومراعاة خلقه وتربيتهم لهم كما في دعوات إبراهيم المباركة ﴿رب إني أسكنت﴾ وكذا غيره من الأنبياء والمرسلين.

السادس: إن جميع أحوالهم وألفاظهم تشتمل على ما يوافق آداب الحضور فكأن كل واحد منهم حاضر لدى جنابه عزّ وجلّ كما ذكرنا في قوله: ﴿وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

السابع: اشتمال دعواته المباركة على ما يرجع إلى الصالح العام، قال عليه السلام: «إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم» وقد عرفت أنه كان هذا الدعاء منه بأسلوب إيكال الأمر إليه عزّ وجلّ حتى لا يدخل في ضمن الدعاء للكافرين المرغوب عنه واستعمل من الأسماء العظام بما يناسب المقام وهم قد ألهموا علم الأسماء فيعلمون كيف يستعملون أسمائه المقدسة التي لها آثار خاصة، وقد قال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: «رب ارزق أهله من الثمرات» وقال أيضاً:

---

(١) النمل، الآية ١٥.

«رب اغفر لي ولوالدي ولجميع المؤمنين»، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، وفي دعوات نبيّنا الأعظم ﷺ ما يبهر العقول.

الثامن: إنهم إذا أرادوا حاجة لأنفسهم أشركوا معهم غيرهم ليعم النفع وقد عرفت دعاء إبراهيم عليه السلام: «رب اغفر لي لوالدي ولجميع المؤمنين»، وفي دعاء عيسى عليه السلام: «وارزقنا وأنت خير الرازقين».

التاسع: أنهم إذا أرادوا من الله شيئاً بما يرجع على أممهم عند المخالفة الإمساك عن طاعتهم فلم يبق بعد الجهد الأكيد في التبليغ أن يرجعوا إلى الله تعالى بعد إتمام الحجّة عليهم ونفاذ كل الوسائل في هدايتهم لم يستعملوا الألفاظ الصريحة بل هم يكنون في دعواتهم فقد حكى عزّ وجلّ عن موسى بن عمران عندما أمر قومه بالدخول إلى القرية ﴿إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُواْ فِيهَا﴾، فقال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ فقد كنى عن الإمساك عن أمرهم وتبليغهم ما أمره ربهم مرة أخرى بعد تلك المواجهة العنيفة منهم، ومن ذلك أيضاً دعاء شعيب على قومه إذ قال: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾[1]، فإنه استنجاز منه للوعد الإلهي بعد اليأس من نجاحه دعوته فيهم، نعم ورد في قصة نوح عليه السلام التصريح بطلب العذاب لكنه بيّن السبب في ذلك، فكان من أدب دعائهم بالشر أن تذكر الأمور التي يبعث إلى الدعاء بالكناية بخلاف الدعاء بالخير فإن التصريح بالأسباب ادعى في المطلوب كما في دعاء موسى عليه السلام حيث قال تعالى حكاية عنه: ﴿لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ عند دعائه على فرعون ولم يأت بتفاصيل أخرى بخلاف الدعاء في طلب الخير

(١) الأعراف، الآية ٨٩.

فقد حكى عزّ وجلّ دعاء عيسى في نزول المائدة التي ذكر فيها التفاصيل فراجع.

العاشر: إنهم كانوا يراعون منتهى الأدب مع قومهم وهو يرجع إلى التبليغ العملي الذي يضاهي التبليغ القولي، وفي القرآن الكريم الشيء الكثير.

قال تعالى حكاية عن نوح في المحاورة التي جرت بينه وبين قومه: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[١]، فهي محاورة عجيبة تعج بالأدب الجميل والثناء والتبليغ مع الله تعالى والأدب اللطيف الذي يقبله مع طغاة قومه، ولذا كان نوح عليه السلام أول الأنبياء الذي فتح باب الاحتجاج في الدعوة إلى التوحيد ويعثر المتمعّن في محاوراتهم على لطائف دقيقة.

ومن فروع هذا الأدب الرفيع أنهم لم يستعملوا في كلماتهم وأقوالهم ما يسوء المخاطبين وإن كانوا من العتاة والجهلة والجبابرة ولم يخاطبوهم بكلمات نابية تدل على الإهانة والازدراء والشتم، وقد نال منهم المخالفون بشتى أنواع السب والشتم والاستهزاء والسخرية ولكنهم لم يجابهوهم إلا بالتي هي أحسن، قال تعالى حكاية عن عاد قوم هود ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ﴾[٢]، وقال تعالى حكاية عن فرعون: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا

---

(١) هود، الآية ٣٤.
(٢) هود، الآية ٥٥.

رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1]، وقال تعالى حكاية عن قوم خاتم الأنبياء: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾[2]، وغير ذلك من الآيات التي تحكي عن الأمم في محاوراتهم ومحاججتهم مع أنبيائهم المشتملة على أنواع الإهانة والشتم. وكان من أدبهم أنهم ينزلون أنفسهم منزلة آحاد الناس يكلمون كل طبقة منهم على قدر معرفة ومنزلته من الفهم وقد قال ﷺ: «إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم»، ومن أدبهم أنهم كانوا يتحملون أنواع الأذى في سبيل هداية الخلق وإرشادهم إلى الحق فليس لهم هم إلا التبليغ والإرشاد فهم تلبسوا بالحق وتنزهوا عن الباطل بكل أنحائه ولأجل ذلك أنهم كانوا متصفين بصراحة القول وصدق اللهجة وإن كان في بعض الموارد لا يقتضي ذلك كما هو الحال في المجتمعات غير الدينية التي تتبع سنة المداهنة والتساهل والأدب الكاذب ولهذا الأدب الاجتماعي وجوه مختلفة تجلت في معاشرتهم مع الناس بجميع طبقاتهم الفقير والغني والحاكم والمحكوم والعبد والمولى، والرجل والمرأة والصغير والكبير فقد كانوا مثالاً للحق بكل معنى الكلمة هذا بالنسبة إلى أدب الأنبياء الذين تأدبوا بالأدب الإلهي بجميع أنحائه وأطواره[3].

* * *

(١) الشعراء، الآية ٢٨.

(٢) الفرقان، الآية ٩.

(٣) م ـ ن، ٦٨٤ ـ ٦٩٢، ج (١٢).

الفهرس

مقدمة ٥

الأخلاق في القرآن ٧

بحث أخلاقي ١١

المذاهب الأخلاقية ١١

الاتجاه العقلي ١٢

الاتجاه المادي ١٣

الاتجاه الصوفي ١٤

المفهوم الأخلاقي في القرآن ١٤

خصائص الأخلاق في القرآن ١٦

الإنسان كائن أخلاقي ١٩

الاعتدال في الأخلاق ٢٠

طرق اكتساب الأخلاق الفاضلة ٢٣

صفات المنافقين في القرآن ٢٧

بحث روائي ٣٩

أسباب النفاق ٤٠

الهداية في القرآن ٤٢

التزكية ٦١

أقسام الشكر ٧٢
بحوث المقام ٧٥
بحث دلالي ٧٥
بحث روائي ٧٧
مراتب الذكر ٨٢
أهمية التربية ٨٤
أقسام الحياة ٩٢
مفهوم القصاص في الإسلام ١٠١
التفسير ١٠١
بحوث المقام ١١١
بحث أدبي ١١١
بحث فقهي ١١٣
بحث روائي ١١٤
بحث علمي ١١٥
الإيمان والكمال الإنساني ١٢١
بحوث المقام ١٢٦
بحث أدبي ١٢٦
بحث فلسفي ١٢٧
بحث روائي ١٢٨
بحث فقهي ١٣٠
بحث عرفاني ١٣١
الخمر والميسر من الآفات الأخلاقية ١٣٣
في الرجاء ١٣٩

الإسلام ـ السلم ـ السلامة ١٤٧
الدعاء في القرآن ١٦٤
بحوث المقام ١٧١
بحث أدبي ١٧١
بحث دلالي ١٧٢
بحث روائي ١٧٥
بحث علمي ١٧٧
فضل الدعاء ١٧٨
حقيقة الدعاء ١٨١
ما أُورد على الدعاء ١٨٣
الدعاء ارتباط روحي ١٨٧
شروط الدعاء ١٨٩
شروط الكمال للدعاء ١٩٤
مراتب السلوك ٢٠١
العفو والمغفرة ٢٠٣
التفسير ٢٠٤
بحوث المقام ٢١٨
بحث دلالي ٢١٨
بحث روائي ٢٢٠
الإصرار على الذنب ٢٢٤
العفو والمغفرة ٢٢٦
التوكّل في القرآن والسُنّة ٢٢٨
بحوث المقام ٢٣٤

بحث أدبي ٢٣٤
بحث دلالي ٢٣٥
بحث روائي ٢٣٨
مقام التوكل ٢٣٩
فضل التوكّل ٢٣٩
التوكّل في الكتاب الكريم ٢٣٩
التوكّل في السنّة الشريفة ٢٤٢
معنى التوكّل ٢٤٤
حقيقة التوكّل ٢٤٦
شروط التوكّل ٢٥٠
درجات التوكّل ٢٥٢
آثار التوكّل ٢٥٥
الذنوب الكبيرة ٢٥٧
التفسير ٢٥٧
بحوث المقام ٢٦٥
بحث دلالي ٢٦٥
بحث روائي ٢٦٧
ما ورد في تحديد الكبيرة ٢٦٨
ما ورد في أعداد الكبائر ٢٧٠
ما ورد في شمول الشفاعة لأهل الكبائر ٢٧٨
ما ورد في تحريم الإصرار على الصغيرة ٢٨٠
الكبائر والصغائر ٢٨٢
موجبات الكبائر ٢٨٨

طرق تمييز الكبيرة ٢٨٩
موجبات محو الذنوب ٢٩١
بحث فقهي في المقام ٢٩٣
بحث عرفاني في المقام ٢٩٣
الورع وأقسامه ٢٩٤
مراتب الطاعة ٢٩٨
المعروف ٣٠١
أقسام المعروف ٣٠٢
آثار المعروف ٣٠٢
عوائق المعروف ٣٠٣
الإخلاص ٣٠٥
حقيقة الإخلاص ٣٠٦
درجات الإخلاص ٣٠٦
منافيات الإخلاص ٣٠٧
الفرق بين الرضا والإخلاص ٣٠٩
الأمراض الروحية ٣١٠
أحكام اجتماعية أخلاقية ٣١٤
مكارم أخلاق المؤمن ٣١٦
حب الشهوات الدنية ٣٢١
التفسير ٣٢٢
بحوث المقام ٣٤٠
بحث دلالي ٣٤٠
بحث روائي ٣٤٥

الغرور	٣٤٨
البر والإنفاق في القرآن	٣٥٠
التفسير	٣٥١
بحوث المقام	٣٦٠
بحث أدبي	٣٦٠
بحث دلالي	٣٦٠
بحث روائي	٣٦٣
أفضل البرّ	٣٦٥
كمال النفس البشرية	٣٦٦
التفسير	٣٦٧
بحوث المقام	٣٨٨
بحث أدبي	٣٨٨
بحث دلالي	٣٨٩
الخصال الحميدة	٣٩٤
التفسير	٣٩٥
المنهج الأخلاقي في الإسلام	٤٠٩
بحث دلالي	٤٠٩
بحث روائي	٤١١
التوبة في القرآن	٤١٥
بحوث المقام	٤٢٦
بحث دلالي	٤٢٦
بحث روائي	٤٣١
محبوبية التوبة	٤٣٣

الصلاة وتزكية النفس ٤٣٥
التقوى وتهذيب النفس ٤٣٩
بحث روائي ٤٤١
بحث عرفاني ٤٤٣
الغيبـة ٤٤٦
الزهد في الدنيا والإعراض عن الشهوات ٤٥٠
بحوث المقام ٤٦٢
بحث أدبي ٤٦٢
بحث دلالي ٤٦٥
بحث روائي ٤٦٩
بحث عرفاني ٤٧٨
معرفة النفس ٤٨١
بحوث المقام ٤٩١
بحث أدبي ٤٩١
بحث دلالي ٤٩١
آداب الدعاء ٤٩٥